جرجي زيدان

تاريخ التمدن الإسلامي

الجزء الأول

Marfat.com

تاريخ التمدن الإسلامي

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

الجزء الأول

يبحث فى نشوء الدولة الاسلامية وسعة مملكتها واحصائها وتاريخ مصالحهـــا الادارية والســـياسية والماليـــة والعسكرية وغيرها

طبعة جديدة راجعها وعلق عليها

الدكتور حسين مؤنس

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بجامعة القاهرة

دار الهـــلال

Marfat.com

134963

Marfat.com

تقـــديم

فرغ جرجى زيدان من الجزء الاول من هذا الـكتاب ســنة ١٩١٠ ، أى بعد عامين من انشاء الجامعة المصرية القــديمة ، وكانت مؤسسة أهلية حفز على انشائها نزوع الشعب المصرى نحو العلم والمعرفــة . وكانت السنوات التى انقضت بين ميلاد القرن العشرين وقيام الحرب العالمية الاولى فى سنة ١٩١٤ فترة خصبة ذات أثر حاسم فى تاريخ الفكر المصرى الحديث ، فقــد تخلص فى سهولة وسرعة تدعوان الى العجب ، من أسار المـــاضى وقيوده ، واحتفظ فى نفس الوقت بلباب الحضارة المصرية وجوهر الفكر الاسلامى ، ونجا كذلك من الانحرافات التى يتعرض لهــا الفكر المحلى عنـــدما يواجه تيارات حضارية فــكرية جارفة ، كما كان الحال مع تيــارات الفكر الغربى التى اجتاحت العالم كله آنذاك ، ونهج لنفسه نهجا وسطا حرا تجتمع فيــه الآراء كلها دون شطط فى الجدل أو لدد فى الخصومة ، كما يحدث عادة عندما تتلاقى تيارات فــكرية مختلفة بل متعارضـــة ، فمضى السلفيون يدبجون وينشئون ، ومضى المجددون يقرأون ويفكرون ويكتبون ، وساد أولئـــك المجددين حماس شديد للاطلاع ونهم الى المعرفــة ، بل ان من يقرأ ما كانوا ينشرونه اذ ذاك على صفحات «المقتطف» و«الهلال» و«البيان» من مقالات وبحوث ليحس انهم كانوا فى سباق : كل منهم يريد أن يحمل الى قرائه أقصى ما يستطيع من مادة فكرية نافعة . وكان شيوخ الفكر المصرى اليوم اذ ذاك شبابا متطلعا طموحا يتعلم اللغات دون معلم ، ويتطلع الى العالم الجديد ويتصوره تصورا سليما دون رحلة ، ويدلج فى مهامه الـكتب القديمة دون مرشد ، ويتصــل بمفكرى الغرب ويساجلهم ويحاورهم عن تمكن واصـــالة ، ويوفق فى ذلك كله توفيقا يدعو الى الاعجاب . وبفضــل هــذا الصبر الدءوب وضع ذلك الجيل المبارك أساسا سليما للحركة الفكرية المعـــاصرة فى مصر والعـــالم العربى كله

وجرجى زيدان من أعلام هذه المدرسة المكافحة فى سبيل العلم والمعــرفة . ولد فى بيروت فى ١٤ ديسمبر ١٨٦١ ، وفى الثانية والعشرين من عمــره أخذ طريقه الى مصر مقتفيا آثار سلسلة طويلة من أعلام المــدرسة الفكرية التى أزهرت فى ربوع الشام ــ ولم يكن قد تقسم بعد على الحال التى نراه عليها اليوم ــ خلال النصف الثـــانى من القرن التاسع عشر . واستقر فى القاهرة

Marfat.com

حاملا معه ثروة من التجارب احتشدت فى سنوات عمره القليلة على نحو لانجد له مثالا الا فى الاقاصيص ، فهذا شاب خرج الى الدنيا على شىء ، وأراد هو أن يكون شيئا آخر . وجدنفسه وهو فى السابعة من عمره يشقى من البكور الى منتصف الليل ليعين أباه فى تحصيل رزق قليل ، وتنقضى السنون وهو أبعد مايكون عن عالم الفكر والعلم ، ولكن وجدانه يهيم فى وادى الكتب وآفاق المعرفة ، واذا به يشق طريقه الى بحر المعرفة شقا لايتسع المقام لبسطه فى هذه السطور ، ولقد حكى هو بنفسه قصة ذلك التحول فى مذكراته وقص علينا فى بساطة وصراحة كيف وجد طريقه ، وكيف ثبت قدميه فى ذلك الطريق بكفاح صبور يروع النفس ، وأنا أشير الى ذلك هنا لان قصة كفاحه تلك ، هى أحسن تفسير لما نجد فى مؤلفاته من التبحر والاحاطة وصدق الملاحظة وعمق النظرات ، فما كان هذا كله ليتأتى لرجل ، الا اذا كانت حياته قد أذكت فى كيانه فحولة كفيلة بالوصول بصاحبها الى ما لا يصل اليه من لم يعرف مغالبة الظروف ومطاولة الايام

استقر جرجى زيدان فى القاهرة فى أكتوبر سنة ١٨٨٣ ، واتخذ مصر له وطنا من ذلك التاريخ ، وكان قد قرأ فى العربية قراءات طويلة عميقة فى الكتب العربية ، وملك ناصية اللغة الانجليزية بعد سنوات من الدرس الصبور ، وبهذه الادوات أخذ يهيىء لنفسه مكانا فى عالم الترجمة والتأليف والصحافة فى مصر ، وانقضت سنوات وهو يؤلف ويترجم ويكتب ، واستهوته الصحافة الادبية فعمل فى المقتطف ، ثم انشأ مجلة الهلال فى عام ١٨٩١ ، وأخذ ينشر فيه مقالاته وبحوثه ، واستهواه التاريخ ، وتاريخ الادب فمضى يؤلف فيهما

وقد أخرج جرجى زيدان الجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامى سنة ١٩١٠ ، بعد أن مهد لذلك الكتاب تمهيدا طويلا ، فقد أخرج قبل ذلك «روايات تاريخ الاسلام » لكى « يهيىء أذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومدارسهم لمطالعة هذا التاريخ بما نشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعا فى « الهلال » ، لان مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء وخصوصا فى بلادنا ، والعلم لايزال عندنا فى دور الطفولة . فلابد لنا من الاحتيال فى نشر العلم بيننا بما يرغب الناس فى القراءة ، والروايات أفضل وسيلة لهذه الغاية » كما قال فى مقدمة الكتاب ، ولا شك أنه قرأ كثيرا جدا لكى يكتب هذه القصص التاريخية التى لم يدانه فيها أحد من كتاب العربية ، فكأنه كان يعد نفسه لدخول ميدان تاريخ الحضارات بتلك القراءات المتطاولة ، وكان قد عانى فى أثناء ذلك كتابة التاريخ ، فأخرج فى

Marfat.com

سنتى ١٨٨٨ و ١٨٨٩ « تاريخ مصر الحـــديث » فى مجلدين ، و « تاريخ الماسونية » و « التاريخ العام » وهو موجز فى تاريخ قارتى آسيا وافريقية.

وعلى الرغم من أن دراسة الادب قد اســـتهوته فى مطالع حيـــاته الادبية والعلمية ، حتى أن أول كتاب ألفه كان فى فقه اللغة العربيـــة ، فان التاريخ أخذ يجتذبه رويدا رويدا . ولقـــد عبر المرحلة من الادب الى التاريخ وهو يؤلف روايات تاريخ الاســـلام ، ولو أننا تتبعنـــاها بحسب تواريخ تأليفها للاحظنا كيف أن الخيال القصصى فى البواكير منها أغلب ، والبحث التاريخى فى الاخريات أظهر

ومنذ أن انشأ مجلة الهلال سنة ١٨٩١ تجلى اتجاهه نحو التاريخ ، حتى أن اهتمامه بالادب تحول الى اهتمامه بتـــاريخ الادب ، ولو أننـــا تصفحنا السنوات الاولى من « الهـــلال » لوجـــدنا معظم كتـــابات جرجى زيدان دراسات وابحاثا تاريخية ، ولعل أظهر مثال لذلك سلسلة مشاهير الشرق ، وهى تراجم بارعة تذكرنا بتراجم ابن خلـكان

وقد تهيب جرجى زيدان التأريخ للحضارة الاســـلامية ، ووصف شعوره هذا فى مقدمة الطبعة الاولى للجزء الاول من تاريخ التمدن الاسلامى ، وكان محقا فى ذلك التهيب ، فان الميدان كان مجهولا على أيامه ، بل كان فن التأريخ للحضارات جملة فنا جديدا فى طور التكون فى العالم كله اذ ذاك

ولم يكن التاريخ قد أصبح اذ ذاك علما محدد المعالم كما هو الحال فى أيامنا ، بل كان فى الغـــالب لونا من الفلسفة .. كانت مذاهب تفســـير التـــاريخ فى عنفوانهـــا ، وكان المؤرخون منقسمين الى هيجليين وهيجليين محـــدثين وماركسيين وابتداعيين (رومانتيين) وداروينيين ، وتعددت المذاهب وكثرت الاسماء ، فلا نجد بلدا غربيا واحدا الا حفل بعشرات من المؤرخين المفكرين ، الذين خلفوا من الـكتب مالم تتضاءل قيمته الى اليوم وان تقادم العهد بما فيها من معلومات ، فقد كان هذا عصر ليوبولد رانكه وسانت بيف ودرويسن وماكولى وفينلى وتيكنور وتريتشكه ومومسن ودى توكفيل وفوستل دى كولانج وميتلاندوتين وبرونتيير ورينان وبوركهارت ، وغيرهم ممن لا يحصون كثرة ..

كان هذا دون شك هو العصر الذهبى للتاريخ كفن ، وكان التاريخ كعلم ومنهج يأخذ طريقه رويدا نحو الثبات ، وكان المثقفون فى العالم كله يتجهون نحو التاريخ ، حتى الشعراء مثل شيلر ، والـكتاب مثل كارلايل ، أصبحوا أميل الى المؤرخين منهم الى أهل الشعر والادب ، وهذا هو الذى يفسر لنـــا تحول جرجى زيدان من الادب الى التاريخ ، ويفسر لنـــا ايضا كيف أصبح

مؤرخا ثابت القدم ، فقد كانت كتب التاريخ أحسن ماتخرجه المطابع فى ذلك العصر ، وكان الرجل شديدالنهم الى القراءة والاطلاع ، فنهل من هذه المناهل وروى عن سعة ، وسار فى ركب المؤرخين فلم يلبث أن فارقه تهيبه ، وأصبح بفضل دأبه على العمل وصبره على المطالعة والبحث ، عمدة مؤرخى العرب على أيامه ..

وكانت الظروف مواتية له لادراك هذه الغاية ، فقد كان الاستشراق على أيامه فى أزهى عصوره .. كان الشرق يبدو أمام أوروبا اذ ذاك وكأنه هدية ثانية أهدتها المقادير لها لتتابع عملية الفتح والاستيلاء والاستغلال والاستعمار التى بدأتها عندما اكتشفت العالم الجديد ، فتغلبت الامم الاوروبية على معظم بلاد افريقية وآسيا وتقاسمتها فيما بينها مستعمرات وحمايات ومناطق نفوذ ، وأخذت كل دولة أوروبية تجود أدوات الاحتلال والاستعمار الدائمين ، وكان الاستشراق احدى هذه الادوات .. فقد كان لابد من دراسة هذه البلاد وأهلها وكل ما يتصل بها وبهم ، حتى تقوم السيطرة على أسس ثابتة من العلم بكل شىء ..

من هنا قامت جمعيات الاستشراق ومعاهد الدراسات الشرقية فى كل بلد أوروبى ، وأعانت الحكومات ذلك كله بمالها وتأييدها المادى والادبى ، واجتهدت الجامعات فى انشاء كراسى للدراسات الشرقية وتوفير الاساتذة الذين يقومون عليها . وأرسلت الجمعيات الجغرافية المستكشفين والمستطلعين والجواسيس من كل صنف ولون ، وقامت مجلات الدراسات الشرقية بنشر نتائج ذلك كله ، وأصبح الشرق وأهله موضوع اهتمام فكرى علمى عام ، حتى كبار الادباء والمفكرين اتجهوا الى المشرقيات يكتبون فيها . ومن ذلك النشاط كله نشأت طوائف من العلماء والباحثين اختلفت أمزجتهم بين عالم أحب هذه الدراسات لذاتها فأخلص لها وكتب فيها بشىء من الانصاف ، لانه بطبعه عالم حر لا يخضع لنزوات السياسة ومطامع السياسيين الا بمقدار ، وعالم وضع علمه كله فى خدمة السياسة وغدا داعية خبيثا يستخدم العلم فى تأييد قضايا سياسية وأغراض استعمارية شريرة تتنافى مع مبادىء الانسانية ، وفيما بين هاتين الطائفتين جماعات تميل الى هذا المذهب او ذاك ، وانضم الى هؤلاء جميعا نفر من رجال الدين من شتى طوائف النصرانية اقبلوا على هذه الدراسات وتسارعوا الى بلاد الشرق للدراسة والبحث ظاهرا ، وللتبشير الدينى ظاهرا وباطنا

وأكب هؤلاء جميعا على الدراسة والبحث ، وأقبلوا على الرحلة والكشف بما عرف عن الاجناس الاوروبية من صبر ودأب ، فلم يلبثوا أن أحاطوا

Marfat.com

بالـكثير ، ووصلوا فى العلم بأمور الشرق وأهله الى نتائج لا تخطر على البال فقرءوا أو ترجموا معظم ما وصل الى ايديهم من كتب ومخطوطات ووثائق ونقوش ونصوص ، والفوا فى ذلك كله كتبـــا وأبحاثا على أعظم جانب من الاهمية لدارسى الشئون الشرقية عامة والعربية والاسلامية خاصة ، وطبقوا فى البحث والتأليف مناهجهم العلمية التى يدرسون بهـــا شئون أنفسهم ، فبدت أبحاثهم ومنشوراتهم وكتبهم وكأنها أهدى الى الاحاطة بشئون الشرق من مخطوطات العرب وكتبهم ، التى كانت الى ذلك الحين ساذجة بسيطة كما كانت فى العصور الوسطى

وسط هذا الجمع الحاشد من الباحثين والدارسين ظهر جرجى زيدان ، وانفرد من بين معاصريه من مثقفى العرب بالمعرفة التامة للانجليزية والفرنسية والالمانية واللاتينية والالمام بأطراف من الايطالية والاسبانية ، مع معرفة بأصول فقه اللغات ، وكان قد توفر عليه زمانا حتى برع فيه ، فأقبل يقرأ ويدون ويسجل بهذا الشوق الى المعرفة الذى كان أظهر خصـــاله ، وأكب على ذلك العمل ست عشرة ساعة متوالية فى اليوم ، حتى لقـــد كان يكتفى من النوم بأربع ساعات الى آخر حياته

وكانت الدراسات العربية فى مهدها فى الشرق اذ ذاك . وكان من يكتبون فى تاريخ الاســـلام يجرون على منهج رواة المسلمين القـــدامى مع شىء من التحسين القليل ، كمـــا ترى فى « محاضرات التاريخ الاســـلامى » للشيخ محمود الخضرى ، ولم يكن لهم بعالم الاستشراق أو بالابحاث الجديدة صلة ، فظهر جرجى زيدان ، بمعرفته للغات واطلاعه على المناهج الحديثة ، فـــكان أشبه بهمزة وصل بين الحركة العلمية العربية الناهضة وحركة الاستشراق المتدفقة النشاط فى أوروبا وأمريكا ، واتصلت العلاقات بينه وبين اعلام مثل تيودور نولدكه ويوليوس فلهاوزن ومارجوليـــوث واجناتس جولدتســـيهر وأمدروز وادوارد سخاو ووليام رايت ودنكان بلاك ماكدونالد

وكان معظم هؤلاء يفدون على القاهرة ، للدراسة أو للبحث عن المخطوطات أو لنشر بعض مايعدونه من مخطوطات عربية ، فاتصـــلوا بجرجى زيدان وأخذوا عنه وأخذ عنهم ، ووجدوه يبحث على أسلوبهم ، مع تفوقه عليهم فى العلم بالعربية ، فعظمت قيمته فى أعينهم ، وأقبلوا يقرأون ما يكتبه فى الهلال، وما ينشر من كتب ، وتصدى نفر منهم لترجمة بعض روايات تاريخ الاسلام، فكانت هذه الروايات من أول ماترجم الى اللغات الغربيـــة من عيون الادب العربى الحديث . وعندما أعلن عن عزمه على التأليف فى تاريخ الحضـــارة الاسلامية استقبل الخبر فى مجلات الاستشراق اســـتقبالا عظيما ، وتلقف

Marfat.com

المستشرقون والمسلمون فى الهند وفارس وتركيا الجزء الاول بترحاب كبير. وعجب الكثيرون من المستشرقين من قدرته على تأليف هذا الجزء على هـذا النحو ، وشرع بعضهم فى ترجمته الى الانجليزية والفرنسية ، وأفرد كارل بروكلمان لجرجى زيدان فصلا مطولا فى تاريخ الآداب العربية

وأثار الـكتاب لاول ظهور اجزائه الاولى نشاطا واسع المـدى فى ابحاث التاريخ الاسلامى ، وأقبل الناس عليه يتدارسونه ، وكانت الجامعة المصرية قد قامت وكثر الطلاب فى قاعات الدرس ، وكانوا يستمعون الى محاضرات كارلو نالينو واينو ليتمان الى جانب ما كانوا يسمعون من محاضرات الشيخ الخضرى ، فوجدوا فى « تاريخ التمدن الاسلامى » طلبتهم وأصبح معتمدهم ، وتنبهت الجامعة الى مكانة هذا العالم الجليل ، فدعته الى القاء سلسلة من المحاضرات فى التاريخ الاسلامى فأعد المحاضرات ، ولـكن الظروف حالت بينه وبين القائها ، فسلم الجامعة مخطوط هذه المحاضرات كاملا ، واندرج المخطوط بين كتب مكتبة الجامعة ، حتى نبهنى اليه الاستاذ الصـديق اميل زيدان ، فقرأته ، ثم نقلت منه صورة فوتوغرافية تمهيدا لنشره ، وأرجو أن يتيسر ذلك فى القريب باذن الله

***

وقد طبع « تاريخ التمدن الاسلامى » بعد ذلك مرارا ، ولم يؤلف أحد من العرب فى الموضوع كتابا يشبهه الى الآن ، وان كان الـكثيرون قد ألفوا فى نواح مختلفة من الحضارة الاسلامية ، ولـكنهم لم يمسوا النواحى العسيرة التى أقبل جرجى زيدان على التأليف فيها فى ذلك الزمن المبكر ، كالناحيـة المالية ، وهى من أعسر نواحى التاريخ الاسلامى ، ومعلوماتنـا عنها قليلة متفرقـة فى عـدد كبير من الاصـول ، والـكتب العربية القديمة شىء عجيب ، فربما استقصيت كتب الخراج والاموال بحثا عن شىء يتصـل بالنظام المالى ، فلا تجده ، ثم تتناول كتابا فى مختار الشعر لترفـه به عن نفسك ، فاذا بك أمام ماتطلب ، وقد تبحث عن معلومات تهمك عن معاوية ابن أبى سفيان ، فلا تجدها فيما بين يديك من كتب التاريخ ، وتجدها مع ذلك فى مادة « برذون » فى كتاب « حياة الحيوان للدميرى » وهكذا ، وليس أمامك والحالة هـذه الا أن تقرأ كل شىء مطبوع أو غير مطبوع اذا ساعفك الصبر وامتد بك الاجل . ولهذا ، فقلما يستقصى انسان موضوعا ، ولا يجرؤ واحـد منا على القول بأنه قرأ كل ماكتب فى موضـوعه ، لانه بادىء ذى بدء ، لايعرف أين تفرقت اشتات المادة التى يطلب ، وقد حكى جرجى زيدان فى مقدمة الـكتاب كيف استخرج رواتب القضاة من معلومات متفرقـة فى

Marfat.com

ثلاثة مراجع متباعدة ، وكل مؤرخ منا يستطيع أن يروى شيئا مما اتفق له من هذه النوادر . فاذا نحن تصورنا الحشد الهائل من المعلومات التى أتى بها جرجى زيدان فى كتابه هذا بأجزائه الخمسة ، استطعنا أن نقدر الجهد الذى بذله فى القراءة والتنقيب

كان هذا الكتاب فريدا فى بابه يوم صدر لاول مرة ، ولا زال فريدا فى بابه الى اليوم ، ولقد أبدى مؤلفه فى سياق كلامه آراء أثبتت الابحاث التى جدت بعد ذلك صحة الكثير منها ، وظهرت بعد ذلك أصول جديدة أضافت الى معلوماتنا أشياء جديدة هنا وهناك ، فحرصت عند اعداد هذه الطبعة على اضافة ماجد من المعلومات والآراء والمناقشات والنتائج فى الهوامش ، وحافظت على نص المؤلف سليما كما تركه صاحبه ، فيماعدا تعديلات قليلة فى الفاظ فى المتن

كان لابد من اخراج هذه الطبعة الجديدة من هذا الكتاب ، وقد قمت بها اكراما لعميد من عمداء الفكر العربى الحديث ، وتكريما لاستاذ من اساتذة المدرسة المصرية فى التاريخ ، واعتقد أن دار الهلال تقدم لاهل التاريخ والدراسات الاسلامية عامة خدمة جليلة بقيامها على نشر تاريخ التمدن الاسلامى على هذه الصورة

حسين مؤنس

تنبيه

تعليقات الدكتور حسين مؤنس مشار اليها فى الهامش بعلامة (*) تمييزا لها عن تعليقات المؤلف الاصلية المشار اليها بأرقام

Marfat.com

مقدمة الطبعة الاولى

لا مشاحة فى أن تاريخ الاسلام من أهم التواريخ العامة ، لانه يتضمن تاريخ العالم المتمدن فى العصور الوسطى ، أو هو حلقة موصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث . فيه انتهى التمدن القديم ، ومنه أشرق التمدن الحديث . وقد علقنا بدرس هذا التاريخ منذ أعوام ، وكنا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء « الهلال » ونعلق ما يبدو لنا من حقائقه على أمل التفرغ لتأليف تاريخ مطول فيه . وقد أعلنا عزمنا على ذلك غير مرة ، ولا نزال على هذا العزم بعون الله

ونظرا لما نعتقده من افتقار قراء العربية على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم الى نشر هذا التاريخ فيما بينهم ــ لانه تاريخ لسانهم وأمتهم وبلادهم ، بل هو تاريخ تمدنهم وآدابهم وعاداتهم ــ ما فتئنا نختلس الفرص لنشر مايسهل تناوله وتدعو الحاجة اليه فى حينه مما يتعلق بهذا التاريخ . وأخذنا نهيىء أذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم ، لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعا فى « الهلال » . لان مطالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء وخصوصا فى بلادنا ، والعلم لا يزال عندنا فى دور الطفولة . فلابد لنا من الاحتيال فى نشر العلم بيننا بما يرغب الناس فى القراءة . والروايات أفضل وسيلة لهذه الغاية

وقد صدر من تلك السلسلة الى الآن ست حلقات تتضمن وصف أهم وقائع التاريخ الاسلامى الى مقتل ابن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك ابن مروان (١) . وقد آنسنا من جمهور القراء شوقا الى التوسع فى هذا التاريخ واستطلاع كنه التمدن الاسلامى . ورأينا فى أفاضل كتابنا تطلعا الى البحث فى هذا التمدن والنظر فى علاقته بالتمدن الاوربى الحديث . وكتب الينا غير واحد من أهل الادب يسألوننا رأينا فى ذلك ، فرأينا أن نجعل تتمة السنة العاشرة من الهلال كتابا فى هذا الموضوع نبين فيه تاريخ هذا التمدن ونستطرد مع الكلام الى علاقته بالتمدن الافرنجى

وتاريخ الامة الحقيقى انما هو تاريخ تمدنها وحضارتها ، لا تاريخ حروبها وفتوحها ، وخصوصا على ما تعوده مؤرخو العرب فى تاريخ الاسلام . فانهم يسردون الوقائع على علاتها ، وقلما يشيرون الى الاسباب التى تربط تلك الوقائع بعضها ببعض بحيث يرتاح العقل الى تعليلها والنظر فيها وترسخ فى

---

(١) بلغت الحلقات التى صدرت من هذه السلسلة الى صدور هذه الطبعة ١٩ حلقة

Marfat.com

ذهنه حقيقة تلك الامة . على أننا نظنهم معذورين فى ذلك باعتبار ما كانت تدعوهم اليه الحال من تجنب الخوض فى أســـباب تلك الوقائع ، وأكثرها لا ينجو الباحث فيه من الانتصار لاحد الجانبين وهم يتجنبون ذلك . ولعل لهم عذرا آخر

أما الآن فليس هناك مايمنعنا من الخوض فى هذا العباب . وقد حاول غير واحد من المستشرقين ، من الافرنج وغيرهم استطلاع كنه ذلك التمدن ، فلم يجدوا فى كتب القوم مايشفى غليلا ، لتشتت تلك الحقائق وتبعثرها . ولذلك لما نشرنا فى العام الماضى عن عزمنا على تأليف هذا الكتاب ، كتب الينا جماعة من هؤلاء الافاضل يستغربون اقدامنا على ركوب هذا المركب الخشن

والحق يقال أننا أعلنا هـــذا العزم ونحن لا نتوقع العثور على ما يزيد على صفحات تتمة السنة العاشرة من مجلة « الهلال » (١٦٠ صفحة) فشمرنا عن ساعد الجد وبذلنا جهد المستطاع فى مطالعة ما كتبـــه العرب فى الادب والتاريخ والسياسة وســـائر العلوم فيما وفقنـــا اليـــه من الـــكتب المطبوعة والمخطوطة ..

ومن أمثلة ما قرأناه من كتب التاريخ والفتوح والتقاويم مؤلفات البلاذرى والمسعودى وابن الاثير وابن خلـــكان وأبى الفدا وابن خلدون وابن طبـــاطبا والسيوطى والمقرى من المؤرخين ، وابن خرداذبة والاصـــــطخرى وياقوت الحموى من الجغرافيين . ومن كتب الادب الاغانى لابى الفرج الاصفهانى ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والـــكشكول والمســـتطرف للابشيهى وسراج الملوك للطرطوشى وغيرها . ومن كتب التفسير والحديث والفقه تفسير الرازى والزمخشرى وصحيح البخارى ومشكاة المصابيح والهداية وغيرها

ومن كتب السياسة والادارة كتاب الخراج لابى يوسف ، وكتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ، والاحكام السلطانية للماوردى والعقـــد الفريد للملك السعيد ومقدمة ابن خلدون . وغير ذلك من الكتب فى موضوعات أخرى لا يخطر للمطالع انها تفيده فى هذا الموضوع ، وقد عثرنا فيهـــا على فوائد جمة ، مثل حياة الحيوان للدميرى وعجائب المخلوقات للقزوينى وغيرهما . فضلا عن المعاجم والفهارس مثل كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ، وكتاب كشف الظنون لحاجى خليفـــة وكليات أبى البقـــاء وغيرها وكل ذلك فى اللغة العربيـــة ..

ثم طالعنا ما يستطاع الوصول اليه مما ألفه الافرنج فى الاسلام وتاريخه وآدابه فى اللغات الفرنسية والانجليزية والالمانية . مثل كتاب جستاف لوبون

Marfat.com

الفرنسى فى تمدن العرب (١) وكتاب ليبو فى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية (٢) ومقالات فى المجلة الاسيوية الفرنسية (٣) ، وكتاب فون كريمر بالالمانية فى تاريخ تمدن المشرق (٤) ، وكتاب مولر الالمانى فى تاريخ الاسلام فى الشرق والغرب (٥) ، وكتاب ستانلى لين بول الانجليزى فى الدول الاسلامية (٦) وكتّاب ادوارد جيبون الانجليزى فى اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها (٧) وغيرهم

وقد زاد عدد ما طالعناه من الكتب العربية والافرنجية على مائتى مجلد.. عدا ما راجعناه من القواميس العامة والموسوعات على اختلاف اللغات والموضوعات ، مع ما رسخ فى ذهننا من مطالعة تاريخ المشرق بتوالى الاعوام، فوفقنا بعد كل ماتقدم الى ما يملأ أضعاف الكتاب المطلوب من الابحاث الفلسفية فى تاريخ ذلك التمدن العجيب ، من الوجوه السياسية والادارية والعلمية والادبية والاخلاقية . فلم نر بدا من تقسيم الموضوع الى أجزاء نصدر الجزء الاول منها الآن ، ثم نصدر مايليه من الاجزاء تتمة للسنين التالية من الهلال ان شاء الله

فالجزء الاول ، وهو هذا ، أساس مايليه من الاجزاء . وقد صدرناه بمقدمات تمهيدية فى العرب والتمدن وحال العرب قبل الاسلام الى نهضتهم الاخيرة قبيله ، والحكومة فى الجاهلية وتاريخ الكعبة وقريش الى ظهور الدعوة الاسلامية وكيفية ظهور هذه الدعوة ، وانتشار الاسلام والفتوح الاسلامية الى قيام الدولة الاموية فالعباسية فالاموية الاندلسية فالفاطمية فغيرها . وقد نظرنا فى كل ذلك نظر الناقد ، فلم نذكر حادثة الا اسندناها الى عللها وأسبابها وبينا ما نتج عنها وذكرنا علاقتها بما بعدها .. وخصوصا فيما ساعد العرب على فتح المملكتين الفارسية والرومية (البيزنطية) مع قلة عددهم وضعف معداتهم . وهو بحث فلسفى لم يستوفه أحد فى لغة من اللغات على مانعلم ــ الا ماقد تراه فى كتب الباحثين من الافرنج وأكثره مختصر لايروى غليلا . ولا يعابون فى ذلك والموضوع بعيدعنهم ولاعلاقة له بأحوالهم ولا بأديانهم ولا بآدابهم ولا بتاريخهم الا قليلا ــ وانما اللوم علينا نحن أبناء

---

(١) La Civilisation des Arabes, par le Dr Gustave Le Bon.
(٢) Hist. du Bas-Empire par Lebeau, 30 vol.
(٣) Journal Asiatique.
(٤) Culturgeschichte des Orients unter den Chalifen, von A. von Kremer.
(٥) Der Islam im Morgen und Abendland, von Dr. Mueller.
(٦) The Mohammadan Dynasties, by S. Lane-Poole.
(٧) Decline and Fall of the Roman Empire, by Gibbon.

Marfat.com

هذا اللسان ـ وقد سبقنا الافرنج الى البحث فى تاريخ بلادنا وأمتنا وآدابنا وأخلاقنا

وعمدنا بعد تلك المقدمات الى النظر فى المملكة الاسلامية فى أبان عزها وفى احصائها . ثم فى الدولة الاسلامية واداراتها وكيف نشأت وتشعبت الى الوظائف المتعددة كالخلافة وما يتبعها والوزارة وولاية الاعمال وبيت المال والجند وسائر الدواوين . ثم ذكرنا تاريخ كل من هذه الادارات والوظائف وما تفرع منها أو ألحق بها . وقد عانينا المشاق الكبرى فى استخراج حقائق تلك التواريخ من كتب القوم . فربما قرأنا المجلد الضخم فلا نستفيد الا فقرة أو فقرتين ، وقد لاتتم الحقيقة الواحدة الا بمطالعة المجلدين أو الثلاثة

ومن أمثلة ما اتفق لنا من هذا القبيل أننا بعدما كتبنا تاريخ ولاية الاعمال وتاريخ القضاء فى الدولة الاسلامية ، عمدنا الى البحث عن رواتب العمال ورواتب القضاة فى زمن الخلفاء الراشدين . فوجدنا فى فتوح البلدان للبلاذرى أن عمر بن الخطاب « بعث عمار بن ياسر على صلاة أهل الكوفة وجيوشهم ، وعبدالله بن مسعود على قضائهم وبيت مالهم ، وعثمان بن حنيف على مساحة الارض الخ » لكنه لم يذكر مقدار عطاء أحد منهم ، ثم وجدنا فى كتاب سراج الملوك للطرطوشى فى باب سيرة السلطان فى الانفاق من بيت المال وسيرة العمال قوله : « ولم يقدر عمر الارزاق الا فى ولاية عمار فأجرى على عمار ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ، وعبدالله بن مسعود مائة درهم كل شهر الخ » ولم يذكر منصب عمار ولا منصب ابن مسعود . ولكننا جمعنا بين الروايتين فاستنتجنا منهما أن راتب من يتولى الجيوش والصلاة فى عمل من الاعمال ، كان على عهد عمر بن الخطاب ستمائة درهم وراتب القاضى مائة درهم فى الشهر . وعلمنا من قرائن أخرى أن الذى يتولى الصلاة والجيوش فى أيام عمر هو العامل . ومن قرائن أخرى أن عمارا كان عاملا لعمر على الكوفة ، فتحققنا من مجموع ما تقدم أن راتب العامل كان على عهد عمر ستمائة درهم وراتب القاضى مائة درهم ـ وقس على ذلك

وسنبحث فى الجزء الثانى عن ثروة المملكة الاسلامية وغنى أهلها وحضارتها وعلاقتها بالدول المعاصرة لها ، ووصف أحوال الخلفاء فى مجالسهم والعابهم واهتمامهم بالعلم والعلماء والشعر والشعراء والدخول عليهم وجلوسهم للناس وقصورهم وبذخهم وركوبهم وضيافتهم وكرمهم والابنية الاسلامية والمدن الاسلامية الخ ...

والجزء الثالث يبحث فى العلوم والآداب والشعر والصناعة وحالها فى الشام

Marfat.com

والعراق قبل الاسلام ، وكيف ارتقى اليها المسلمون وتاريخ ذلك الارتقاء ومقداره

والجزء الرابع يبحث فى الآداب الاجتماعية فى تلك العصـــور الزاهرة على ما يقتضيه المقام (١)

وسنختم المقال ببيان نسبة التمدن الافرنجى الحديث الى التمدن الاسلامى، ويكون الـكلام فى ذلك جليـــا واضحا بعد تفصـــيل عوامل هذا التمدن فى الاجزاء السابقة (٢)

فترى مما تقدم أن الموضوع شاق ووعر ، فضلا عن حداثته فى عالم التأليف مع قصـــورنا فى هذا الشأن . وفى ذلك تمهيد للعذر على ما قد يشوب هذا الكتاب من النقص . ونتقدم الى أهل الفضل أن يؤازرونا بملاحظاتهم وآرائهم للانتفاع بها فيما سيصدر من الاجزاء التالية ان شاء الله تعالى

---

(١) تبين لنا بعد التقدم فى تأليف الكتاب انه لا يتم الا أن يكون خمسة اجزاء كما سترى

(٢) عدلنا عن هـذا البحث فى هذا الكتاب واجلناه الى كتاب آخر

Marfat.com

مقدمة الطبعة الثانية

ظهر هـــذا الـكتاب منذ بضـــع عشرة سنة ، فتنـــاوله الادباء والعلماء بالتقريظ والانتقاد فى الصحف العربية وغيرها . وجاءتنا كتب أهل العلم من أقطار العالم الاسلامى ينشطوننا ويستحثوننا . وفيهم من جاهر صريحا أنه لم يكن يظن تأليف مثل هذا الـكتاب ممكنا لقلة المآخذ المساعدة على ذلك . فزادنا تنشيطهم ثباتا على هذا العمل حتى ظهر الـكتاب فى أجزائه الخمسة

وكان له وقع خاص عند أدباء اللغات الاخرى ، فأخـــذوا فى نقله كله أو بعضه الى السنتهم . فنقل الى أهم اللغات الشرقيـــة ـ نعنى الفـارسية والاوردية والتركية ، ظهر مطبوعا فيها كلها . ونقل الى أهم لغات أوربا ، نعنى الانجليزية والفرنسية ، وقد ظهر جزؤه الرابع فى الاولى وسيظهر جزؤه الاول فى الثـــانية . وتضاعف الاقبال على الطبعة العربية حتى نفدت نسخ هذا الجزء منـــذ بضـــعة أعوام . ونحن نتحين الفـرص لاعادة طبعـــه ، فلم نتمكن من ذلك الا الآن

وما برحنا منذ صدور الطبعة الاولى ونحن نجمع ما يمر بنا من الفوائد التى يحسن ادخالها فى هذا الـكتاب عند اعادة طبعه . فاجتمع لدينـــا من ذلك شىء كثير أضفناه الى هذه الطبعة . ونظرنا فيما وصل الينا من انتقادات المنتقدين أو ملاحظات الملاحظين مما نشر فى الصحف أو الـكتب أو جاءنا فى الـكتب الخصوصية . وتدبرناها كلها باخلاص وروية فأصلحنـــا ما صـــح عندنا وأغفلنـــا الباقى ـ وهو الاكثر ـ وانمـــا توهم المنتقـــدون خطأه لانهم نظروا فيـــه من وجه غير الذى نظرنا منه نحن . أو أننا اطلعنا عليه فى مصادر لم يطلعوا عليها ، فاكتفينا فى هذه الحال بذكر المصدر الذى عولنا عليه فى ذيل الصفحة

فجاءت هذه الطبعة أكبر من الاولى وأوفر مادة وأحسن ترتيبـــا وأكثر صورا وأشكالا . وفى ما اضفناه اليه من الصور أو الخرائط ما يزيد البحث ايضاحا . فعسى أن يقع عملنا هذا موقع الاستحسان . وحسبنا أننا قمنا ببعض الواجب فى سبيل آداب هذا اللسان

Marfat.com

Marfat.com

مقدمات تمهيدية

البحث فى تمدن الامة يتناول النظر فيما بلغت اليه من سعة الملك والعظمة والثروة ووصف ما رافق تمدنها من أسباب الحضـــارة وثمارها ، ويدخل فى ذلك تاريخ العلم والادب والصناعة ولوازمهـــا ، كالمـــدارس والمـكاتب والجمعيات ، وبسط حال الدولة ومناصبها وما انتهت اليه من الرخاء ، وما هو مقدار تأثير ذلك فى هيئتها الاجتماعية . وذلك يستلزم وصـــف عادات الامة وآدابها الاجتماعية ومناحيها السياسية واسناد ذلكالى أسبابه وبواعثه

غير أن النظر فى هذا التمدن على هذه الصورة ، لا يكون واضحا وافيا الا اذا تقدمه البحث عن حال تلك الامة فى بداوتها ، وكيف تدرجت الىالحضارة وما هى العوامل التى ســـاعدتها على ذلك . والبحث المشـــار اليه ضرورى خصوصا فى تاريخ التمدن الاسلامى ، لان فيه عوامل خاصـــة به لا وجود لها فى تمدن الامم الاخرى

وبناء على ذلك لم نر بدا من تصدير هذا الـكتاب بمقدمات تمهيدية ، نبسط فيها حال العرب قبل الاسلام ونسبتهم الى التمدن وماتقدم الدعوة الاســـلامية من أحوال تلك الامة .. وكيف كانت جزيرة العرب عند ظهور الدعوة ، وكيف كانت حال الروم والفرس يومئذ .. وما الذى ساعد هؤلاء العرب على فتح تينك المملـكتين مع قلة عددهم وضعف معداتهم .. وكيف نشأت الدولة الاسلامية وارتقت من حالها الدينية فى أيام الراشدين الى حالها السياسية فى أيام الامويين فالعباسيين فالفاطميين فغيرهم

فاذا فرغنا من ذلك ، عمدنا الى الـكلام فى سعة المملـكة وتاريخ اداراتها ومناصبها وغير ذلك (*)

فنبدأ بوصف حال العرب قبل الاسلام

(*) يشير المؤلف هنا الى رأى كان كثير من المستشرقين يقولون به فى دراساتهم للتطور العام للدولة الاسلامية ، وهم يذهبون الى ان الدولة الاسلامية ايام الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين ، كان يقوم عليها رؤساء دينيون يستهدفون نشر العقيدة ورعايتها أولا ، ثم تحقيق أهداف سياسية بعد ذلك ، وهذا هو الذى يسمى بالحكومة الدينيةأو الثيوقراطية .. وابتداء من الدولة الاموية تحولت الدولة الاسلامية الى دولة سياسية ، اى يقوم عليها رجال ملك وسياسة . وهذا التقسيم ، وان كان يعيننا على ادراك بعض نواحى التطور التى شملت الاتجاه العام للدولة الاسلامية عند انتقالها من آخر الخلفاء الراشدين الى اول خلافة معاوية ، الا انه لا يطابق الواقع تماما كما يعرفه من يدرسون تاريخ الدولة الاسلامية . وقد انصرف معظم المستشرقين المحدثين عن هذا الرأى

قارن الرأى الاول كما يمثله يوليوس فلهاوزن فى « تاريخ الدولة العربية » الترجمـة العربية للدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ـ القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٠٧ وما يليها ، والرأى الثانى كما يمثله الشيخ محمـد الخضرى فى كتاب : « محاضرات تاريخ الامم الاسلاميـة » الطبعة الخامسة ١٣٦٦ هـ ، ص ٩٦ وما يليها

العرب والتمدن

زعم بعض الكتاب من الافرنج أن العرب لا فضل لهم فى تمدنهم الاسلامى لانهم أنشأوه على أنقاض التمدنين البيزنطى والفارسى . فالتمدن الاسلامى عندهم عبارة عن مزيج من ذينك التمدنين ، مع بعض التعديل . وأن العرب من فطرتهم بعيدون عن الحضارة ، لانهم لم ينشئوا تمدنا من عند أنفسهم فى عصر من العصور الجاهلية ولا الاسلامية . وعندنا أن العرب أكثر الامم استعدادا للحضارة وسياسة الملك ، لا يقلون فى ذلك عن سواهم من الامم التى تمدنت قديما أو حديثا واليك البيان

قدماء العرب

المشهور عند المؤرخين ان العرب يقسمون الى قسمين كبيرين : العرب البائدة كعاد وثمود ، والعرب الباقية . وان العرب الباقية يقسمون الى القحطانية سكان بلاد اليمن وما جاورها ، وهم ينتسبون الى قحطان أو يقطان بن عامر وينتهى بأرفخشاد الى سام . والاسماعيلية أو العدنانية وهم سكان الحجاز ونجد وما جاورهما من أواسط جزيرة العرب ، وينتسبون الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل من امرأته هاجر ، ويسمون أيضا مضرية ومعدية لمثل ذلك السبب

وقد بينا فى كتابنا « العرب قبل الاسلام » ما كان للعرب من الدول القديمة فيما بين النهرين قبل الميلاد ببضعة وعشرين قرنا .. نعنى دولة حمورابى واضع أقدم الشرائع الانسانية التى وصلت الينا ، وقد أتينا من هناك بالادلة التى ترجح كون دولته عربية (*) ، وبينا أن تلك الامة كان لها تمدن عظيم وآداب راقية . وكانت للمرأة فيها منزلة وحرية ، حتى تقلدت المناصب السياسية والقلمية (١) وتفرع من الحموراييين بعد ذهاب دولتهم

---

(١) انظر كتاب « العرب قبل الاسلام »

(*) يجمع العلماء اليوم على أن دولة حمورابى سامية الاصل . فان سومو ابوم Soumou Aboum جد حمورابى ، الذى استولى على دولتى سومر واكاد وجعل منهما دولة واحدة ابتداء من سنة ٢٢٢٥ ق . م كان عموريا وعاصمته مدينة بابل . والعموريون قبيل من الساميين هاجروا حوالى ٢٥٠٠ ق . م . فى موجة واحدة كانت تضم الكنعانيين الذين نزلوا غربى الشام وفلسطين ، والفينيقيين الذين نزلوا سواحل الشام . كما هاجر العرب من الجزيرة بعد الاسلام . وهذه الشعوب جميعها ، التى يطلق عليها عادة اسم الساميين ، هى فروع جنس واحد قديم سكن جنوب غربى الجزيرة العربية ويسميه العلماء الاورسيميتيش Ursemetisch وهى تسمية المانية أصبحت اصطلاحا عاما فى كل اللغات ومعناها

134963

Marfat.com

دول العمالقة المختلفة ، ومن فروعهم عاد وثمود والانباط وعرب تدمر وغيرها

ويلى الحمورابيين عرب اليمن وهم القحطانية . وقد تمدنوا قبل العرب الاسماعيلية ، لان بلادهم أقرب الى الخصب والرخاء من بلادهؤلاء، فنشأت منهم دول قديمة عاصرت الفراعنة وملوك بابل وأشور.وقد ظهروا بعد الحمورابيين بعدة قرون ، ذكرنا منهم الدول المعينية والسبأية والحميرية ، أصحاب مأرب وصنعاء وغيرهما

أما العرب الاسماعيلية وهم أهل الحجاز ونجد فأكثرهم أهل بادية ،وقد ظهر منهم دول قبل الميلاد وبعده ، أشهرها دول القبائل صاحبة الوقائع التى جرت بينهم قبيل الاسلام والتى تعرف بأيام العرب

ثم ان العرب ليس فى أرومتهم مايمنع استعدادهم للحضارة ، لانهم اخوان الاشوريين والكلدانيين والفينيقيين ،ولهم أستعدادهم وأهليتهم .. فالذين اقاموا منهم فى بلاد مثل بلاد ما بين النهرين أدهشوا العالم بمدنيتهم . والمقيمون فى جزيرة أكثر بقاعها جرداء لا أنهر فيها ولا جداول ، وانما يستقون من مياه المطر ، قضوا قرونا فى البداوة .. فلما أتيحت لهم الاقامة فى البلاد الخصبة بعد الاسلام، لم يكن تمدنهم فيها يقصر عن تمدن اولئك

فالتمدن الاسلامى ليس أول عهد العرب بالحضارة . فقد كان المعينيون والسبأيون والحميريون واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب ، لتوسط بلاد اليمن بين الممالك المتمدنة فى ذلك الحين. فكانت تجارات الهند

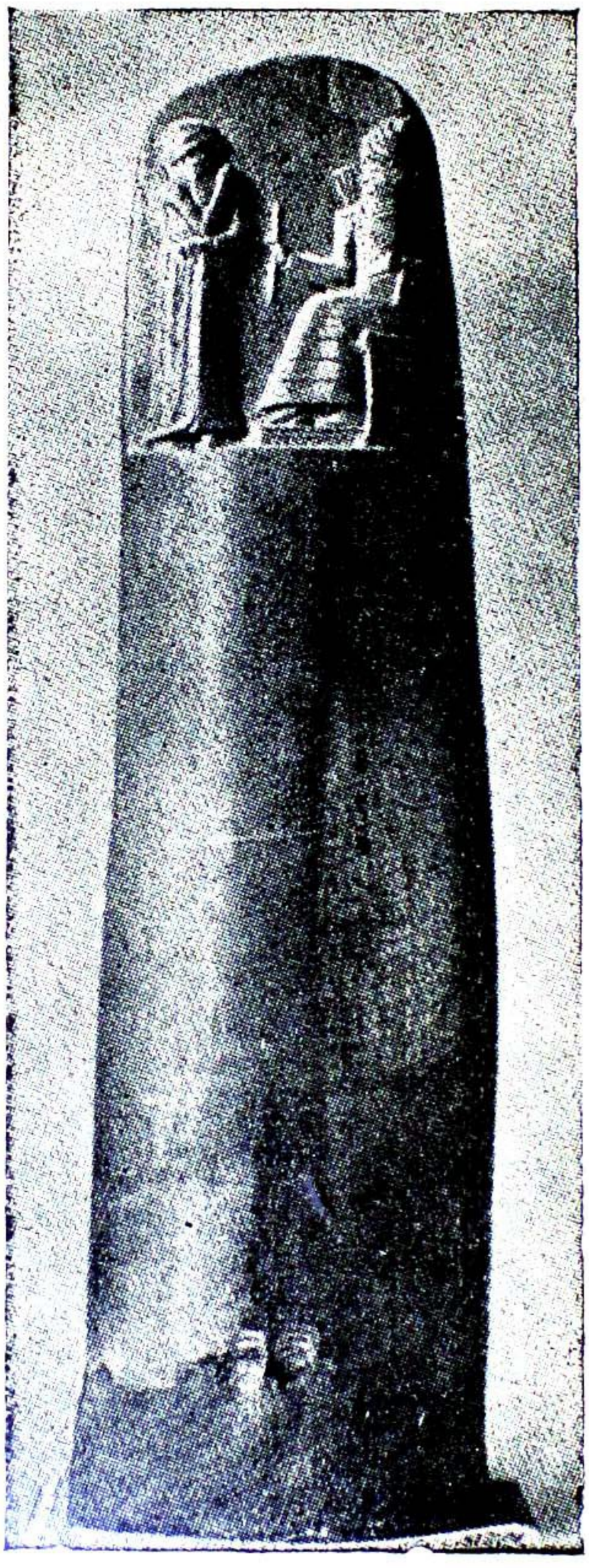

حمورابى ملك بابل واقفا
بين يدى الله الشمس

الساميون الاصلاء ، ولا يجوز لهذا أن يقال ان العموريين ، ومنهم حمورابى ، عرب . كما لا يجوز أن يقال ان العبرانيين عرب

انظر : ديلابورت : بلاد ما بين النهرين ، ترجمة الاستاذ محرم كمال ـ القاهرة ١٩٥٦ ص ٤٤ وما يليها

وفيليب حتى : تاريخ العرب (مطول) ـ بيروت ١٩٤٩ ، ص ١٠ وما يليها

Marfat.com

تحمل فى البحر الهندى الى بلاد اليمن وحضرموت، فيحملها أهل اليمن الى الحبشة ومصر وفينيقية وبلاد الادوميين والعمالقة وبلاد مدين وبلاد المغرب . وكذلك كان الاسماعيليون ينقلون التجارة من اليمن وموانى بحر العرب الى بلاد الشام

وساعد العرب على التوسع فى وسائل التجارة ـ فضلا عن توسط بلادهم ـ أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات أكثر الامم المتمدنة فى ذلك الحين . لان اللغات السامية كانت يومئذ لاتزال متقاربة لفظا ومعنى . فالعربى والكلدانى والاشورى والعبرانى والحبشى والفينيقى كانوا يتفاهمون بلا

زينوبيا (الزباء) ملكة تدمر

واسطة لقرب عهد تلك اللغات بالتشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية المتشعبة من اللغة الفصحى الآن . فكان العربى من حمير أو مضر اذا جاء العراق لا يحتاج فى مخاطبة الكلدانى أو الاشورى الى ترجمان . وكذلك اذا يمم فينيقية أو الحبشة فانه يفهم لسان أهلهما كما يفهم الشامى لسان اهل مصر اليوم . ويؤيد ذلك ما جاء فى التوراة عن ابراهيم الخليل فانه نزح من بلاد الكلدان فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد واجتاز سوريا وفينيقية وبلاد العرب وخالط أهلها ولم يفتقر فى مخاطبتهم الى مترجم . وكذلك بنو اسرائيل فى تيههم حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فانهم قضوا اربعين

Marfat.com

سنة فى أعالى جزيرة العرب ولم يحتاجوا الى مترجم بينهم وبين أهلها

والمسافر فى بلاد العرب اليوم يجد أكثرها رمالا قاحلة ، لكنه لو نقب تحت تلك الرمال فى بعض المواضع ، لوقف على آثار القصور وغيرها من بقـــايا المدنية . روى مؤرخو العرب البائدة عما خلفه العاديون من الابنية الفخمة هناك مانعده من الخرافات لخروجه عن المألوف عندنا . مثل حديثهم عن مدينة ارم ذات العماد التى زعموا « أن شداد بن عاد بناها فى الاحقـاف فى بقعة مساحتها عشرة فراسخ فى عشرة . فجعل جدرانها من الجزع اليمانى وغشاها بصفائح الفضة المموهة بالذهب ، وبنى داخل المدينة مائة الف قصر على عمد من الزبرجد واليواقيت ، طول كل عمود مائة ذراع . وأجرى فى وســـطها أنهارا وعمل فيها جداول الى تلك القصور ، وجعل حصـــاها من الذهب والجواهر واليواقيت » الى غير ذلك مما يفوق طور الامكان . لـكنه يشف عن حقيقة مهما قيل فى تحقيرها ، فانها تدل على أن بعض أبنية العرب البائدة كانت مرصعة فى بعض جدرانها أو أساطينها بالحجارة الكريمة . وهذا غاية مايمكن أن يصل اليه البذخ والترف . ولا يكون ذلك الا فى ابان المدنية (*)

عرب اليمن

أما عرب اليمن القحطانية ، فقد تمدنوا تمدنا لا تزال آثاره مطمورة تحت الرمال فى حضرموت ومهرة واليمن . وأشهر دولهم عند العرب حمير وســبأ وكهلان . وتاريخ هذه الدول اقرب عهــدا من عاد وثمود ، وقـــد اكتشف البحاثون بعض آثارهم ، وأكثر ما اكتشفوه انقاض بعض الابنية فى صنعاء وعدن وحضرموت . فاستخرجوا منها ألواحا مكتوبة بالقلم الحميرى (المسند) أكثرها دعاء دينى أو نحوه . ولم يتمكنوا من التنقيب عن الدفائن المهمة فى داخلية البلاد لمشقة الوصول اليها . ناهيك بما ذكره مؤرخو العرب عن أبهة تلك الدول وكانت قد انحلت قبل الاسلام . لـكن أخبارها كانت الى ذلك العهد لا تزال مألوفة وفيها مايدل على تمدن قديم لا يقل عن تمدن الاشوريين

(*) يبالغ مؤرخو العرب فى تصوير ازدهار مدنياتهم فى العصور السحيقة ، والحقيقة أن بلاد العرب كانت فيما قبل التاريخ كثيرة الامطار ، تغطى ارضها الحشائش وتكثر فيها الوديان التى تمتلىء بالمياه فى موسم الامطار . وقد بدأت الجزيرة فى الجفاف عندما بدأت الارض كلها تجف فى منتصف العصر الجليدى الرابع ، اى عندما بدأ الجليد يتراجع الى الشمال والجنوب ، فأخذ جوها يجف شيئا فشيئا حتى صارت صحراء . وهذا ينطبق على صحراوات اخرى مثل الصحراء الافريقية الكبرى . وهذا الخصب القديم هو الذى يفسر لنا قيام دول وحضارات قديمة فى شبه الجزيرة ، وهو أمر لا يتصوره من يرى جفافها وجدبها الآن

Marfat.com

والمصريين والفينيقيين . فقدانشأوا المدن وعمروا القصور وغرسوا الحدائق ونحتوا التماثيل وحفروا المناجم ونظموا الجند وفتحوا البلاد ووسعوا التجارة

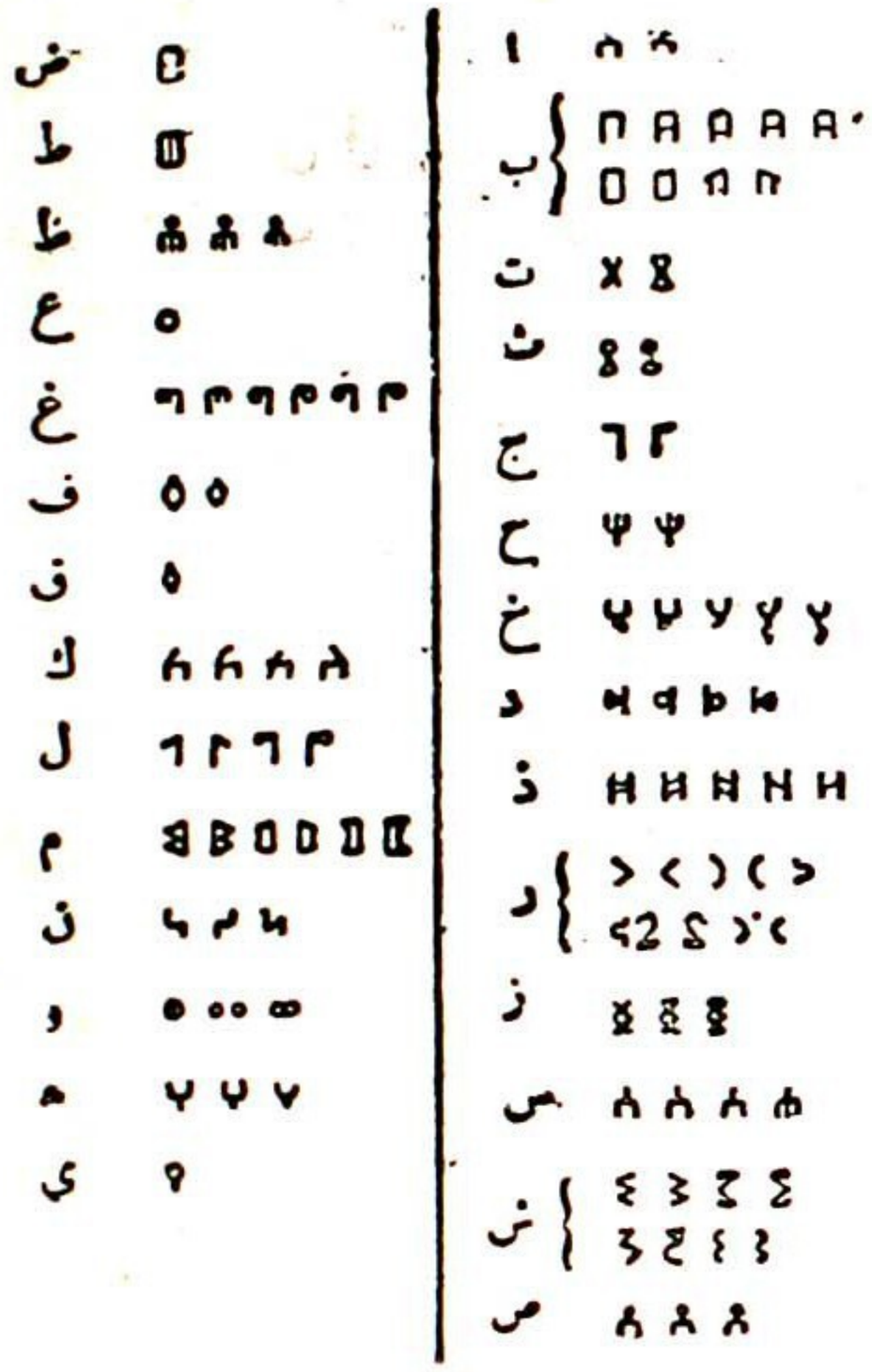

الحروف الحميرية (المسند) وما يقابلها فى العربية

واتقنوا الزراعة . وقد ذكرهم هيرودوتس الرحالة اليونانى فى القرن الخامس قبل الميلاد فقال : « ان فى جنوبى بلاد العرب وحدها البخور والمر والقرفة والدار صينى واللاذن » وعدها من أغنى ممالك العالم فى زمانه

ومن آثار العرب فى اليمن ، ما لا يزال التاريخ يلهج بذكره ويعد من عجائب الابنية ، نعنى بذلك السد المشهور بسد مأرب ، بنوه نحو القرن الثانى قبل الميلاد كما بنى محمد على (باشا) القناطر الخيرية فى راس الدلتا ، وكما بنت الحكومة المصرية خزان أسوان

سد مأرب

وسد مأرب هذا ، عبارة عن حائط موصل بين جبلين يحجز الماء الذى يسيل بينهما ، فيرتفع ويروى السفحين الى أعلاهما . جعلوا فيه شعبا واقنية وساقوا اليه سبعين واديا تصب مياهها فيه . فمثل هذا السد العظيم يحتاج الى مهارة فى الهندسة وهمة عالية ، وهو اقدم خزان للماء ذكره التاريخ ،

Marfat.com

وعرب اليمن أسبق الامم الى هذه الهندسة . وكان بناؤه متينا صبر على صدمات الماء وتأثيرات الهواء بضعة قرون . ولما ضعفت الدولة عن تجديده وأحسوا بقرب تهدمه أخذوا فى المهاجرة من جواره ، فى أواسط القرن الثانى للميلاد ، وتفرقوا فى البلاد . والمشهور عند العرب ان الغساسنة فى الشام ، والمناذرة فى العراق ، والاوس فى المدينة ، والازد فى منى وخزاعة بجوار مكة منهم (أى من عرب الجنوب) . ثم انفجر السد وطفت المياه فهاجر من بقى . وذلك ما يعبرون عنه بسيل العرم (*)

وذكر استرابون الرحالة اليونانى فى القرن الاول قبل الميلاد ، ان مأرب كانت فى زمانه مدينة عجيبة ، سقوف أبنيتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة . وفيها الآنية الثمينة المزخرفة مما يبهر العقول . وذلك يهون علينا سماع ماذكره العرب عن ارم ذات العماد

وفى اعتقادنا أنهم لو بحثوا فى أنقاض مأرب وصنعاء وغيرهما من عواصم ملوك سبأ وحمير لعثروا على أحافير ثمينة تكشف للعالم عن تاريخ جديد كما كشفت آثار وادى النيل عن تاريخ الفراعنة ، وكما كشفت آثار وادى الفرات عن أخبار ملوك أشور وبابل . ولا يتأتى ذلك الا بارسال البعثات العلمية للحفر والتنقيب

الانباط

ومن الامم العربية التى تمدنت قبل الاسلام الانباط أصحاب مدينة بطرا Petra (**) بين فلسطين وشبه جزيرة سينا .وقد امتدت سيطرتهم على تلك الجزيرة وما جاورها من جزيرة العرب الى الحجاز . وكان الانباط واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب ، وقد عاصروا الرومان فى ابان مجدهم وكثيرا ماكانوا عونا لبعض قوادهم فى الحروب حتى تأتى لاحدهم وهو الملك الحارث الثالث (***) أن يتولى دمشق برهة قصيرة فى القرن الاول للميلاد قبل عهد الغساسنة بأجيال . وقد ضرب النقود باسمه واسم الحاكم الرومانى هناك . وما زالت دولة الانباط سائدة الى أوائل القرن الثانى للميلاد فدخلت فى

(*) انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤

(**) تسمى أيضا البتراء ،وتعرف فى التوراة باسم سلع وفى بعض النصوص العربية بالرقيم ، وتعرف اليوم بوادى موسى . وتقع على رابية ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم . وقد ازدهرت البتراء فى القرن الرابع بعد الميلاد ، ودام ازدهارها نحو اربعة قرون ، كانت خلالها مركزا رئيسيا على طريق القوافل من سبأ فى اليمن الى ثغور البحر الابيض

(***) يسمى فى النصوص اللاتينية اريتاس Aretas ويرجح انه حكم بين سنتى ٨٥ و ٦٠ ق . م

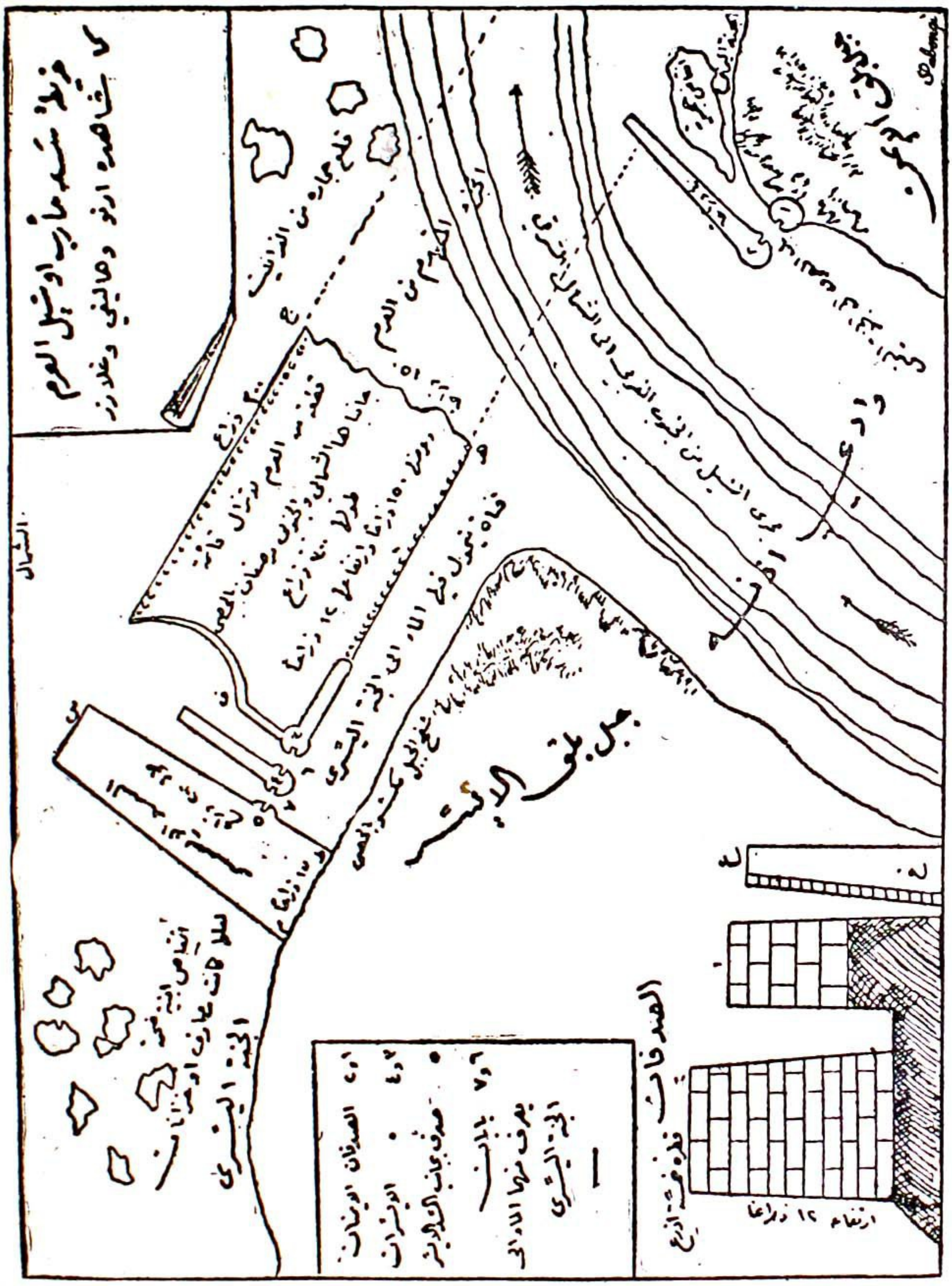

Marfat.com

حوزة الروم وضاعت فيها ولا تزال أنقاضها فى بطرا وعليها الكتابة النبطية يقرأونها كما يقرأون الكتابة الحميرية (١)

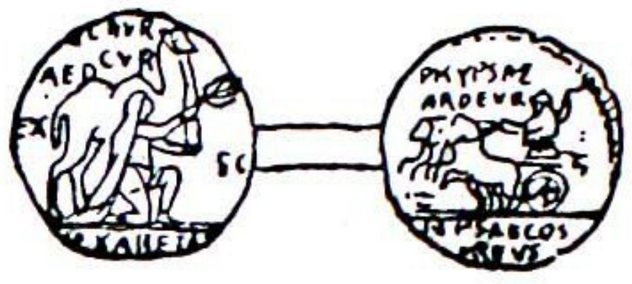

نقود الحارث الثالث واسكاوروس

ومن الامم العربية التى تمدنت قديما العمالقة (*) ، وقد تفرعوا من الحمورابيين على مانظن وهم مشهورون بشدة البطش . ومنهم الملوك الرعاة الذين فتحوا مصر وتولوها عدة قرون ، غير مستعمرات العرب فى مشارف الشام والعراق ومن مدنهم بصرى فى حوران للغساسنة ، والحيرة فى العراق للمناذرة ..

أيقال بعد ما تقدم أن العرب بعيدون بفطرتهم عن الحضارة ؟

التمدنان اليونانى والفارسى

على أننا لا ننكر أن التمدن الاسلامى قام على أنقاض التمدنين اليونانى والفارسى،لكن شأن العرب فى ذلك مثل شأن اليونان والرومان والفرس وسائر الدول العظمى .. لان اليونان اقتبسوا أكثر عوامل تمدنهم من المصريين وزادوا فيها ووسعوها على مقتضى مؤثرات الطبيعة ، حتى صار تمدنا معروفا بهم . فأخذ عنهم الرومان وعدلوا فيه تعديلا طفيفا جدا . وكذلك الفرس فان تمدنهم قام على انقاض تمدن الاشوريين والبابلين والكلدانيين قبلهم وأخذوا أيضا عن اليونان

على أن تلك الامم لم تستطع الظهور فى عالم الحضارة الا بعد أجيال متوالية . أما العرب فلم يمض على نشوء دولتهم قرن حتى ظهر تمدنهم وبانت ثمار

---

(١) جرجى زيدان : العرب قبل الاسلام

(*) الرأى مختلف حول العمالقة ، ومفردهم عملاق بفتح العين او كسرها او ضمها ، فيذهب البعض الى ان العمالقة من العرب البائدة وانهم ينتسبون الى نفس الاصل الذى ينتسب اليه طسم وجديس وثمود . ويذهب البعض الى أن الكنعانيين والفلسطينيين منهم ، بل يذهب نفر من مؤرخى العرب الى ان الفراعنة كانوا من العمالقة . والرأى متفق الآن على انهم من اجيال الساميين التى هاجرت من شبه الجزيرة ، وهم المعروفون فى تاريخ مصر باسم الهيكسوس او ملوك الرعاة

انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة عماليق

Marfat.com

مسكوكات نبطية

عقولهم . وفى القرنين الثانى والثالث للهجرة ملأوا الارض علما وأدبا ومدنية وحضارة

Marfat.com

وزد على ذلك أن الجرمان الذين نشأ منهم فيما بعد عدد من أعظم دول الارض ، قضوا أجيالا متطاولة وهم يغيرون على الدولة الرومانية قبل الاسلام وبعده ، وفتحوا كثيرا من مدنها ودخل بعضهم رومية نفسها ولم يكن من ثمار فتوحهم فى القرون الاولى غير النهب والقتل . واعتبر ذلك فى غزوات الهون فى القرن الخامس للميلاد ، فانهم اكتسحوا شمالى الدولة الرومانية وشرقيها ، وفتحوا المجر ورومانيا وسائر شرق أوروبا ، وأنشأوا هناك دولة عرفت بدولة الخاقانات حكمت مائتى سنة ـ كما فعل العرب باكتساح سوريا ومصر والعراق ـ لكن الهون لم ينشئوا تمدنا ولا خلفوا حضارة مع أنهم أقرب الى مركز التمدن اليونانى من العرب . وغزا الصقالبة فى القرن السادس للميلاد الدولة الرومانية الشرقية حتى طرقوا أبواب القسطنطينية ثم عادوا ولم يتمدنوا . ألا يدل ذلك على أن فى العرب استعدادا خاصا للحضارة ؟

Marfat.com

الحجاز فى العصر الجاهلى

لجاهلية العرب عصران : الجاهلية الاولى فى عهود من ذكرنا من أمم العرب البائدة ومن خلفهم فى اليمن وغيرها ، والجاهلية الثانية نريد بها حالة جزيرة العرب ولاسيما الحجاز قبل الاسلام بعدة قرون . وللحجاز شأن خاص فى ذلك ، ففى الجاهلية الثانية تمدن العرب فى جنوبى جزيرة العرب وفى شماليها وظل أهل الحجاز فى أواسطها على بداوتهم ، لجدب أرضها وجفاف تربتها مع بعدها عن الاحتكاك بالدول المتحضرة ، لتوسطهافى الصحراء ووعورة المسالك اليها . حتىامتنعت على الفاتحين العظام مثل رعمسيس الثانى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، والاسكندر الاكبر فى القرن الرابع قبله . وايليوس غالوس على عهد يوليوس قيصر فى القرن الاول للميلاد . وامتنعت ايضا على ملوك الفرس فى ابان دولتهم فآل امتناعهم هذا الى اطمئنانهم وسكونهم . والانسان لا ينزع الى الاصلاح الا مضطرا بخطر أو نحوه . ولكنه مفطور على الاثرة والمنافسة ، فقامت المنازعات بين العرب أنفسهم وأصبحت مصادر الارتزاق فيها الغزو والنهب .. فشغلهم ذلك عن الالتفات الى المصادر الاخرى

على أنهم كانوا على جاهليتهم أهل أنفة وذمام وكرم ووفاء ، مما يدل على استعدادهم لمستقبل عظيم

قضى اهل الحجاز فى جاهليتهم الثانية قرونا لا يعلم مقدارها الا الله وهم فى حال البداوة ، الا مااقتبسوه ممن هاجر اليهم من جالية اليمن جيرانهم ، أو من لجأ الى بلادهم من اليهود ، وخصوصا فى القرون الاخيرة قبل الميلاد والاولى بعده ، فرارا من اضطهاد حكامهم الرومانيين ولاسيما بعد خراب بيت المقدس. وربما هاجر اليهم أيضا قوم من الانباط وهم أهل تمدن كما تقدم ، فجعلوا مكة والمدينة والطائف دار هجرتهم بعد استبداد الرومان بهم . أما اليهود فكانوا يقيمون فى يثرب على الاكثر

مكة

وكان لليهود تأثير عظيم على عرب الحجاز من حيث الآداب الدينيةوطقوسها ، فاقتبس العرب منهم أمورا كثيرة كانوا يجهلونها ، كالحج والذبائح والزواج

Marfat.com

والطلاق والكهانة والاحتفال بالاعياد ونحوها . وعلموهم بعض أقاصيص التوراة وفصولا من التلمود ، ونشروا بينهم كثيرا من تقاليدهم وعاداتهم . وقد يكون بعض تلك الآداب أو الطقوس متسلسلا اليهم مما كان عند اسلافهم فى الجاهلية الاولى ، فضلا عمن هاجر الى الحجاز من أهل اليمن وغيرهم من الامم التى كانت تحيط بجزيرة العرب : كالكلدان والمصريين والاحباش وغيرهم ، فأصبح أهل الحجاز بعد ذلك الاختلاط فئتين : أهل البادية الباقين على الفطرة وهم العرب الرحل . وأهل المدن المقيمين فى مكة والطائف والمدينة وهم الحضر

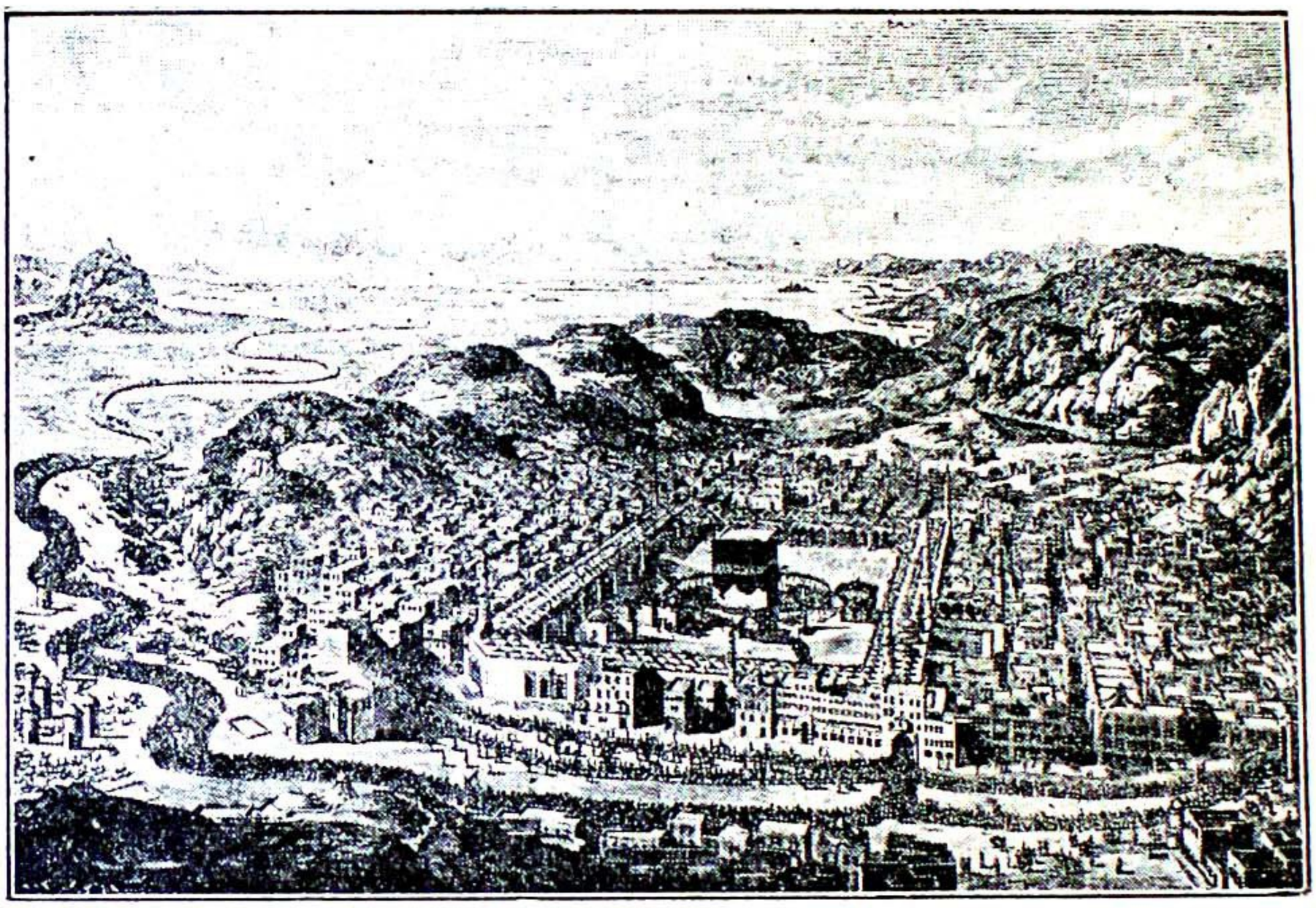

مكة ومسجدها وفى وسطه الكعبة فى القرن الثامن عشر للميلاد

وكانت مكة أشهر مدن الحجاز لاتخاذها محجا يؤمه الناس من أقاصى البلاد لزيارة الكعبة . فأصبحت بتوالى الاجيال مركزا للتجارة لمن يتوافد اليها من الحجاج فى المواسم كل عام . فطمحت اليها أنظار أهل السلطة من القبائل القوية . وكانت فى أوائل ازمانها فى حوزة الحجازيين بنى اسماعيل وهم سدنة الكعبة أى حجابها . ثم نزح اليها بنو خزاعة من اليمن بعد سيل العرم نحو القرن الثانى للميلاد وتسلطوا عليها ، وغلبوا الحجازيين عليها بما تعودوه من السيادة فى عهد دولتهم باليمن . وكان الاسماعيليون (أو العدنانيون) يومئذ ضعافا لا يقوون عليهم ، ولكن ناموس الاجتماع قضى عليهم كما قضى على سواهم فدارت الدائرة بعد عدة أجيال على بنى خزاعة وضعف أمرهم ، وقوى أمر العدنانية . فتفرع منهم كنانة وتشعب من كنانة قريش

Marfat.com

قصى بن كلاب والكعبة

ففى نحو القرن الخامس للميلاد كان سيد قريش ورئيسها قصى بن كلاب ابن مرة ، وكان حكيما عاقلا ذا سياسة ودهاء . فتزوج ابنة ولى الكعبة (وهو من خزاعة) طمعا فى السدانة . فولد له أولاد اعتز بهم واشتغل بالتجارة حتى صار غنيا . ولما اقترب أجل حميه أوصى بسدانة الكعبة لابنته زوجة قصى فاعتذرت بأنها لا تستطيع فتح الباب واغلاقه ـ وهو عمل سادن البيت عندهم ـ فأوصى بالولاية لابن له اسمه المحترش أو أبو غبشان ، وكان ضعيفا فابتاع قصى ذاك المنصب منه بزق من الخمر (١) (*)

فشق ذلك على خزاعة ، وحدثت بسببه حروب بينهم وبين قريش ثم تداعوا الى الصلح والتحكيم ، فحكموا بينهم رجلا من قريش فقضى لقصى . وما زالت سدانة الكعبة فى قريش حتى جاء الاسلام

وكانت سدانة الكعبة تستلزم السيادة على مكة . فجمع قصى أهله من قريش فى مكة ، وحولها فملكوه عليهم . فقسم مكة أرباعا بينهم . فبنوا المساكن وعمرت بهم وأصبح هو سيدهم فى كل شىء . وخلفه بعده ابنه عبد مناف . وكان فى جملة أولاد عبد مناف ولدان : هاشم ، وعبد شمس . فلما دنت وفاة عبد مناف أوصى بالسدانة لهما ثم انفرد بها هاشم . وكان لعبد شمس ابن اسمه أمية (جد بنى أمية) حسد عمه على الرئاسة ، فآل ذلك الى المنافرة . فكره هاشم أن ينافر ابن أخيه فلم تتركه قريش حتى نافره على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشرين سنة . فرضى أمية وجعلا الكاهن الخزاعى حكما بينهما . فاستفتياه فقضى لهاشم بالغلبة فأخذ هاشم الابل فنحرها وأطعمها وغاب أمية عن مكة بالشام عشرين سنة على حسب الشرط . وكانت تلك أول عداوة وقعت بين هاشم وامية وتوارثها اعقابهما الى ايام الاسلام . وتولى الكعبة بعد هاشم ابنه عبد المطلب جد النبى صاحب الشريعة الاسلامية

وكانت منزلة قريش من سائر قبائل العرب مثل منزلة اللاويين من بنى اسرائيل . ولهم مثل امتيازاتهم ، وهى تشبه امتيازات الكهنة فى النصرانية .

---

(١) ابن الاثير ج ٢ ص ٩

(*) وهذه هى رواية ابن هشام نقلا عن الكلبى وابن اسحاق ومن تابعهما من اصحاب الروايات الاولى ، والغالب أنها أسطورة . والراجح ما يذهب اليه الازرقى فى بعض رواياته من أن قصيا لم يسيطر على الكعبة ومكة الا بعد حروب طويلة مع خزاعة . انظر : ابن هشام : السيرة ، طبعة فستنفلد ص ٧٥ ـ ٨٤ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ١ كراسة ١ ص ٣٦ ـ ٤٢ ، الازرقى : تاريخ مكة ، طبعة فستنفلد ج ١ ص ٦٠ ـ ٦٦

وكانوا لا يؤدون أتاوة ولا يتكلفون دفاعا .. يحكمون على الناس ولا يحكم عليهم أحد .. وكانوا يتزوجون من أية قبيلة شاءوا ولا شرط عليهم فى ذلك ، . وكانوا لا يزوجون احدا الا اشترطوا عليه أن يكون متحمسا لدينهم — « التحمس (*) التشدد فى الدين » — (١) وقد فرضوا فروضا ألزموا الناس باتباعها

Marfat.com

(*) التحمس مذهب من مذاهب قريش فى دينها قبل الاسلام . ويقال لصاحب هذا المذهب احمس وجمعه حمس ، والاحمس هو الشجاع ، ولكن المراد به هنا المتشدد فى دينه والمتقشف فى حياته . وكان غالب بنى هاشم حمسا ، وقد وصف ياقوت الحموى مذهب الحمس بقوله : « وكان من سنة الحمس الا يخرجوا ايام الموسم الى عرفات ، انما يقفون بالمزدلفة ، وكانوا لا يشتكون ولا يأقطون ، ولا يرتبطون عنزا ولا بقرة ، ولا يغزلون صوفا ولا وبرا ، ولايدخلون بيتا من الشعر والمدر ، وانما يكتنون بالقباب الحمر فى الاشهر الحرم »

ياقوت : معجم البلدان ، طبعة فستنفلد ، ج ٤ ص ٦٢٠ — ٦٢١

(١) معجم البلدان ، ص ٦٢٠ ج ٤

حكومة العرب فى الجاهلية

ونريد بالعرب خاصة عرب الحجاز وبالاخص قريش ، لان منها ظهر النبى محمد (صلعم)

والحكومة فى الجاهلية متشابهة عند سائر أهل البادية . فان المناصب التى تعد عند أهل العالم المتمدن بالعشرات ، تجتمع عندهم فى شخص شيخ القبيلة . فالشيخ هو الملك ، والقاضى ، وصاحب بيت المال ، وقائد الجند وكل شىء(*) . وكانوا يختارون لهذه الرياسة أقواهم عقلا وأكثرهم دهاء وسياسة بلا تواطؤ أو تعمد . واذا تساوى عدة منهم فى القوة والدهاء اختاروا أكبرهم سنا واوسعهم جاها . واذا اجتمعت عدة قبائل فى محالفة على حرب واحتاجوا الى من يرأسهم جميعا ، اقترعوا بين أهل الرئاسة ، فمن خرج سهمه رأسوه، كبيرا كان أو صغيرا

ذلك كان شأن العرب الرحل أهل الغزو والسطو . أما الحضر وهم أهل مكة فقد كانت السيادة فيهم لسادن الكعبة . ولما افضت السدانة الى قريش ، صارت السيادة لهم فى كل شىء

الكعبة والتجارة وقريش

كانت قريش كما قدمنا حضرا أهل تجارة ، وتجارتهم قائم اكثرها على الحجاج الذين يردون مكة فى المواسم . فكان من مقتضيات مصلحتهم تسهيل طرق القدوم وترغيب الناس فى الحج . وفى جملة ما بعث القبائل على زيارة الكعبة ، انه كان لكل قبيلة منها صنم خاص بها ، تأتى فى المواسم لزيارته والذبح له حتى زاد عدد الاصنام فى الكعبة على ثلثمائة صنم وفيها الكبير

(*) لم تعرف قبائل العرب قبل الاسلام الرياسة المطلقة على هذا النحو ، وانما كان فى كل قبيلة نفر من « السادة » ومفردهم سيد ، يعترف افراد القبيلة لهم بسلطان ادبى ويوقرون آراءهم ، وكان اعظم اولئك السادة عادة يعتبر سيد القوم وواجباته كثيرة ولكنها ليست محددة ، فهو يمثل القبيلة ويحمل ديات من يعجز عن دفع الدية من أفرادها ، ويطعم الضيفان وما الى ذلك ، فاذا دخلت القبيلة فى خصومة اصبحت سيادته رياسة حقيقية ، فيقود القبيلة فى الحرب ويقوم بتمثيلها أمام الخصوم وينظم القتال. هذا بالنسبة للقبائل الظاعنة، اما فى مكة ، فقد اخذت السيادة معنى حقيقيا بسبب الاستقرار وانتظام امور الجماعة ووجود الكعبة وضرورة وجود من يتولى شئونها ، ومن هنا كان تنافس القبائل وشيوخها على سدانة الكعبة حتى انتهت اخيرا الى قريش ، على يد سيدها قصى بن كلاب . ومع ذلك فان قريشا لم تنفرد بسيادة مكة ، بل شاركتها فيها القبائل الاخرى وتقاسمت معها الوظائف كما سيتضح فيما بعد من كلام جرجى زيدان نفسه

انظر : محمد بن حبيب السكرى النسابة : المحبر ، ص ١٣٩ — ٤٢٧

Marfat.com

والصغير ، ومنها ماهو على هيئة الآدميين أو على هيئة بعض الحيـــوانات أو النباتات

سوق عكاظ

وكان على مقربة من الطائف سوق يجتمع اليها الناس فى الاشهر الحـــرم ، فينصبون خيامهم بين نخيله ، يبيعون ويشترون ويتبادلون . وهى سوق عكاظ المشهورة . وكان للعرب أسواق أخرى فى أماكن أخرى . ولكن هـــذه كان يجتمع فيها أهل البلد المجاور لها .. واما عكاظ فكان يتوافد اليها العرب من كل جهة . وزادت قريش فى بواعث الاجتماع اليها بأنهم جعلوها مسرحا للأدب والشعر ، تتسابق فيه القبائل الى اظهار نوابغها من الشعراء والخطباء ، فيتناشدون ويتحاجون ويتفاخرون . ومن كان له أسير سعى فى فدائه . وكان لعكاظ فى أيام الموسم رجل يولونه الحكومة للفصل فى ماقد يقع من الخلاف أو نحوه . وكان الغالب أن يكون ذلك الحاكم من بنى تميم . ومتى فرغ الناس من سوق عكاظ ، وقفوا فى عرفة ، ثم يأتون مكة فيقضون مناسك الحج ويرجعون الى مواطنهم

وكان رجال قريش يرحلون للتجارة رحلتين فى العام : رحلة الشتاء الى اليمن ، ورحلة الصيف الى بصرى فى حوران بضواحى الشام . فكانت مكة واسطة عقد التجارة ، بين اليمن والشام . وكانت طرق التجارة خطرة ، الا عليهم لحفظ العرب حرمتهم لانهم ولاة الكعبة . وكانوا كثيرا ما يسافرون الى بلاد فارس أو الى الشام ، فيأتون من الشام بالانسجة والاطعمة ، ويحملون من فارس السكر والشمع وغيرهما

فالكعبة كانت مصدر رزق أهل مكة ، ولولاها لما استطاعوا المقـــام فى ذلك الوادى وهو غير ذى زرع . على أن أسفارهم ومخالطتهم العالم المتمدن فى أطراف العراق والشام ، جعلتهم أوسع العرب علما ، واكثرهم خبرة ودراية . ونظرا لعلاقة الكعبة بأسباب معائشهم بذلوا العناية فى القيام على شؤونهـــا ، وسهلوا على الناس القدوم اليها ، فأنشأوا فيها أماكن للسقاية وأخرى للطعام وجعلوا ما يجاورها حرما لايجوز فيه القتال ، وتولى بعضهم السقاية وبعضهم الرفادة وبعضهم غير ذلك . وما زالت تلك المناصب تتعـــدد حتى أصـــبحت قبيل الاسلام بضعة عشر منصبا ، هى عبارة عن مناصب الدولة فى ذلك العهد اقتسمتها قريش فى بطونها ، وأشهرها عشرة أبطن : هاشـــم وأمية ونوفل وعبد الدار واسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم . لكل من هذه البطون منصب أو اكثر ، واليك هى :

مناصب القرشيين

١ ــ السدانة : وهى الحجابة وصاحبها يحجب الكعبة وبيده مفتاحها .. يفتح

Marfat.com

بابها للناس ويقفله ، ولها المقام الاول عندهم . ومثل هذا المنصب قديم عند اليهود فقد كان عندهم كاهن خاص لحراسة الهيكل يسمونه حافظ الباب . وقد جعل صاحب « العقد الفريد » السدانة والحجابة منصبين

٢ ـ السقاية : وصاحبها يتولى سقاء الحجاج لقلة الماء فى مكة فينشىءحياضا من الجلد ، توضع فى فناء الكعبة تنقل اليها المياه العذبة من الآبار على الابل فى المزاود والقرب . وما زال ذلك شأنهم حتى حفرت زمزم . وكانت السقاية فى بنى هاشم

٣ ـ الرفادة : وهى خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها الى صاحب الرفادة فيصنع منه طعاما يأكله الفقراء . واول من اشار بالرفادةقصى المتقدم ذكره . وكانت الرفادة فى بنى نوفل ثم فى بنى هاشم

٤ ـ الراية : كانت لقريش راية تسمى « العقاب » فكانوا اذا ارادوا الحرب أخرجوها ، فاذا اجتمعرايهم علىواحد سلموه اياها والا فانهم يسلمونها الى صاحبها وكانت الراية لبنى عبد الدار

٥ ـ القيادة : وهى امارة الركب ، وصاحبها يسير أمام الركب فى خروجهم للقتال أو التجارة . وكانت القيادة فى بنى امية،وصاحبها منهم فى اول الاسلام ابو سفيان والد معاوية (*)

٦ ـ الاشناق : وهى الديات والمغرم وصاحبها اذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه فيه . وكانت لتيم

٧ ـ القبة : هى قبة كانوا اذا خرجوا الى حرب ضربوها وجمعوا فيها ما يجهزون الجيش به ، أشبه بما يسمى عندنا بالمهمات الحربية

٨ ـ الاعنة : وهى أعنة الخيل وصاحب هذا المنصب يتولى خيل قريش ويدبر شؤونها فى الحرب

٩ ـ الندوة : وهى دار بناها قصى بجانب الكعبة للشورى فيجتمع فيها كبارقريش للمشاورة،ولايدخلها الا من بلغ الاربعين من عمره . وكان لا يتزوج

(*) وقد استمرت قيادة قريش فى بنى عبد الدار بعد مجىء الاسلام حتى فتح مكة، فقد قادها فى موقعة بدر عقبة بن ربيعة ، وقادها فى أحد والخندق أبو سفيان بن امية
اما الاعنة فهى قيادة الفرسان من المقاتلين
والحكومة جزء من القضاء ، ولكنها كانت فيما يتصل بالحروب محاولة فض المنازعات قبل القتال . وكان الغالب ان يتولاها من قريش رجل من بنى سهم
أما الاشناق فتقدير الخسائر بعد الحروب وتقرير ما يتطلبه انهاؤها من دفع ديات وتعويضات ، وهى وظيفة فنية تحتاج الى معرفة وخبرة كما هو واضح
انظر : ابن عبد ربه : العقد الفريد :ج ٢ ص ٢٠٣
ابن الاثير : اسد الغابة . ج ٣ ص ٢٠٦
محمد بن حبيب السكرى : المحبر ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣
الازرقى : تاريخ مكة ، ج ١ ص ١٠١
المسعودى : ج ٢ ص ٥٨

Marfat.com

رجل ولاامرأة الافى تلك الدار ، ولايعقد لواءالحرب الافيها ولا تدرع(*) جارية من قريش الا فيها فيشق صاحب الدار درعها ويدرعها بيده . وكانوا يفعلون ذلك فى بناتهم اذا بلغن الحلم . وكانت دار النـــدوة فى أيدى بنى عبـد الدار (**)

١٠ ــ المشورة : وصاحبها يستشار فى الامور الهامة ، وكانت فى بنى أسد . فلم تكن قريش يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليهم

١١ ــ السفارة : هى انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم من القبـائل حرب ، وأرادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيرا . وان نافرهم حى لمفاخرة جعلوا السفير منافرا ورضوا به . وكان آخر سفراء قريش فى الجاهلية عمر ابن الخطاب قبل أن يسلم

١٢ ــ الايسار : وهى الازلام التى كانوا يستقسمون بها للاستخارة ونحوها اذا هموا بأمر عام من سفر أو قتال، فكانوا يستقسمون بالازلام بمايشبه سحب القرعة عندنا ، وكان يتولى ذلك رجل من بنى جمح

١٣ ــ الحكومة : وهى عندهم الفصل بين الناس اذا اختلفوا ، وتشبه القضاء فى الاسلام أو التحكيم (***)

١٤ ــ الاموال المحجرة : وهى أموال كانوا يسمونها لآلهتهم ، وفيهـا النقد والحلى وربما أشبهت بيت المال . وكانت ولايتها فى بنى سهم

١٥ ــ العمارة : ويراد بها أن لا يتكلم أحد فى المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته (١) (****)

فترى مما تقدم أن بعض هذه المناصب لا أهمية لها على الاطلاق . ولـكن يظهر أنهم أكثروها ليرضوا كل بطون قريش ، خوفا من التحاسد واجـــلالا لقدر الكعبة والمبالغة فى تعظيمها

وترى أيضا أنهم جمعوا بها بين السياسة والدين والادارة والحـرب ، ولكنهم اقتسموها فيما بينهم بما يشبه الجمهورية ، أو هو نوع من الحكومة

(*) درع الجارية قميصها

(**) اللواء والقيادة والاشناق من الوظائف المتعلقة بالحرب فى المجتمع المكى قبل الاسلام ، ويضاف اليها وظائف أخرى هى الاعنة والحكومة والقبة والسفارة
مصعب الزبيرى : نسب قريش (ط . بروفنسال) ص ٥٢ ، ٢٥١

(***) لم يعرف المجتمع المكى نظام القضاء ، ولم يكن هناك شخص واحد يحتكمون اليه ، وكان الغالب ان يقوم بالفصل فى المنازعات التى تقع بين افراد القبيلة الواحدة رئيس العشيرة ، أما اذا كان الخلاف بين أفراد من قبائل متعددة ، فكانوا يلجأون الى الهاتف أو العايف أو الاستقسام بالانصاب
انظر : صالح احمد العلى : محاضرات فى تاريخ العرب (بغداد ١٩٥٥) ج ١ ص ٦٠٦

(١) العقد الفريد ٣٨ ج ١ (****) وهذه الوظيفة نستطيع أن نصف صاحبها بأنه المحافظ على حرمة الحرم

Marfat.com

لا ترى له شبيها بين الامم المتمدنة ، وربما اشبهت الحكومة الشورية من بعض الوجوه ، الاأن للشورى رئيسا كالملك أو السلطان أو رئيس الجمهورية ، وليس فى هذه شىء من ذلك الا ماقد يكون لصاحب دار الندوة أو السدانة من الرياسة

النهضة العربية قبل الاسلام

اذا تدبرت تاريخ العرب قبل الاسلام علىغموضه وابهامه ، تبين لك امور تدعو الى الاعتبار وأعمال الفكرة . منها أن العربعلى اختلاف القبائل والبطون، قلما نبغ فيهم شاعر أو خطيب أو حكيم أو كاهن فى عصورهم الجاهلية الثانية الا بعد دخولهم فى القرن الاول قبل الهجرة . ولا يعترض بضياع اخبار من ظهر منهم قبل ذلك التاريخ ، فقد حفظوا أخبار عاد وثمود وصالح وهود قبل ذلك بقرون متطاولة ، وذكروا بضمة شعراء ظهروا قبل القرن الاول المذكور. فلو نبغ غيرهم من الشعراء أو الخطباء لما ضاع ذكرهم ضياعا تاما . وأما تاريخهم فى جاهليتهم الاولى وهم فى بابل أو اليمن ، فلم يصلنا منه ما يشفى الغليل

فتكاثر الشعراء والخطباء والحكماء فى القرن الاول قبل الاسلام دفعة واحدة هو ما عبرنا عنه بالنهضة العربية أو الادبية . على أنها لم تكن تقتصر على الادب والشعر ولكنها شملت الدين أيضا . فقد كان هناك نهضة دينية اضطربت فيها الافكار واختلطت الاعتقادات ، وأصبحأهل الجاهلية لايعرفونلمن يصلون ولا الى من يتوسلون . يذبح أحدهم للصنم ويدعو الى الله . وفيهم عبدة الحجارة وعبدة النار وعبدة الاصنام . وفيهم الموحدون والمشركونوغير ذلك من أنواع العبادات المتضاربة . وظهر فى أثناء ذلك الاضطراب من حرم الخمر ورفض الاصنام . وأصبح الناس يتوقعون الفرج من باب النبوة . وكان ذلك حديث الناس فى مجالسهم . فادعى النبوة غير واحد من قبائل مختلفة وهم بعضهم بادعائها مما يدل على تنبه الاذهان الى أمر الدين والتفكير فى عواقب الاعمال

سبب تلك النهضة

بينا فى ما تقدم استعداد العرب العدنانية للنهوض وأهليتهم للتمدن ، لما فطروا عليه من صفاء الذهن وسرعة الخاطر ، ولكنهم لم يكونوا يستخدمون تلك القوى لاشتغالهم بالغزو وقعودهم عن طلب العلى مع بعدهم عن العالم المتمدن . والانسان تظهر قواه بالاحتكاك او الضغط شأن القوى الطبيعية . فالفرد لا يسعى فى طلب العلى غالبا الا اذا عضه الفقر فأحوجه الرزق او نافسه منافس فى أمر يبعث الى الاستئثار به

Marfat.com

أما الامم فانما يدعوها الى طلب العلى الحروب الخارجية او الثـــورات الداخلية . والاولى أكثر تأثيرا لما يرافقها غالبا من الاختلاط بالامم الاخرى . وفى ذلك من الاحتكاك مايدعو الى الاقتباس والمنافسة . وفى التاريخ شواهد كثيرة على ذلك

غزو الحبشة

ومن هذا القبيل ما أصاب العرب فى القرنين الاخيرين قبلَ الاسلام . كان عرب الحجاز قبل الاسلام يدينون بالطاعة لدولة حمير اليمنية ، وكانوا يؤدون لهـا الاتاوة . ثم غزا الاحباش اليمن فى القـرن الرابع للميلاد وبعـده ، وتغلبوا على الحميريين فقلت هيبتهم فى قلوب العدنانيين

لكن هؤلاء ظلوا على الطاعة بعامل الاستمرار ، فاتفق أن الحميريين شددوا فى طلب الاتاوة فى سنة جدب وضيق فضاق العدنانيون ذرعا وتحدثوا فى الخروج عن الطاعة . وأول من فعل ذلك قبيلة ربيعة فى أواخر القرن المذكور واقتدى بها غيرها (١) فكان ذلك من بواعث استنهاض الهمم

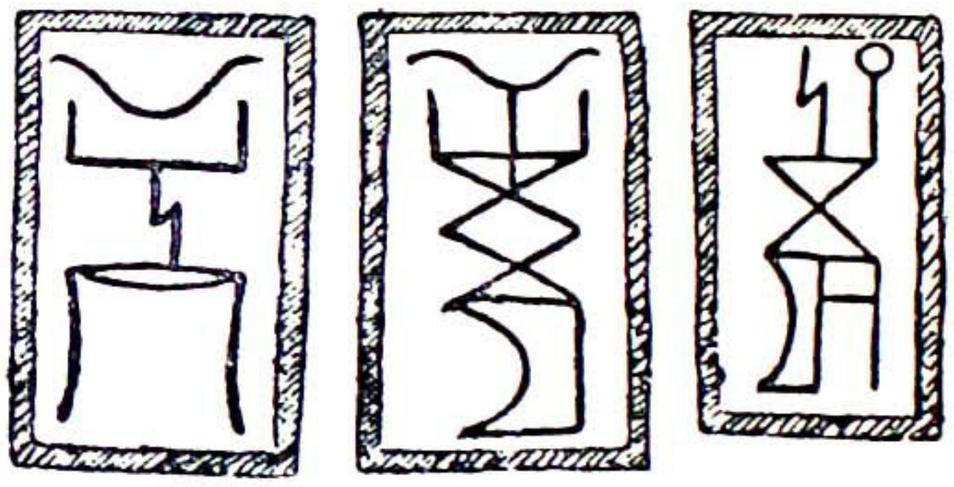

خرطوش بحرف المســـــند فيه اسماء ابرهة واراحميس وزبيمان من قواد الاحباش فى اليمن

ثم غزا الاحباش الحجاز فى أواسط القرن السادس للميلاد ، يريدون فتح مكة والاستيلاء على الكعبة . وكانت سدانتها يومئذ الى عبد المطلب جد النبى فجاء الاحباش بأفيالهم ورجالهم وعدتهم ، وأهل مكة لم يتعودوا شيئا من ذلك لما للكعبة من المنزلة الرفيعة فى نفوس القبائل وغيرهم ، فلما رأوا الاحباش قادمين شعروا بما يهددهم من الخطر ، وأحسوا بافتقـارهم الى الاتحاد لدفع الاجانب عنهم ، فدفعوا الاحباش وقد تنبهت أذهانهم وأخـذت مواهبهـم فى الظهور

ومما يدل على شدة تأثير ذلك الهجوم فى نفوسهم أنهم جعلوا يؤرخون به وهو ما يسمونه عام الفيل ، وكانوا قبل ذلك يؤرخون بموت الوليد بن المغيرة من مخزوم، أو هشام بن المغيرة (٢) . ولم يقتصر تأثير ذلك الاحتكاك على تلك النهضة

---

(١) العرب قبل الاسلام ٢٢٣ ج ١ (٢) الاغانى ١١ ج ١٥،

Marfat.com

الادبية أو الدينية ، لكنها أنتجت رجالا نبغوا فى السياسة والقيادة والادارة وكانوا من أهم العوامل تأثيرا فى سرعة انتشار الاسلام ، كما انتجت الثورة الفرنسية بونابرت ورجاله

ومهما يكن من السبب فان بلاد العرب كانت قبلَ الاسلام فى نهضة ادبية دينية تمهيدا لقبول الدعوة الاسلامية والقيام بنصرتهـا . ومثل هذه النهضة تتقدم الدعوات الدينية فى الغالب استعدادا لقبولها (*)

Marfat.com

(*) لا شك أن عرب الحجاز كانوا عندما جاءت البعثة المحمدية ـ فى حالة عقلية تمكنهم من قبولها ، وقد وصف نفر من المستشرقين ـ على رأسهم راينهارت دوزى ـ وصول العرب الى هذه الحالة بأنه نهضة فكرية كان الاسلام نتيجة لها . ذلك افتعال ومحاولة للتقليل من قيمة الرسالة الاسلامية ، خاصة اذا عرفنا ان دوزى نفسه يذهب الى ان الاسلام اوقف التطور الطبيعى لهذه النهضة ! والحقيقة ان وصول عرب الحجاز الى هذه الحالة كان تطورا طبيعيا ساعدت عليه العوامل التى اشار اليها هنا جرجى زيدان وذكرها بالتفصيل فى كتابه المفصل عن تاريخ العرب قبل الاسلام

انظر : R. Dozy. Essai sur l'Islamisme

الدولة الاسلامية .. كيف نشأت ؟

فرغنا من المقدمات التمهيدية فى حال بلاد العرب قبل الاسلام ، فنتقدم بعد ذلك الى الكلام فى نشوء الدولة الاسلامية وكيف تكونت وتطورت ، حتى صارت على ما عرفناه منها فى اوج التمدن الاسلامى

الدعوة الاسلامية

نشاة النبى الاولى

تلك كانت حالة العرب فى الحجاز لما ظهر النبى صاحب الشريعة الاسلامية ودعا الناس الى التوحيد وأظهر دعوته سنة ٦٠٩ للميلاد وعمره أربعون سنة، ولا يتسع المقام لتفصيل سيرته ، وانما نذكر هنا مايتعلق بالموضوع لبيان الاسباب التى رافقت ظهور الدعوة وساعدت على انتشارها

ولد صاحب الدعوة الاسلامية وقد مات أبوه ، وبعد ست سنوات ماتت أمه فكفله جده عبد المطلب ، وكانت له السقاية والرفادة من مناصب الكعبة وكان له مقام رفيع فى قريش ، لكنه توفى بعد سنتين ، فكفله عمه أبوطالب وكان وجيها محترما ، فشب محمد فى بيته كأحد أولاده ، وكان أبو طالب صاحب تجارة مثل سائر قريش ، فكان اذا خرج فى تجارة اصطحبه فى أسفاره، فاشتهر منذ حداثته بالحصافة والذكاء وصدق السريرة حتى لقبوه بالامين واشتهر فى مكة بهذا اللقب ، فعرفت بأمره خديجة بنت خويلد وكانت ذات ثروة وتجارة فعهدت اليه فى الاتجار بمالها فاتجر وربح فازدادت اعجابا به ، فعرضت عليه الزواج بها فتزوجها فاتسعت حاله وأصبح من أهل الرخاء واليسار والكل يحبونه ويحترمونه

الدعوة

ولما بلغ الاربعين من عمره مال الى الخلوة والاعتزال عن الناس فأوى الى الجبال والشعاب كما يفعل النساك . وأول ماابتدىء به « الرؤيا الصالحة » . وفى رمضان من تلك السنة (يناير ٦١١ ميلادية) كان معتزلا بنفسه فى غار حراء بجبل النور على ثلاثة أميال من مكة (١) ، فنزل عليه الوحى وقرأ عليه أول سورة من سور القرآن ودعاه الى أن يرددها وراءه ، فرددها . وأصابه الروع ، وأسرع الى زوجه خديجة وأنبأها بما وقع وقال : ــ ان الملك امره ان يقول :

---

(١) ابن الاثير ٢١ ج ٢

Marfat.com

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » ـ الآية ، فقراها . وانه خرج الى وسط الجبل فسمع صوتا من السماء يناديه : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » فذعر واسرع الى خديجة فأخبرها . وكان لها ابن عم اسمه ورقة بن نوفل قرأ الكتب ونظر فيها وخالط أهل التوراة والانجيل وسمع أقوالهم ، وكان مشهورا فى مكة بسعة العلم فى الدين والنبوات ، فذهبت اليه وأخبرته بما كان فقال : « والذى نفس ورقة بيده ، لأن صدقتنى يا خديجة لقد جاء الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسى وانه نبى هذه الامة »

فرجعت خديجة اليه وأخبرته بقول ورقة فاطمأن باله ، ولكنه لم ير اظهار دعوته لعلمه بما سيكون لها من ثقل الوطأة على قريش لما فيهامن تعييب آلهتهم وتحقير أصنامهم ، وفى ذهاب تلك الاصنام ذهاب تجارتهم وأموالهم وكل آمالهم . ولم يكن من الجهة الاخرى يتوقع اذا أنبأهم برسالته انهم يصدقونه فعمد الى بث دعوته سرا بين أقرب الناس اليه . قضى فى ذلك ثلاث سنين فاجتمع حوله نفر قليلون فى جملتهم ابن عمه على بن أبى طالب وكان لا يزال غلاما وأبو بكر الصديق وكان من وجهاء قريش وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم . فهم بدعوة الناس جهارا وبدأ بعشيرته الاقربين فكلف ابن عمه عليا أن يصنع لهم طعاما يدعو أهله اليه وفيهم عمومته بنو عبد المطلب وأولادهم وهم نحو أربعين رجلا . فدعاهم الى بيت أبيه أبى طالب . فلما فرغوا من الطعام هم محمد بالكلام وكان أهله قد سمعوا بدعوته سرا واستخفوا بها ، فلما هم بالكلام علموا انه سيدعوهم الى ترك الاصنام وعبادة الله فابتدره عمه أبو لهب وكان أشدهم وطأة عليه فأسكته فسكت وتفرقوا ولم يقل شيئا

لكنه لم يفشل ولا ضعفت عزيمته فأعاد الوليمة ثانية وقدصمم على التصريح بما فى ضميره فلما فرغوا من الطعام قال : « ما أعلم ان انسانا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة . وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم اليه فأيكم يؤازرنى فى هذا الامر على أن يكون اخى ووصيى وخليفتى فيكم ؟ »(٢) فظلوا ساكتين وجل سكوتهم استخفافا . فتقدم على ابن عمه وقال : « انا يا نبى الله أكون وزيرك عليهم » فأخذ النبى برقبته وقال : « هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا » فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : « قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيعه » ثم انصرفوا

النبى وقريش

على ان استخفافهم هذا لم يقعده عن عزمه ولا ابعده عن قومه ، فبدلا من وقوفه عند ذلك الحد تهيبا وحذرا جاهر بسب الاصنام ونسب اهله وآباءهم

---

(١) ابو الفداء ١١٩ ج ١

Marfat.com

الى الكفر والضلال ، فلما علموا بمجاهرته بسب الاصنام أجمعوا على عداوته ومقاومته وتعمدواأذاه لكنهم لم يروا سبيلا الى ذلك وهو فى كفالة عمه أبى طالب . . فجاءوا عمه وفيهم أبو سيفان فقالوا له : « يا أبا طالب ان ابن أخيك عاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فانهه عنا أو خل بيننا وبينه » فـردهم أبو طالب ردا حسنا ووعدهم خيرا

ثم رأوه لا يزال ماضـيا فى سب آلهتهم فعـادوا الى أبى طالب وقد اشتد بهم الغيظ وقالوا له : « ان لم تنه ابن أخيك والا نازلناك واياه حتى يهلك أحد الفريقين » فعظم ذلك على أبى طالب وأدرك عاقبة الأمر فلما عادوا من عنده قال لابن أخيه : « يا ابن أخى ان قومك قالوا كذا وكذا » فظن أن عمه يخذله فشق عليه ذلك وقال : « يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى ما تركت هـذا الامر » وبكى وهم بالانصراف فناداه عمـه وقال له : « قل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك ابدا » (*)

وكانت دعوته فى أثناء ذلك تذيع على مهل ، وقد أسلم جماعة من خيرة الناس كان لهم شأن عظيم فى التاريخ الاسلامى منهم أبو بكر الصديق وعثمان ابن عفان والزبير بن العوام وعبدالرحمن بن عوف وحمزة بن عبد المطلب (عمه) وعمر بن الخطاب . وكان لاسلام هذين الاخرين وقع حسن عند النبى لانهما كانا من أهل الوجاهة والقوة

أما سائر أعمامه وأهله فلما يئسوا من وساطة عمه أبى طالب ، رأوا ان يحتالوا فى استرضائه بالحسنى ، فبعثوا اليه وقد اجتمع كبارهم فى ندوة . . فجاء فاستقبلوه بالترحاب وقالوا له : « يا محمد انا قد بعثنا اليك لنكلمك وانا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك . لقد شتمت الآباء وعبت الدين وشتمت الآلهة وسفهت الاحلام وفرقت الجماعة فما بقى أمر قبيح الا قد جئته فيما بيننا وبينك ، فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وان كنت انما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا . وان كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطلب ، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك »

فقال لهم : « مابى ما تقولون وما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وانزل على كتابا وأمرنى ان اكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فان

(*) يتابع المؤلف هنا رواية أبى الفدا ، ويستطيع القارىء أن يراجع سيرة النبى لابن اسحاق برواية ابن هشام فهى اكثر تفصيلا ، انظر ج ١ ص ٢٨٠ وما بعدها ، طبعة مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ١٩٣٦

تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وان تردوه على اصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » (*)

فلما لم يروا سبيلا اليه جعلوا يعذبون الذين اسلموا وصدقوا دعوته والمسلمون صابرون على ذلك العذاب . حتى اذا اشتد أذى قريش لهم وضاقوا ذرعا عن تحمل ما كانوا يسومونهم من سوء العذاب والاهانة ، أشار النبى على الذين ليس لهم عشيرة تحميهم أن يخرجوا من مكة الى أرض الحبشة . فهاجروا اليها تباعا فبلغ عدد المهاجرين ٨٣ رجلا ماعدا النساء والاولاد ، وهى الهجرة الاولى . ولا يخفى ما تقتضيه الاسفار من مكة الى الحبشة من المشقة لما فى ذلك من ركوب البحر وخصوصا فى تلك الازمان مع ما حملوه معهم من النساء والاطفال . فيدل ذلك على ما كان عليه هؤلاء من الاعتقاد المتين بالاسلام

ويليق بنا الوقوف هنيهة فى هذا المقام لابداء ما ارتسم فى مخيلتنا من امر هذه الدعوة على أثر مطالعتنا الطويلة فى تاريخها فنقول :

هل كان يعتقد صدق رسالته ؟

زعم بعض الكتاب من غير المسلمين ان صاحب الشريعة الاسلامية انما قام بهذه الدعوة طمعا فى السيادة ورغبة فى ملاذ الدنيا

وأما نحن فلا نرى مسوغا لهذا القول وتاريخ الدعوة يدل دلالة صريحة على أنه انما قام بها عن صدق واخلاص . فلم يدع الناس الى الاسلام الا وهو يعتقد اعتقادا متينا بصحة رسالته وأن الله أرسله لبث تلك الدعوة . ولولا هذا الاعتقاد لم يصبر على ما ناله من الاضطهاد وضروب العذاب . وقد رأيت أنه كان قبل ظهوره بالدعوة موضع احترام اهل مكة كافة ، واهله يحبونه ويكرمونه وهو فى عيش هنىء لما اكتسبه من أسباب اليسار بزواجه بخديجة واتجاره بأموالها ، فأصبح بعد ظهوره بالدعوة وقد ناصبه أهل مكة العداء وساموه أنواع العذاب وأهانوه . حتى نقموا على بنى هاشم لانهم أهله فتعاقدوا أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة أودعوها فى جوف الكعبة (**) . فاضطر بنو هاشم أن ينفروا الى الجبال فأقاموا فى الشعب ثلاث سنين لا ينزلون مكة الا خفية ـ الا من جاهر منهم بعداوته للمسلمين كأبى لهب ونحوه

ولا يعترض على ما تقدم بأنه لم يثبت الا لاحتمائه بعمه ابى طالب ، لاننا رأيناه بعد وفاة عمه أكثر ثباتا منه فى حياته ، مع أن الناس اصبحوا اكثر اضطهادا له مما كانوا قبل وفاته ، وخصوصا بعد وفاة خديجة وقد ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين ، فتتابعت بموتهما المصائب عليه ، واستبدت به قريش

(*) ابن اسحاق : سيرة النبى ، ابن هشام ، ج ١ ص ٣١٥ ـ ٣١٦

(**) انظر ابن اسحاق : سيرة النبى ، برواية ابن هشام ، ج ١ ص ٣٧٥ وما بعدها

Marfat.com

ولا سيما عمه أبو لهب والحكم بن العاص وعقبة بن أبى معيط لانهم كانوا جيرانه بمنزله ، فكانوا يلقون الاقذار فى طعامه ، ويرمونه بها وقت صلاته

حتى اذا لم يعد يستطيع صبرا على هذا الضيم لجأ الى الطائف لعله يلقى فيها من ينصره ويؤمن بدعوته . فلم يلق الا الاعراض والاذى ، فعاد وقد يئس منهم لكنه لم يرجع عن حرف من دعوته . ولم يكتف أهل الطائف باعراضهم عنه بل أغروا بعض سفهائهم وعبيدهم أن يسبوه ويصيحوا به ففعلوا حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى الحائط (*) وردوا السفهاء عنه فرجعوا ، فأحس عندئذ بما هو فيه من ضيق فشكا أمره الى الله ، وعاد الى مكة ولم يغير ذلك شيئا من عزيمته ، فلقيه قومه هناك وهم أشد وطأة عليه مما كانوا من قبل

فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبهم وبعيدهم مع علمه انه اذا رجع عن دعوته لقى منهم ترحابا واكراما كما صرحوا له جهارا ، لكنه لم يكترث لشيء من ذلك ولا أهمه أمر الدنيا

فلولا اعتقاده المتين بصدق الدعوة التى قام بها وانه منتدب لهذه الرسالة من الله سبحانه وتعالى لما صبر على ذلك كله

اهل المدينة والدعوة

ولما يئس من أهله ومواطنيه جعل يعرض نفسه على القبائل فى أيام الحج لعله يلقى فيهم من يصغى اليه وأهله يعترضونه ويقفون فى سبيله ، وخصوصا عمه أبو لهب فانه كان اذا رآه فى جماعة يخاطبهم فى شأن الاسلام اعترضه وقال للناس : « انما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم الى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه » . ولكن ذلك لم يقعده عن دعوة الناس ومازال يعرض نفسه عليهم فى المواسم ، حتى بايعه نفر من أهل يثرب كانوا وسيلة لنشر الاسلام فى تلك المدينة فى برهة قصيرة

ولعل السبب فى سرعة انتشار الاسلام هناك كثرة من فى المدينة من اليهود وهم أهل كتاب يعتقدون الوحى ويدركون معنى النبوة . وليس فيهم من يخاف على تجارته اذا بطلت عبادة الاصنام . بل هم يفضلون ابطالها لتسقط مكة وتنهض مدينتهم وخصوصا اذا هاجر اليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزا للدين الجديد يحج اليها الناس بدلا من حجهم الى مكة . واليهود كما لا يخفى أهل نظر فى التجارة وأصحاب فراسة فى أبواب الكسب . ناهيك بما كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة والتحاسد لتباعدهما فى الانساب،

(*) البستان أو الحديقة • انظر ابن اسحاق : سيرة النبى برواية ابن هشام، ج ٢ ص ٦١

Marfat.com

لان اهل مكة من العدنانية واهل المدينة من القحطانية عرب اليمن ، فنشطه أهل يثرب ودعوه اليهم على أن ينصروه ، فهاجر اليهم سنة ٦٢٢ للميلاد . وهاجر معه من بايعه من قبيلته وهم « المهاجرون » تمييزا لهم عن الفئة الاخرى من الصحابة وهم « الانصار » أهل يثرب ، سموا بذلك لانهم نصروا النبى فى مدينتهم ، وبهذه الهجرة يؤرخ المسلمون وقائعهم الى الآن، وقد سميت يثرب ــ عندما عم الاسلام أهلها ــ بمدينة النبى ، ثم اختصر الى المدينة ،ولزمها هذا الاسم الى الآن

ولقى المسلمون فى المدينة ترحابا عظيما فاشتد أزرهم وتحولوا الى محاربة أهل مكة ، فجعلوا يناوئونهم فى أثناء مرورهم بتجاراتهم بين الشام ومكة وفى أماكن أخرى ، ووقعت بين الجانبين وقائع كثيرة هى الفزوات المشهورة . أعظمها غزوة بدر الكبرى التى انتصر المسلمون فيهـا وكانت فاتحة انتصاراتهم فى الفزوات الاخرى ، حتى أخضعوا جزيرة العرب كلها وفتحوا مكة واسلم القرشيون كافة ، فوجه النبى التفاته الى العالم الخارجى وخاطب الملوك يدعوهم الى الاسلام كما سيأتى

الروم والفرس

عند ظهور الاسلام

الروم

تأسست رومية (روما) سنة ٧٥٣ قبل الميلاد وقامت معها الدولة الرومانية ، وظلت رومية كرسى تلك الدولة عشرة قرون ونصف قرن ، وقد فتحت العالم المعمور يومئذ كله . وفى مايو سنة ٣٣٠ أصبح انقسام الدولة الرومانية الى قسمين ، شرقى وغربى ، حقيقة واقعة بعد ان كان مجرد تقسيم ادارى منذ سنة ٢٩٥ ميلادية . ذلك ان قسطنطين اتفق مع زميله ليسينيوس على اقتسام الدولة ، وتولى هو القسم الشرقى واتخذ بيزانطيوم عاصمة له ، وسماها القسطنطينية ، وهيأ لها كل مقومات العواصم الرومانية ، حتى لقد نقل اليها اعدادا من سكان روما وأعضاء مجلس الشيوخ

وبعد وفاته سنة ٣٣٧ م اختلف أولاده الثلاثة ، ثم انفرد بالامر أحدهم وهو قسطنطيوس ، ولكنه لم يستطع الاستمرار ، وصار الامر الى واحد منهم توفى سنة ٣٦٠ م ، فخلفه يوليان ثم جوفيان سنة ٣٦٤ م ، ثم توفى هذا بعد بضعة أشهر ، فانتخب الرومان امبراطورا اسمه فالنتيان . وبعد قليل نصب فالنتيان أخاه فالنس امبراطورا على رومية . وتم انفصال المملكة الرومانية على أثر ذلك الى مملكتين احداهما شرقية عاصمتها القسطنطينية والاخرى غربية عاصمتها رومية . وكانت الاولى أسعد حظا واطول عمرا فأصبحت القسطنطينية مبعث العلم ومركز السلطنة ومرجع الدين للجزء الشرقى من الدولة الرومانية القديمة

وكانت حدود الدولة الرومانية الشرقية فى القرن الخامس للميلاد غير ثابتة، ولكننا نستطيع القول بصورة عامة أنها كانت تنتهى فى الغرب بالبحر الادرياتى وفى الشرق بضفاف دجلة . وتمتد حدودها الشمالية الى جنوبى ما يعرف اليوم بروسيا ، بما فى ذلك شبه جزيرة القرم . وتنتهى فى الجنوب الى بلاد النوبة . وأرقى عصور هذه الدولة بعد قسطنطين الكبير عصر جستنيان (من سنة ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) تولاها ٣٧ سنة ، قضى الخمس الاولى منها فى محاربة الفرس الساسانية ، وانتهت الحرب بمعاهدة سموها « معاهدة الصلح الدائم » لكنها لم تدم . ومن حسن حظ هذا الامبراطور أنه رزق بقائدين من أشهر قواد

العصور الوسطى هما : بليزاريوس ونارسيس فتحا له ايطاليا ورفعا اعلامه فوق أسوار روما شمالى افريقية وغيرها . وكانا عونا له فى سائر فتوحه وساعده الاقوى فى توسيع نطاق مملكته

الفرس

والعداوة بين الفرس والروم (اليونان) قديمةربماتجاوزتالقرنالخامسقبل الميلاد ، وسببها التنازع على السيادة فىالعالم لانهما كانتا اعظم دول الارض ، تلك العصور ، فأرادت كل منهما الاستئثار بالسلطان دون الاخرى ، واتصلت تلك العداوة الى زمن الاسكندر الكبير ثم اتصلت فى عصور الرومان الى أيام الاسلام

وأفضى عرش الفرس فى أيام جستنيان المذكور الى كسرى أنوشروان المشهور بالعادل ، فلم تعجبه مصالحة الروم فحمل عليهم بخيله ورجله ، ففتح سوريا وأحرق انطاكية ونهب آسيا الصغرى ، فبعث جستنيان اليه

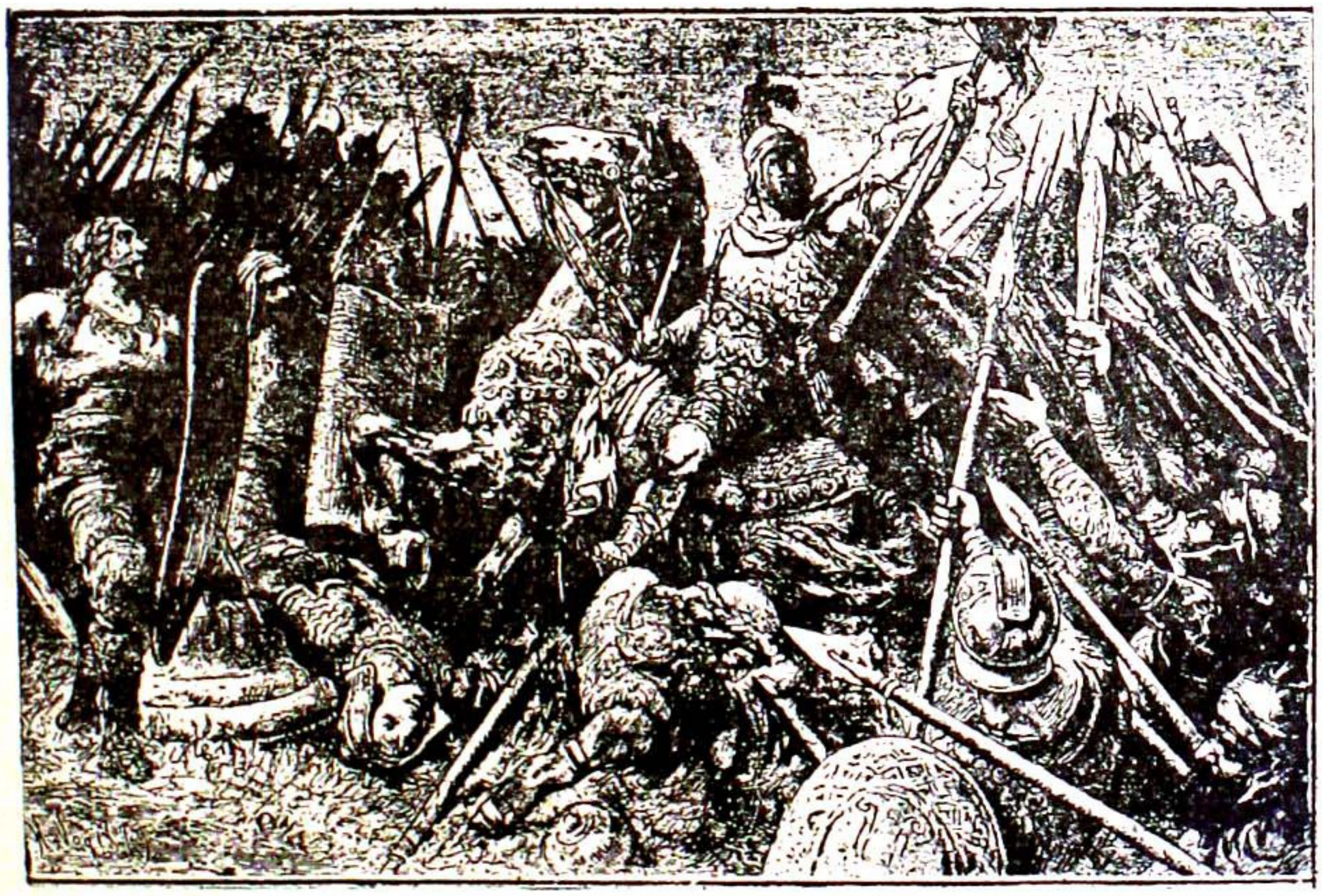

القائد بليزاريوس يقود جنوده فى احدى المعارك ضد الفرس

بليزاريوس فحاربه ورده على أعقابه ، ثم عاد وعادوا وتوالت الحروب بين الدولتين نحو عشرين سنة (من سنة ٥٤١ الى ٥٦١ م) وقد مل الملكان وشاخا فتوافقا على صلح قضى فيه على جستنيان بجزية سنوية مقدارها ٣٠٫٠٠٠ دينار . وظلت حدود المملكتين كما كانت قبل الحرب

Marfat.com

وللامبراطور جستنيان ذكر مجيد فى تاريخ الدولة البيزنطية ، بسبب اتساع حدودها على أيامه واستعادتها للكثير مما كانت قبائل الجرمان قد استولت عليه من ولايات الدولة الرومانية ، وبسبب ماقام به من أعمال خلدت ذكره على مدى التاريخ ، منها اجتهاده فى تكوين مجموعات القوانين الرومانية المعروفة وأشهرها المجموعة المعروفة الى اليوم بمدونة جستنيان التى كانت أساسا لما وضع بعدها من القوانين فى أوروبا الى اليوم . وقد ادخل صناعة الحرير الى أوربا وبنى الكنائس والمعاقل والقصور ، وأشهر ما يذكر به كنيسة أيا صوفيا ، التى جعلها العثمانيون عند فتح القسطنطينية جامعا لايزال معروفا بهذا الاسم الى اليوم

كنيسة اياصوفيا التى بناها جستنيان ، وهى الآن جامع

ولكن الدولة المطلقة انما يكون حظها من السعادة أو الشقاء كما يكون ملكها . فان كان عظيما عظمت أو كان حقيرا حقرت . فلما توفى جستنيان خلفه أناس لا يليقون بالملك فلم تعد تعرف السعادة بعده ـ خلفه ابن أخيه جستين الثانى ثم طيباريوس ثم الامبراطور موريس (موريقوس) وقد ضعف أمر الدولة . فأراد هذا الامبراطور أن يقويها بفتح الشرق فناصب الفرس وحاربهم سبع سنين، وقد توفى كسرى أنوشروان سنة ٥٧٩ ، وخلفه ابنه هرمز الرابع ، وكان عاتيا فثار عليه رعاياه ، فاشتغل باخماد ثورتهم ، والروم يوغلون فى بلاده

Marfat.com

من العراق ، والتركمان يسطون عليها من الشمال والشرق ، حتى كادت تذهب فريسة الفاتحين لو لم يقيض لها الله قائدا شهيرا يعرف ببهرام فحارب العدوين وأنقذ البلاد منهما ، فمال الفرس اليه فانزلوا هرمز وسملوا عينيه وملكوا عليهم ابنه كسرى ابرويز ، فلم يقبل بهرام ، واذله ففر ابرويز الى القسطنطينية واستنجد الامبراطور موريس ، فأنجده بجيش تغلب به على بهرام واستعاد الملك ، فعرف أبرويز ذلك الفضل لموريس وما زال على ولاء الروم الى وفاة موريس

أما هذا الاخير فقد مات مقتولا سنة ٦٠٢ م وخلفه الامبراطور فوقاس ، وكان فوقاس جلفا جاهلا فأبغضته الرعية والتمسوا من ينقذهم منه . وكان من جملة ولاة الامور يومئذ وال على أفريقية اسمه هراكليوس (هرقل) فاستنجده أهل القسطنطينية ، فأنفذ اليهم عمارة بحرية تحمل جيشا يقوده ابنه ، وكان يسمى هرقل أيضا ، فقتل فوقاس وتربع فى دست الامبراطورية مكانه سنة ٦١٠ وفى أيامه ظهر الاسلام

بين الروم والفرس

ورأى ابرويز بابا لمناواة الروم فادعى انه يريد الانتقام من قتلة صديقه موريس فزحف بجنده على سوريا سنة ٦١٤م وناصره يهودها على البيزنطيين ، ففتحها وفتح مصر واستولى على انطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن أخرى من سوريا وفلسطين ، ثم أباح لجنده نهب أورشليم (بيت المقدس) فنهبوها وأحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا خزائنها وحملوا بطريركها والصليب الحقيقى الى بلادهم ، وواصلوا القتل والنهب فى سوريا سنة ٦١٦م فكان عدد الذين قتلوا من المسيحيين ٩٠٠٠٠ نفس ، وأرسلوا جندا آخر الى آسيا الصغرى ففتحوها وكان النصر حليفهم حيثما حلوا حتى كادوا يطأون شواطىء البوسفور

كل ذلك والامبراطور هرقل معتزل فى قصره وقد انغمس فى اللهو والقصف والترف لا يبالى بما يهدد مملكته (*) . وكأنه لما تحقق وقوع الخطر

(*) هذه كانت الفكرة القديمة عن هرقل . ولكن الحقيقة أن أحوال الدولة حتى سنة ٦٢٢ لم تكن تسمح له بأن يقوم بأى شىء امام الفرس ، فقد كانت عندما تولى امرها سنة ٦١٠ فى حالة ضعف بالغ نتيجة لحكم فوقاس ، ثم ابتليت بأوبئة اهلكت من اهلها الوفا . وقد أنفق هرقل اثنتى عشرة سنة فى تكوين جيش بيزنطى جديد من عناصر قوقازية عفية ، فلما تم له ذلك خرج فى حملته الكبرى على فارس سنة ٦٢٢ وانزل بجيوش الفرس التى كان يقودها شهرباز وشاهين هزائم قاصمة ، واستمر منتصرا الى سنة ٦٢٦ ، وفى هذه السنة اضطر الى العودة الى القسطنطينية ، لان البلغار حاصروها وكادوا يستولون عليها ، وتمكن هرقل من هزيمتهم ، ثم عاد الى الميدان الشرقى ، فأوغل فى فارس حتى استولى على دستجرد من ضواحى طيشقون ، عاصمة فارس التى يسميها العرب « المدائن » وفى هذه الظروف ثار سرويز ولى عهد فارس على أبيه قباذ وخلعه وتولى مكانه ، وعقد الصلح مع هرقل فى سنة ٦٢٨.

نفض غبار الخمول عن عاتقه وخرج للدفاع ، ولم يكن عنده مال ينفقـــه فى التجنيد فاقترض اموال الـكنائس على أن يعيدها بعـد الحرب مع رباها ، وحشد جنده وركب البحر الى كليكيا فى آســـيا الصغرى واحتل ايسوس فلقيه الفرس هناك فحاربهم وغلبهم سنة ٦٢٢ م ، وفى هـــذه السنة هاجر المسلمون من مكة الى المدينة

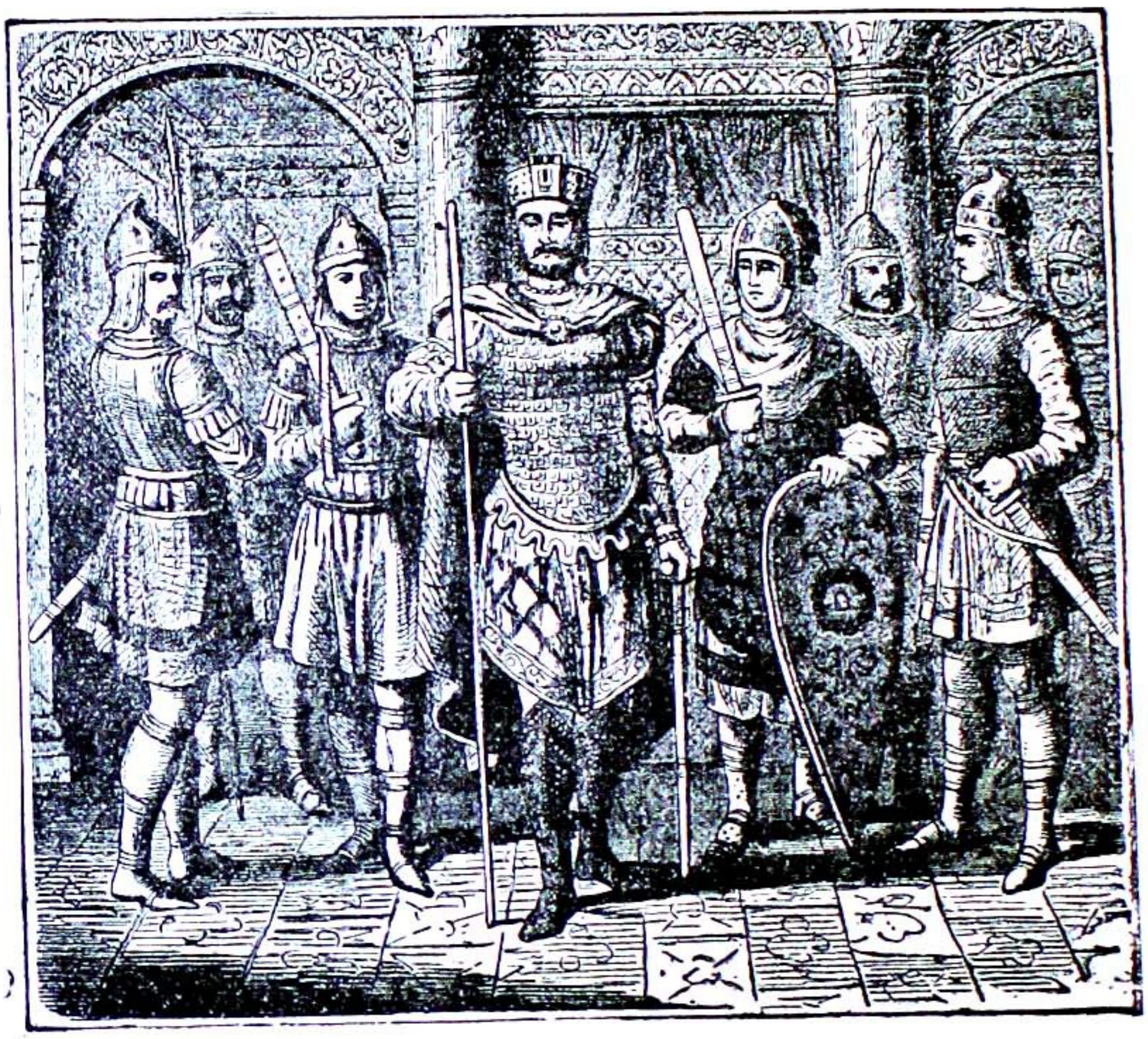

هرقل ملك الروم وحاشيته

قضى هرقل فى محاربة الفرس ثلاث سنين متوالية حتى أوغل فى بلادهم واضطر ابرويز أن يسحب جنده للدفاع عن قلب مملكته

أما هرقل فانه حاربه مرة اخرى سنة ٦٢٧ م فأجهز على قواته وانكسر الفرس انكسارا عظيما . وبلغت جنود الروم نينوى عاصمة الاشوريين القديمة وهى أول مرة وطىء الروم فيها تلك المدينة . وكان أبرويز قد أصبح شيخا طاعنا فى السن فأوصى بالملك لابنه مردز . وكان له ابن آخر اسمه شـــيرويه حسده أخاه وعمد الى الـكيد له ولابيه ، فاستعان ببعض الناس حتى قبض على من بقى من أولاد ابرويز وهم ثمانية عشر ولدا فقتلهم جميعـــا بين يدى أبيه وزج أباه فى السجن حتى مات

وارتد هرقل الى بلاده وقد انكسرت شوكة الفرس الى الابد ، وضعف البيزنطيون بسبب هذه الحروب ضعفا زائدا . وفى هذه الاثناء كان العرب يتأهبون لفتح الدولتين معا

Cf: Ch. Diehl et G. Marçais: Le Monde Oriental.

وبموت كسرى أبرويز انقضى مجد الدولة الساسانيـــة ولم يعش ابنه شيرويه بعده الا ثمانية أشهر فأصبحت حكومة الفرس فوضى ، وادعى الملك تسعة ملوك فى أربع سنوات . فساد الفساد وتمكن الاختلال فيها فجاءها المسلمون وهى فى تلك الحال

ناهيك بما كان يهـــدد الروم فى أوربا من هجمات برابرة القوط . وكان هؤلاء فى أوائل الاسلام قد استولوا على غربى هنجاريا (المجر) . وزد على ذلك ان الهون كانوا فى أثناء ذلك يهددون مملكة الروم من جهة الشرق

الانقسامات الدينية

ولم يكن الاختلال فى دولتى الروم والفرس مقصورا على الوجهة السياسية والادارية ، ولـكنه كان يتناول الاحوال الاجتماعية والدينية بما تفاقم فيها من الانقسامات المذهبيـــة مما هو مشهور ، فقـــد كان الروم حوالى القرن السادس للميـــلاد فى منتهى التضعضع ، لتعدد الفرق وتشعب المـذاهب وخصـــوصا فيما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيئة والمشيئتين . واكثر اختلافهم على الالفاظ والجوهر واحد

فـكان الامبراطور وأهل دولته يقولون ان للمســيح طبيعتين ومشيئتين ، وأما رعيته فى مصر والشام فـكان أكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة . وفى زمن هرقل سعى البطريرك اثناسيوس بطريرك اليعاقبة فى منبج فى التوفيق بين الطائفتين ، فخاطب الامبراطور فى ذلك وذهب مذهبـــا متوسطا بين القولين ، وهو أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة . فوافقه الامبراطور واستمهله ريثما يخابر بطريق القسطنطينية بيروس وهو سورى الاصل . وكان اثناسيوس قد اتفق معـــه على ذلك قبل مخاطبـة الامبراطور ، فنشر الامبراطور بهذا المعتقد منشورا قبـــله أكثر الاساقفة الشرقيين الا صفرونيوس بطريق بيت المقدس وبعض الاساقفة ، وفى مقدمتهم أسقف عمان وسائر أهل الـكنيسة الملـكية . فشـــق ذلك على الامبراطور فعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا منشوره وفيهم جانب عظيم من الروم ، فأصبح الانقسام مزدوجا : الامبراطور وبطارقة القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية حزب يقول بطبيعتين ومشيئتين ، واليعاقبة ومنهم الاقباط واهل حوران وسائر أهل داخلية سوريا ومصر حزب آخر ، والنساطرة وهم اهل العراق والجزيرة حزب ثالث . فضـــلا عن طوائف اخرى غير هـذه منهم الخياليون الذين يقون ان المسيح لم يصلب حقيقة ، وانما صلب رجل آخر مكانه . والاكيفاليون القائلون بعدم الخضوع للرؤساء وهم يشبهون الخوارج . ثم ان اليعاقبة أيضا كانوا اقساما مما يطول شرحه

القرشيون يفتدون أسراهم ، فاجتمع من ذلك مال كثير . وقد عاد أهل مكة مخذولين ، فانكسرت شوكتهم وعظم أمر المسلمين . ومما زادهم تأييدا أن أبا لهب المشهور بمقاومة الاسلام ، لم يخرج يوم بدر من مكة ، لـكنه أرسل من يحارب عنه على جارى عادتهم فى من يتخلف عن الحرب . فلما أخبروه بفشل القرشيين اشتد به الحزن حتى مات بعد بضعة أيام . ولواقعة بدر شأن عظيم فى تاريخ الاسلام ، لانها كانت فاتحة الانتصارات الاخرى

واقعة أحد

ثم ان القرشيين عادوا بعد هذه الـكسرة فاجتمعوا فى السنة التـالية ، وقائدهم أبو سفيان وعـددهم ثلاثة آلاف فيهم ٧٠٠ دارع و ٢٠٠ فرس ، وتهيأوا للاخذ بثأر قتلاهم فى بدر ، وساروا لمهاجمـة المدينة ومعهم النساء يضربن الدفوف ويندبن قتلى بدر ويحرضن النـاس على مقاتلة المسلمين ، وكان فى جملة رجال الحملة خالد بن الوليد الذى اشتهر بين قواد المسلمين بعد ذلك . فلما أقبلوا على المدينة تشاور النبى وأصحابه فكان رأيه البقاء فى المدينة للمدافعة ، ورأى مثل ذلك أيضا رجل من الصحابة اسمه عبد الله ابن أبى بن سلول . ولـكن أكثر الصحابة اشاروا بالخـروج عليهم ، فأطاع النبى الاكثرية وخرج فى ألف منهم حتى توسطوا بين المدينة وجبل أحـد . وباسم هذا الجبل سميت هذه الواقعة « غزوة أحد » . وكان ابن أبى هذا قد غضب لان النبى خالف رأيه وأطاع الآخرين ، فلما توسطوا الطريق تقهقر هو وثلث الرجال وأشاع القرشيون فى الجنـد أن محمدا قتـل ، ففشل المسلمون ولم يظفروا فى هذه الواقعة ، وقتل منهم حمزة بن عبد المطلب عم النبى ، وكان قتله سببا فى زيادة الفشل كما كان اسلامه مؤيدا للاسلام . وبلغت جملة قتلى المسلمين سبعين رجلا ، وأصيب النبى نفسـه بضربة شجت رأسه ودخل بعض حلق المغفر (الدرع) فى الشجة فسـال الدم . ومثل القرشيون بقتلى المسلمين تمثيلا شنيعا ، فقطعوا الآذان والانوف حتى ان هندا بنت عتبة امرأة أبى سفيان (وأم معاوية) شقت بطن حمزة وأخرجت كبده ولاكتها فلم تستطع أن تبتلعها فلفظتها

وكانت هذه الواقعة أشد ما أصاب المسلمين الى ذلك الحين ، لـكنهم كانوا قد ذاقوا لذة النصر فنسبوا هذا الفشل الى خيانة عبد الله بن أبى المتقدم ذكره ، وعادوا الى مواصلة الغزو حتى كانت واقعة الخندق

واقعة الخندق

وذلك أن قبائل العرب لمـا رأوا انتصار القرشيين فى أحد تحزبوا لاهل مكة وانضموا اليهم ، وفيهم قريش وغطفان وسائر قبائل العرب وبنو النضير

Marfat.com

من اليهود ـ وكان المسلمون قد أجلوهم عن اماكنهم كما سيأتى فحرضوا قريشا على الحرب ـ وحملوا على المدينة فى بضعة عشر الفا ونحو اربعمائة فرس وألف بعير ، وهم الاحزاب وبهم تعرف الواقعة ايضا . وكان المسلمون لا يزيد عددهم على ثلاثة آلاف ، فاضطربوا وخافوا ، وقد تعلموا من الواقعة الماضية أن لا يخرجوا من المدينة

وكان فى جملة الصحابة يومئذ رجل من فارس له خبرة بفنون الحرب اسمه سلمان الفارسى ، فأشار على النبى بحفر الخندق ـ وكان العرب لا يعرفون ذلك من قبل ـ فقال له سلمان : « كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا ، فان ذلك من مكايد الحرب » فاستحسن النبى ذلك وأمر بالحفر . وكان هو نفسه يشتغل معهم بحمل التراب ، ولم يكن عندهم العدد اللازمة فاستعاروا بعضها من بنى قريظة ، فاحتفروا الخندق حول المدينة فى بضعة عشر يوما (*)

وأقامت الاحزاب حول المدينة وحاصروها والخندق يمنعهم من مهاجمتها، فقضوا بضعة وعشرين يوما لا يقاتلون الا بالمراماة بالنبال والحصى ، وقد هالهم أمر الخندق وعلموا أنها مكيدة جديدة ، على أن بعضهم حاول الوثوب بفرسه من فوق الخندق فسقط فيه واندقت عنقه ، فزاد الرعب فى قلوب الاحزاب . فلما طال بهم الانتظار عمدوا الى البراز ، فخرج أحدهم وطلب البراز فخرج اليه على بن أبى طالب فغلبه على . واتفق على أثر ذلك سقوط الامطار وهبوب الرياح ، فأثرت فى خيام الاحزاب وكفأت قدورهم ، وأهل المدينة فى منازلهم قلما أثرت فيها الانواء ، فتشاءم أولئك وعادوا على أعقابهم، فزال عن المسلمين عار أحد بهذه الهزيمة

الفتوح

كل ما تقدم من الحروب لا شىء من الفتح فيه وانما هو غزو ومقاتلة ، وأما الفتوح الاسلامية فأولها فتح أرض بنى النضير وهم يهود ، حدث حادث دعا الى مطالبتهم بالجلاء عن بلادهم (**) فطلب النبى ان يجلوا عنها فحاصرهم

(*) انظر عن سلمان والاساطير الكثيرة التى نسجت حوله :

L. Caetani, Annali dell'Islam, V 399-417

C. Huart, Selman du Fars in Mél Derenbourg, Paris 1909

L. Massignon, Salman Pak et Prémices Spirituelles de l'Islam Iranien. Tours 1934

(**) سبب خروج النبى (صلعم) الى بنى قريظة ويهود خيبر معروف ، وهو مؤازرتهم لقريش وحلفائها على المسلمين فى محنة الاحزاب

انظر : ابن اسحاق ، ج ٢ ص ٢٤٤ وما يليها

Marfat.com

ستة أيام « سنة ٤ هـ » ، فطلبوا اليه أن يخلى سبيلهم على أن يحملوا معهم ما حملت الابل من أموالهم الا السلاح ، فأجابهم الى ذلك فخرجوا وظل مابقى من أموالهم فيئا للنبى خاصة يعطى منه من يشاء . وكذلك حصل فى قريظة وخيبر ، وكان لخيبر حصون كثيرة فتحوها تباعا

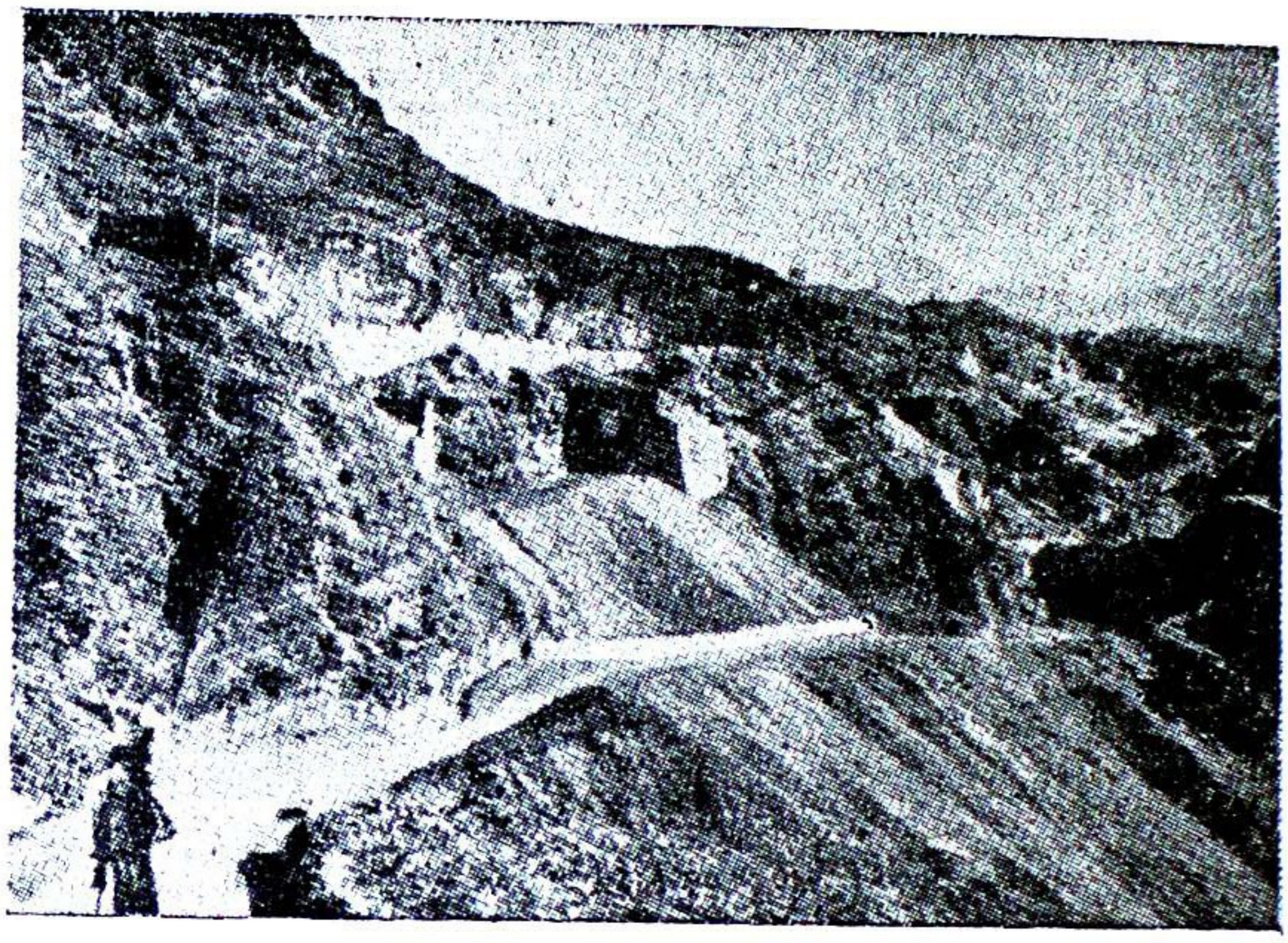

حصن خيبر

أما القرشيون بعد واقعة الخندق فقد هان عليهم مهادنة المسلمين ، فعقدوا معهم صلحا فى نحو السنة السادسة للهجرة مفاده « أن من شاء من أهل المدينة أن يقدم مكة للحج أو العمرة أو ان يجتاز بها الى اليمن أو الطائف فهو آمن . ومن قدم من اهل مكة او من معهم من أهل الشام والمشرق ومر بالمدينة فهو آمن (*)

واقعة مؤتة

فتفرغ المسلمون لنشر الدعوة الاسلامية ، وكان لفشل الاحزاب مع كثرة عددهم تأثير شديد على قبائل العرب وعظم الاسلام فى نفوسهم ، فجعلوا يفدون الى المدينة لقبول الدعوة من تلقاء أنفسهم ، وفى جملة الوافدين رجلان لهما شأن عظيم فى تاريخ الاسلام ، هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وكلاهما من أشهر القواد ، فاعتز المسلمون بهم واتسعت آمالهم ، فأرسل النبى فى السنة التالية رسله الى ملوك الارض يدعوهم الى الاسلام ، فى جملتها

(*) هذا هو الصلح المعروف بصلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة

Marfat.com

كتاب الى المقوقس والى مصر ، وبعث (سنة ٨ هـ) جندا لمحاربة الروم فى الشام ، فحاربوهم فى قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام مما يلى حوران اسمها مؤتة . وتلك أول حروبهم مع الروم ، والعرب لم يجربوا الجنود المنظمة بعد ، فلم يفلحوا فعادوا الى المدينة وقد قتل منهم بضعة من خيرة الصحابة فيهم زيد بن ثابت وعبدالله بن رواحة وجعفر بن ابى طالب أخو على

كتاب النبى الى المقوقس عثر عليه بعض الفرنسيين سنة ١٢٧٥ هـ (١)

وحدثت فى أثناء ذلك حادثة أفضت الى نقض الصلح بين المسلمين وقريش، فرأى أبو سفيان أنهم لم يعودوا يقوون على مناواة المسلمين ، فجاء بنفسه الى المدينة لتجديد العهد . وأدرك المسلمون ضعف عدوهم فلم يغفلوا عن هذه الفرصة ، فلما سألهم عن الصلح لم يجيبوه جوابا صريحا عن قبولهم اياه (٢) (*) فلما عاد الى مكة تجهزوا على عجل لكى يباغتوها قبل أن يتأهب

---

(١) تفصيل ذلك فى الهلال صفحة ١٠٣ و ١٦٠ سنة ١٣
(٢) ابو الفدا : ج ١ ص ١٩٨
(*) وكان القرشيون قد اعتدوا على بنى كعب احلاف المسلمين فكسروا بذلك صلح الحديبية

Marfat.com

أهلها للدفاع . فساروا حتى أقبلوا عليها وهم عشرة آلاف وفيهم المهاجرون والانصار وقبائل من العرب المحالفة ، وكان أبو سفيان وبعض كبراء قريش قد خرجوا من مكة يتجسسون ، فلقيهم العباس بن عبد المطلب عم النبى ، فسأله أبو سفيان عما هنالك ، فأخبره العباس بقوة جندهم واعتزازامرهم ، فقال أبو سفيان : « لقد أصبح امر ابن اخيك عظيما » فأشار عليه العباس أن يستأمن ، فلم ير لنفسه خيرا من ذلك ، فجاء معه الى معسكر المسلمين ، فأكرم النبى وفادته ومنع الصحابة من ايذائه لانهم كانوا ينوون الايقاع به ، وزاد فى تعظيمه حتى جعل كل من يدخل بيته من أهل مكة يوم الفتح آمنا مثل من يدخل المسجد

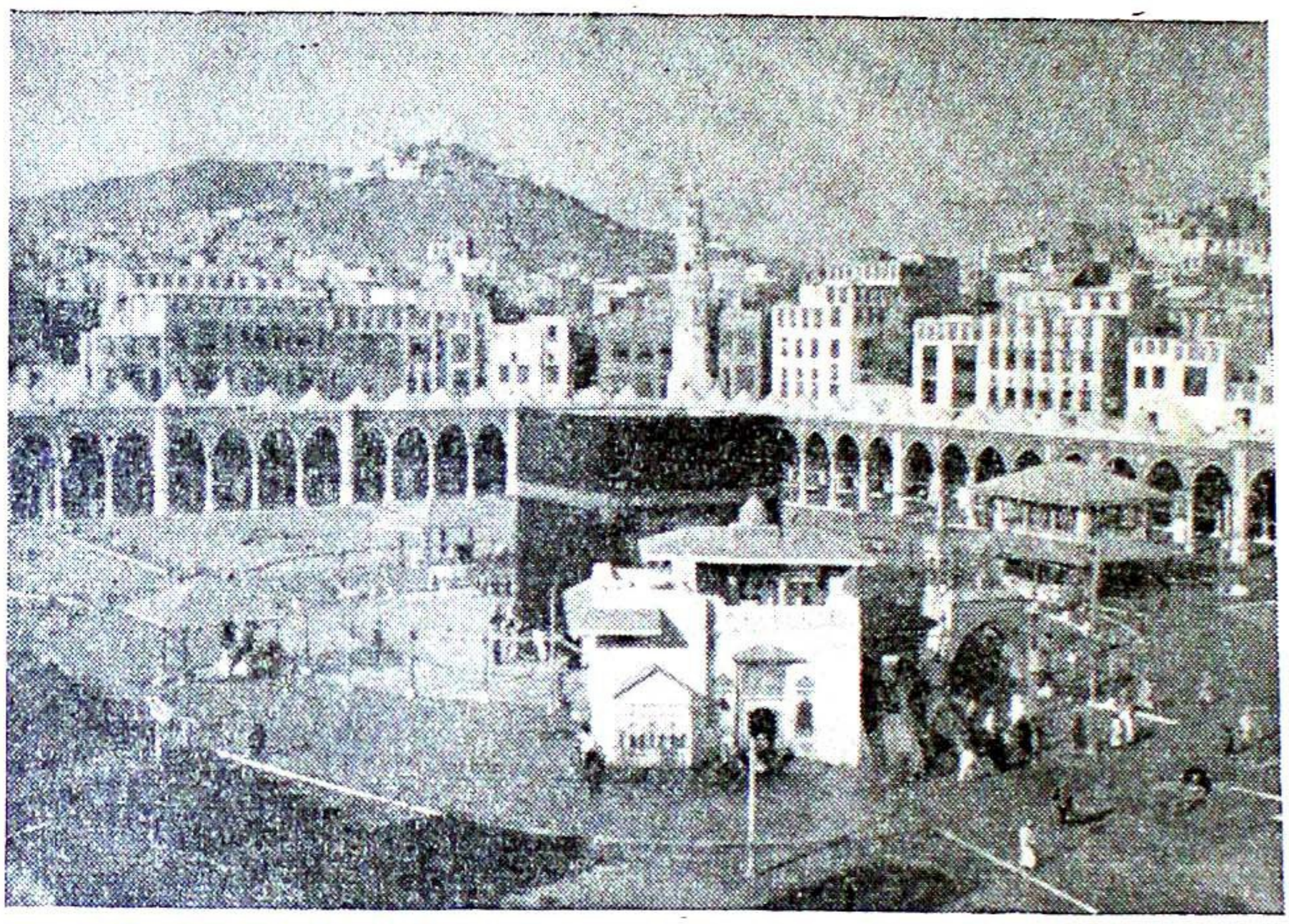

مسجد مكة وفى وسطه الكعبة

فعاد أبو سفيان وأخبر أهل مكة بما كان ، فاستضعفوه وخذلوه وشتموه، حتى ان امرأته هند بنت عتبة اخذت بشاربيه وقالت : « اقتلوا الحميت الدسم الاحمس .. قبحه الله من طليعة قوم » فلم يبال

ثم دخل المسلمون مكة وفتحوها ، وسار النبى توا الى الكعبة فكسر

الذى كان بينهم وبين الرسول (صلعم) ، وقد ادرك ابو سفيان بن حرب ان محمدا لن يسكت على ذلك العدوان ، فأسرع الى المدينة يطلب تجديد العهد ، فرفض محمد ، واستبان من هلع ابى سفيان ان مكة لم تعد تستطيع الصمود ، وان الاوان قد آن لفتحها ، فأعد العدة لغزوها وسار اليها سنة ٨ للهجرة

وقد تابع المؤلف هنا ابا الفدا فى روايته ، وهى رواية متأخرة داخلها كثير من الاساطير ، واصح الاخبار عن ذلك عند ابن اسحاق ، ج ٤ ص ٣٦ وما يليها

Marfat.com

الاصنام التى كانت فى المسجد حولها وفى جوفها ، ونزع ما كان على جدرانها من صور الملائكة وغيرها ، وكان ذلك آخر عهد مكة بالوثنية . وتحولت الكعبة من ذلك الحين الى مسجد يعبد فيه الله ، وأسلم أهل مكة كافة وفيهم أبو سفيان وأولاده ، وفى جملتهم معاوية (١) بن أبى سفيان مؤسس دولة بنى أمية

المؤلفة قلوبهم وغزو الطائف

وسمى النبى أشراف مكة الذين أسلموا بعد الفتح « المؤلفة » أو « المؤلفة قلوبهم » ، اشارة الى تأليف قلوبهم لتتألف بهم قلوب أقوامهم تعزيزا للاسلام ، وفى السيرة الحلبية ان من المؤلفة قلوبهم من تألفهم النبى ليسلموا مثل صفوان ابن أمية ، ومن تألفهم لدفع شرهم . وكان يتألفهم جميعا بالعطاء فيميزهم به عن سائر الصحابة كما سترى ، وفى ذلك من حسن السياسة والحلم وسعة الصدر ما فيه

وبعد فتح مكة بعث النبى سراياه الى ما حولها يدعو الناس الى الاسلام ، ثم غزا حنين والطائف ، وشتان بين مجيئه الى الطائف الآن ومجيئه فى أول دعوته ، لقد جاءهم يومئذ مستنصرا وجاءهم الآن فاتحا ، فغلبهم وغنم غنائم بلغ مقدارها ٢٤٠٠٠ من الابل و ٤٠٠٠٠ من الغنم و ٤٠٠٠ أوقية من الفضة ، فلما عمد الى تفريقها فى أصحابه بدأ بالمؤلفة قلوبهم فأعطى أبا سفيان مائة بعير وأعطى ابنه معاوية مائة بعير وابنه يزيد مائة بعير وأعطاهم الفضة ، فكان جملة ما أخذه أبو سفيان واولاده ثلاثمائة بعير ومائة وعشرين أوقية من الفضة ، فقال أبو سفيان : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله لانت كريم فى الحرب وفى السلم (*)

عتب المهاجرين والانصار

وفعل النبى نحو ذلك فى سائر الاشراف مثل الحارث بن هشام أخى أبى جهل المشهور وصفوان بن امية وغيرهما ، فشق ذلك على المهاجرين والانصار وهم دعامة الاسلام وأهل السابقة ، فكيف يتركون وتفرق الغنائم فى من لم يسلموا الا مكرهين بعد أن غلبوا على مدينتهم ؟ فتشاكى الصحابة فى ما بينهم وقالوا : « كيف يعطى قريشا ويتركنا وسيوفنا لا تزال تقطر من دمائهم ؟ » فبلغ ذلك النبى فجمعهم وسألهم فاعترفوا له بما قالوا فصوب قولهم ولكنه قال لهم : « انى لاعطى رجالا حديثى عهد بالكفر اتألفهم

---

(١) السيرة الحلبية ٨٠ ج ٣

(*) عبارة أبى الفدا هنا مختصرة ، وقد أورد المقريزى فى « امتاع الاسماع » نصها : انك لكريم ، فداك ابى وامى ، والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سالمتك فنعم المسالم انت ، جزاك الله خيرا » ـ انظر : ص ٤٢٣

Marfat.com

ليحسن اسلامهم ويسلم غيرهم تبعا لهم ، وأما انتم فوكلتكم الى اسلامكم الثابت الذى لا يتزلزل . ألا ترضون يا معشر الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله الى رحالكم ؟ . . » وقال مثل ذلك للمهاجرين فارتضوا (*)

ثم عادوا الى المدينة فى نحو السنة التاسعة للهجرة وقد اعتز جانبهم وذاع أمر سلطانهم فى كل جزيرة العرب ، فجعل الناس يفدون على المدينة يدخلون فى الاسلام (**)

محاولة فتح الشام

فلما اعتز المسلمون ودانت لهم جزيرة العرب كلها تقريبا ، عادوا الى توسيع دائرة الفتح ، فأمر النبى سنة ٩ هـ بالتجهز لاعادة الكرة على الروم ، فجهزوا جندا عدده ثلاثون ألفا فيهم عشرة آلاف فارس ، وتلك أكبر حملة استطاعها المسلمون الى ذلك الحين بذلوا فيها كل مافى وسعهم من المال والرجال . ولكنهم لقوا فى الطريق شدة عظيمة من العطش ، فنزلوا قرية بين المدينة والشام اسمها تبوك وهم يظنون الروم يجتمعون اليها ومعهم عرب لخم وجذام ، فجاءهم صاحب ايلة (وهى مدينة على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام فى رأس خليج العقبة) فصالحهم على الجزية . وفى أثناء هذه الحملة سطا خالد بن الوليد على صاحب دومة الجندل بين المدينة ودمشق ، على سبع مراحل من هذه وهو عربى نصرانى من كندة ، فأخذه خالد وقتل أخاه وأخذ منه قباء من ديباج مخوصا بالذهب وارسله الى المسلمين ، فلما رأوه تعجبوا منه لانه أول عهدهم بمثل هذه الملابس ، ثم عادوا الى المدينة ولم يفتحوا شيئا من بلاد الروم (***)

وفى السنة الحادية عشرة للهجرة توفى صاحب الشريعة الاسلامية والاسلام لا يزال حديثا ، فسعى الذين حط الاسلام من نفوذهم أو وقف فى سبيل أغراضهم فارتدت معظم قبائل العرب عنه ، الا أهل المدينة ومكة والطائف . وأصبح الاسلام فى خطر شديد ، لو لم يتداركه أبو بكر

(*) ورد الحديث بصور أخرى عند غير ابى الفدا من المؤرخين ، انظر : ابن اسحاق : السيرة ، ج ٤ ص ١٤٢ والطبرى (طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة) ج ٣ ص ١٣٨ والمقريزى : امتاع الاسماع ، ج ١ ص ٤٣١ وغيرهم

(**) فصل ابن سعد أمر هذه الوفود تفصيلا حافلا بالقيمة التاريخية ، انظر : الطبقات (طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية . القاهرة سنة ١٣٠٨) ج ٢ ص ٥٦ وما بعدها

(***) هذه هى غزوة تبوك التى بدأت فى رجب سنة ٩ هجرية . وايله هى المعروفة اليوم بالعقبة ، وصاحبها اذ ذاك هو يحنة (يوحنا) بن رؤبة ، وصاحب دومة الجندل هو أكيدر انظر : ابن اسحاق ، السيرة ، ج ٤ ص ١٦٩

Marfat.com

الخلفاء الراشدون

الخلاف بين المهاجرين والانصار

كان النبى فى أثناء حياته أمير المسلمين وقائدهم فى الحرب ، وامامهم فى الصلاة ، وقاضيهم فى سائر الاحوال . فلما مات ولم يخلف ذكرا ولا أوصى بالخلافةلاحد ـ وأما قوله لعلىالمتقدم ذكرهانه وصيهفالائمة مختلفون فيه ـ أختلفوا عند موته فيمن يخلفه ، وأولى الناس بخلافته أصحابه وهم المهاجرون والانصار ، فقال المهاجرون نحن أحق بالخلافة ، لاننا أهل النبى وأصحابه وقد تركنا أهلنا وبلدنا وهاجرنا معه . وقال الانصار بل نحن أحق بذلك لاننا آويناه ونصرناه . واشتد الجدال بينهما حتى كاد يفضى الى النزاع ، فذكرهم أبو بكر بحديث كان النبى قد قاله على مسمع منهم وهو : « قريش ولاة هذا الامر » فأذعنوا وتراجع الانصار

ولكن الخطر مازال يهدد الاسلام من اختلاف المهاجرين على من يختارونه لذلك المنصب العظيم ، فأحس عمر بن الخطاب رجل المسلمين بذلك ، وخاف الفشل لان الاسلام قام على الاتحاد ، فبادر الى أبى بكر فبايعه والناس ينظرون . وهم انما كانوا يخافونه اذا طلب الخلافة لنفسه لشدة بطشه وقوته ، فلما رأوه سبقهم الى مبايعة أبىبكر بايعوا معه وانفض المشكل (*)

خلافة أبى بكر

أما مبايعتهم أبا بكر دون سائر المهاجرين وفيهم العباس عم النبى وعلىبن أبى طالب ابن عمه وغيرهما من بنى هاشم أهل بيته ففيه نظر ، والظاهر من أقوال عمر وغيره فى مواقف مختلفة أنهم رأوا بنى هاشم قد اعتزوا بالنبوة لان النبى منهم فلم يستحسنوا أن يضيفوا اليها الخلافة ، ولعلهم فعلوا ذلك اقتداء بالنبى نفسه لان عمه العباس طلب اليه مرة أن يوليه عملا فأبى ، وصرح بذلك بنو هاشم أنفسهم وفى مقدمتهم الحسن بن على لما تنازل عن الخلافة لمعاوية فقال : « أبى الله ان يجمع النبوة والخلافة فينا »

ومما ساعد على اختيار أبى بكر دون سائر المهاجرين من غير بنى هاشم ـ مثلعمروعثمان وطلحة والزبير ـ انهم اعتبروا السبق فى الاسلام لان ابا بكر أسبق رجالهم اليه جميعا . وهناك سبب آخر ذو شأن عند العرب من عهد

(*) هذه اشارة الى حديث سقيفة بنى ساعدة ذى الاهمية الكبرى فى تاريخ الدولة الاسلامية انظر : الطبرى ، ج ٣ ، ص ١٩٨ وما بعدها

Marfat.com

جاهليتهم وهو السن ، ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة والسيادة معا ، وكانوا اذا تساوت المناقب فى من يترشحون للامارة فضلوا كبيرهم سنا مع ملاحظة المقام الادبى ـ كذلك فعلت قريش فى حرب الفجار الثانى فانها جمعت بطونها وعلى كل بطن رئيس ورأسوا عليهم جميعا حرب بن أمية . قال ابن الاثير : « وولوه عليهم جميعا لمكانه من عبد مناف سنا ومنزلة » ، وقد جمع أبو بكر الامتياز بالسن والوجاهة على سائر قريش ، وفوق كل ذلك فان النبى لما مرض أنابه للصلاة فى المسلمين وهى من حقوق الأمامة ، فضلا عما امتاز به من العلم وصدق العزيمة وقوة التدبير وعلو الهمة وغير ذلك من المناقب

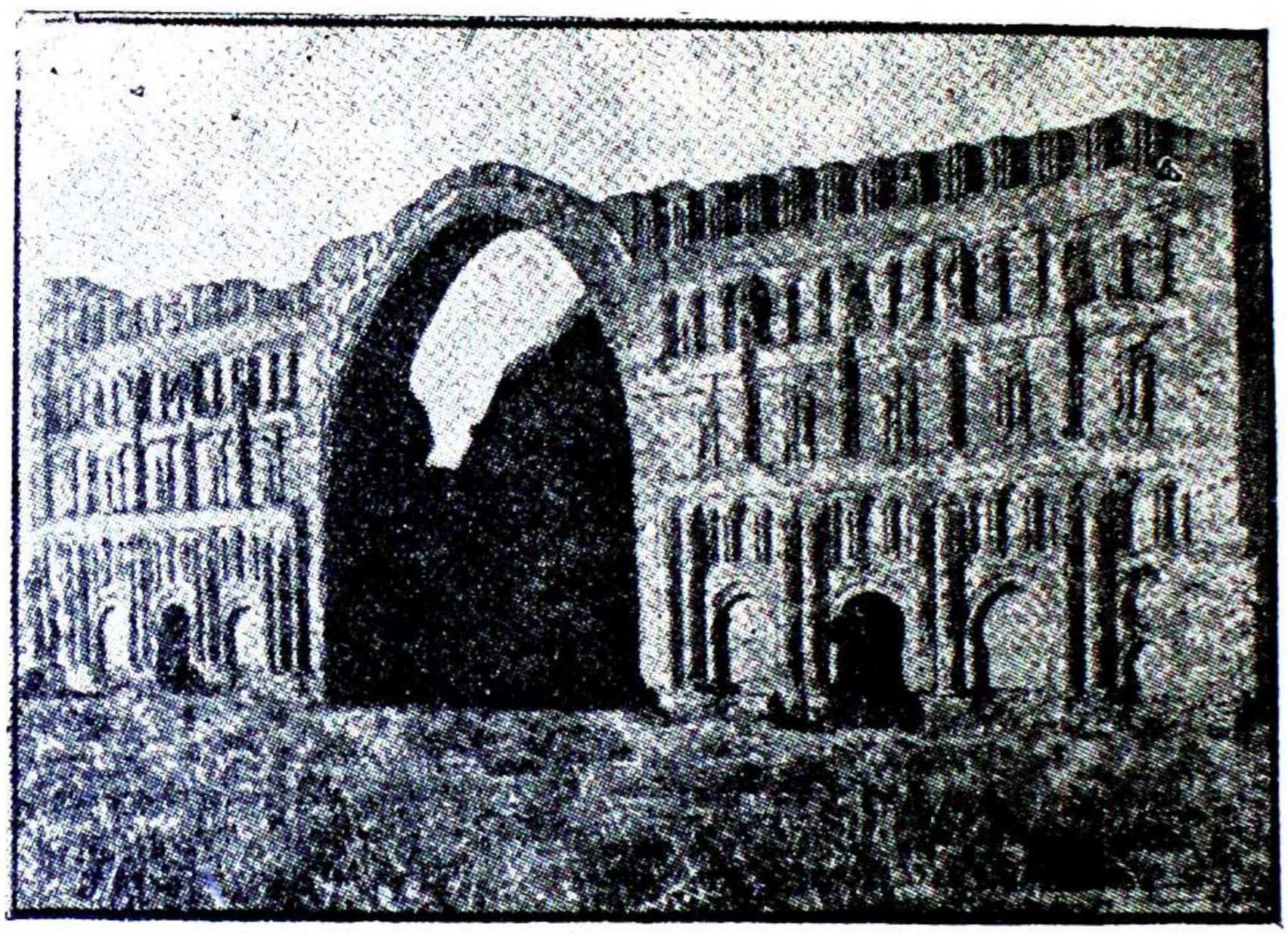

بقايا ايوان كسرى فى المدائن

وأول خطبة قالها أبو بكر بعد المبايعة تمثل حقيقة الاسلام ، وتبين السر الذى ساعد على سرعة انتشاره وتأييد سلطانه وهى : « أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ان شاء الله تعالى . لا يدع أحد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » (*)

(*) انظر تفصيل الحديث عند الطبرى ، ج ٣ ص ٢١٠ وما يليها

Marfat.com

الردة

تسلم أبو بكر الخلافة والاسلام فى غاية الاضطراب بسبب الردة التىأشرنا اليها ، ومن أسبابها أن بعض القبائل دانت للاسلام ولم يتمكن الاسلام من عقولهم وقلوبهم ، فلما مات النبى تبادر الى أذهانهم أن الدعوة الى النبوة أمر هين وظنوا أنفسهم يستعينون على تأيد دعواهم بقبائلهم وهى أكثر رجالا من قريش ، ، فكيف يستطيع هؤلاء السيادة على جزيرة العرب كلها وهم قليلون ؟ فادعى النبوة غير واحد ، وفيهم طليحة الاسدى من بنى أسد ، وسجاح التميمية من تميم ، ومسيلمة من بنى حنيفة فى اليمامة ، وغيرهم. واستعان كل منهم بقبيلته وانصاره ، فدعا ذلك الى اضطراب الاحوال فى سائر القبائل ، فمنهم من رفض الاسلام وتابع أولئك الدعاة ، ومنهم من اكتفى بالامتناع عن أداء الزكاة . والزكاة من دعائم الاسلام الاولية ، ولها شأن المال فى الدولة ، والمال ضرورىلقيام الدول فى كل زمان ومكان ،وبعض العرب امتنعوا عن الزكاة لانهم عدوها من قبيل الاتاوة التى كانوا يدفعونها فى جاهليتهم

واشتد أمر الردة واستفحل المرتدون ، حتى حمل بعضهم على المدينة نفسها وهى عاصمة المسلمين ، فهاجموها وكادوا يأخذونها لو لم يدافعهم أبو بكر دفاعا جميلا ، وقد تصرف فى محاربة المرتدين تصرف الرجل الحكيم الحازم ، وبين يديه نخبة القواد وأهل الحزم ، فعقد لهم الالوية للقتال ، وبلغ عدد ما عقده منها أحد عشر لواء عقدت لاحد عشر قائدا فى جملتهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وعمرو بن العاص (*)

فلم تمض على ذلك سنتان حتى استتب الامر لابى بكر ، وعاد الناس الى ما كانوا عليه وسكنت الاحوال ، فحول التفاته الى الشام والعراق اقتداء بما أراده النبى ، فوجه اليهما الجنود فجرت واقعة اليرموك الشهيرة سنة ١٣ هـ وكانت سببا فى فتح الشام ، واشتد أزر المسلمين بها كما اشتد أزرهم بواقعة بدر الكبرى

خلافة عمر

وتوفى أبو بكر فى تلك السنة وقد أوصى بالخلافة لعمر بن الخطاب ، وليس هو أكبر سائر المهاجرين سنا ، لكن الصحابة لم يكونوا مخيرين فى خلافته لان أبا بكر أوصى له بها ، وكان عمر رجلا حازما عادلا شديدا فى الحق ، وفى أيامه تم فتح الشام والعراق وأهم وقائعها واقعة القادسية سنة ١٤ هـ وهى من أشهر الوقائع الرئيسية التى فاز فيها المسلمون . وفى أيامه فتح بيت

(*) انظر بيان هذه الالوية واصحابها عند الطبرى ، ج ٣ ص ٢٢٥

Marfat.com

المقدس واشترط أهلها أن يأتى عمر بنفسه لعقد الصلح على يديه ، وفتحت المدائن عاصمة الفرس سنة ١٦ هـ ثم أوغلت جنود المسلمين فى فارس ، وفتحت الجزيرة وأرمينيا سنة ١٧ هـ ، وفتحت مصر على يد عمرو بن العاص ، ثم فتحت برقة

وهو الذى دون الدواوين ووضع الاعطية كما سنفصله ، وفى أيامه بنيت الكوفة والبصرة والفسطاط ، وبنى المسجد الحرام بمكة ووسع فيه فأضاف اليه ما كان يجاوره من الارض ، ابتاعها من أصحابها

وقتل الامام عمر سنة ٢٣ هـ وخلفه عثمان بن عفان ، ونظرا لكثرة الفتوح فى أيامه نذكر الاسباب التى ساعدت عليها

الفتوح الاسلامية

فى صدر الاسلام

للكتاب وأهل النقد بحث طويل وجدال عنيف فى الاسباب التى ساعدت العرب على فتح بلاد الروم والفرس ، وقهر القياصرة والاكاسرة برجال يكاد لا يزيد عددهم على عدد حامية مدينة من مدن أولئك ، مع ما كان عليه العرب يومئذ من سذاجة المعيشة وقلة الدربة فى فنون الحرب وضيق ذات اليد وضعف العدة ، والروم والفرس أعظم دول الارض يومئذ وعندهما العدة والرجال والحصون والمعاقل ، وزد على ذلك أن العرب فضلا عن قلتهم وسذاجة أحوالهم جاءوا مهاجمين فى بلاد لا يعرفونها ولا نصير لهم فيها ، وأغرب من ذلك كله أنهم فتحوا تينك المملكتين فى مدة لا تتجاوز بضع عشرة سنة ، فكيف تأتى لهم ذلك ؟

أشهر أقوال أهل النقد فى هذا الشأن أن العرب لم يستطيعوا فتح تينك المملكتين الا لما كان فيه الروم والفرس من التضعضع والضعف ، على أثر ماكان من الحروب بينهما قبيل الاسلام مما بيناه فى فصل سابق . وعندنا أن ذلك التضعضع لم يكن وحده علة ذلك النصر ، والا لكانت احدى الدولتين أولى بالاستيلاء على جارتها وعدوتها من أمة صغيرة قليلة العدد ضعيفة العدد غلبت الدولتين جميعا . على أننا لا ننكر ما كان لتضعضع الروم والفرس من التأثير فى تسهيل الفتح ولكنه لم يكن هو علته ، وهناك أسباب أخرى سيأتى بيانها

ما الذى جرأ العرب على الفتح ؟

لنبحث أولا فى الاسباب التى جرأت العرب على مهاجمة تينك المملكتين . وهم أهل بادية ما برحوا من أجيال متطاولة ينظرون الى الروم والفرس نظر الاحترام والتهيب ، يضربون الامثال بضخامة ملكهما ويخافون اسميهما ، فكيف تتجرأ شرذمة منهم على مناواتهما ببضعة آلاف ليس على أبدانهم الا غليظ الكساء ؟ وأكثر طعامهم الشعير ، وعدتهم الرماح مشدودة بعصب والسيوف معلقة بخرق . ولماذا لم يفعلوا ذلك قبل الاسلام ؟ والجواب على ذلك ان العرب أصبحوا بعد الاسلام غير ما كانوا عليه قبله : كانوا قبائل مشتتة متباغضة فأصبحوا أمة واحدة بقلب رجل واحد ، وهذا وحده لا يكفى لاقدامهم على هذا الامر العظيم ، وانما ساعدهم على ذلك اعتقادهم صدق الدعوة التى دعوا اليها ، اعتقادهم انهم انما يفتحون الدنيا فى سبيل الدين ، وأن الله يدعوهم

Marfat.com

خريطة شبه جزيرة العرب

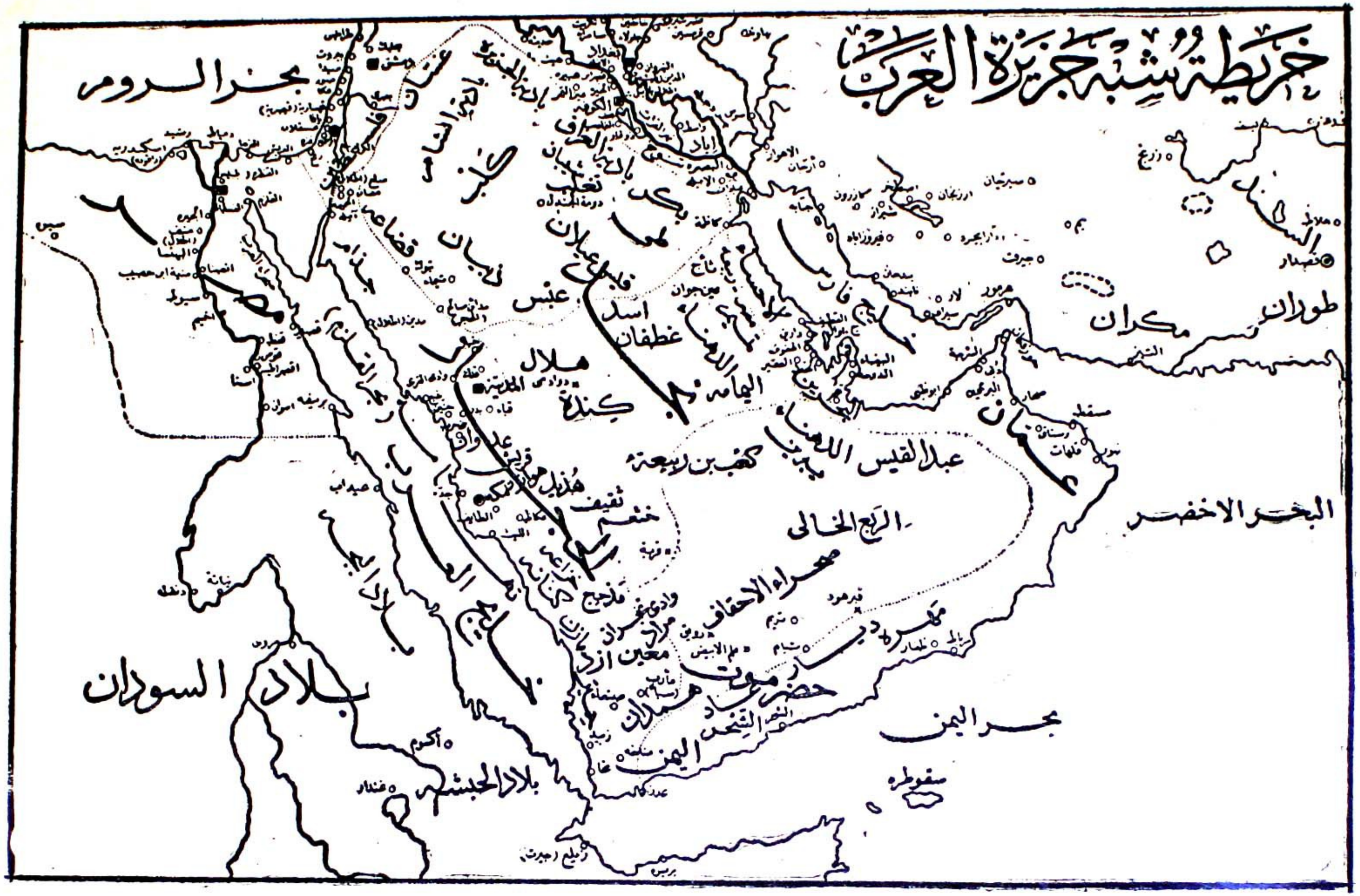

الى نشر الاسلام فى الارض ، وأن من مات منهم مات شهيدا ، وأن العالم الآتى خير وأبقى . هذا الاعتقاد هو الذى جرأ العرب على ركوب هذا المركب الخشن ، غير ما ذاقوه من حلاوة النصر فى غزواتهم وسراياهم فى أيام النبى ، والانسان اذا خدمه التوفيق فى أمر هانت عليه المخاطرة بكل ماله فى سبيله

١ ـ الاتحاد بالاسلام

أما الاتحاد بالاسلام فانه ظاهر فى كل أعمالهم ، يشهد بذلك ما قدمناه من أمر المعاهدة والمؤاخاة فى أول سنة للهجرة ، ويؤيده أن الاسلام عنوان التوحيد كما يتضح من مراجعة القرآن والحديث . ولاتكاد تخلو خطبة من خطب الخلفاء أو الامراء فى صدر الاسلام من الاشارة الى تلك الوحدة ، وتذكير المسلمين بما كان عليه آباؤهم فى الجاهلية من التفرق والتشتت ، وما يدعوهم اليه الاسلام من نزع العصبية وتوحيد الكلمة ، وقد زاد متانة تلك الوحدة اجتماعهم خمس مرات فى اليوم للصلاة خلف الامام أو من يقوم مقامه ، وفى ذلك من توطيد عرى الاتحاد والاجماع على الطاعة ما لا يخفى . ذكر البلاذرى أن أبا سفيان لما جاء المسلمين قبل الفتح ـ وهو لم يسلم بعد ـ رآهم قائمين للصلاة اذا ركع النبى ركعوا واذا سجد سجدوا فقال : « تالله ما رأيت كاليوم طواعية قوم جاءوا من ههنا وههنا ولا فارس الكرام والروم ذات القرون ؤ

٢ ـ اعتقادهم صدق الدعوة

وأما اعتقاد العرب صدق الدعوة وأنهم كانوا يعملون لآخرتهم لا لدنياهم فظاهر من أقوالهم وأعمالهم فى أثناء الفتح ، كقول المغيرة لما قال له رستم القائد الفارسى فى أثناء واقعة القادسية : « انكم تموتون فى ما تطلبون » فقال المغيرة : « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ويظهر من بقى منا

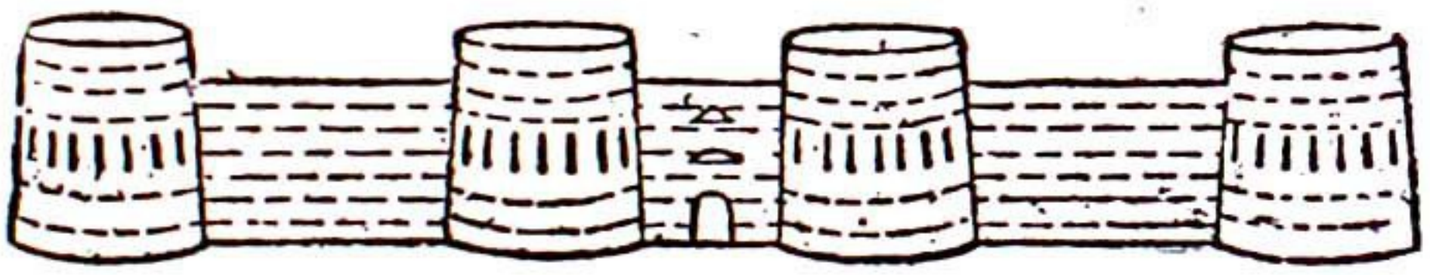

حصن بابليون الذى فتحه عمرو بن العاص

على من بقى منكم » ، وكقول عبادة بن الصامت للمقوقس صاحب مصر، لما خوفه بجموع الروم وأنهم لن يقدروا عليهم وهم محاصرون حصن بابل فقال عبادة :

« يا هذا لا تغرن نفسك ولا أصحابك . أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ماهذا بالذى تخوفنا به ولابالذى

Marfat.com

يكسرنا عما نحن فيه . وان كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ، لان ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ، ان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك . وأننا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين ، اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا أن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة أن ظفرتم بنـــا . ولانهـــا أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا . وأن الله عز وجل قال لنا فى كتابه « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » . وما منا رجل الا ويدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى أهله وولده ، وليس لاحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده ، وانما همنا ما أمامنا . وأما قولك اننا فى ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن فى أوسع السعة ، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لانفسنا أكثر مما نحن عليه .. »

وأمثال ذلك كثير فى تاريخ الاسلام حتى لقد كان المسلم يقاتل أباه وأخاه اذا كانامشركين ولا يبالى .. بل هو يعتقد أنه يفعل خيرا . ويؤيد ذلك ما جاء فى تواريخ الاديان الاخرى فان الانسان لا يستهلك فى أمر ويعرض حياته للخطر من أجله الا اذا كان من قبيل الدين ، وفى أحاديث الشهداء عند النصارى وسائر الاديان الاخرى ما يكفى

٣ ـ خصب البلاد المفتوحة

وقد زاد فى رغبة العرب فى فتح الشام والعراق ومصر ما علموه من خصب تلك الارضين وكثرة خيراتها ، وبلادهم قاحـلة لا تفى بمطالبهم بعـد تلك النهضة الدينية. وكانت بعض القبائل التى دخلت الاسلام ، تحارب لمجرد الكسب من الاسلاب والغنـــائم ، يســتدل على ذلك ممـا أظهروه بعد غزوة حنين والطائف ، فقد كانت الاموال كثيرة والغنائم غزيرة كما تقدم ، فلما فرغوا من الحرب ورد السبايا « ركب (النبى) وتبعه الناس يقولون يا رسول الله قسم علينا فيأنا من الابل والغنم ، حتى ألجأوه الى شجرة فاختطفت عنه رداءه فقال : ردوا على ردائى أيها الناس ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهـامة نعما لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا » (*)

ما الذى ساعدهم على الفتح ؟

ذلك ما جرأ العرب على الفتح ، أما ما ساعدهم عليه فهاك تفصيله :

١ ـ نشاطهم وخفة أحمالهم

لانهم أهل بادية تعودوا خشونة العيش فأصبحوا لايبالون بالجوع ولاالعطش،

(*) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ص ١٣٤ ـ ١٣٥

Marfat.com

اذا سافر أحدهم الى حرب لا يحمل معه شيئا يثقل كاهله أو يشغل بعيره ، وقد لا يحملون طعاما وانما يقتاتون بما يكسبونه بالغزو فى اثناء الطريق

وللابل فضل كبير فى تغلب العرب ، لانها كانت تقوم عندهم مقام المركبات والخيول والماشية عند الروم . فالعربى يركب ناقته ويحمل عليها اثقاله ويغتذى من لبنها ويستريح فى ظلها . وهى تقتات بالعشب فى الصحراء ولو كان يابسا وتصبر على الجوع وتحتمل الظمأ اياما . وأما الرومى أو الفارسى فلا يستطيع الانتقال الى الحرب الا بالاحمال والاثقال من المؤونة والذخيرة مما لا يقوى على حمله الا المركبات ، والمركبات تحتاج فى جرها الى دواب ، والدواب تحتاج الى طعام ومياه . ويذكرنا ذلك بما شاهدناه فى حرب الانجليز وعرب السودان فى أثناء الحملة النيلية التى انفذوها سنة ١٨٨٤ لانقاذ غردون باشا من الخرطوم ، فقد كان الانجليزى لا يستطيع الانتقال الا ومعه الاحمال من البقسماط واللحوم المطبوخة والسكر والشاى والبن والشمع وفناطس الماء وأحمال الخيم والامتعة وأطعمة الخيل ، وغير ذلك مما يحتاج الى الدواب الكثيرة . فكان رجال حملة « المتمة » ١٤٠٠ وجمالها أربعة آلاف ومعها الجمالة والخدم ، وهى عبء ثقيل على كاهل الحملة . وأما السودانى فقد كان فى غنى عن كل ذلك بجراب فيه شىء من الذرة الناشفة يتأبطه ويمشى

٢ ـ اعتقادهم بالقضاء والقدر

وان الانسان لا يموت الا اذا جاء أجله ، فاذا أتت ساعته مات ولو كان على فراشه ، واذا تأخرت فلا يصاب بسوء ولو كان تحت مراهف السيوف . وكان هذا الاعتقاد متمكنا فيهم وهو علة معظم ما كان يبدو من بسالتهم فى وقائعهم المشهورة ، وفى تاريخ الفتح شواهد كثيرة على ذلك

٣ ـ مهارتهم فى ركوب الخيل ورمى النبال

فقد كانوا أمهر من الروم والفرس فيهما ، وخيل العرب أنجب من خيول أولئك ، وكانت اكثر وقائعهم بالمبارزة بين الافراد على جارى العادة فى تلك العصور ، فيختارون فارسا من كل جند فيتبارزان ، فمن غلب كان أصحابه الغالبين . وكان العرب يغلبون فى المبارزة على الاكثر ، وكثيرا ما كان نصرهم متوقفا على غلب فى مبارزة أو رمى بنبلة صائبة اذا أصابت رئيس الجند أحبطت رجاله . وسيأتى تفصيل ذلك فى كلامنا عن السلاح

٤ ـ رجال صدر الاسلام

اختص صدر الاسلام برجال توفرت فيهم خصال النصر ، وقد امتاز ذلك العصر بنبوغ الرجال العظام كما امتاز عصر نابليون الكبير بقواد لم تلد فرنسا مثلهم ، وقد نبغ قواد نابليون على أثر الثورة الفرنسية ، كما نبغ قواد الصدر

Marfat.com

الاول للاسلام على أثر واقعة الفيل التى سطا بها الاحباش على الكعبة ، وحركت ساكن العرب فأظهرت قواهم بالضغط والاحتكاك كما تقدم . فكأن الله قدر للعرب النصر فاختصهم بقواد من نخبة رجال العالم فى الحرب والسياسة والدهاء والحكمة ، كخالد بن الوليد وخالد بن سعيد وأبى عبيدة ابن الجراح وسعد بن أبى وقاص ويزيد بن أبى سفيان وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب ، ممن تغلب عليهم البسالة ويحسنون قيادة الجند ، ومثل عمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه من أهل الدهاء والسياسة وأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب من أهل الحزم والتقوى وصدق العزيمة

فنبوغ هؤلاء الرجال وأمثالهم فى أوائل الاسلام ، كان من أكبر العوامل فى سرعة نجاحه ، وكان المسلمون يعلمون ذلك حتى ان النبى نفسه قال فى أول ظهور الدعوة : « اللهم أيد الاسلام بأبى جهل بن هشام » ولما أسلم حمزة وعمر ابن الخطاب قال : « قد تأيد الاسلام بحمزة وعمر » . وأمثال أبى بكر وعمر وعلى وابن العاص ومعاوية وخالد لو ظهروا اليوم لكانوا من عظماء الناس الذين يتمثل العالم المتمدن بعظمتهم ، كما يتمثل الافرنج ببونابرت وكروميل وبسمارك وغلادستون وغيرهم ، غير من ظهر من رجال الاسلام فى عصر الامويين والعباسيين

٥ ـ الصبر والمطاولة

أصبح العرب بعد فشلهم فى واقعة مؤتة وقد عرفوا قوة الروم وخبروا كثرتهم ، وعلموا أن قتالهم غير قتال أهل البادية الذين كانوا يغزونهم ببلاد العرب ، فلما تحققوا ذلك جعلوا عمدتهم فى حروبهم الصبر والمطاولة . والصبر هين عليهم لاكتفائهم بالشىء اليسير من الطعام واللباس كما تقدم ، واذا قل زادهم عمدوا الى الغزو واقتاتوا بما تصل اليه أيديهم من الماشية أو الحنطة أو غيرهما

وكانت حروبهم فى أول خروجهم الى الشام والعراق أشبه بالغزو منها بالفتح ، بل تلك كانت قاعدتهم فى أكثر فتوحهم ، كانوا يرسلون جماعة منهم لغزو البلد الذى يريدون فتحه ـ وقد لا يكون قصدهم الفتح فى بادىء الرأى ـ فيحومون حول البلد يغزون وينهبون حتى تتاح لهم فرصة للفتح فيفتنمونها. كذلك فعلوا فى كثير من فتوحهم فى صدر الاسلام وبعده ، فان موسى بن نصير انما أرسل طارقا الى سواحل أسبانيا سنة ٩٢ هـ غازيا لا فاتحا ، فاتفقت له أسباب ساعدته على الفتح تشبه الاسباب التى ساعدت العرب على فتح الشام فدخل طارق الاندلس . فلما بلغ موسى ذلك استغربه وشق عليه أن لا يكون هو الفاتح فبعث يستوثق منه ، الى آخر ما كان بينهما . هكذا كان شأنهم قبل ذلك فى فتح افريقية وما يليها

Marfat.com

٦ ـ نجدة العرب

كان الاسلام فى اول أمره نهضة عربية ، والمسلمون هم العرب حتى اصبح اللفظان مترادفين فى كثير من الاحوال . وكان العرب أقرب الامم للدخول فى الاسلام لما اختصهم به دون غيرهم من الافتخار . وتمكن ذلك من الاذهان خصوصا لما أمر عمر باخراج غير المسلمين من جزيرة العرب

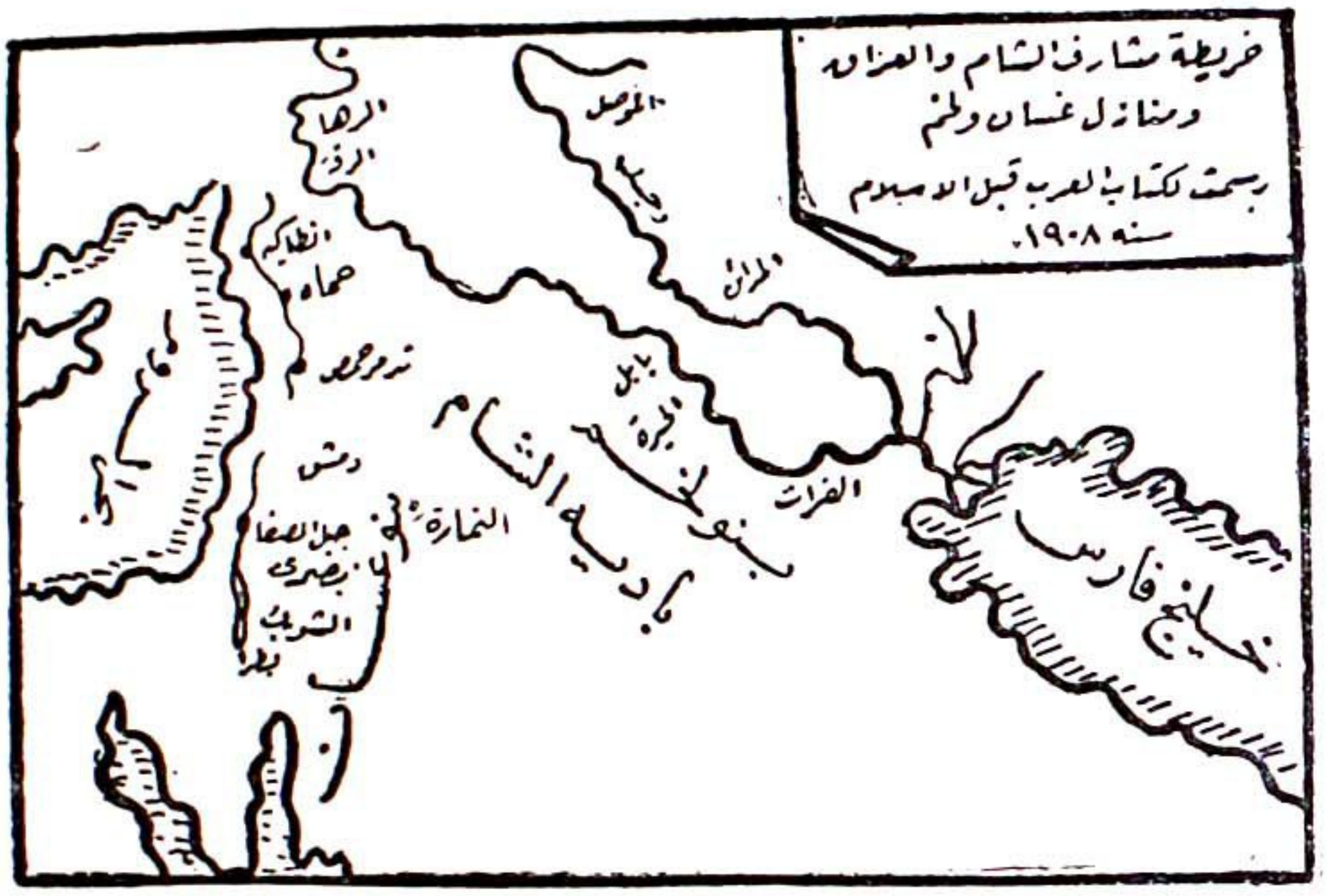

خريطة مشارف الشام والعراق

والمسلمون لم يهاجموا مدن الشام والعراق رأسا ، ولكنهم قضوا زمنا طويلا يغزون ضواحيهما مما يلى البادية ، وسكان تلك البادية عرب مثلهم وفيهم الغساسنة فى بصرى وغيرها من حوران على حدود الشام ، والمناذرة بنو لخم فى الحيرة على حدود العراق . وكان الغساسنة عمال الروم فى الشام ، وبنو لخم عمال الفرس فى العراق . ولم يكن هؤلاء العرب يحبون الروم ولا الفرس ، وانما كانوا يخضعون لهم قسرا أو طمعا فى الغنائم اذا حاربوا معهم . وخصوصا بنو لخم ، فقد كان بينهم وبين الفرس ضغائن على اثر مقتل النعمان بن المنذر الملقب ابا قابوس . فان كسرى أبرويز قتله وحصلت بسبب قتله واقعة شهيرة بين الفرس والعرب فى مكان يقال له « ذو قار » وبه سمى الواقعة . فيها انهزم الفرس شر هزيمة ، وهى أعظم واقعة انتصف فيها العرب من العجم . ومن غريب الاتفاق انها حدثت فى السنة التى جرت فيها واقعة بدر الكبرى ، والعرب فازوا فى كلتيهما

وظلت الضغائن بين المناذرة والفرس حتى جاءهم المسلمون ، وعرض عليهم خالد بن الوليد الاسلام أو الجزية أو السيف ، فاختاروا الجزية وصالحوه على مال يدفعونه كل عام . ووقع نحو ذلك فى بصرى وغيرها من بلاد العرب

Marfat.com

والنصارى فى ضواحى الشام ، وفى غيرها من بلاد العرب فى حدود البادية بين العراق والشام ، كعين التمر وفيها قوم من كندة واياد ، وقراقر وهو ماء لبنى كلب ، وغيرهم من القبائل التى حاربها خالد فى أثناء قدومه من العـراق الى الشام . فكانت العرب أقرب سائر الامم الى نجدة الاسلام للاسباب التى قدمناها ، ولأسباب أخرى تختص بكل قبيلة على حدة ، كحقد عرب اليمن على الفرس منذ فتحوا بلادهم وحكموهم قبل الاسلام ، ثم تقلص ظلهم عنهم وانحسر الى البحرين . وكانت ربيعة تقيم فى الجزيرة ببلاد الفرس ، وكانوا عونا للعرب المسلمين على الفرس نكاية فى هؤلاء

وكثيرا ما كان هؤلاء العرب وغيرهم من أهـل الشام الاصليين يضافرون المسلمين على الروم فرارا من أداء الجزية ، كما فعل الجراجمة فى جبل اللكام . فان حبيب بن مسلمة الفهرى غزاهم فبادروا بطلب الامان ، فصولحوا على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية .. ودخـل من كان فى مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم من أهل القرى فى هذا الصلح فسموا الرواديف

٧ ـ خط الرجعة

ثم ان العرب كانت قاعدتهم فى حروبهم هناك المحافظة على خط الرجوع ، فلا يقاتلون الفرس أو الروم الاوهم فى حيطة . وكان حفظ ذلك الخط هينا عليهم لانهم كانوا يجعلون الصحراء وراءهم وهى ملجأهم ، فاذا اندحروا لا يستطيع الروم أو الفرس اللحاق بهم اليها ولا يهمهم ذلك اللحاق ، ومتى عاد الروم الى مساكنهم عاد العرب عليهم . وهـكذا حتى يقلقوا راحتهـم ويضعفوهم بالمطاولة والصبر ، ولو كانوا أقل عددا منهم ، وشأنهم فى ذلك مثل شأن البوير مع دولة الانجليز لما حاربوها سنة ١٩٠٢ ـ كانوا نفرا قليلين فأقلقوا راحة الجيوش الانجليزية بضع سنوات ، وهؤلاء أكثر عددا وعدة وعندهم الحصون والمعاقل . ولكن البوير انما أتعبوهم بالمطاولة والسطو حينا بعد حين ، ثم الرجوع الى مكامنهم بين الجبال حيث لايستطيع الانجليز الذهاب اليها الا تحت الخطر الشديد (*)

وكانت هذه القاعدة مرعية عند العرب يحرضون بعضهم بعضا عليها ، ومن هذا القبيل قول المثنى بن حارثة الشيبانى ، أحد قواد العرب لما علم بقـدوم المسلمين لمحاربة الفرس فى العراق فبعث اليهم يقول : « قاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ولا تقاتلوهم بعقر دارهم ، فان يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم ، وان كانت الاخرى رجعوا الى فيئة ثم

(*) الاشارة هنا الى حرب البوير

يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم الى أن يرد الله الكرة عليهم »

ويؤيد ذلك رغبة الخليفة عمر فى بقاء المواصلة بين مركز الخلافة فى المدينة وبين سائر أطراف المملكة الاسلامية بحيث لا يكون بينه وبين سائر المسلمين ماء . فقد كتب الى قواده فى الاطراف بعد فتح فارس ومصر ـ وكان سعد ابن أبى وقاص مقيما فى مدائن كسرى وعمرو بن العاص فى الاسكندرية ـ « لا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حتى اقدم عليكم قدمت » فتحول سعد الى الكوفة وتحول عمرو الى الفسطاط وأقاما بجندهما فى مضارب الخيام . ثم صارت تلك المضارب مدنا بعد ذلك

٨ ـ واقعة اليرموك وواقعة القادسية

تلك كانت القاعدة فى حروب العرب بالشام والعراق ، ثم جرت واقعة اليرموك الشهيرة (١٣ رجب ١٥ هـ ـ ٢٠ أغسطس ٦٣٦ م) التى بدأت فى حياة أبى بكر . واليرموك واد بناحية الشام بجوار بصرى يسيل فيه الماء حتى يصب قرب بحيرة طبرية واسمه اليونانى (Hieromax) (*) عربه العرب « يرموك » ، وعلى ضفاف ذلك الماء حصلت تلك الواقعة الهائلة وهى ذات شأن عظيم فى فتوح الشام ، لان فوز المسلمين فيها نشطهم على مواصلة الفتح وأضعف عزائم الروم

واذا تأملت فى تفاصيلها رأيت سبب الفوز فيها سداد رأى عمرو بن العاص وشجاعة خالد بن الوليد ، وذلك أن الروم لما رأوا ما كان من مناوأة العرب لهم فى ضواحى الشام ومطاولتهم،جمعوا قواتهم وعزموا على الفتك بهم دفعة واحدة . وكان المسلمون متفرقين فى ضواحى الشام والعراق ، فتكاتبوا بشأن ذلك فقال عمرو بن العاص : « ان الرأى عندى لمثلنا الاجتماع ، فاننا اذا اجتمعنا لا نغلب من قلة وان تفرقنا لاتقوم كل فرقة بمن استقبلها لكثرة عدونا » فكتبوا الى أبى بكر بذلك فأجاب مثل جواب عمرو . فاجتمع جند المسلمين من العراق والشام فلاقاهم الروم فى اليرموك ، وعددهم على قول ابن الاثير ٢٤٠ ألفا والمسلمون ٥٠ ألفا (**) بقيادة خالد بن الوليد ، فخطب خالد فيهم خطابا حرضهم فيه على الثبات وجعل الجند كراديس على كل كردوس قائد ، ولم تكن الحرب بالكراديس معروفة عند العرب كما سترى . والظاهر أن خالدا عبأ الجند تلك التعبئة لمقاومة الروم بمثل نظامهم

وشعر خالد بتهيب المسلمين وخوفهم من كثرة الروم ، وسمع احدهم

---

(١) ورد الاسم بصور مختلفة : Hieromix, Hieromice

(*) اقرب الآراء الى الصحة ان عدد البيزنطيين كان خمسين الفا وعدد المسلمين خمسة وعشرين الفا

انظر مناقشة المراجع فى : Leone Caetani, Annali dell'Islam III/II p.24--81

Marfat.com

يقول : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! » فقال له : « ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! انما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان » . وبينما هم فى القتال جاءهم الخبر بموت أبى بكر ، فكتموه وصبروا صبر الرجال لعلمهم أن الفشل فى تلك الواقعة يذهب بكل أعمالهم ، فقاتلوا قتالا شديدا حتى أن النساء كن يقاتلن بالعصى ، فانتصر المسلمون . وكان هذا النصر مقدمة سائر ما نالوه فى الشام . وكذلك واقعة القادسية فى العراق ، فقد كانت فاتحة نصرهم على الفرس . وقد صبروا فى هذه الواقعة صبرا جميلا وطال أمرها كثيرا (*)

٩ ـ نقمة الرعايا على حكامهم

قد علمت ما كان من انقسام الروم والفرس فيما بينهم ، وانحطاط الحالة الاجتماعية فى بلادهم ، فضلا عما كان من الشحناء بين الرعية أهل البلاد الاصليين وحكامهم ، وخصوصا فى مصر والشام . فان المصريين الاصليين وهم الاقباط كانوا قد عانوا سلطة الاجانب أجيالا متطاولة (الفرس فاليونان فالرومان) وهان عليهم الانتقال من سلطان الى سلطان فرارا من الظلم او الضغط . وكذلك أهل الشام ، وهم أخلاط من الآراميين والسريان والانباط واليهود وغيرهم ، وكان حظهم من ذلك مثل حظ جيرانهم المصريين وقد يئسوا من الاستقلال مثلهم ، فلا يهمهم اذا كان حاكمهم روميا أو عربيا وانما يهمم أن يكون لهم راحة تحت سلطانه . وربما فضلوا العرب لانهم أقرب اليهم لغة ونسبا وأخلاقا . وزد على ذلك أن المرء من طبعه يرجو النفع من البعيد أكثر من القريب . ويتوسم الخير فى القادم المجهول أكثر مما يتوسمه فى الحاصل المعلوم ، وعلى الخصوص اذا كان الفرق بينهما ظاهرا مثل ظهوره بين الروم والعرب . فالروم كانوا يومئذ فى دور انحطاطهم وقد فسدت أحكامهم وآدابهم ، والعرب فى دور نموهم وفى ابان نهضتهم وقد جعلوا العدل والمساواة وجهتهم ، فضلا عما كان بين أهل هذين القطرين وبين حكامهم الروم من الانقسامات الدينية التى قدمناها ، حتى هان عليهم الرضوخ لاية دولة كانت ، ولم يروا بأسا فى أن يكونوا عونا لها على حكامهم

١٠ ـ اليهود

كان الروم مع انقسامهم الى طوائف وأحزاب قد أجمعوا على اضطهاد

(*) هناك خلاف كبير فى تحديد تاريخ موقعة القادسية ، وفيما اذا كانت قد وقعت سنة ١٤ او ١٥ او ١٦ هـ (٦٣٥ ـ ٦٣٦ ـ ٦٣٧ م .) ولكن الثابت انها وقعت فى الربيع ، ويرجح فلهاوزن انها كانت سنة ٦٢٦/١٥ اما كايتانى فيرى انها كانت سنة ٦٣٧/١٦

انظر : Wellhausen, Skizzen und Vorarbeiten IV (1899) pp. 68-83

Streck, Babylonien nach den Arabisch Geographen I (Leiden 1900) p. 2, 5, 11

Streck, Babylonien nach den Arabisch Geographen I (Leiden 1900) p. 2, 5, 11

Caetani, Annali dell'Islam, III, 629-713

Marfat.com

اليهود كما تقدم . ولما جاء المسلمون لفتح الشام كانت البغضاء قد بلغت أقصاها حتى هان على اليهود أن يخسروا أموالهم ــ مع رغبتهم فى الاموال ــ فى سبيل الانتقام من الروم . وفى الواقع انهم كثيرا ما كانوا عونا للعرب عليهم وكانوا يدلونهم على عورات المدن ويدخلونهم اليهـــا ، كذلك فعلوا بقيسارية بعد أن حاصرها المسلمون سبع سنين ولم يقووا عليها لقوة جندها ومناعة حصونها ، فكان يحرس اسوارها كل ليلة مائة الف جندى ، وكان قائد المسلمين هناك يومئذ معاوية بن ابى سفيان ، فجاء يهودى من أهلها اسمه يوسف (*) دلهم على طريق فى سرب فيه الماء الى حقـو الرجل على شرط أن يؤمنوه وأهله ، فدخل المسلمون المدينة وفتحوها

وقس على ذلك مدنا أخرى سلمها اليهود نكاية فىالروم حكامهم، وخصوصا فى الاندلس للاسباب التى قدمناها

١١ ــ عدل المسلمين ورفقهم وزهدهم

كان لتلك المناقب تأثير عظيم فى من يدخل تحت سلطان المسلمين من رعايا الروم أو الفرس ، وتلك كانت الوصية الاولى التى يتزودون بها اذا خرجـوا للفتح ، واليك وصية أبى بكر لاسامة يوم خروجه بالمسلمين الى الشام قال : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولابقرة ولا بعيرا الا لله . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له »

وفى حكاية بنـاء الفسطاط ورفـق عمرو بن العاص باليمام الذى كان معششا فى فسطاطه ما يدل على رغبتهم فى الرفق

١٢ ــ التسوية بين الناس

ومن هذا القبيل التسوية بين طبقات الناس رفيعهم ووضيعهم ، ومن أوضح الادلة على ذلك ما كان من أمر جبلة بن الايهم ملك غسان لما أسلم فى زمن عمر بن الخطاب وجاء المدينة بخيله ورجله ، وقد فرح عمر باسلامه وخرج أهل المدينة للنظر الى موكبه وفيه الخيول المعقودة أذنابها وفى أعناقها سلاسل الذهب ، وعلى رأس جبلة تاج مرصع بالجوهر . على أن ذلك لم يمنع عمر من اقامة الحد عليه ، لما وطىء أحد بنى فزارة ازاره وهو يطوف بالكعبة فرفع جبلة يده وهشم أنف الفزارى ، فاشتكاه الفزارى الى عمر فبعث الى جبلة فأتاه فقال له : « ماهذا ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين ، انه تعمد حل ازارى ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف » . فقـال

(*) كذا ورد الاسم عند البلاذرى ، دون زيادة (القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٤٧)

عمر : « قد أقررت على نفسك ، فاما أن ترضى الرجل واما أن اقيده منك فآمره بهشم أنفك كما فعلت به » فقال : « وكيف ذلك يا أمير المؤمنين وهو سوقة وأنا ملك ؟ » فقال : « الاسلام جمعك واياه ، فلست تفضله الا بالتقى والعافية » (*) فلم ير جبلة مخرجا من حكم عمر الا بالفرار ، فهرب الى القسطنطينية ولم يرجع الى بلاد العرب

ومثلها حكاية القبطى الذى ضربه ابن عمرو بن العاص وذهب الى عمر بن الخطاب فى المدينة فاستعاذ به ، فبعث عمر الى عمرو فاستقدمه وابنه ، فلما جاء أعطى الخليفة للقبطى سوطا وأمره أن يضرب ابن عمرو فضربه ، وأراد أن يضرب اباه عمروا فقال عمرو : « انما ابنى الذى ضربه » ، فقال له: « ياعمرو ، منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا ؟ »

ولا يخفى ما كان لهذه المناقب من التأثير فى تعجيل الفتح ، لان اهل الشام والعراق ومصر كانوا يشكون استبداد حكامهم فيهم واحتقارهم اياهم ، فلما علموا بعدل المسلمين ورفقهم مالوا اليهم

١٣ ـ استبقاء الناس على أحوالهم

كان العرب اذا فتحوا بلدا أقروا أهله على ماكانوا عليه من قبل لايتعرضون لهم فى شىء من دينهم أو معاملاتهم أو أحكامهم المدنية أو القضائية أو سائر أحوالهم . كذلك فعلوا بمصر لما فتحها عمرو بن العاص ، فانه جعل أمور الاقباط لانفسهم يحكم فى مصالحهم قضاة منهم ، وفعلوا مثل ذلك فى معظم مافتحوه من البلاد

وكان المسلمون يفرضون على من يقبل البقاء على دينه من أهل البلاد المفتوحة ضريبة تسمى الجزية فى مقابل حمايتهم وتأمينهم ، وكان الروم قد تعودوا أداء مثل هذا المال للعرب المقيمين فى حدود الشام من الغساسنة وغيرهم ، يبتاعون به نصرتهم على الفرس ، كما كان الفرس يؤدون المال الى عرب العراق لينصروهم على الروم

وأما العرب فقد اشترطوا مع دفع المال الخضوع لهم عملا بنص الآية : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ، وكانوا مع ذلك يتعهدون بحماية الذين يدفعون الجزية اى يعتبرونهم فى ذمتهم ، ولهذا فقد سموا أهل الذمة . والغالب أن يراد بها حماية أهل البلاد الاصليين من حكامهم الروم ، لانهم كانوا يريدون الخروج من طاعتهم وهم يخافون سطوتهم

وترى ذلك واضحا فى كلام عبادة بن الصامت للمقوقس حاكم مصر ولسائر

(*) هذه رواية الطبرى ، ورواية ابى الحسن احمد بن يحيى البلاذرى تختلف من ذلك . انظر فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ١٤٢

Marfat.com

القبط لما دعاهم الى الاسلام فقد قال لهم : « وان أبيتم الا الجزية فأدوها الينا عن يد وأنتم صاغرون . وأن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وانتم فى كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وتعرض لكم فى شيء من أرضكم ودمائكم واموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ان كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا ... الخ » (*) . ومثله كتاب خالد بن الوليـــد الى ابن نسطونا فى العراق ، وغيره من كتب العهود لاهل الذمة وهى كثيرة . ويؤيد ذلك أن المسلمين لما دعوا الى الاجتماع فى اليرموك ، وكانت حمص فى ذمتهم ، ردوا الى أهلها ماكانوا أخذوه منهم من الجزية وقالوا : « قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم » ، فقال أهل حمص : « لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والضيم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم» وكثيرا ماكانوا يعفون غير المسلمين من الجزية اذا تعهدوا بالقتال معهم ، وأكثر مايكون ذلك مع العرب النصارى ، ولكنه وقعمع غير العرب كالجراجمة (**) وغيرهم

فلم يكناستيلاء المسلمين ثقيلاعلى الناس ، بلكان الاهالى كثيرا مايفضلونهم على حكامهم الاصليين ، والجزية التى كانوا يتكفلون دفعها الى المسلمين أقل كثيرا من مجموع الضرائب التى كانوا يؤدونها الى الروم أو الفرس

الخلاصة

وجملة القول أن المسلمين لم يجرئهم على الفتح ويساعدهم عليه الا الدين وشدة الاعتقاد بالنصر ، مع ما كان من مهارتهم فى الفروسية ورمى النبال ، وقوة ابدانهم ونشاطهم من عيشة البداوة ، مع المطاولة فى الحرب ونبـــوغ أفراد منهم فى الرأى والشجاعة ، فضلا عن عدلهم ورفقهم واختلال أحوال الروم والفرس . فلم تمض بضع عشرة سنة حتى فتحوا الشام وفلسطين ومصر والعراق وفارس فى زمن عمر بن الخطاب ، وتواصل الفتح فى أيام عثمان ابن عفان ومن بعده

(*) انظر : ابن عبد الحكم ، طبعـة ماسيه ، القاهرة ١٩١٤ ، ص ٦٢ ، وانظر الحديث الـكامل بين عبادة والمقوقس ابتداء من ص ٦٠

(**) الجراجمةقوم كانوايعيشونعلىمقربة من انطاكية على جبل يسمى جبل اللكامبين قريتى بياس وبوقا وكانت لهم مدينة تسمى الجرجومة ، ومن هنا كانت تسميتهم ، وكانوا نصارى يخضعون لوالى انطاكية وبطريقها ، وعندما وصلت جيوش المسلمين الى موضعهم أثناء فتح الشام عاهدوا حبيب بن مسلمـه الفهرى على أن يكونوا اعوانا للمسـلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام ، وألا يؤخذوا بالجزية

البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٦٣ ـ ١٦٤

ويذهب لامنس الى انهم هم المرادائيون

cf : H. Lammens, Etude sur le règne du Calife Umayyade Moawia I, p. 17.

عود الى الخلفاء الراشدين

الفتنة

وفى زمن عثمان حدثت الفتنة ، ثم استشرى أمرها بمقتله سنة ٣٥ هـ ففيرت طور التاريخ الاسلامى . وسببها أن عمر لما طعنه أبو لؤلؤة سنة ٢٣هـ وأحس بدنو الاجل أهمه أمر المسلمين بعده ، فعمد الى طريقة لانتخاب من يتولاهم بعده بالاكثرية ، فسمى نفرا من الصحابة فيهم عثمان بن عفان وطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام وعلى بن ابى طالب وأوصاهم أن يجتمعوا فى بيت عائشة زوج النبى ويختاروا واحدا منهم يتولى الخلافة بعده ، فاختاروا عثمان بن عفان وهو من بنى أمية وأكبرهم سنا

وكان بنو أمية أوفر بطون قريش عددا وقوة ، لكن اكثرهم لم يدخلوا فى الاسلام الا بعد فتح مكة وبعد أن أسلم ابو سفيان زعيمهم ، فلم يكن لهم جهاد فى الغزوات التى قامت عليها دعائم الدولة الاسلامية . فلما تولى أبو بكر لم يولهم الاعمال ، الا قليلا منهم ، وربما كان السبب فى ذلك انه لم يكن يثق بصدق اسلامهم لحداثة عهدهم فيه ، أو لانهم أسلموا مضطرين ، فطالبوه بزيادة نصيبهم فى الولايات فقال لهم : « أدركوا اخوانكم فى الجهاد » وانفذهم لحروب الردة ، ثم بعثهم عمر لحروب الشام ، وهم مع ذلك يرون أنهم أولى بطون قريش بالسلطة ، لانهم أعز من بنى هاشم جانبا وأكثر عددا ، وكانت القيادة فى الحروب قبل الاسلام اليهم كما رأيت فى كلامنا عن مناصب الجاهلية ، وزاد نفوذهم بعد موت أبى طالب عم النبى . وكانت بين الهاشميين والامويين منافسة متصلة بزمن الجاهلية

فلما تولى عثمان بن عفان اعتزوا به ، وكان رجلا صالحا لكنه كان يؤثر أقرباءه فجعل يوليهم الاعمال فى الامصار ويعهد اليهم بمصالح الدولة ، فشق ذلك على الصحابة الذين كانت الاعمال اليهم من قبل . وحدثت أسباب أخرى يطول شرحها آلت الى نقمة أهل الامصار على عثمان (*) ، فجاءوا الى المدينة وفيهم أهل مصر والكوفة وأهل البصرة وطلبوا اليه أن يخلع نفسه ، فأبى فقتلوه وهو يقرأ القرآن فتلطخ قميصه بالدم

على وطلحة والزبير

فلما قتل عثمان اختلفوا فى من يخلفه من كبار الصحابة ، وكان غرض أهل مصر فى على بن ابى طالب ، وغرض أهل البصرة فى طلحة بن عبيد الله ، وغرض أهل الكوفة فى الزبير بن العوام — وهم اكثر الصحابة تطلعا الى الخلافة —

(*) انظر بيان المآخذ التى وجهها المسلمون الى عثمان وكانت سببا فى الثورة عليه فى : الرياض الناضرة فى مآثر العشرة لمحب الدين الطبرى (القاهرة ١٣٢٧) ج ٢ ص ١٣٧ — ١٥٢ ، ومناقشة الدكتور طه حسين لذلك فى كتاب « الفتنة الكبرى » ج ١ : عثمان (القاهرة ١٩٥٢)

وكان أكثر مسلمى الشام مع بنى أمية ، وهم يريدونها لعثمان أو من يخلفه منهم . وأما أهل المدينة فكانوا يريدونها لعلى بن أبى طالب ، جريا على عادتهم فى نصرة بيت النبى منذ هاجر النبى اليهم . وانضم الى أهل المدينة فى نصرة على ربيعة واليمن وغيرهما . فكان دعاة على أكثر عددا من سائر الاحزاب ، لكنهم كانوا لفيفا من قبائل شتى وأكثرهم من المدينة . وبين أهل مكة والمدينة منافسة قديمة تمكنت بعد الاسلام ، لما رأيته من نصرة أهل المدينة للمسلمين بعد الهجرة ، حتى تأيد أمرهم بهم وعادوا ففتحوا مكة . وصارت المدينة عاصمة المسلمين وتحولت اليها التجارة والنفوذ وضعف أمر مكة . فلما بايع أهل المدينة عليا بايعه أيضا طلحة والزبير مكرهين ، وخرجا الى مكة فنصرهما أهلها نكاية فى أهل المدينة . ثم شخصا الى العراق للاعتزاز بأحزابهما هناك فتبعهما على بجنده . فجرت بين الجيشين واقعة الجمل الشهيرة بجوار البصرة ، فقتل فيها طلحة والزبير وخلصت الخلافة لعلى . فنقل عاصمة المسلمين من المدينة الى الكوفة ، وقد أخطأ فى تخليه عن احزابه بالمدينة واعتماده على أهل العراق

على ومعاوية

وظن على ان الجو قد خلا له ، وما درى أن فى الشام رجلا عظيما يطلب البيعة لنفسه ـ نعنى معاوية بن أبى سفيان ـ وقد رأيت ان اباسفيان واولاده لم يدخلوا فى الاسلام الا بعدأن يئسوا من الفوز ، فلما قتل عثمان كان معاوية بالشام وحوله نخبة الرجال من قريش ، وكلهم يستهلكون فى سبيل نصرته لما ذكرناه من كثرة بنى امية وقوتهم منْ ايام الجاهلية . وقد شق عليهم فى اول الاسلام أن تكون النبوة فى بنى هاشم فنقموا عليهم . ولما خرج بنو هاشم من مكة بالهجرة خلا الجو فى مكة لبنى امية ، وصارت الرياسة اليهم فى أثناء محاربتهم المسلمين فى وقائعهم المشهورة فى بدر وغيرها ، ورئيسهم فى كل ذلك أبو سفيان والد معاوية . ولما تولى أبو بكر وأرسلهم للجهاد تولى ولاية الشام منهم يزيد بن ابى سفيان ، ثم مات فخلفه أخوه معاوية فى زمن عمر ، فلما تولى عثمان أقره عليها ومعظم جنده من قريش . فاتصلت رياسة بنى امية ـ وخصوصا بيت أبى سفيان ـ على قريش فى الاسلام كما كانت قبله ، واستقل بنو هاشم بأمر النبوة ونبذوا الدنيا (*)

التحكيم

فلما قتل عثمان راى معاوية سبيلا لالتماس الخلافة ، فعرض قميص عثمان الملطخ بالدم فى مسجد دمشق ودعا الناس للمطالبة بثأره لانه من رهطه ،

(*) انظر بيان هذه النقطة بالتفصيل فى « النزاع والتخاصم بين بنى امية وبنى هاشم » لتقى الدين المقريزى طبعة لقاهرة

Marfat.com

واتهم عليا وأصحابه بقتله . ثم رأى الحرب منتشبة فى العراق بين على وطلحة والزبير ، فظن هذين يكفيانه مؤونة الحرب . فلما قتلا وفاز على عمد معاوية للمطالبة بدم عثمان ، واستنجد رجالا من دهاة العرب فيهم عمرو بن العاص ، وكان عثمان قد عزله عن مصر ، فاستدناه معاوية ووعده بولاية مصر اذا هو فاز . فحارب معه فى واقعة صفين الشهيرة سنة ٣٧ هـ وكادت رجال على تظفر بمعاوية وأصحابه فيها ، فاستنبط ابن العاص حيلة أخرجت الخلافة من أهل البيت الى بنى أمية (*)

وذلك أنه أمر رجال معاوية برفع المصاحف على أسنة الرماح اشارة الى طلب الهدنة للمخابرة ، فانخدع أصحاب على بذلك فألحوا عليه أن يوقف القتال ففعل . وبعد المخابرة توافقوا على التحكيم ، فاختار معاوية عمرو بن العاص ، واختار أصحاب على أبا موسى الاشعرى ، وشتان بين الرجلين فى الدهاء والذكاء . ورضى الفريقان بما يحكم به هذان وعينوا يوما لسماع الحكم ، فاحتال عمرو على أبى موسى حيلة غلب بها على عقله . أظهر انه يريد خلع على ومعاوية معا ليختار المسلمون واحدا سواهما . فقبل ابو موسى ذلك . لكن عمروا طلب اليه أن يتكلم قبله لانه أرفع منه منزلة وأكبر سنا . فانخدع أبو موسى فوقف وقال : « أيها الناس ، انا قد نظرنا فى أمر هذه الامة فلم نر أصلح لامرها ولا ألم لشعثها من أمر أجمع رأيى ورأى عمرو عليه ، وهو أن نخلع عليا ومعاوية ويولى الناس أمرهم من أحبوا . وانى قد خلعت عليا فاستقبلوا أمركم وولوا من رأيتموه أهلا »

ثم وقف عمرو وقال : « ان هذا قد قال ماسمعتموه وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية ، فانه ولى عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه »

فلما سمع الناس ذلك أيقنوا انها حيلة قد عملت ، ولو أنها آلت الى خلافة معاوية فقط لهان أمرها ، ولكنها اوجبت انقسام رجال على عليه ، لان بعضهم

(*) لا زال حادث التحكيم موضع خلاف شديد بين المؤرخين المحدثين . والموضوع فى ذاته يثير الشكوك نظرا لتضارب الروايات فيه بصورة فريدة فى بابها فى تاريخ الاسلام، ونظرا لغرابة الحيلة التى لجأ اليها عمرو بن العاص . فانه يستبعد أن يكون أبو موسى الاشعرى قد وافق على خلع على فى مقابل خلع عمرو بن العاص لمعاوية ، لان معاوية لم يكن خليفة ، بل لم يكن قد طالب بالخلافة الى ذلك الحين. ويبدو من مجموع الروايات أن أبا موسى لم يكن شديد الحماس لعلى بن أبى طالب وأنه كان لا يرى بأسا بتنصيب عبد الله بن عمر خليفة

انظر التفاصيل الكثيرة عند الطبرى والمسعودى فى مروج الذهب والتنبيه والاشراف ، واليعقوبى فى تاريخه وابن سعد فى الطبقات

وانظر من المؤرخين المحدثين :

طه حسين : الفتنة الكبرى ، على وبنوه

عباس محمود العقاد : عبقرية على بن أبى طالب

Wellhausen, Die religioes — politischen Parteien in alten Islam

Lammens, Etude sur le règne du calife Omayyade Mo'awia 1er

Marfat.com

لاموه على قبول التحكيم وخرجوا من حكمه وهم الخوارج . فأصبح على بين عدوين ، والخوارج أشدهما خطرا عليه لانه قتل بطعنة من احدهم فى السنة ٤٠ للهجرة فى مسجد الكوفة

فبايع أهل الكوفة ابنه الحسن ، ومعاوية لايزال يطالب بالخلافة لنفسه(*) فرأى الحسن انه لا يقوى على حربه فتنازل له عنها حقنا للدماء . فبويع معاوية فى الشام وانتقل كرسى الخلافة من الكوفة الى دمشق ، وكان ذلك آخر العهد بدولة الخلفاء الراشدين

احوال الخلفاء الراشدين

نرى مما تقدم أن دولة الخلفاء تأسست على التقوى وشيدت بالعدل ، وكان خلفاؤها فى أبسط أحوال العيش . وكانت الخلافة على عهدهم أشبه بالرتب الدينية منها بمصالح الدولة ، وكان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ (الكرباس القطن الابيض) وفى رجليه نعلان من ليف ، وحمائل سيفه ليف ، ويمشى فى الاسواق كبعض الرعية . واذا كلم أدنى الناس سمع منه اغلظ من كلامه ، وكانوا يعدون ذلك من قبيل الدين ويحكمون الناس بالتقوى والعدل والقدوة الحسنة

وكان طعامهم أدنى من أطعمة فقرائهم ، وهم لم يتقللوا منه لفقر أو عجز ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك مواساة للفقراء من رعيتهم ، فقد كان لعلى بن ابى طالب ارتفاع طائل من املاكه يخرجه جميعه على الفقراء

ولم يكونوا يعبأون بالمال ، وكان ذلك شأن سائر الصحابة فى أيامهم . ولعل السبب فى ذلك قربهم من عهد النبوة ولا تزال رهبتها آخذة بمجامع قلوبهم، فلما بعد عهدها زالت تلك الرهبة من قلوبهم فعكفوا على مطالب الدنيا . ويظهر ان ذلك بدأ فيهم فى أواخر عهد الراشدين ، فقد ذكر المسعودى انه « فى أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور . فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار والف الف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار ، وخلف ابلا وخيلا كثيرة . وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار ، وخلف الف فرس والف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق الف دينار كل يوم، ومن ناحية السراة اكثر من ذلك . وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف الف

(*) عقد مؤتمر التحكيم فى أذرح ، وهى محطة للقوافل بين المدينة ودمشق ، فى منتصف المسافة بين معان والبتراء فى يناير ٦٥٩ ، ولم يكن معاوية اذ ذاك الا واليا على الشام ، وقد ظل كذلك دون ان يكشف عن طمعه فى الخلافة الا فى أوائل سنة ٦٦١
انظر تحقيق الاب لامنس للموضوع فى كتابه :
Etude sur le règne du Calife Omaiyade Mo'awia 1er (Beirut, 1907) Ch. VII

Marfat.com

فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين الفا . وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس غير ماخلف من الاموال والضياع بمائة ألف دينـــار . وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والاسكندرية . وكذلك بنى طلحـــة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج . وبنى سعد ابن أبى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرافات . وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن . وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم » (*)

وكانت مدة حكمهم نحو ثلاثين سنة اتسعت فيها الفتوح الاسلامية ، حتى وطئت خيل العرب ما بين افريقية فى الغرب الى أقاصى خراسان فى الشرق وعبرت النهر الى سمرقند

(*) المسعودى : مروج الذهب ، ج ١ ص ٤٣٤

Marfat.com

دولة بنى أمية

بينا فى أواخر كلامنا عن الخلفاء الراشدين كيف انتقلت الخلافة الى بنى‌امية وأولهم معاوية بن أبى سفيان . وتمتاز الخلافة فى عهد بنى أمية بأنها سلطنة دنيوية يحكمها خليفتها بالدهاء والسياسة ، ويستدنى الناس بالارهاب ويؤيد سلطانه ببذل الاموال . والسبب فى ذلك أن مؤسس هذه الدولة لم يستطع تأييدها لولا مافى الشام من الخير الكثير والاموال الطائلة ، فلما خلصت له الخلافة عمد الى التوسعة على الناس ببذل الاموال،وكان يبذلها خصوصا لبنى هاشم تخفيفا لما فى أنفسهم من النقمة عليه لانتزاعه الخلافة من أيديهم . وكان اذا وفد أحدهم عليه بالغ فى اكرامه وارضائه وقضاء حوائجه ، وكثيرا ما كانوا وهم فى حضرته يذكرون حقهم بالخلافة ويعرضون باغتصابه اياها ، وهو يغضى عن ذلك ويقطع ألسنتهم بالمال والحلم مما هو مأثور عنه

واقتبس معاوية من الروم أسباب‌البذخ ودواعى الترف وقلدهم فى‌أبهة الملك، فأقام الحرس يحملون الحراب بين يديه اذا مشى أو قام للصلاة ، وبنى لنفسه قصرا نصب فيه السرير (*) وأوقف الحاجب ببابه ، وبنى مقصورة فى المسجد اذا جاء للصلاة صلى فيها . ولعله اتخذ هذه الوسائل خوفا من أن يغتاله أحد كما اغتالوا عليا وكادوا يغتالونه هو . وقلد الروم فى لبس الخز والديباج ، وهو الذى وضع البريد على مثال ماكان عند الفرس والروم وأنشأ ديوان الخاتم ، مما سيأتى تفصيله

ومما استحدثه معاوية فى الاسلام أنه جعل الخلافة وراثية فى نسله ، بعد أن كانت انتخابية (**). وهو أول من استطاع ذلك من المسلمين ، فبايع لابنه يزيد وحمل الناس على بيعته بولاية العهد ، ولا عبرة فى بيعة الحسن بعد ابيه على ، فان الناس بايعوه من عند أنفسهم ولم يوص له أبوه بالخلافة

الخلافة وبنو أمية

ولا بد من النظر فى الاسباب التى أعانت معاوية على اخراج الخلافة من أهل البيت وحصرها فى قبيلته . وكان هو وكل الذين بايعوه يعتقدون أن أهل البيت

(*) السرير هنا هو الكرسى الكبير يجلس عليه الملك أو الامير

(**) لم تكن الخلافة أيام الخلفاء الراشدين انتخابية دائما ، فقد أوصى أبو بكر لعمر ، وحدد عمر للناس ستة يختارون خليفتهم من‌بينهم ، وبويع لعلى فى الحجاز دون غيره من بلاد الدولة الاسلامية

Marfat.com

احق بها منه ، والاسباب عديدة ذكرنا بعضها فى ماتقدم . ومنها ايضا أن معاوية استخدم فى شد أزره رجالا هم أشهر دهاة الاسلام استدناهم اليه بالاطماع ، منهم عمرو بن العاص فقداطمعه بمصر فساعد علىمبايعته كماقد رأيت،ومنهم زياد بن ابيه وهو رجل لا يعرف ابوه ولكنه ذو دهاء وسياسة فانتحل معاوية حكاية استلحقه بها بنسبه وزعم أنه أخوه من أبيه أبى سفيان وسماه زياد بن أبى سفيان ، فكان زياد هذا من اكبر أعوان معاوية وله فضل كبير فى تأييد هذه الدولة فى العراق وغيره ، وابنه عبيد الله بن زياد هو الذى قتل الحسين بن على قتلته المشهورة على يده ، وما زال آل زياد يعدون من قريش حتى رد نسبهم الخليفة المهدى (سنة١٩٥هـ) الى رجل اسمه عبيد الرومى من ثقيف . وممن استخدمهم معاوية فى تأييد خلافته المغيرة بن شعبة ، وهو الذى شجعه على مبايعة ابنه يزيد بالخلافة وحصر الخلافة فى نسله وساعده أيضا فى استدناء زياد بن أبيه (*)

والمؤرخون يعدون هؤلاء الاربعة أعظم دهاة العرب ، ومن ذلك قول أحدهم : « مارأيت أثقل حلما ولااطول اناة من معاوية ، ولارأيت اغلب للرجال ولا أبذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبه سرا بعلانيـــة من زياد ، ولو كان المغيرة فى مدينة لها ثمانية أبواب لايخرج من باب منها الا بالمكر لخرج من أبوابها كلها»

ومما ساعد معاوية على الفوز أن عليا لم يكن يرى الاحتيال فى الملك ولا يعرف الدهاء فى السياسة . يدلك على ذلك مافرط منه من هذا القبيل لما بويع بعد مقتل عثمان ، فجاءه المغيرة يومئذ واشار عليه باستبقاء معاوية وسائر العمال ، كما كانوا فى زمن عثمان حتى يستتب له الامر وتجتمع على بيعته القلوب وتتفق الكلمة ، ثم يفعل بعد ذلك ما شاء وهو رأى رجل حازم . فعده على من قبيل المداهنة فى الدين فلم يعمل به . ونصحه أيضا مثل هذه النصيحة ابن عمه عبد الله بن عباس فأبى ، فقال له ابن عباس : « ياأمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأى فى الحرب ، أما سمعت رسول الله (ص) يقول : الحرب خدعة ؟» فلم يقتنع (١) .. أما المغيرة فلما رأى ضياع نصيحته معه عمد الى مسايرته وعاد اليه فى الغداة وحسن له ما رآه ، ولو عمل على برأى المغـــيرة

(*) لم تكن الاطماع وحدها هى التى قربت بين معاويذة من ناحية وعمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة وزياد بن أبيه من ناحية أخرى ، بل ساعد على ذلك التقريب صلات قبيله وعوامل سياسية ترجع الى أيام الرسول صلوات الله عليه وأبى بكر وعمر . فقد كان عمرو بن العاص من بنى سهم ، وهى قبيلة حليفة لبنى عبد الدار وقد اشتركت معهم فى صحيفة مقاطعة بنى هاشم ، أما المغيرة بن شعبة فمن ثقيف وعداؤها للدعوة الاسلامية فى أول أمرها معروف ، وزياد بن أبيه تلميذ المغيرة بن شعبة ، أخذ عنه وسار على منهجه ، مثله فى ذلك مثل الحجاج بن يوسف

(١) ابن الاثير ٩٧ ج ٢

Marfat.com

وابن عباس لما نقم هؤلاء عليه ولا خرج المغيرة ولا غيره من احزابه ولا كانت واقعة الجمل ، وربما لم يصل الامر الى بنى امية

بذل المال

وهناك عامل ذو تأثير عظيم استخدمه معاوية وسائر بنى امية فى تأييد سلطانهم ، نعنى به «المال» . فقد كانوا يصطنعون به الاحزاب ويستدنون به الاعداء ، فيبذلونه للشعراء والوافدين ، ففازوا به على على بن ابى طالب وأولاده وأحفاده ، على حين أن هؤلاء كانوا يعدون استخدام المال فى هذا السبيل رذيلة يجلون أنفسهم عنها ، ويعتقدون أن الحق وحده يكفى لتأييد دعوتهم . وقد صح زعمهم هذا فى أوائل الاسلام والناس فى دهشة النبوة قبل ان تغلب عليهم أهواؤهم ، فلا نظن أهل الكوفة نكثوا بيعة الحسين الا بالمال . حتى آل الامر الى قتله فكأنهم قتلوه بالمال . وهم لم يقتلوا عبدالله بن الزبير الا بالمال . ولو بذل عبدالله هذا المال مثلهم لكانت الخلافة فى نسله لا فى بنى امية ، ولكنه استنكف ان يعطى الناس من أموال الكعبة فأضر بنفسه ، وقد صرح بذلك خصمه عبد الملك فقال وهو على فراش الموت : «ما أعلم أحدا أقوى على هذا الامر (الخلافة) منى . ان ابن الزبير طويل الصلاة كثير الصيام لكنه لبخله لا يصلح للسياسة»

وكان أخوه مصعب بن الزبير مع ذلك ينفق الاموال الطائلة على نفسه واهله، حتى أنه بذل مليون درهم فى زواج سكينة بنت الحسين . وكان الجند فى ضيق يطلبون مالا ولا يعطى لهم . فكتب عبد الله بن همام الى عبد الله بن الزبير يقول :

بلغ أمير المؤمنين رسالة ... من ناصح لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف الف كامل ... وتبيت سادات الجنود جياعا
ولو لابى حفص أقول مقالتى ... وأبث ما ابثثتكم لارتاعا

وقد كان عبد الملك من أكثر بنى امية بذلا للمال فى سبيل تأييد سلطانه ، فان عامله الحجاج بن يوسف لما حاصر الكعبة وفيها ابن الزبير أمر رجاله ان يرموا الكعبة بالمنجنيق فتهيبوا ، فجاء بكرسى وجلس عليه وقال : «يا أهل الشام ، قاتلوا على أعطيات عبد الملك» ففعلوا

وكثيرا ماكان عبد الملك يرد أذى الاحزاب عنه بالمال ، ينثره على الناس فيشتغلون به عنه ، ومن ذلك مافعله مع رجال عمرو بن سعيد بن الاشدق لما طمع بالشام دونه وخاف عبد الملك على نفسه فأمنه ، واحتال فى استحضاره الى ديوانه وقتله غدرا ، ثم علم أصحابه بمقتله فتجمهروا حول المجلس ، وخاف عبد الملك العاقبة فأمر رجلا أن يرمى رأس عمرو الى الناس ، واخذ ابنه عبد العزيز المال فى البدر وجعل يلقيها اليهم ، فلما رأى الناس الرأس والاموال اشتغلوا بالاموال وتفرقوا

Marfat.com

وكان للمال تأثير أعظم من ذلك فى أيام العباسيين، فان سلطانهم كان يقوى أو يضعف بنسبة ما يبذله الخليفة من الاموال للجند ، وخصوصا لما استبد الاتراك فى أمور الدولة فكانوا يبيعون نصرتهم بالمال ، وكانوا اذا تولى الخليفة طالبوه بحق البيعة وقد يفرضون عليه رزق سنة أو غير سنة

الدهاء والحزم

ومن الاسباب التى أيدت سلطان بنى أمية أنهم كانوا يعولون فى تأييده على الدهاء والسياسة والحزم ، ولو كان فيها خرق لحرمة الدين أو اهانة لاهله ، فانهم قتلوا ابن بنت النبى ، وضربوا الكعبة بالمنجنيق ، ولعنوا ابن عم النبى وصهره على المنابر ، وقتلوا من لم يلعنه . وسنعود الى تفصيل ذلك فى مكان آخر

خلفاء بنى أمية

قلنا ان معاوية جعل الخلافة وراثية فى نسله ، لكنها لم تتعد أولاده ولم يخلفه منهم الا يزيد الذى بويع بولاية العهد فى حياته . ولم يحكم الا بضع سنين ارتكب فى أثنائها أمورا كبارا فى جملتها مقتل الحسين بن على . ولما مات يزيد اختلف الناس على البيعة . وكان له ابن اسمه معاوية (الثانى) ولوه وهو لايرى الخلافة حقا لهم (*) . ومات بعدقليل، فبايع بنو أمية شيخا أمويا من غيربيت معاوية اسمه مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، تولى الخلافة بضعة أشهر ومات ، ثم انحصرت الخلافة فى نسله وكل خلفاء بنى أمية بعده من ولده أشـــهرهم عبد الملك بن مروان المتقدم ذكره تولاها من سنة ٦٥ ــ ٨٦ هـ

عبد الملك بن مروان وابنه الوليد

ولعبد الملك ذكر حسن فى تاريخ التمدن الاسلامى ، لانه عمم اللغة العربية فى دواوين الممالك الاسلامية ، وكانت لا تزال الى أيامه تكتب بلغات أهلها ويتولاها أناس من الوطنيين : فالديوان المصرى كان يكتب بالقبطية ويتولى أعماله جماعة من قبط مصر ، والشامى يكتب باليونانية وأموره بأيدى أناس من نصارى الشام ، والعراق بالفارسية ويكتبه بعض أهل العراق . فأمر عبد الملك أن تكون كلها بالعربية وسلم مقاليدها الى المسلمين ، ولا يخفى ما كان لهذا العمل من التأثير العظيم فى تأييد الدولة الاسلامية ، لانه جعل اللسان العربى لسانا عاما فى سائر أنحاء المملكة ، فأصبح أهلها بتوالى الاجيال وقد نسوا جنسيـــاتهم وصاروا يعدون أنفسهم عربا ، وساعد على ذلك أن العربية هى لغة الدين أيضا (١)

(*) انظر ابن طباطبا : الفخرى (القاهرة ١٩٢٣) ص ١٠٩ وأبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب المصرية) ج ١ ص ١٦٤

(١) ابن خلدون ٢٠٣ ج ١ والمقريزى ٩٨ ج ١

Marfat.com

ومن أعمال عبد الملك أنه ضرب النقود الذهبية بالعربية ، ونقل الطراز من الرومية الى العربية ، وسيأتى تفصيل ذلك . وكان عامل عبد الملك على العراق الحجاج بن يوسف المشهور بدهائه وغلظته ، وكان نصيرا له على تأييد دولته فحارب عبد الله بن الزبير ، وكان هذا يدعو الناس الى بيعته دون بنى أمية فحاصره الحجاج فى مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق ، ثم قتله واستخلص الخلافة لعبد الملك

قال ابن الاثير : «وهو (عبد الملك) أول من غدر فى الاسلام ، وأول من نهى عن الامر بالمعروف ، فانه قال فى خطبته بعد قتل ابن الزبير : ولا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا الا ضربت عنقه » (١)

ومنهم الوليد بن عبد الملك (سنة٨٦ـ٩٦) وفىأيامه فتحت الاندلس وامتدت فتوحاته من جهة تركستان وبعض جزائر البحر المتوسط ، واتسعت حال بنى أمية فى بناء القصور واتخاذ المصانع والضياع

عمر بن عبد العزيز

ومن أشهر خلفاء بنى أمية عمر بن عبد العزيز بن مروان (حكم سنة ٩٩ ـ ١٠١ هـ) وكان أقربهم جميعا الى سيرة الخلفاء الراشدين ، ولعله كان كذلك لقرابته من عمر بن الخطاب لانه ابن حفيدته ، فلما تولى الخلافة جعل جدهعمر قدوته بالزهد والعدل . وكان بنو أمية منذ جاهروا بطلب الخلافة فرضوا لعن على على المنبر فراى عمر أن ذلك لا يوافق روح الاسلام فأمر بابطاله (٢) فلم تقع أعماله هذه موقعا حسنا لدى بنى أمية ، وخصوصا لانه منعهم من اقتناء الاملاك ، وكان عمر بن الخطاب قد نهاهم عن ذلك فلم يسمعوا فأعاده هو ، فخافوا اذا طال حكمه أن يخرج الخلافة منهم فعجلوا به (*)

يزيد بن عبد الملك

وخلفه ابن عمه يزيد بن عبد الملك ، وكان من أهل اللهو والطرب فشغل عن مصالح الدولة بجاريتين اسم احداهما سلامة والاخرى حبابة . وتسلطت حبابة على عقله وقلبه فأصبحت المملكة طوع ارادتها ، تولى من شاءت وتعزل من شاءت،وهو لا يعرف من أمور الدنيا شيئا ، فلامه اخوه مسلمة وقال له : «توليت هذا الامر بعد عمر بن عبد العزيز وعدله ، فتشاغلت بهذه الجارية عن

---

(١) ابن الاثير ٢٥١ ج ٤ والفخرى ١١٠

(٢) أبن الاثير ٢٠ ج ٥ وابو الفداء ٢١٢ ج ١ والمسعودى ١٢٠ ج ١

(*) لم أجد فى المراجع ما يؤيد القول بأن بنىأمية عجلوا بموت عمر بن عبد العزيز. واقرب الآراء الى الصحة أنه مات ميتة طبيعية من مرض الزمه الفراش عشرين يوما بدير سمعان فى أواخر رجب سنة ١٠١ هـ

انظر الطبرى : تاريخ (طبعة المطبعة الحسينية بالقاهرة) ج ٨ ص ١٣٧

Marfat.com

النظر فى الامور ، والوفود ببابك وأصحاب الظلامات يصيحون وأنت غافل عنهم» فتأثر لقوله وقال : «صدقت» وهم بترك الشراب ولم يجتمع بحبابة أياما ، فاشتاقت هى له فلما كان يوم الجمعة قالت لبعض جواريها : «ان خرج أمير المؤمنين للصلاة فاعلمينى» فلما أراد الخروج أعلمتها فتلقته والعود فى يدها وغنت :

ألا لاتلمه اليـــوم أن يتبـــلدا فقد غلب المحزون أن يتجلدا

ففطى يزيد وجهه وقال : « مه . لا تفعلى ! » . ثم غنت :

فما العيش الا ما تلذ وتشتهى وان لام فيه ذو الشنان وفندا

فلم يتمالك أن عدل اليها وقال : «صدقت والله .. قبح الله من لامنى فيك ! . يا غلام ، مر مسلمة أن يصلى بالناس » . وأقام معها يشرب وتغنيه وعاد الى ما كان عليه (١)

وما زال يزيد فى ذلك حتى مات بعد موتها حزنا عليها . وخبر موتهما أنه نزل ببيت رأس بالشام ومعه حبابة وقال فى نفسه : «زعموا أنه لاتصفو عيشة لاحد يوما الى الليل الا كدرها شىء عليه ، وسأجرب ذلك» . ثم قال لمن معه : «اذا كان غد فلا تخبرونى بشىء ولا تأتونى بكتاب» ، وخلا هو وحبابة وأتيا بما يأكلان ويشربان ، فأكلت حبابة رمانة فشرقت بحبة منها فماتت !

فأقام يزيد ثلاثة أيام لا يدفنها حتى تغيرت وأنتنت ، وهو يشمها ويرشفها ، ولم يتركها حتى عابه أهله وعاتبوه فأذن بدفنها . ولم يعش بعدها الا خمســة عشر يوما ثم مات ودفن بجوارها سنة ١٠٥ هـ

هشام وبقية خلفاء بنى امية

وتولى الخلافة بعده أخوه هشام (من سنة ١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) وكان غزير العقل لكنه كان بخيلا . والبخل مضر فى دولة تأسست بالكرم

وخلفه الوليد بن يزيد ، وكان قبل الخلافة منهمكا فى اللهو والشراب والغناء مثل أبيه وله أشعار فى ذلك . فلما أفضت الخلافة اليه زاد انهماكا فى اللذات واستهتارا بالمعاصى ، وزاد على ذلك أنه أغضب أهله وأساء اليهم فهجموا عليه مع اعيان رعيته فقتلوه وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك

وكان يزيد هذا عاقدا النية على اصلاح الاحوال ، ولكن الامر كان قد استفحل وبدأت الدعوة العباسية واضطرب حبل بنى امية

وفى أيام خلفه مروان بن محمد بن مروان خرجت الخلافة من أيديهم سنة ١٣٢ هـ رغم ما كان عليه مروان هذا من الرغبة فى استبقائها والهمة فى سبيل الدفاع عنها ، لكنه جاء متأخرا وقد قضى عليها بالزوال

---

(١) ابن الاثير ٥٧ ج وأبو الفداء ٢١٤ ج والمسعودى ١٢٥ ج ٢

Marfat.com

بنو العباس

الدعوة العباسية

قلنا فى عرض كلامنا عن خلافة أبى بكر أن المسلمين لم يشاءوا أن يجمعوا فى بنى هاشم النبوة والخلافة فبايعوا غيرهم من قريش . وأما بنو هاشم فكانوا يعدون ذلك عدولا عن الحق وأنهم أولى الناس بذلك الامر وجعلوا يسعون فى سبيله . والهاشميون المطالبون بالخلافة أصناف : منهم العلويون من أعقاب على بن أبى طالب ، وهم فئتان : احداهما تدعو لنسل فاطمة الزهراء ، والاخرى تدعو لمحمد بن الحنفية (ابن على من غير فاطمة) . ومنهم العباسيون سلالة العباس عم النبى . وكان كل من هؤلاء يدعو الناس الى نفسه فيبايعونه سرا ويظل صاحب الدعوة مستترا لايظهر . فلما ظهر ضعف بنى أمية واضطرابهم هان على الناس الخروج من طاعتهم ، وخصوصا لانهم لم يخضعوا للأمويين الا طمعا أو خوفا وأكثرهم يعتقدون أن بنى هاشم أولى بالخلافة منهم

ووفق العباسيون يومئذ الى رجل فارسى من أهل خراسان ذى بطش وبسالة اسمه أبو مسلم الخراسانى ، فأنفذوه فى طلب البيعة لهم فى خراسان لبعدها عن مركز الخلافة الأموية فوفق الى ذلك توفيقا عجيبا ، فحارب وجاهد حتى ادنى الخلافة من بنى العباس وسلم ازمتها الى ابى العباس السفاح أول خلفائهم سنة ١٣٢ هـ . ولابى مسلم فضل فى تأسيس الدولة العباسية أعظم من فضل عمرو بن العاص فى خلافة معاوية ، لان عمروا نصر معاوية برأيه واما ابو مسلم فانه نصر العباسيين بسيفه وقومه

الدولة العباسية

مهما قيل فى دولة بنى أمية فهى تمتاز عن دولة بنى العباس بأنها عربية حقيقية ، لان عمالها وقضاتها وسائر رجالها كانوا عربا ، الابعض الكتبة والاطباء ونحوهم . وأما بنو العباس فقد غلب فى العصر الاول من دولتهم العنصر الفارسى لان الفرس هم الذين سلموا اليهم مقاليد الاحكام كما رأيت فاتخذوا منهم الوزراء ، وهم أول من اتخذ الوزراء ، اقتبسوا هذا المنصب من الفرس كما سيأتى

أول خلفائهم أبو العباس السفاح ، وكان له عدة اخوة وأعمام استخدمهم فى تأييد سلطانه . وكان مقر السفاح فى الانبار على الفرات غربى بغداد ، وما زال فيها حتى مات ولم يحكم الا بضع سنين

Marfat.com

المنصور وخلفاؤه

فخلفه اخوه ابو جعفر المنصور سنة ١٣٦ – ١٥٧ ﻫ وهو من اعظم رجال الاسلام دهاء وسياسة وشجاعة ، بنى مدينة قرب الكوفة سماها الهاشمية ثم اتفق له فيها حرب مع جماعة يقال لهم الراوندية فكرهها لذلك ولقربها من الكوفة ، وكان يخاف اهل الكوفة لانهم قتلوا عليا والحسين ، فخرج منها وبنى مدينة بغداد وهى أشهر عواصم المسلمين ، ثم رأى أن بقاء أبى مسلم يجعل مركزه فى خطر لانه أقدر الناس على اخراج الملك من أيدى العباسيين كماسلمه اليهم فقتله غيلة . وعذره فى ذلك انه كان عقبة فى سبيله فأزالها ، كما فعل محمد على بالامراء المماليك وكما فعل السلطان محمود الثانى بالانكشارية بعد ذلك باحد عشر قرنا . وأيام المنصور كلها حروب وفتوح

وخلفه ابنه محمد الهادى فهارون الرشيد ثم ابنا الرشيد الامين فالمأمون ، وفى ايام الرشيد والمأمون بلغت الدولة العباسية أوج مجدها ومعظم سلطانها ، وزهت فيها العلوم والمعارف وترجمت الكتب وتفجرت ينابيع الثروة مماسنأتى على تفصيله فى أماكنه

قتل المنصور أبا مسلم الخراسانى خوفا من طمعه فى السلطة وهو فارسى ، لكنه استخدم فى بلاطه رجالا من الفرس ، وفعل خلفاؤه مثله وقدموهم فى مناصب الدولة ومنها الوزارة وهى ارفع هذه المناصب عندهم ، فآل ذلك الى استفحال أمرهم فى أيام الرشيد وزاد سلطان البرامكة ، فلما رآهم الرشيد يستبدون بمصالح الدولة دونه نكب بهم كما هو مشهور

المعتصم والاتراك

وخلف المأمون المعتصم بالله سنة ٢١٨ ﻫ فأكثر من استخدام الاتراك ، وكان صبيان الاتراك يحملون الى بلاط الخلفاء فى أوائل الدولة العباسية هدايا من عمال الامصار فى تركستان ، وكان الخلفاء ينتقون أحسنهم خلقا وأقواهم بنية لاستخدامهم فى قصورهم وكانوا يسمونهم المماليك ، وكانوا يدخلون فى الاسلام ويتعلمون ويتثقفون فظهرت مواهبم فولاهم الخلفاء كثيرا من مناصب الدولة ، وأخذوا يرتقون بحسب اقتدارهم حتى وصلوا الى أعلى مناصب الامارة والجند ، فأصبحت مقاليد السلطة تتنازعها قوتان متوازنتان الترك والفرس وسنعود الى تفصيل ذلك

واصطنع المعتصم قوما من أهل الجوف بمصر (الشرقية والدقهلية) واستخدمهم فى جنده وسماهم المغاربة ، وجمع خلقا من سمرقند وأشروسنة وفرغانة سماهم الفراغنة فكانوا من اصحابه وحاشيته ، فضلا عما كان عنده من الجند العربى ، واصطنع غيره بعده اناسا آخرين من امم اخرى ، فتعددت

Marfat.com

العناصر وكثرت الايدى الاجنبية المتعارضة ، فآل ذلك الى ضعف الخلفـــاء واستبداد العمال فى الولايات واستقلالهم

تفرع الدولة العباسية

وجعلت سلطة الخلفاء تتقلص حتى اقتصرت على السواد بين الفراتودجلة، ولم يكد يدخل القرن الرابع للهجرة حتى انحصرت سلطتهم فى مدينة بغداد ، واليك فروع المملكة الاسلامية على عهد الراضى بالله (٣٢٢/٩٣٤–٣٢٩/٩٤٠)

الولايات	حكامها
البصرة	فى يد محمد ابن رائق بالاضافة الى امرة الامراء
خوزستان ، الاهواز	« ابى عبد الله البريدى
فارس	« عماد الدين ابى الحسن على بن بويه
كرمان	« ابى على محمد بن الياس (*)
الرى واصفهان والجبل	« ركن الدولة ابوعلى حسن بن بويه وغيره (**)
الموصل وديار بكر ومضر وربيعة	« بنى حمدان
مصر والشام	« محمد بن طغج الاخشيد
خراسان وما وراء النهر	« السامانية
طبرستان وجرجان	« الديلم
البحرين واليمامة	« القرامطة (***)

استبداد الجند والخدم

ومما زاد الامر استفحالا أن الخدم والاجناد أصبحوا مطلقى الايدى فى قصور الخلفاء ، يستبدون فى أعمالها ويسومون الخلفاء أصناف الاهانة وانواع العذاب، كما فعل جند المغاربة والاتراك فى المعتز سنة ٢٥٥ هـ لما خلعوه لانه قصر فى عطائهم ، فانهم دخلوا حجرته وجروه برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وخرقوا قميصه وأوقفوه فى الشمس ، فكان يرفع رجلا ويضع الاخرى لشدة الحر ، وبقى بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، وادخلوه حجرة واحضروا ابن ابى الشوارب القاضى وجماعة فأشهدوهم على خلعه ثم سلموه الى من يعـــذبه

(*) لفترة قصيرة انتهت سنة ٣٢٨ ثم صارت بعد ذلك الى نصر بن أحمد السامانى

(**) لفترة طويلة امتدت من ٣٢٠/٩٣٢ – ٣٦٥/٨٧٥ ، ثم تولاها بعد ذلك على التعاقب رجال من بيت بنى بويه ، وكان بعضهم ينفرد بهمذان وبعضهم بأصفهان

(***) هذا هو الموجز الذى أورده ابن الاثير عن حالة ولايات الدولة العباسية أيام الراضى (ج ٨ ص ١١٢ – ١١٣) وهذا الموجز غير دقيق

Marfat.com

ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام . ثم أدخلوه سرادبا وجصصوه عليه فمات(١) ومع كل ما لحق الخلفاء من الذل والضعف لم يخطر للفرس ولا للاتراك ولا لغيرهم من عرب قريش أن ينزعوا الخلافة من أعناق بنى العباس

فما زالت الخلافة العباسية فى بغداد حتى جاءها التتر من مفازة الصين فافتتحوها وقتلوا خليفتها سنة ٦٥٦ هـ ففر من بقى من أهله الى مصر والتجأوا الى سلاطينها المماليك فأنزلوهم على الرحب والسعة الى أن فتح السلطان سليم العثمانى مصر سنة ٩٢٣ هـ فأخذ الخلافة منهم . وبلغ عدد الخلفاء العباسيين جميعا نيفا وخمسين خليفة منهم ٣٧ فى العراق أولهم السفاح وآخرهم المستعصم والباقون فى مصر

Marfat.com

(١) ابن الاثير ج ٧ ، ص ٦٨ ـ ٦٩ (وابن طباطبا : الفخرى ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١)

الدولة الأموية فى الأندلس

أول من دخل بلاد الاندلس من المسلمين طريف بن زرعة ثم أعقبه طارق بن زياد وموسى بن نصير سنة ٩٢ هـ فى عهد الدولة الاموية بالشام ، فافتتحاها وتولاها الامراء باسم الخلفاء الامويين . فلما أفضت الخلافة الى بنى العباس وأعمل أبو العباس السفاح السيف فى بنى أمية قتلهم جميعا الا نفرا قليلا منهم فيهم شاب اسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك نجا وفر الى بلاد المغرب واجتاز البحر الى الاندلس . وكان عليها أمير اسمه عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ، فامتلكها منه وخطب فيها للسفاح زمنا قصيرا (١) ثم قطع الدعوة عن العباسيين ودعا لنفسه سنة ١٣٨ هـ واقام فى قرطبة عاصمة الاندلس فى ذلك الحين . وخلفه حكام من بيته كانوا يلقبون انفسهم بالامراء الى آخر القرن الثالث . حتى صار الامر الى عبد الرحمن الثالث المعروف بالناصر فسمى نفسه خليفة سنة ٣١٧ هـ وهو اعظم خلفاء بنى امية فى الاندلس : حارب الافرنج مرارا وردهم على اعقابهم ، فلما مات خلفه بضعة عشر خليفة ليس فيهم من يعدل به

حكم الناصر خمسين سنة تعد العصر الذهبى للسلطان السياسى للاسلام فى الاندلس ، وقد ساد عبد الرحمن شبه الجزيرة الايبيرية كله ودانت له بالطاعة الممالك والامارات التى قامت فى شمال شبه لجزيرة وشمالها الشرقى، ونشر سلطانه على شمالى مراكش الحالية وراسله اباطرة الدولتين البيزنطية والاتونية فى المانيا

وخلفه فى الحكم المستنصر ، وهواعلم خلفاءبنى أميةالاندلسيين : عنى بالعلوم والآداب ، وانشأ مكتبة القصر التى تعد اعظم مكتبة عامة انشئت فى العصور الوسطى

وبعد الحكم المستنصر صار الامر الى ابنه هشام الثانى الملقب بالمؤيد ، وكان شابا ضعيفا خامل الذهن محدود الذكاء ، فسيطر عليه الحاجب ابو محمد ابن ابى عامر الملقب بالمنصور واصبح صاحب السلطان الاعلى فى البلاد ، ويعتبر المنصور من اعظم السياسيين ورجال الحكم الذين انجبهم الاسلام فى شتى عصوره ، وقد ارتقى من صفوف الشعب الى اعلى المناصب بالذكاء وسعة الحيلة وبعد النظر والمثابرة والدأب على العمل ، وجمع زمام الامور كلها فى يده

---

(١) ابن الاثير ٢٣٥ ج ٥

Marfat.com

وحرص على ان يواصل نشاط الحمـلات على الممالك والامارات الاسبـانية الشمالية حتى كاد يقضى عليها . وقد تمتع الاندلس فى عهده برخاء لم يعهده فى اى عهد مضى

وعندما مات خلفه ابنه عبد الملك المعروف بالمظفر ، فسار على سيرة ابيه دون ان تكون له كفايته ، ولـكنه استطاع ان يحتفظ بما خلفه له ابوه سبع سنوات ، وعاجلته المنية سنة ١٠٠٨ فخلفه اخوه عبد الرحمن ولقب نفسه المـأمون ، وكان شابا مضطرب العقل مستغرقا فى هواه ، لم يكتف بأن يحكم باسم الخليفة هشام المؤيد ، واراد ان يجعل نفسه وليا للعهد ، فبدأت سحب الثورة تتجمع فى سماء الاندلس ، ثم انفجرت دفعة واحدة فأطاحت بملك بنى عامر ، وبدأت الفتنة العامة التى تسمى فى تاريخ الاندلس بالفتنة الكبرى

أبو عبد الله آخر ملوك الاندلس كما صوره الاسبان

بدأت هذه الفتنة التى قصمت ظهر الاندلس من اوائل القرن الخامس الهجرى ، فانقسمت الاندلس الى امارات يتولاها رؤساء او امراء اشهرهم بنو حمود فى مالقة والجزيرة الخضراء (١٠١٧/٤٠٨ ـ ١٠٥٧/٤٤٩) وبنو عباد فى اشبيليـة (١٠٢٣/٤١٤ ـ ١٠٩١/٤٨٤) وبنـو زيرى فى غرناطة (١٠١٢/٤٠٣ ـ ١٠٩٠/٤٨٣) وبنـو جهور فى قرطبـة (١٠٣٠/٤٢٢ ـ ١٠٦٨/٤٦١) وبنو ذى النـون فى طليطلة (١٠٣٥/٤٢٧ ـ ١٠٨٥/٤٧٨)

Marfat.com

والصقالبة العامريون فى بلنسية (١٠٢١/٤١٢ ـ ١٠٨٥/٤٧٨) وبنو هود فى سرقسطة (١٠١٩/٤١٠ ـ ١١٤١/٥٣٦) وبنو مجاهد العامريون فى دانية (١٠١٧/٤٠٨ ـ ١٠٧٥/٤٦٨) ، ويعرف هؤلاء الرؤساء بملوك الطوائف . وتنازعوا وتغالبوا فيما بينهم وحاربهم الافرنج لانهم طمعوا فيهم على اثر ذلك الانقسام

وضاق بنو عباد ذرعا فى حرب الفونس السادس ملك ليون ، فاستنجدوا ملك المرابطين من المغرب ، فأقبلوا بقيادة يوسف بن تاشفين اللمتونى ، وانضم اليهم عدد كبير من ملوك الطوائف وجنودهم وتمكنوا من الانتصار على الفونس السادس فى موقعة الزلاقة عام ١٠٨٦/٤٧٨ انتصارا حاسما انقذ دولة الاسلام فى الاندلس الى حين . ثم عاد يوسف بن تاشفين الى المغرب حاسبا ان امراء الطوائف سيصلحون من احوالهم ، ولكنه تبين انهم عادوا الى ما كانوا فيه ، فرجع الى الاندلس مرة اخرى واستنزل ملوك الطوائف جميعا عن عروشهم . عدا بنى هود أصحاب سرقسطة ، وجعل ما بقى بيد المسلمين من الاندلس جزءا من دولة المرابطين . وظل الامر على ذلك حتى سنة ١١٤٥/٥٤٠ عندما تغلب الموحدون على المرابطين فى المغرب وازالوا ملكهم وحلوا محلهم ، وأنشأوا امبراطورية واسعة شملت المغرب الاسلامى كله وما بقى بأيدى المسلمين من البلاد الاندلسية

ونشأت فى نهاية العصر الموحدى امارات صغيرة فى بلنسية ومرسية وغيرهما من قواعد الاندلس ، اهمها فى غرناطة الدولة النصرية او دولة بنى الاحمر ، نسبة الى مؤسسها ابى عبد الله محمد بن نصر الملقب بابن الاحمر.. وكان فى اول امره فارسا يعمل فى خدمة بنى هود اصحاب شرق الاندلس ، ثم ضبط قاعدة ارجونة وحصنها وانتهز فرصة ضعف بنى هود فاستقل عنهم ، واخذ يوسع حدود مملكته ، فاستولى على جيان واطاعته بياسة ووادى آش ومالقة وغرناطة ، ثم نقل مركز دولته الى ذلك البلد الاخير ، واختار ضاحية من ضواحى غرناطة تقوم على تلال حمراء على ضفة نهر حداره احد نهيرات نهر شنيل المتفرع من الوادى الكبير ، وهناك انشأ حصونا وقصورا وزودها بكل ما يلزم المدن ، وتلك هى المعروفة بالحمراء . ونقل الى الحمراء مركز الحكم ، وادار عليها وعلى غرناطة سورا ، وتكشف عن كفاية ادارية وعسكرية مكنت له من تدعيم اسس الدولة التى انشأها وقدر لها ان تكون آخر معاقل الاسلام فى اسبانيا ، واستمرت تقاوم عناصر الفناء المحيطة بها والمتأصلة فى كيانها ٢٥٤ سنة ابتدات من سنة ١٢٣٨ وانتهت فى يناير سنة ١٤٩٢ ، وانتهى معها سلطان الاسلام فى شبه الجزيرة الايبيرية بعد ان دام ٧٨١ سنة

Marfat.com

وقد زهت الاندلس فى ايام بنى نصر وظهر فيها الشعراء والادباء على نحو ماكانت عليه فى ايام عبد الرحمن الناصر . لـكن الاسـبان ما زالوا يهاجمون المسلمين ويناوئونهم وهم يدافعونهم الى اواخر القرن التاسع للهجرة فهاجم غرناطة فرديناند وايزابلا سنة ١٤٩٢/٨٩٧ ففر ملـكها ابو عبد الله وهو محمد الحادى عشر من تلك الدولة ، فانقضت بفراره دولة المسلمين فى الاندلس

وللاندلس شأن عظيم فى التاريخ الاسلامى ، فقد نبغ فيها العلماء والشعراء وانشئت فيها المدارس والمكاتب وشيدت الابنية والقصور ، وسنأتى على كل شىء فى مواضعه (*)

(*) أدخلنا على كلام المؤلف فى هذا الفصل بعض التعديل بما يناسب معلوماتنا عن الاندلس اليوم

الدولة الفاطمية

نشأت هذه الدولة فى بلاد المغرب ، وهى تنتسب الى السيدة فاطمة بنت الرسول (صلعم) عن طريق جعفر الصادق . واول من ظهر بالدعوة منهم عبيد الله المهدى فى اواخر القرن الثالث للهجرة ، ولذلك فهى تسمى ايضا العبيدية . وقد اعانهم على نيل الخلافة رجل اسمه ابو عبد الله الشيعى نحو ما فعل ابو مسلم مع العباسيين ، فلما استتب لهم الامر قتلوه كما

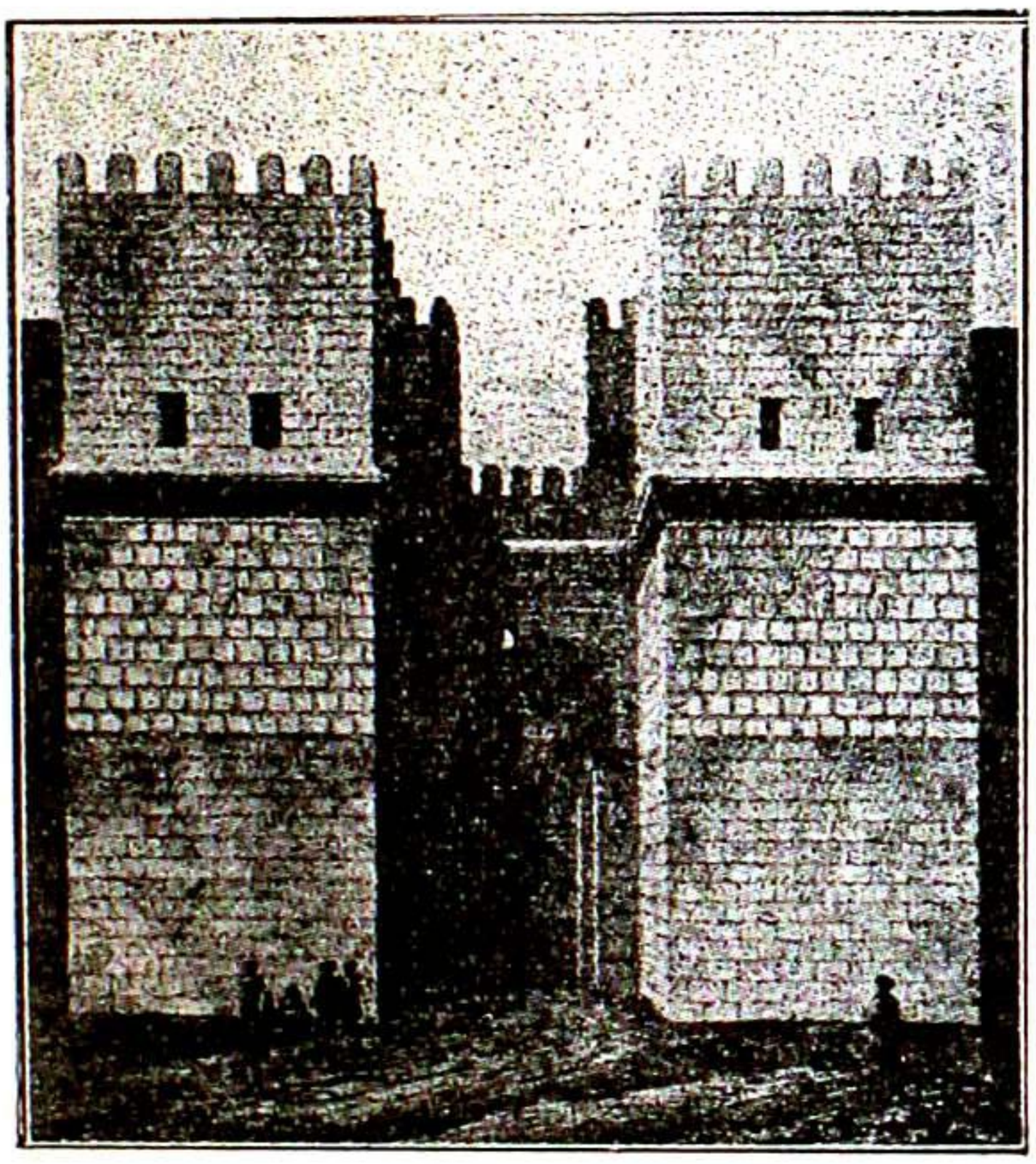

باب النصر من أبواب القاهرة

فعل المنصور بأبى مسلم ، وامتد سلطانهم فى اواسط القرن الرابع الى مصر على يد القائد جوهر الصقلى ، وكانت مصر فى حوزة العباسيين ففتحها جوهر وبنى فيها مدينة القاهرة نحو سنة ٣٦٠ هـ وسميت القاهرة المعزية نسبة الى المعز لدين الله اول من جاء مصر من الخلفاء الفاطميين . وتناوبها خلفاؤه بعده حتى اصابهم ما اصاب الدولة العباسية فى بغداد من الاستكثار من جند الاتراك والمغاربة والسودان ومن اليهم

وقد بدأ الفاطميون حكمهم فى مصر بدءا طيبا وعرفت فى ايام المعز

Marfat.com

لدين الله (٣٤١/٩٥٢ ـ ٣٦٥/٩٧٥) والعزيز بالله(٣٦٥/٩٧٥ ـ ٣٨٦/٩٩٦) والحاكم بأمر الله (٣٨٦/٩٩٦ ـ ٤١١/١٠٢٠) رخاء عظيما واستقرارا لم تعرفه منذ سنوات طويلة ، واتسعت حدودها حتى شملت الشام والحجاز واليمن وبرقة ، بالاضافة الى افريقية (تونس) التى كانت تدين بالولاء للفاطميين . وقد استمر هذا الازدهار حتى منتصف خلافة المستنصر بالله (٤٢٧/١٠٣٥ ـ ٤٨٧/١٠٩٤) ، ثم توالت عليها الازمات والمتاعب بسبب سوء السياسة الاقتصادية التى جرى عليها الفاطميون من ناحية ثم اسرافهم فى استخدام جند الاتراك والمغاربة والسودان ، وتنازع طوائفهم فيما بينهم ، حتى انتهت البلاد الى حال من الضعف والاضطراب لم تعرفه فيما سلف من عصورها الاسلامية ، وأضيفت الى ذلك كوارث طبيعية كانخفاض مستوى الفيضان سنين متوالية ، مما ذهب بالرخاء جملة ، فتوالى الغلاء والمجاعات ، وعجز الناس عن دفع الضرائب وازدادت مطالب الجنود وفتك بعضهم ببعض ، مما هوى بالبلاد الى درك سحيق من الفوضى والفقر البالغ

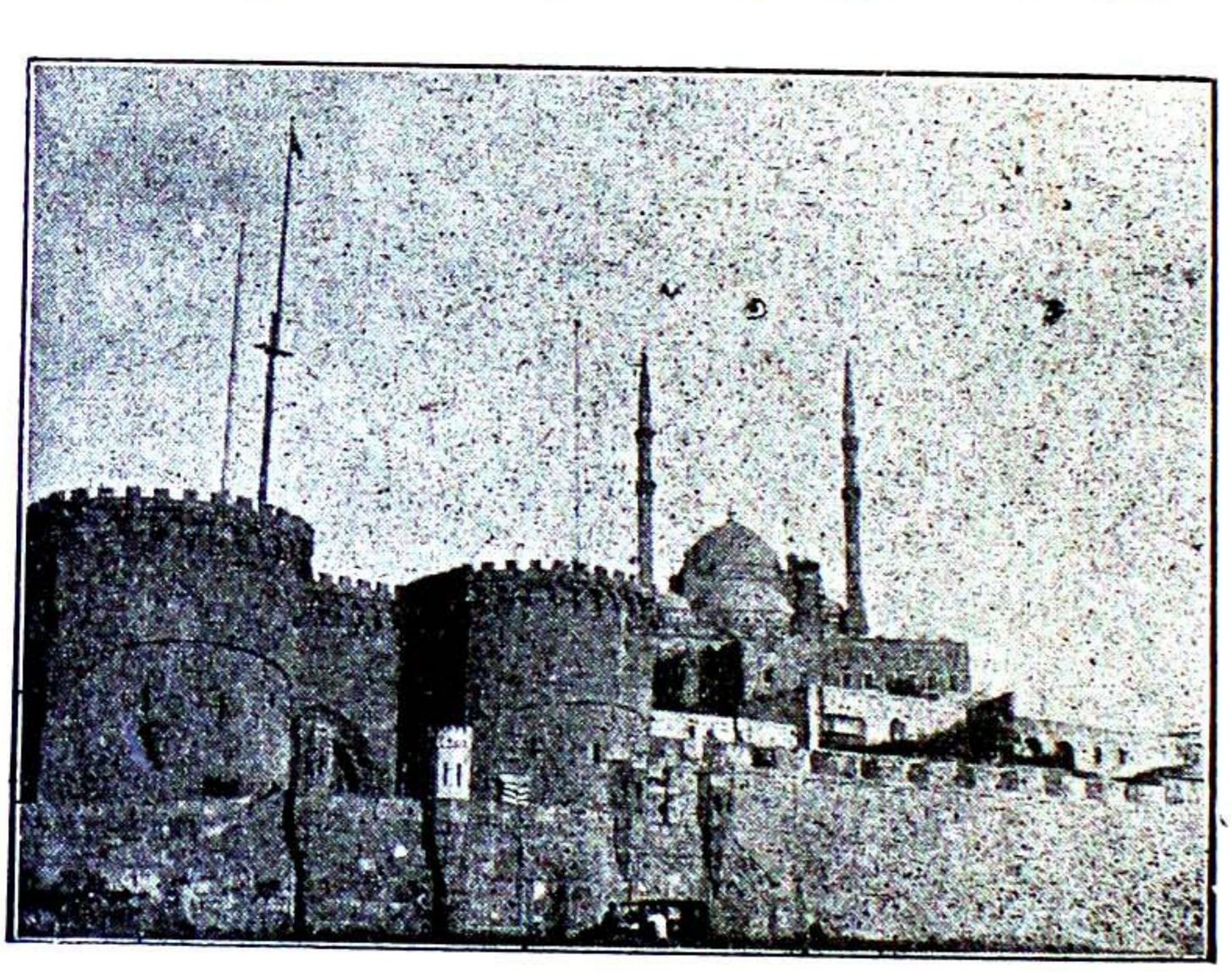

قلعة القاهرة

واحتاجت الدولة الى من يضبط الامر ، فاستعان الخليفة المستنصر ببدر الجمالى والى عكا ، وكان من اصل ارمنى ، فأقبل وتولى الامور ، واظهر كفاية عظيمة ، وضرب على ايدى الجند ، وساعفته المقادير ، فتحسنت حالة الفيضان ، وبدأت البلاد تخرج بفضل حزمه وادارته الرشيدة من الهاوية التى تردت فيها

بيد ان الخلافة الفاطمية اخذت تتلاشى شيئا فشيئا ، فقد انتقل السلطان

Marfat.com

بصورة نهائية الى الوزير ومن يستعين بهم فى ضبط الامور ، وتعاقب الوزراء على السلطان واتخذوا لقب الوزراء العظام ، واولهم الافضل بن بدر الجمالى وآخرهم صلاح الدين يوسف بن ايوب

وكان معظم اولئك الوزراء على جانب كبير من المهارة والقدرة ، ولـكن اكبر جانب من اهتمامهم كان منصرفا الى المحافظة على مراكزهم بالاستكثار من الجنـد المرتزقة ، وارهاق الاهالى بالضرائب حتى يستطيعوا دفع رواتب الجنود ، ووجد خلفاء الفاطميين بعد المستنصر ان سلطانهم قد تلاشى تماما ، فمضوا يكيدون للوزراء ويدبرون المؤامرات للقضاء عليهم كما فعل الخليفة الآمر ، اذ دبر اغتيال الافضل بن بدر الجمالى ، واستعان بنفر من الباطنية على ذلك ، وتم اغتياله عام ١١٢١/٥١٥ وتولى الوزارة بعده كبير المتآمرين المأمون البطائحى ، واستمر النزاع بين الخلفاء والوزراء الى آخر ايام الدولة الفاطمية ، وقد خسر الخلفاء المعركة وفقدوا كل سلطان ابتداء من عهـد الخليفة الظـافر ١١٤٩/٥٤٤ ـ ١١٥٤/٥٤٩ ، بل ان احـدهم وهو طلائع ابن رزيك اتخذ لنفسه لقب الملك الصالح ، وهو امر له دلالته

وآخر خلفاء الفاطميين هو العاضد الذى بدأ حكمه باغتيال طلائع بن رزيك سنة ١١٦١/٥٥٦ وأقام مقامه أبا شجاع العادل ، وفى سنة ١١٦٣/٥٥٨ نازعه فى الوزارة شاور والى الوجه القبلى وغلبه وقتله وتولى الامر مكانه ، ولم يدم له الامر اذ نافسه فيه ضرغام ، وكان أميرا لفرقة من فرق الجند تسمى البرقية ، وطال النزاع بين الرجلين ، فاستنجد شاور بنور الدين محمود واستنجد ضرغام بعموری ملك بيت المقدس ، وانتهى الامر باستيلاء نور الدين على مصر وتعيينه أسد الدين شيركوه وزيرا ، فلما مات خلفه ابن أخيه صلاح الدين ، فوزر لنور الدين السنى وللعاضد الشيعى فى وقت واحد ، ولكنه تمكن بحسن سياسته من التخلص من العاضد ، واستخلاص مصر لنفسه بعد موت نورالدين المبكر ، وقد مات العاضد فى سنة ١١٧١/٥٦٧ وبذلك انتهت الدولة الفاطمية وبدأت الدولة الايوبية

وتعتبر الدولة الايوبية من أقصر الدول التى حكمت مصر عمرا ، فلم تتعد مدة حكمها واحدا وثمانين عاما (١٦٧١/٥٦٧ ـ ١٢٥٠/٦٤٨) ولكنها تعد من أخطرها شأنا ، لان الذى أنشأها كان صلاح الدين الايوبى اعظم شـخصية سياسية وعسكرية فى تاريخ مصر الاسلامية ، ولانها نجحت فى الخلاص بمصر والدولة الاسلامية عموما من أكبر خطر تهددها خلال هذه العصور وهو خطر الصليبيين

Marfat.com

كانت الدولة الايوبية دولة عسكرية فى طبيعتها ووظيفتها ، وقد قامت للغرض الواحد الكبير الذى ذكرناه وانتهت بتلاشى الخطر . وقد دفعتها الظروف التى عاشت فى ظلالها الى طلب الجند بأى ثمن والاستكثار من المماليك ، وخاصة فى أيام سابع سلاطينها الصالح نجم الدين أيوب ، فقد اشترى منهم آلافا أسكنهم بجزيرة الروضة فسموا لذلك بالبحريين ، وكان من الطبيعى أن يحوزوا الدولة عندما ضعف أمر السلاطين ، وهذا هو الذى حدث بعد موت الصالح نجم الدين أيوب ومقتل ابنه توران شاه ، اذ عجزت عصمة الدين أم خليل شجرة الدر عن مدافعة المماليك ، فغلبها أيبك التركمانى وتولى السلطنة سنة ١٢٥٠/٦٤٨ ، وبدأت بذلك دولة المماليك الاولى المعروفين بالمماليك البحرية وقد حكموا مصر ١٣٦ سنة (١٢٥٠/٦٤٨ – ١٣٨٢/٧٨٤) وأعظمهم عز الدين ايبك وسيف الدين قطز وركن الدين بيبرس والمنصور سيف الدين قلاوون . وكان البحريون على الجملة قوادا عسكريين ممتازين واداريين قادرين ، وقد علا اسم مصر فى أيامهم واتسعت امبراطوريتها وزاد رخاؤها وأصبحت مركز العلوم والآداب فى العالم الاسلامى كله

وأعقب المماليك البحرية على ملك مصر مماليكهم المعروفون بالبرجية ، وأولهم الملك الظاهر أبو سعيد برقوق وآخرهم طومان باى الثانى ، وقد حكموا مصر ١٢٩ سنة من ١٣٨٢/٧٨٤ الى ١٥١٧/٩٢٣ وكانوا قادة عسكريين ممتازين ، ولكنهم لم يظهروا اى كفاية ادارية أو مالية ، وقد ضعفت مصر فى أيامهم شيئا فشيئا ، واضطربت ماليتها بعد تحول التجارة الى رأس الرجاء الصالح ، وأظهروا قصر نظر مخجل فيما يتعلق بموقفهم من الخطر العثمانى ، مما انتهى بسقوط مصر فى أيدى الاتراك العثمانيين سنة ١٥١٧/٩٢٣ .

Marfat.com

سائر الدول الإسلامية

فى أنحاء العالم

ولو أردنا ذكر الدول الاسلامية التى نشأت فى العالم لطال بنا الكلام ، فنكتفى بجدول نبين فيه أسماء الدول الاسلامية وعواصمها وعدد ملوك كل منها وسنى ولا يتهم ، واليك هو :

جدول الدول الاسلامية منذ ظهور الاسلام الى سنة ١٩١٤

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
الخلفاء الراشدون	المدينة	٤	١١	٤٠
الدولة الأموية بالشام	دمشق	١٤	٤١	١٣٢
العباسية (فى بغداد)	بغداد	٣٧	١٣٢	٦٥٦
العباسية (فى مصر)	القاهرة	١٧	٦٥٩	٩٢٣
الأموية بالأندلس	قرطبة (الأندلس)	١٦	١٣٨	٤٢٢
بنو حمود العلويون	مالقة »	٩	٤٠٧	٤٤٩
»	الجزيرة »	٢	٤٣١	٤٥٠
بنو عباد	إشبيلية »	٣	٤١٤	٤٨٤
بنو زيرى	غرناطة »	٥	٤٠٣	٤٨٣
بنو جهور	قرطبة »	٣	٤٢٢	٤٦١
بنو ذى النون	طليطلة »	٣	٤٢٧	٤٧٨
الصقالبة العامريون	بلنسية »	٥	٤١٢	٤٨٣
بنو تجيب وبنو هود	سرقسطة ولاردة وتطيلة »	٩	٤١٠	٥٣٦
مجاهد العامرى وأولاده	دانية والجزائر الشرقية »	٢	٤٠٨	٤٦٨
بنو نصر (بنو الأحمر)	غرناطة »	٢١	٦٢٩	٨٩٧
بنو صمادح	المرية	٢	٤٣٣	٤٨٠
الأدارسة	وليلى ثم فاس (بمراكش الحالية	١٢	١٧٢	٣٧٥
الأغالبة	القيروان والمهدية ورقادة	١١	١٨٤	٢٩٦

Marfat.com

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
بنو زيرى الصنهاجيون	القيروان	٨	٣٦٢	٥٤٣
بنوحمادبالمغرب الأوسط	قلعة بنى حماد	٩	٣٩٨	٥٤٧
المرابطون	مراكش	٦	٤٤٨	٥٤١
الموحدون	شمالى افريقية	١٣	٥٢٤	٦٦٨
بنو حفص	تونس	٢٤	٦٢٥	٩٨١
بنو زيان	تلمسان بالمغرب الأوسط (الجزائر الحالية)	٢٥	٦٣٣	٩٦٢
بنو مرين	فاس	٢٧	٥٩٢	٨٣١
الشرفاء ثم السعديون	مراكش	٢٥	٩٥٥	لا تزال
الطولونيون	القطائع (مصر)	٥	٢٥٤	٢٩٢
الإخشيدية	الفسطاط (مصر)	٥	٣٢٣	٣٥٨
الفاطمية	القيروان والقاهرة	١٤	٢٩٧	٥٦٧
الأيوبيون(*) فى مصر	القاهرة	٩	٥٦٤	٦٤٨
« فى دمشق	دمشق	١٢	٥٨٢	٦٥٨
« « حلب	حلب	٥	٥٧٩	٦٣٤
المماليك البحرية	القاهرة	٢٥	٦٤٨	٧٩٢
« البرجية	«	٢٤	٧٨٤	٩٢٢
أسرة محمد على	«	١٠	١٢٢٠	١٣٧١
بنو زياد	زبيد (اليمن)	٩	٢٠٤	٤١٢
بنو يعفور	صنعاء «	١٠	٢٤٧	٣٨٧
بنو نجاح	زبيد وجند «	٧	٤١٢	٥٥٤/٥٥٣
الصليحية	صنعاء وغيرها «	٣	٤٢٩	٤٩٢
الهمدانيون	« « «	٨	٤٩٢	٥٦٩
بنو مهدى	زبيد «	٣	٥٥٤	٥٦٩
الزريعية	عدن «	٨	٤٧٦	٥٦٩
الرسولية	زبيد وغيرها (اليمن)	١٣	٦٢٦	٨٥٨
بنو طاهر	عدن وزبيد (اليمن)	٤	٨٥٠	٩٢٣
الأئمة من بنى رسى	صعدة وصنعاء «	١٧	٢٨٠	٧٠٠
الحمدانيون فى الموصل	الموصل (سوريا)	٩	٢٩٣	٣٢٣

(*) لهذه الدولة فروع كثيرة حكمت مددا متفاوتة فى دمشق وحلب وبين النهرين وحماه وحمص وبلاد العرب وعددهم كلهم ٣٧ سلطانا

Marfat.com

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
المرداسيون فى حلب	حلب (سوريا)	٧	٣٣٢	٤٠٦
العقيليون	الموصل وغيرها «	٥	٣٨٦	٤٤٨
المروانية	ديار بكر «	٥	٣٨٠	٤٨٩
المزيدية	الحلة «	٨	٤٠٣	٥٤٥
بنو دلف	كردستان (فارس)	٦	٢١٠	٢٨٥
بنو الساج	الرى «	٢	٣٠٦	٣١٤
العلوية (الزيدية)	آمل وسادية فى طبرستان (فارس)	٢	٢٥٠	٢٧٠
بنو طاهر	خراسان	٦	٢٠٥	٢٦١
الصفارية	نيسابور (فارس)	٥	٢٦١	٣٩٥
السامانية	الرى وشيراز بخراسان	١٢	٢٠٤	٣٠٨
خانات ايلك (آل أفرازياب)	تركستان	٢٧	٣١٥	٦٠٧
الزيارية	جرجان وغيرها	١٠	٣١٥	٤٧١
بنو حسنويه	كردستان	٣	٣٤٨	٤٠٦
بنو بويه (*)	بغداد	١١	٣٣٤	٥١٣
بنو كاكويه	أصبهان وهمذان	٥	٣٩٨	٤٤٣
السلاجقة وفروعهم	أصبهان بايران والعراق والشام وكرمان	٣١	٤٢٩	٦١٩
الدانشمندية	سيواس وملطية	١٢	٤٥٥	٥٦٧
الأتابكة من بنى بورى	دمشق	٦	٤٩٧	٥٦٤
« الزنجيون	الموصل ودمشق وحلب	٢٠	٥١٦	٦٦٠
بنو بكتكين	إربل	٣	٥٣٩	٦٣٠
بنو ارتق	حصن كيفا وآمد وخرتيرت وماردين	٣٠	٤٩٥	٨١١
شاهات أرمن	خلاط بأرمينية	٨	٤٩٣	٦٠٤
أتابكة أذربيجان	أردبيل	٥	٥٣١	٦٢٢
بنو سلغر	فارس	١١	٥٤٣	٦٨٦

(*) أصل هذه الاسرة من شيراز ، وقد أقامت دولا فى نواح مختلفة من العراق وما يليها شرقا وخاصة فى فارس وخوزستان وكرمان والجبل وعمان . وقد اقتصرنا هنا على من غلب منهم على بغداد وتسمى بأمير الامراء ، وهم الذين يكونون فى تاريخ الاسلام ما يعرف بالدولة البويهية

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
بنو هزراسب	لورستان	١٤	٥٤٣	٧٤٠
شاهات خوارزم	خوارزم	٨	٤٧٠	٦٢٨
الخانات القتلغية	كرمان	٨	٦١٩	٧٠٣
آل عثمان	الآستانة وغيرها	٣٥	٦٩٩	١٩٢٢
خانات المغول(*)	زنقارية وغيرها	٣٤	٦٠٣	١٠٩٢
مغول الفرس	فارس	١٧	٦٥٤	٧٥٤
خانات العشائر الذهبية	قاراخيتاى	٤٠	٦٢١	٩٠٧
« القرم	القرم	٤٥	٨٢٣	١١٩٧
« جاغتاى	تركستان	٤٤	٦٢٤	٩٧٨
آل جلائر	العراق وغيره	٩	٧٣٦	٨٢٧
المظفريون	فارس وكردستان وكرمان	٧	٧١٣	٧٩٥
السربداريون	خرسان ودامغان	١٣	٧٣٧	٧٨٣
آل كرت عمال دنيسابور	هراة وبلخ وسرخس	٨	٦٤٣	٧٩١
أمراء القراقيونلو	أذربيجان (تبريز)	٦	٧٨٠	٨٧٣
أمراء آق قيونلو	الموصل وبغداد ثم أذربيجان	١٢	٧٨٠	٩٠٨
شاهات العجم(**)	إيران وغيرها	٣١	٩٠٧	لا تزال
التيموريون	سمرقند	١٣	٧٧١	٩٠٦
الشيبانيون	سمرقند	١٣	٨٣٢	١٠٠٧
المنغيتيون	بخارى	١٠	١١٧٠	١٣٢٩
خانات خيوة(***)	خوارزم	٣٥	٩٢١	١٢٩٠
« خوقند	«	١٧	١١١٢	١٢٩٣

(*) خانات المغول أسر ودول كثيرة ، أولهم الخاقانات العظام (بنو جنكيزخان) ثم بيت أوجتاى وتولوى ثم ايلخانات فارس (بنو هولاكو) وخانات القبيل الازرق (بالقبجاق الغربى) وخانات القبيل الابيض (بالقبجاق الشرقى) وخانات القرم (بنو حاجى كيراى) وخانات وما رواء النهر (بنو جغتاى) وخانات قازان وخانات قاسموف . ولا يمكن تحديد بداية ونهاية لكل هذه الدول مجتمعة ، وكل ما نستطيع قوله أن أول دول الخانات أو الخاقانات بدأت سنة ٦٠٣ وآخرهم انتهى حكمه سنة ١٠٩٢

(**) شاهات العجم أو شاهات ايران دول كثيرة هم الصفويون والافغانيون والافشاريون والبختاريون والزنديون والقاجاريون بنى شغتاى ثم آل بهلوى وكانت لهم عواصم كثيرة آخرها طهران ولا زال الشاهات يحكمون ايران الى اليوم

(***) خانات خوارزم بيتان هما: بنو عرب شاه وبنو ايناق ، وقد أثبت تاريخ بدء أقدمهما وتاريخ نهاية آخر حكامهما

Marfat.com

اسم الدولة	كرسى ملكها	عدد ملوكها	سنة نشأتها هـ .	سنة انقضائها هـ .
الجانيون	بخارى (استراخان)	١١	١٠٠٩	١٢٠٠
الغزنويون(*)	أفغانستان وبنجاب	٢١	٣٥١	٥٨٢
الغوريون(*٢)	« وهندستان	١٤	٤٩٣	٦٥٨
سلاطين دهلى(*٣)	هندستان	٣٨	٦٠٢	٩٧٥
حكام البنغال وسلاطينها(*٤)	البنغال (الهند)	٥٥	٥٩٩	٩٨٤
ملوك الشرق بجونبور	بيهار ، أوذوقنوج ، بهرايج،جونبور(الهند)	٦	٧٩٦	٨٨١
« مالوا	مالوا «	١٠	٨٠٤	٩٦٨
« كجرات	كجرات «	١٤	٧٩٣	٩٩١
الفاروقيون ملوك خاندش	برهان بور(خاندش) «	١٣	٨٠١	١٠٠٨
البهمنيون	الدكن (الهند)	١٨	٧٤٨	٩٣٣
بنو عماد شاه	برار «	٥	٨٩٠	٩٨٠
بنو نظام شاه	أحمد نجر «	١٠	٨٩٦	١٠٠٤
بنو بريد شاه	بيدر «	٧	٨٩٥	١٠٩٧
بنو العادل شاه	بيجابور «	٨	٨٩٥	١٠٩٧
بنو قطب شاه	كولكندا «	٧	٩١٨	١٠٩٨
أباطرة المغول	هندستان «	١٧	٩٣٢	١٢٧٤
ولاة المغول العظام(*٥)	بنغالة «	٢٣	٩٨٤	١٠٨٨
أمراء وملوك أفغانستان*٦	أفغانستان	١٥	١١٦٠	لا يزالون

(*) الغزنويون بيتان كبيران : بنو الب تكين وبنو سبكتكين ، وقد جمعنا تواريخهما معا

(*٢) الغوريون فرعان : فرع رئيسى بفيروزكوه وغزنة ، وفرع بباميان وطخارستان ، وقد جمعنا تواريخهما معا

(*٣) سلاطين دهلى ستة بيوت كبيرة : هى الاتراك والخلجيون (الافغانيون) وبنو تغلق شاه وبنو خضر وبنو لودى والافغانيون (بنو سور) ، وقد جمعنا تواريخهم معا

(*٤) حكام بنغالة كثيرون ، بدأوا ولاة من قبل سلاطين دهلى وأولهم محمد تختيار خلجى، ثم أصبح سلالته سلاطين وأولهم فخر الدين مبارك شاه (٧٣٠ – ٧٥٠) . وكان الولاة من قبل سلاطين دهلى أول الامر مجرد ولاة يختارهم السلطان كيف شاء ، ثم أصبحت الولاية منحصرة فى بيت واحد هو بيت بنى بلبان . أما السلاطين فمن أسر كثيرة أهمها بنو الياس شاه وبنو راجه كانس وبنو حبشى وبنو حسين شاه وبنو محمد سور وبنو سليمان قرارانى

(*٥) هم تتمة سلاطين بنغالة

(*٦) أمراء افغانستان أسر كثيرة هم بنو دران أو عبدلى ثم بيت بارك زئى (وآخره أمان الله خان) ثم المغتصب باشى سقا ، ثم بيت نادر شاه ، وقد حكم منهم اثنان : محمد نادر شاه ثم ابنه جلالة محمد ظاهر شاه ملك أفغانستان الحالى

وخلاصة ذلك ان الدول الاسلامية التى ظهرت من اول الاسلام الى الآن نيف ومائة دولة عدد رؤسائها نحو ١٢٠٠ رئيس ، فيهم الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء والاتابكة والاخشـــــيدية والخديويون والشرفاء والبايات والدايات وغيرهم ، من العرب والفرس والاتراك والشراكسة والاكراد والهنود والتتر والمغول والافغان وغيرهم ، ومن عواصمهم المدينة والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة والآستانة وصنعاء وعمان ودهلى وغيرها

هذه مقدمات تاريخية فى كيفية تأسيس الدولة الاسلامية وانشاء التمدن الاسلامى تمهيدا لما سيأتى من تاريخ ذلك التمدن

وقد رأيت أنهم أنشأوا دولا كثيرة تمدنت فى عصور مختلفة ، ولمـا كانت الدولة العباسية أشهرها جميعا واسبقها الى المدنية فسنجعل مايأتى من وصف التمدن خاصا بها على الاكثر

Marfat.com

الدولة الإسلامية

سعتها وأعمالها

تأسست الدولة الاسلامية فى المدينة فى السنة الاولى للهجرة والمسلمون قليلون وكل أرض خارج حدود المدينة لا تدخل فى زمامهم وكل رجل من غير الصحابة والمهاجرين والانصار عدو لهم . وحدود تلك الدولة محصورة بيثرب وبعض ضواحيها . وكانت دار الحكومة والقضاء يومئذ المسجد أو بيت النبى أو بيوت الصحابة ، وما زال ذلك شأنها الى السنة الرابعة للهجرة فأضافوا اليها أرض بنى النضير ، وفى السنة التالية أرض خيبر ثم فدك، فوادى القرى فتيماء ، ثم فتحوا مكة فالطائف فتبالة فجرش ، ثم مدوا حدودهم شمالا الى تبوك وأيله وجنوبا الى نجران فاليمن فعمان فالبحرين فاليمامة

ولما توفى النبى سنة ١٠ للهجرة كانت سطوة الاسلام قد أظلت كل جزيرة العرب . وشاهد النبى دولة الاسلام تمتد من تبوك وأيلة شمالا الى شواطىء اليمن جنوبا ومن خليج العجم شرقا الى بحر القلزم غربا

سعتها فى زمن الخلفاء الراشدين

فلما تولى أبو بكر وفرغ من الردة بعث الجند لفتح الشام والعراق ، وأتم فتحهما عمر بن الخطاب وفتح مصر ، وكانت أكثر الفتوح فى عصره . وخلفه عثمان ففتح بلادا أخرى ، وشغل المسلمون عن الفتوح بعد مقتله بالفتنة التى شبت بينهم . حتى اذا انقضى عصر الخلفاء الراشدين وضع معاوية يده على أزمة الخلافة ورايات المسلمين تخفق على الشام ومصر والنوبة وافريقية والعراق وفارس وارمينية واذربيجان وجرجان وطبرستان والاهواز وغيرها

وكان الخليفة يقيم فى المدينة (أو الكوفة) ويرسل عماله الى الاعمال (الولايات) ، وأكبر أعمال المملكة الاسلامية يومئذ الشام وتحتها اجناد حمص وقنسرين والاردن وفلسطين والثغور ، ثم العراق وأعظم أعماله السواد وهو ما بين دجلة والفرات وعاصمته الكوفة على الفرات ، وما عدا السواد البصرة وقرقيسية والرى واصفهان ونهاوند واذربيجان وحلوان وهمدان وغيرها ، وفى بلاد العرب مكة والطائف والبحرين وعمان وصنعاء ، وفى قارة افريقيا مصر ومايتبعهامن افريقية فى بلادالمغرب والنوبة فى أعالى وادى النيل . وكان الخلفاء يرسلون عمالهم الى هذه الاعمال رأسا من المدينة (أو الكوفة) ، الا الشام فقد كان عاملها يقيم فى دمشق وهو يولى عمالا على ما تحتها من الاجناد . وكذلك مصر ، كان عاملها فى الغالب يرسل العمال من تحت امرته الى افريقية والنوبة

Marfat.com

وكان عامل الشام فى أيام عمر بن الخطاب الى آخر عصر الخلفاء الراشدين معاوية بن ابى سفيان ، ثم صار خليفـــة ونقل مركز الخلافة الى دمشق كما تقدم ، وتخلفت جزيرة العرب كلها عن بيعته وظلت على بيعة على ثم أولاده . وبعد مقتل الحسين ظلت الجزيرة على بيعة ابن الزبير ، حتى قتله الحجـــاج فى أيام عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ هـ فانضمت الى دولة بنى أمية

سعتها فى أيام بنى أمية

وفى أيام بنى أمية زادت الدولة الاسلامية اتساعا ففتحت الاندلس وسائر المغرب غربا ، وأوغل بنو أمية فى أوربا من وراء أسبانيا فقطعوا جبال البرت

شارل مارتل يحارب العرب بين تورس وبواتييه بفرنسا

ـ وهى المعروفة بالبرانس ـ ودخلوا فرنسا واوغلوا فيها الى نهـــر الرون سنة ١١٤ هـ ، فارتعد الافرنج لذلك وخافوا أن يصيبهم ما أصاب أسبانيا ، فتكاتفوا لدفعهم بكل جهدهم ، فحصلت بين الفريقين وقائع دموية دامت بضعة أيام والحرب سجال ، وانتهت بهزيمة العرب فى مكان يسمى بلاط الشهداء بين بلدتى تور وبواتييه فى وسط فرنسا الحالية . ولم يذكر العرب من أخبار هذه الوقائع الا اشارات مختصرة ، وأما الافرنج فانهم فصلوها مع ما يقتضيه المقام من اعجابهم بالعرب وبسالتهم ، وان كانت الوقائع كما سجلها مؤرخوهم مضطربة أسطورية الطابع . وكان يقود الفرنجة فى معركة بلاط الشهداء ملكهم شارل مارتل جد الامبراطور شارلمان . ولم ينسحب العرب

من غالة (وهى فرنسا الحالية) بعد موقعة بلاط الشهداء ، وانما ظلوا مسيطرين على جزء كبير من الجنوب نحو ٣٠ سنة بعد هذه الموقعة (سنة ٧٣٢) وكانت عاصمتهم فى هذه الناحية مدينة أربونة (نربون) حتى تخلوا عنها سنة ١٣٣/٧٥١

وقد ورد فى تاريخ ابن الاثير ذكر هذه الحروب فقال : ان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى أمير الاندلس خرج غازيا سنة ١١٤ هـ (وهى تقابل سنة ٧٣٢ تقريبا) ببلاد الافرنج فقتل هو ومن معه شهداء . وهذه هى الحملة التى حاربها شارل مارتل المذكور

ومما يستدعى الاعتبار والتأمل ان العرب لو فازوا فى هذه الواقعة لانتشر الاسلام فى فرنسا ثم سائر أوربا ، لان الفرنجة ، سكان غالة اذ ذاك وهى فرنسا الحالية ، كانوا أقوى أمم أوروبا النصرانيـــة على مدافعة العرب يومئذ ، ولانتشرت اللغة العربية فى تلك القارة كما انتشرت فى قارتى آسيا وافريقيا وسائر العالم الاسلامى

وامتدت فتوح الامويين فى بلاد فارس فخراسان وما وراءها الى حـــدود الهند ، وهاك أقسام المملكة الاسلامية فى زمن بنى أمية :

أعمال المملكة الاسلامية فى زمن بنى أمية (*)

١ الشام وتقسم الى أربعة اجناد
٢ الكوفة
٣ البصرة وتشمل فارس وسجستان والبحرين وعمان
٤ أرمينية
٥ مكة
٦ المدينة
٧ افريقية
٨ مصر
٩ اليمن
١٠ خراسان

(*) هـذا التقسيم الادارى للدولة الاسلامية على عهد الامويين صحيح فى جملته ، ولكننا نزيده بيانا فنقول : ان الدولة الاسلامية كانت مقسمة اداريا الى خمس ولايات كبرى ، وهى :

١ ــ الحجاز واليمن ووسط الجزيرة (بما فى ذلك نجد)

٢ ــ مصر ، وتنقسم قسمين : أسفل الارض (مصر السفلى) وأعلى الارض (مصر العليا)

٣ ــ العراقان : العربى والعجمى ، وكانا يعتبران ولاية كبيرة يحكمها والى العراق وحاضرته الكوفة ، ويتبعه أيضا خراسان وما وراء النهر وكان يلى أحدهما عامل من قبل والى العراق ومركزه مرو

وكانت البصرة معتبرة ولاية يعين عاملها والى العراق ويتبع عامل البصرة ولاية البحرين وعمان ، وكان يعين عليها عامل من قبله

وكانت السند ولاية تابعة لوالى العراق أيضا

٤ ــ الجزيرة (شمالى العراق) ويتبعها أرمينية وآذربيجان وما يدخل فى الدولة الاسلامية من أراضى آسيا الصغرى

٥ ــ افريقية وحاضرتها القيروان ويتبعها المغرب الاوسط والمغرب الاقصى والاندلس وكان والى افريقية يعين من قبله ولاة على هذه الاقسام بما فى ذلك الاندلس

Marfat.com

أعمالها فى زمن العباسيين

ولما أفضت الخلافة الى بنى العباس ترتبت الولايات على هذه الصورة :

١ الكوفة والسواد
٢ البصرة ومهرجان قباد الى كور دجلة وما وراءها جنـــوبا الى البحرين فعمان
٣ الحجاز واليمامة
٤ اليمن
٥ الاهواز (خوزستان)
٦ فارس
٧ خراسان
٨ الموصل
٩ الجزيرة (بين النهرين وارمينية واذربيجان)
١٠ الشام
١١ مصر وافريقية
١٢ السند فى حدود الهند
١٣ الاندلس

ثم اتسع نطاق المملكة الاسلامية على عهد العباسيين حتى صارت الى أوسع ما بلغت اليه فى زمن الاسلام حتى الآن . ولا عبرة بخروج بعض الاعمال من سيطرة العباسيين كالاندلس ، لما تولاها بنو أمية ، واستقلال بعض الدول الثانوية كالطاهرية والسامانية والاغلبية والطولونية ونحوها ، فقد كان أمراء هذه الدول كلهم يخطبون للخليفة العباسى (الا الاندلس) ومهما اختلفت الدول فالمملكة اسلامية وحكامها مسلمون

وقد بلغت حدود هذه المملكة شمالا الى أعالى تركستان فى آسيا وجبال البرت (وهى المعـــروفة اليوم بالبرانس) فى شمالى أسبانيا ، وجنوبا الى بحر العرب والمحيط الهندى وقاصية الصحراء الافريقية الكبرى ، وشرقا الى بلاد السند والبنجاب من بلاد الهند ، وغربا المحيط الاطلنطى ، وزادت مساحتها بذلك على ضعفى مساحة أوربا

ولبيان عظمة تلك المملكة الواسعة نأتى بأســـماء أعمالها ثم نبين مقدارها :

السواد	مهرجان قذق	الموصل
الاهواز	الايغارين	ديار ربيعة
فارس	قم وقاشان	أرزن وميافارقين
كرمان	اذربيجان	طوران
مكران	الرى	طريق الفرات
اصبهان	قزوين	قنسرين والعواصم
سجستان	طبرستان	حمص
خراسان	تكريت	دمشق
همذان	شهر زور	الاردن
ماسبذان	الدامغان	فلسطين

Marfat.com

مصر	حلوان	ارمينية
جيلان	الكوفة	آمد
برقة	البصرة	ديار مضر
افريقية	زنجان	اليمن
مكة والمدينة	قومس	اليمامة والبحرين
الجزيرة والديارات والفرات وموقان وكرخ	جرجان	عمان

هذه أعمال الدولة الاسلامية العباسية ما عدا مملكة بنى أمية فى الاندلس ، وكانت معاصرة لهـا وقد فتحت صقلية ومالطة وغيرهمـا من جزر البحر المتوسط . وكان على كل عمل من هذه الاعمال وال أو عامل يوليه الخليفة أو وزيره أو نائبه كما سترى . فبلغ عدد هذه الاعمال ـ أو الولايات فى اصطلاح هذه الايام ـ ٤٨ ولاية ، لكل منها بيت مال وديوان خراج وقاض أو أكثر . وسكانها هم معظم أمم العالم المتمدن فى ذلك الحين، وفيهم العرب والفرس والاتراك والاكراد والمغول والتتر والافغان والهنود والارمن والسريان والكلدان والروم والقوط والقبط والنوبة والبربر وغيرهم . وكانوا يتكلمون العربية والفارسية والبهلوية والهندية والرومية والسريانية والتركية والكردية والارمنية والقبطية والبربرية وغيرها . فمنهم من أصبحت اللغة العربية لغتهم وضاعت لغـاتهم الاصلية كأهل الشام ومصر والمغرب والعراق . ومنهم من اختلطت العربية بلغاتهم الاصلية كأهل فارس وتركستان والهند والافغان وغيرها . ولا تزال كثير من أمم آسيا وافريقيا تكتب لغاتها بالحروف العربية الى الآن اثرا لذلك التمدن العظيم

احصاؤها

وكان يحسن بنا فى هذا المقام النظر فى احصاء هذه البلاد فى تلك الايام ، ولكن ذلك غير مستطاع لان العرب قلما اهتموا بتعداد سكان ممالكهم . وانما ننظر فى احصاء سكان هذه البلاد اليوم فنأتى بما يقابلها واسم الدولة التى هى تابعة لها وعدد سكانها ثم نقابل بين احوالها سنة ١٩١٤ وأحوالها فى تلك الايام ، وهذا هو احصاؤها :

أسماء البلاد	الدولة التابعة لها	عدد سكانها
ايران كلها	مستقلة	٩٥٠٠ ٠٠٠
افغانستان	مستقلة	٤٥٠٠ ٠٠٠

Marfat.com

اسماء البلاد	الدولة التابعة لها	عدد سكانها
السند وبلوخستان	انجلترا	٣٥٠٠ ٠٠٠
تركستان	روسيا	٦٠٠٠ ٠٠٠
القوقاز	روسيا	١١٠٠٠ ٠٠٠
ارمينية وكردستان	تركيا	٢٥٠٠ ٠٠٠
العراق والجزيرة	تركيا	٢٥٠٠ ٠٠٠
سوريا وفلسطين	تركيا	٣٧٦٥ ٠٠٠
جزيرة العرب	تركيا	٥٠٠٠ ٠٠٠
القطر المصرى	تركيا	١٢٠٠٠ ٠٠٠
النوبة وبعض السودان	السودان	٢٠٠٠ ٠٠٠
طرابلس الغرب	ايطاليا	١٠٠٠ ٠٠٠
جزائر الغرب	فرنسا	٥٢٣١ ٠٠٠
تونس	فرنسا	١٥٠٠ ٠٠٠
مراكش	مستقلة	٥٠٠٠ ٠٠٠
اسبانيا	مستقلة	٢٠٠٠٠ ٠٠٠
قبرص	انجلترا	٢٦٠ ٠٠٠
كريد	تركيا	٣١٠ ٠٠٠
		٩٥٢٧٦ ٠٠٠

مقدار العمارة

هذا هو تعداد سكان تلك البلاد لغاية سنة ١٩١٤ (*) ولكن كثيرا من المدن الاسلامية أصبح خرابا بعد ذلك ، فى أواخر العصور الوسطى بالقياس الى ما كان عليه فى عهد الدولة الاسلامية ، وخصوصا العراق أو السواد ، وعلى

(*) أما تعدادهم سنة ١٩٥٥ فقد كان كالآتى : الباكستان ٦٨ر٢٠٠ر٠٠٠ ، أندونيسيا ٦٦ر٢٠٠ر٠٠٠ ، الهند ٣٥ر٠٠٠ر٠٠٠ ، الصين ٢٣ر١٠٠ر٠٠٠ ، روسيا ٢٢ر٥٠٠ر٠٠٠ ، مصر ٢٠ر٤٠٠ر٠٠٠ ، تركيا ١٩ر٨٠٠ر٠٠٠ ، ايران ١٨٥٠٠ر٠٠٠ ، أفغانستان ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ ، نيجيريا ٨٠٠٠ر٠٠٠ ، مراكش ٨ر٠٠٠ر٠٠٠ ، الجزائر ٧ر٨٠٠ر٠٠٠ ، السودان ٦ر٧٠٠ر٠٠٠ ، المملكة السعودية ٦ر٠٠٠ر٠٠٠ ، افريقا الفرنسية ٥ر٦٠٠ر٠٠٠ ، العراق ٤ر٧٠٠ر٠٠٠ ، الحبشة ٤ر٥٠٠ر٠٠٠ ، اليمن ٤ر٥٠٠ر٠٠٠ ، تونس ٣ر١٠٠ر٠٠٠ ، الملايو ٢ر٦٠٠ر٠٠٠ ، يوغوسلافيا ١ر٧٠٠ر٠٠٠ ، الاردن ١ر٦٠٠ر٠٠٠ ، تنجانيقا ١ر٥٠٠ر٠٠٠ ، الصومال ١ر٢٠٠ر٠٠٠ ، ليبيا ١ر١٠٠ر٠٠٠ ، مدغشقر ٨٠٠ر٠٠٠ ، البانيا ٨٠٠ر٠٠٠ ، بورما ٧٠٠ر٠٠٠ ، الفيليبين ٧٠٠ر٠٠٠ ، لبنان ٦٠٠ر٥٠٠ ، عدن ٦٠٠ر٠٠٠ ، سيام ٦٠٠ر٠٠٠ ، بلغاريا ٦٠٠ر٠٠٠ ، سيلان ٦٠٠ر٠٠٠ ، مسقط ٥٠٠ر٠٠٠ ، الكامرون ٥٠٠ر٠٠٠ ، الصومال البريطانى ٥٠٠ر٠٠٠ ، ارتيريا ٥٠٠ر٠٠٠ ، سنغافورة ٥٠٠ر٠٠٠ ، ليبيريا ٣٥٠ر٠٠٠ ، زنجبار ٢٦٠ر٠٠٠ ، الهندالصينية ٢٦٠ر٠٠٠ ، غمبياغرب افريقا ٢٣٠ر٠٠٠ ، سيراليون ٢٠٠ر٠٠٠ ، كينيا ٢٠٠ر٠٠٠ ، نياسالاند ٢٠٠ر٠٠٠ ، أوغندة ١٧٠ر٠٠٠ ، الكويت ١٧٠ر٠٠٠

وجملة ذلك حوالى ٣٥٠ مليونا

Marfat.com

الاخص بغداد والبصرة والكوفة وسائر مدن العراق . وقد وصف الاصطخرى مدينة البصرة وصفا يمثل ما كانت عليه أرض العراق من العمارة فى عصره قال :

البصرة

« البصرة مدينة عظيمة لم تكن فى أيام العجم وانما مصرها العرب ... وليس فيها مياه الاأنهارا. وذكر بعض أهل الاخبار أن انهار(*) البصرة عدت أيام بلال بن أبى بردة فزادت على مائة الف نهر وعشرين الف نهر يجرى فيها الزوارق . وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الانهـار فى أيام بلال ، حتى رأيت كثيرا من تلك البقاع ، فربما رأيت فى مقدار رمية سهم عددا من الانهار صغارا تجرى فى كلها زوارق صغار ، ولكل نهر اسم ينسب به الى صاحبه الذى احتفره أو الى الناحية التى يصب فيها . فجوزت أن يكون ذلك فى طول هذه المسافة وعرضها »

فاعتبر المسافة التى تحفر فيها ٠٠٠و١٢٠ نهر أو ترعة كم يمكن أن يكون سكانها ؟ وهذا مستغرب عند أهل هذا الزمان لكنه يدل على كل حال على عمران تلك الارض

بغداد

وناهيك ببغداد مدينة الخليفة ودار السلام ، فقد ذكر الاصطخرى ايضا

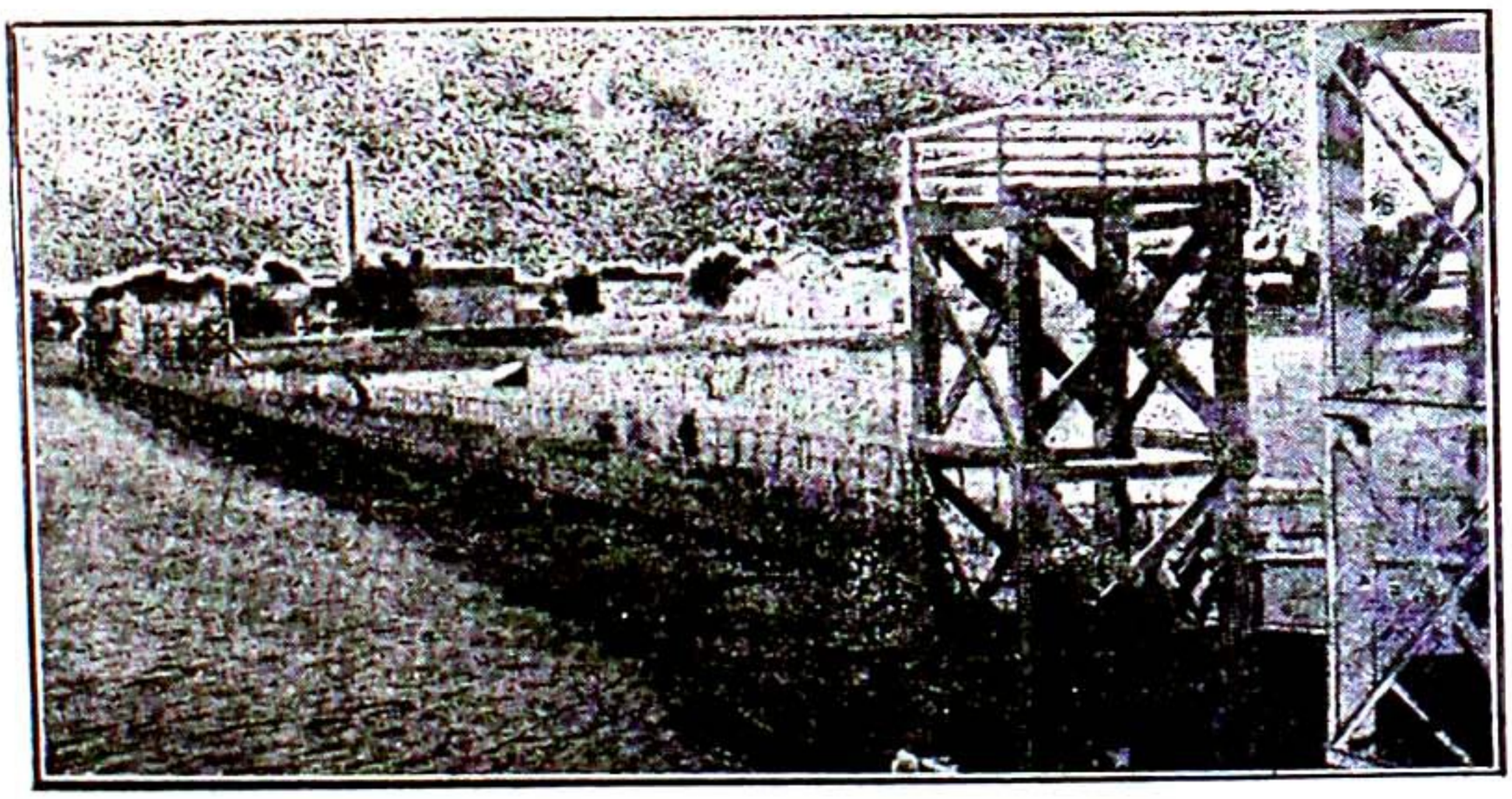

بغداد وجسرها ممتد فوق دجلة

فى وصفها كما شاهدها فى أيامه فى القرن الرابع للهجرة ، قال : « وتفترش

(*) يريد بالانهار هنا القنوات والترع

قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد ، حتى تتصل من نهر بين الى شط دجلة ، ثم يتصل البناء بدار الخلافة مرتفعا على دجلة الى الشماسية نحو خمسة أميال ، وتحاذى الشماسية فى الجانب الغربى الحربية فيمتد نازلا على دجلة الى آخر الكرخ » الخ

ثم قال : « وبين بغداد والكوفة (أو بين دجلة والفرات) سواد مشتبك غير مميز تخترق اليه أنهار من الفرات » ثم عدد الانهر التى تمتد من الفرات الى دجلة

فأين هذه العمارة مما صارت اليه بغداد عند اضمحلالها ابان العصر التركى؟ فان احصاء ولاية البصرة كلها قبيل الحرب العالمية الاولى ... ٢٠٠ نفس ، وتعداد ولاية بغداد ٨٥٠٠٠٠ ، ونظن احصاء الولايتين جميعا كان اذ ذاك أقل كثيرا مما كانت تحويه مدينة بغداد وحدها

وقس على ذلك مدينة دمشق وغيرها من المدن التى ضعف أمرها اليوم(*) . وهناك مدن أخرى كانت يومئذ فى ابان مجدها فأصبحت الآن اسما بلا مسمى ، مثل الفسطاط فى مصر ، والكوفة فى العراق ، والقيروان(**)فى أفريقية، وبصرى فى حوران ، وغيرها مما لا محل للكلام فيه هنا

مصر

وأما مصر فيؤخذ من كلام مؤرخى العرب أنها لما فتحها المسلمون كان عدد الذكور فيها ممن راهق الحلم الى مافوق ذلك « ليس فيهم امرأة ولا صبى ولا شيخ » ثمانية آلاف الف (... ٨٠٠٠) منهم فى الاسكندرية وحدها ... ٣٠٠ ، فاذا أضفنا الى ذلك عدد الاناث والاطفال والشيوخ زادت جملته على ... ... ٣٠ ، وهو نحو ثلاثة أمثال سكانها اليوم (***)

وقد يطعن فى صحة هذه الرواية ، ولكن يستدل من مجمل أقوالهم فى مصر أنها كانت فى رغد ورخاء ، وكان عمرانها بالغا حد النهاية

وذكرت ياقوت فى معجم البلدان « أن المقوقس قد تضمن مصر من هرقل

(*) يريد بذلك قبل الحرب العالمية الاولى ، وقد تغيرت أحوال دمشق وبغداد والبصرة وغيرها من العواصم العربية بصورة لا تحتاج الى اشارة

(**) يصدق هذا على الكوفة ولكنه لاينطبق على الفسطاط، فلا زالت عامرة الى اليوم كجزء من القاهرة ، أما القيروان فهى اليوم مدينة زاهرة ، وهى فى نهوض وتحسن يوما بعد يوم

(***) هذا التقدير مبالغ فيه ولم أعرف مصدره ، ولكن ابن عبد الحكم (فتوح مصر طبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩١٤) ص ٦٣ ـ ٦٤ يقدر عدد من وجبت عليه الجزية فى العهد الذى صالح العرب أقباط مصر عليه بستة ملايين ليس فيهم شيخ ولا امرأة ولا طفل . ويؤكد ذلك المقريزى فى الخطط (بولاق ١٢٧٠ هـ) ج١ ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ والسيوطى : حسن المحاضرة (القاهرة ١٢٩٩ هـ) ج ١ ص ٨٧، وعلى هذا الاساس يمكن تقدير سكان مصر عند الفتح العربى بين ١٨ و ٢٠ مليونا

Marfat.com

بتسعة عشر ألف ألف دينار، وكان يجبيها عشرين ألف ألف دينار، وجعلها عمرو بن العاص عشرة آلاف ألف دينار أول عام ، وفى العام الثانى اثنى عشر الف الف دينار ، ولما وليها فى ايام معاوية جباها تسعة آلاف الف دينار ، وجباها عبد الله بن سعد بن أبى سرح أربعة عشر الف الف دينار (١) . وقد اجمع المؤرخون المحدثون تقريبا على تقدير سكانها فى تلك الايام بنحو ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس

قال المقريزى : « ان هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٧ هـ) أمر عبيد الله بن الحبحاب عامله على خراج مصر أن يمسحها ، فمسحها بنفسه فوجد مساحة أرضها الزراعية مما يركبه النيل ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان » (٢) مع أن مساحة الارض الزراعية فى وادى النيل (١٩١٤) مع ماتبذله الحكومة فى العناية فى اخصابها وتعميرها لم تتجاوز ستة ملايين فدان كثيرا . ومساحة وادى النيل كلها أى الوجه البحرى والصعيد على جانبى النيل لاتزيد على هذا القدر الا قليلا . فيستحيل أن تكون مساحتها فى أوائل الاسلام خمسة اضعاف ذلك (*)

ولكن يظهر أن العرب زرعوا مايجاور هذا الوادى من الشرق نحو البحر ومن الغرب الى وادى النطرون ، لان مساحة مصر بما فيها من الواحات فى صحراء ليبيا والارض بين النيل والبحر الاحمر وبينه وبين بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) الى العريش تزيد على ٤٠٠٠٠٠ ميل مربع وذلك يساوى نحو ١٨٧ مليون فدان . فلا غرابة اذن ان يكون العامر منها ٣٠ مليون فدان ، وأن يكون سكانها ٢٠ مليون نفس (**)

ويؤيد ذلك أن مؤرخى العرب كانوا يقدرون مساحة مصر نحو ماتقدم تقريبا . قال المقريزى : « وآخر ما اعتبر حال أرض مصر فوجد مدة حرثها ستين يوما ومساحة أرضها ١٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان ، يزرع منها فى مباشرة ابن المدبر (فى أواسط القرن الثالث للهجرة) ٢٤٠٠٠٠٠ فدان ، وانه لايتم خراجها حتى يكون فيها ٤٨٠ ٠٠٠ حراث يلزمون العمل بها دائما . . » الخ (٣***)

---

(١) معجم البلدان ٢٥٢ ج ٤ (٢) المقريزى الخطط ، ج ١ ص ٩٩

(*) يريد بوادى النيل هنا الاراضى الخصبة الصالحة للزراعة فى مصر

(**) لم يثبت أن العرب أو من قبلهم زرعوا هذه النواحى ، ولكن الذى يستفاد من النصوص انها كانت على ايام البطالسة والرومان والبيزنطيين مناطق مراع تعيش فيها جماعات من الرعاة وتقوم فيها القرى عند الآبار الكبيرة وكانت تسكنها جماعات كبيرة من الرهبان والديارين فى العصر البيزنطى ، أما فى أوائل العصور الاسلامية فقد قلت فيها الحشائش ونضب معظم الآبار بسبب التطور العام فى جو مصر وميله الى الجفاف شيئا فشيئا

(٣) المقريزى : الخطط ، ج ١ ص ١٠٠

(***) وعبارة المقريزى هنا غير متناسقة ، وفيها تضارب ولا يمكن قبولها على علاتها

Marfat.com

واعتبر نحو هذا العمران أيضا فى مدن الاسلام الكبرى فى الاندلس ، مثل قرطبة وغرناطة وطليطلة ، وفى العراق والشام بلاد لا تحصى كانت فى تلك الايام مدنا كبرى وأصبحت الآن قرى صغيرة

فاذا اعتبرنا كل ماتقدم لانستبعد أن يكون احصاء المملكة الاسلامية فى ابان عمرانها نحو ... ... ٢٥٠ نفس الى ٣٠٠ مليون وهو نحو تعداد سكان أوربا كلها الآن (*) . وسنعود الى ذلك فى كلامنا عن ثروة المملكة

(*) أى سنة ١٩١٤ ، أما تعداد سكان أوربا اليوم فهو ٣٩٥ر٤٠٠ر٠٠٠ (ما عدا روسيا) وتقدير سكان الدولة الاسلامية فى عصرها الذهبى بمائتين وخمسين مليونا من الانفس تقدير واسع جدا

Marfat.com

مناصب الدولة الإسلامية

انتهينا من الكلام فى نشوء الدولة الاسلامية وتكونها فننتقل الى الكلام فى تنظيمها الادارى ودواوينها وادارات حكوماتها وتاريخ كل منها . وخصوصا الكلام فى كيفية نموها وتفرعها الى تلك المناصب

نمو الدولة الاسلامية

نشأت الدولة الاسلامية فى المدينة فى السنة الاولى للهجرة ، والمسلمون يومئذ من الصحابة لايزيد عددهم على بضع عشرات ، بعضهم من المهاجرين وبعضهم من الانصار ، فجعلوا أساسها المساواة والمؤاخاة والتعاون . فقد ذكرنا أن النبى آخى بين المسلمين ومكن المؤاخاة بأن جعل أموالهم واحدة ومصالحهم واحدة كما يستدل من قوله : « من ترك كلا (١) فالينا ومن ترك مالا فلورثته » . وقد كان ذلك الاشتراك فى المصالح داعيا الى زيادة الاتحاد ، وأعمال الدولة يومئذ محصورة فى النبى وتشمل السياسة والادارة والدين ، ففرضت الصلاة والزكاة وغيرهما من الفروض التى تعد من قبيل الدين ، ولا نبحث فيها الا من حيث دخلها فى تأسيس الدولة

أما صلاة الجماعة فكانت تبعث على الاتحاد والنظام والطاعة للنظام العام من الناحية الاجتماعية . وأما الزكاة فقد كانت من أول الامر مظهرا من مظاهر التساند الاجتماعى بين طبقات الامة ، ولم تعتمد عليها الدول الاسلامية كمصدر رئيسى من مصادر الدخل ، فقد تركت الدول أمرها للناس ولم تجمعها للخزانة ، الا فى حالات قليلة

ولا يخفى أن للدول نظما مختلفة ، ففيها الملكى والجمهورى والمطلق والمقيد ، ولكل دولة قوانين تختلف عما للاخرى مما لايحصره وصف . ولكنها ترجع كلها الى أمرين أساسيين تشترك فيهما جميعها ، وهما المال والجند . وما من دولة مهما كان نوع نظامها الا وفيها الجندية والمالية ، اذ لا قوام لها بدونهما ، وربما كانت الحاجة اليهما فى أوائل الدولة أشد مما بعدها . والمسلمون هم الجند والزكاة والضرائب المختلفة التى تقررت شيئا فشيئا هى الموارد المالية التى تقوم بتكاليف الدولة ، فكأن أساس الدولة الاسلامية هذه الآية : « واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين »

---

(١) الكل (بفتح الكاف) اليتيم .. والعيال والثقل والذى لا ولد له ولا والد والضعيف

Marfat.com

الزكاة

الزكاة توطد عرى الاتحاد بين أفراد المجتمع الاسلامى ، والاتحاد هو أساس الاسلام . ذلك لانها تؤخذ من أغنياء المسلمين مما يزيد من أموالهم وتعطى الفقراء منهم . وتسمى الزكاة فى كثير من الاحيان صدقة ، وقد بدأ المصطلحان بمعنى واحد ، ثم اختلف استعمالهما بعض الشىء فيما بعد ، وللأئمة والفقهاء فى ذلك آراء تعنى من يدرسون الاصول ، ولكن المؤرخ يهتم بناحية الزكاة الاجتماعية وبأهميتها كمورد من موارد الدخل الاجتماعى للدول الاسلامية . وقد أشار الى معناها الاجتماعى رسول الله عندما قال لمعاذ حين بعثه الى اليمن اذ قال له : « انك تأتى قوما أهل كتاب فادعهم الى شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فان هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فان هم أطـــاعوا فأعلمهم ان الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فان هم اطاعوا لذلك فاياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب »

وفى فرض الزكاة على الاغنياء واعطائها للفقراء حكمة عالية ، لانها تسترضى الفقراء وهم الجمهور الاكبر وخصوصا فى عصور الجاهلية أيام الاستبداد والاستئثار . وقد جاء الاسلام لنصرة الضعيف والمساواة بينه وبين القوى ، ولذلك كان خصوم الدعوة المحمدية من كبار القوم الذين ساءهم أن يشاركوا فقراءهم بأموالهم وأن يكونوا اخوة لهم (*)

وبعد واقعة بدر الكبرى سنة ٢ هـ حدثت الغنائم والجزية كما سيأتى ، فأصبحت موارد الدولة فى العهد النبوى وعهد أبى بكر منحصرة فى الزكاة التى تجمع من أغنياء المسلمين وتفرق فى فقرائهم ، والغنائم المكتسبة بالغزو وتقسم فى المحاربين ، وما فرضوه على من دخل فى ذمتهم من اليهود والنصارى فى بلاد العرب من الجزية ونحوها . ويتولى ذلك كله النبى أو خليفته . وكانت الاموال التى ترد من الغنائم تفرق فيهم على السواء ، الصغير والكبير ، الحر والعبد ، الذكر والانثى . فاذا جاء المدينة مال من بعض البلاد أحضر الى المسجد وفرق على مايراه النبى أو الخليفة بلا قيد ولا ضبط ولا يبقى منه باق

(*) « الزكاة مأخوذة من زكا الشىء اذا نما وزاد ، يقال : زكا الزرع والمال يزكو اذا كثر وزاد ، ورجل زكى أى زائد الخير ، وسمى الاخراج من المال زكاة ، وهو نقص منه ، من حيث ينمو بالبركة أو بالاجر الذى يثاب به المزكى .. » ـ القرطبى : الجامع لاحكام القرآن ، طبعة دار الكتب ، ج ١ ص ٣٤٣

وتؤخذ الزكاة على أموال معينة حددها الائمة ، أما وجوه انفاقها فقد حددتها الآية الكريمة : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم » ـ سورة التوبة ، الآية ٦٠

Marfat.com

الديوان

ولما فتحت البلاد فى زمن عمر بن الخطاب ، واختلط العرب بالروم والفرس، واتسع سلطان المسلمين وكثرت وارداتهم وتعددت مصادر الدخل ، اضطروا الى ضبط ذلك وتقييده وتعيين مايدخل وما يخرج منه . فراى عمر ان يضبط الوارد فى الدفاتر ، فيدفع منه رواتب معينة فى العام الى كل على قدر استحقاقه ، والذى يبقى من الاموال يحفظ للانتفاع به عند الحاجة . فشرع فى ذلك فى السنة العشرين للهجرة (وقالوا فى السنة الخامسة عشرة) وهو مايعبر عنه بالديوان اقتداء بما كان عند الفرس والروم

ونظر عمر فيمن حوله من المسلمين فاذا هم طبقات ودرجات ، باعتبار أدوارهم فى انشاء هذه الدولة وتوسيع سلطانها ، فرأى أن يجعل عطاء كل واحد منهم على قدر خدمته ، ولكنه اعتبر أيضا القرابة من النبى فميز أهله بشىء خاص كما سنفصله ، واستناب عنه فى تدوين ذلك كاتبا يتولى ضبطه

ولما تكاثرت موارد المال الى المدينة أنشأ عمر خزانة أو دارا سماها « بيت المال » ، وهو أول من فعل ذلك من الخلفاء ، وان كنا نرى ذكر بيت المال فى عهد أبى بكر فما هو الا من قبيل القياس ، لان أبا بكر لم يكن يفضل عنده مال يحفظه فى خزانة أو بيت

فانقضت دولة الخلفاء الراشدين (سنة ٤٠ هـ) واصحاب المناصب فيها : (١) الخليفة (٢) عماله فى الامصار (٣) كاتب يكتب له الكتب ويتولى أمر الديوان (٤) خادم خاص كانوا يسمونه الحاجب (١) (٥) خازن يتولى بيت المال (٦) قاض يقضى فى الخصومات

فلما افضت الخلافة الى بنى أمية وأصبح الامر ملكا سياسيا وكثرت مخالطة المسلمين للاعاجم ، جعلت تلك الادارات تتفرع وتتوسع عملا بناموس الارتقاء العام ، وأضافوا اليها مناصب اقتبسوها من الروم والفرس . وقضى عليهم الترف وأبهة الملك أن يتخذوا الخدم والحشم والحجاب والحراس ، فحدث فى عهد بنى أمية الحرس وديوان الخاتم والبريد وديوان الخراج مما سيأتى بيانه

ولما آل الامر الى بنى العباس زادت عوامل الاختلاط وزاد ميل الخلفاء الى الترف والرخاء ، فاستنابوا من يقوم مقامهم فى مباشرة الاعمال ، فاستحدثوا

---

(١) الدميرى ٢١٠ ج ٢ (نقلا عن المهذب)

Marfat.com

منصبى الوزارة والحسبة وغيرهما ، وتفرعت المناصب الاولى وتشعبت على مقتضيات الاحوال ، ثم احدثت كل دولة من دول الاسلام مناصب اقتضتها أحوالها ، فاختلفت فى بغداد عما فى قرطبة ، وفيهما عما فى القاهرة مما لامحل لتفصيله

تشعب المناصب

كان الخليفة فى عهد سذاجة الدولة هو الذى يراقب أعمال الدواوين بنفسه، وكان عماله لايزالون من أهل الزهد والتقوى لايحتاجون الى من يراقب أعمالهم أو يستطلع خفاياهم . ولم يكن للخليفة أموال خاصة ولا ضياع تحتاج الى كتاب أو حساب ، وكان اذا كتب الى أحد عماله كتابا ختمه بخاتمه بيده ، وربما كتب الكتاب بيده . فلما اتسع سلطانهم ، وتبدلت وجهة الخلافة من الدين الى السياسة ، ومال الخلفاء الى التقاعد وتقليد القياصرة والاكاسرة ، استخدموا من يقوم بتلك الاعمال ، فأقاموا من يباشر أمور الدولة عنهم وهم الوزراء ، ومن يراقب تصرف العمال فى الامصار وهو صاحب ديوان البريد ، ومن يتولى ختم الرسائل وتقييدها وهم أصحاب ديوان التوقيع أو الخاتم ، ومن يتولى النظر فى ضياعهم وأملاكهم وهم عمال ديوان الضياع ، ومن ينظر فى حسابات حاشيتهم وخدامهم وهم عمال ديوان الخاص . واقتضت حضارتهم أن يضربوا النقود ويتخذوا الطراز ، فأنشـــأوا دار الضرب وديوان الطراز ، ودواوين أخرى بعضها لعرض الرسائل وبعضـــها لغير ذلك ، مثل ديوان الترتيب وديوان العزيز ، وهذا كان يشبه الباب العالى

وكان الكاتب فى عهد الخلفاء الراشدين هو الذى يتولى الديوان على ماوضعه عمر ، فيدون مايرد من أموال الخراج والجزية وغيرهما ، وما ينفق على الجند والعمال والقضاة وغيرهم ، ويتولى مكاتبة العمال . فلما اتسعت أعمال الدولة تشعب ذلك الديوان الى ما يختص بحســـابات الخراج والجزية وهو ديوان الخراج ، والى مايختص بالنفقة على الجند وغيرهم وهو ديوان الزمام والنفقة ، والى مايتعلق بغير ذلك مثل ديوان الاقطاع وديوان المعادن ، والى مايختص بتدوين أسماء الجند وطبقاتهم ورواتبهم وهو ديوان الجند . وتفرع من ديوان الجند ديوان الاساطيل وديوان الثغور وغيرهما . وأفردوا لمراسلات العمال وغيرهم ديوانا خاصا هو ديوان الرسائل أو الانشاء

وكان بيت المال مخزنا عاما لكل أموال المسلمين ، فتفرع فى أيام الامويين والعباسيين الى عدة فروع ، بعضها لاموال الصدقات ، وبعضها لاموال المظالم،

وبعضها لاموال الورثة ، وبعضها لغير ذلك . وعلى هذا النمط تشعبت المناصب الاخرى ، فتفرع من القضاء ديوان المظالم والحسبة والشرطة ونحو ذلك مما لا يمكن حصره

وشأننا فى هذا المقام النظر فى نشأة الدواوين الاساسية وتاريخها وسائر أحوالها . ولا ينجلى ذلك الا اذا نظرنا فى اصولها وكيف تكونت وتفرعت ، والاحوال التى دعت الى ذلك . فنبدأ بالخلافة وتوابعها وملحقاتها ، فولاية الاقليم ، فالوزارة ، ثم نفرد لكل من الجند والمال وغيرهما بابا خاصا

Marfat.com

الخلافة

ماهيتها وشروطها وحقوقها

ماهيتها

الخلافة ضرب من الملك خاص بالاسلام لم يكن فى سواه من قبل ، وهى من قبيل السلطة الملكية المطلقة ، ولكنها تمتاز عن سلطة القياصرة والامبراطورين والاكاسرة بأن الخلافة تشمل السلطتين الدينية والدنيوية ، فتحملَ الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الاخروية والدنيوية الراجعة اليها ، وأما تلك فتنحصر فى حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية (*)

وقد يظهر الفرق بين السلطتين كبيرا ومرجعهما الىمبدأ واحد ، لان الذى يتأتى له أن يتولى أمور الناس ويحكم فيهم حكما مطلقا ، اما أن يسير بهم على قانون مفروض ، أو على مقتضى ميوله وأغراضه . واكثر حكام العالم المتمدن يحكمون بقوانين سياسية وضعها عقلاء الامة وأكابر الدولة ، يطيعها الناس ويجرون على أحكامها ، كذلك كان الفرس والروم قبل الاسلام ، وكان هذا شأن الملوك المطلقين فىأوربا الىعهد قريب، بل كذلك شأن الديموقراطيات التى يتولى الحكم فيها ملك يرث العرشعن آبائه ، أو رئيس جمهوريةينتخبه الشعب وفق قواعد مقررة فى الدستور ، ويقوم بالحكم فى حدود يعينها الدستور أيضا

وأما الخلافة فانها مقيدة بقوانين دينية شرعية يسوس الخليفة بها أمته ويحمل الناس على أحكامها بالنيابة عن النبى صاحب تلك الشريعة ، ومن هذا القبيل اشتمال الخلافة على الامامة ، وقد سموا الخليفة اماما تشبيها بامام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به (**)

(*) استخدام المؤلف هنا تعبير ابن خلدون وألفاظه

(**) نهى أبو بكر الناس عن أن يلقبوه بخليفة الله بل خليفة رسول الله ، وظل هذا هو المفهوم للفظ خليفة حتى نهاية الدولة الاموية على الاقل ، وذلك لا يمنع من القول من أن الناس أجازوا ان يلقب الخليفة بلقب خليفة الله حتى فى عصر الراشدين ، فقد وصف حسان ابن ثابت عثمان بخليفة الله فى احدى مراثيه اياه . وقد ساد هذا المعنى ابتداء من العصر العباسى ، فأصبح الخلفاء خلفاء الله فى أرضه

وما أشار اليه المؤلف من القاب الخليفة ـ كأمير المؤمنين والامام ـ كلها خصائص داخلة فى معنى الخليفة ، فالخليفة أمير المؤمنين لانه القائد الاعلى للجيش الاسلامى ، والامير هو القائد وهو

شروط الخلافة

للخلافة أربعة شروط يشترط توفرها فى الخليفة ، وهى العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس (*) ، واختلفوا فى شرط خامس هو النسب القرشى أى أن لايقوم خليفة الا من قبيلة قريش ، فامتنع حينئذ أن يتولى أمور المسلمين أعجمى باسم الخليفة . وأصل هذا الشرط حديث ، احتجت به قريش لما طلب الانصار الخلافة لهم كما تقدم فى الكلام على بيعة أبى بكر ، وكان هذا الشرط مرعيا كل الرعاية فى سائر أحوال الدولة الاسلامية ، والخلافة لم يتطلبها غير القرشيين قط. ومع كل ماانتاب الخلفاء فى أواخر الدولة العباسية من الضعف واستبداد الامراء فيهم حتى جردوهم من كل قوة دنيوية وانشأوا الدول دونهم ولقبوا انفسهم بالسلاطين ، رغم ذلك كله لم يخطر لاحد منهم ان يدعى الخلافة أو ان ينصب نفسه خليفة

هذه دول بنى بويه والسلاجقة والغزنوية والطاهرية والايوبية وغيرهم ، قد استقلوا فى الاحكام ، وفيهم من غلب على الخلفاء ، ولكنهم لم يسموا أنفسهم الا سلاطين ، بل كانوا يتزلفون الى الخلفاء ليثبتوهم فى الحكم . وكذلك فعل صلاح الدين الايوبى فى مصر ، فانه تناول أزمة الملك فى مصر من آخر خليفة فاطمى ـ وليس من يطالبه أو ينافسه على السلطة وبيده مقاليد البلاد ـ فلما أراد الاستقلال بالملك دعا على المنابر للخليفة العباسى ، ولم يسم نفسه خليفة بل اكتفى بلقب السلطان (**) . وأول من تولى الخلافة الاسلامية من غير قريش السلطان سليم الفاتح العثمانى سنة ٩٢٢ هـ ، وحجة الائمة الحنفية فى صحة خلافة بنى عثمان أن الخليفة يتولى الخلافة بخمسة حقوق وهى :

حقوق الخليفة عند الحنفية

١ ـ حق السيف . ومعنى ذلك أن طالب الخلافة يجب أن يقوم بدعوته

الامام لانه يؤم الصلاة ويرعى الدين ، أى أن كل خاصة من هذه لها معناها فى تكوين قوة الخليفة ، فلقب الخلافة يعطيه السند القانونى ، فهو يحكم نيابة عن الرسول ، وأمرة المؤمنين تعطيه السلطة التنفيذية ، والامامة تعطيه السلطة الشرعية أو التشريعية

انظر : الماوردى : الاحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨) ص ٤ وما بعدها

ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، القاهرة ١٣١٧ ج ٤ ص ١٦٣ ـ ١٧١

ابن خلدون : المقدمة ، بيروت ١٩٥٦ ، ٣٤٢ ـ ٣٥٢ ، وكذلك كتب التاريخ المعروفة كتواريخ الطبرى وابن الاثير والسلوك للمقريزى وما الى ذلك . أما المراجع غير العربية فانظر :

A.J. Wensinck und J.H. Kramers : Handwoerterbuch des Islam (Leiden 1941) مادة « خليفة » فهناك أوفى ثبت لها

(*) الماوردى : الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨ ، ص ٤

(**) لم يسم صلاح الدين نفسه سلطانا ، ولكنه استصدر من الخليفة العباسى هذا القلب ، ولم يفعل ذلك الا بعد أن يئس من الاحزاب المتنافرة التى تقاسمت دولة نور الدين محمود بعد موته

انظر ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ص ١٧٦ وما يليها

Marfat.com

أنصار لا يقوى عليهم مناظر آخر على وجه الارض ، وقد كان ذلك شـــأن السلطان سليم يوم التمس الخلافة بعد فتح مصر

٢ ــ حق الانتخاب : أى مصادقة أهل العقد ، وهو مجلس من الائمـــة والعلماء ، وحجتهم فى ذلك أن هذا المجلس كان فى أول عهد الاسلام بالمدينة ، ثم نقل الى دمشق ، ثم الى بغداد ، ونقل من بغداد الى القاهرة ، فيجـوز أيضا نقله من القاهرة الى القسطنطينية . فلما فتح السلطان سليم مصر حمل معه جماعة من علماء الازهر ، وأضاف اليهم عدة من علماء الاتراك ، وألف من الفئتين مجلسا صادق على انتخابه وسلموه السيف . وكانت هذه هى العادة الجارية فى تقليد الخلفاء العثمانيين السيف من أيدى العلماء وكانوا يفعلون ذلك فى جامع أيوب بضواحى الآستانة

٣ ــ الوصاية : وهى وصاية الخليفة لمن يخلفه بعد موته . وقد أوصى المتوكل آخر الخلفاء العباسيين بمصر يوم فتحها الاتراك للسلطان سليم بالخلافة

٤ ــ حماية الحرمين : فقد كان السلاطين العثمانيون حماة الحرمين ــ الا سبع سنوات تولاهما فيها أئمة صنعاء فى القرن العاشر ، وسبع سنوات أخرى تولاهما فيها الوهابيون

٥ ــ الاحتفاظ بالامانات : وهى المخلفات النبوية المحفوظة فى الآستانة ، وهم يقولون أن الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر فى بغـــداد ، فحملها الخلفاء العباسيون معهم الى القاهرة ، ومازالت فيها حتى نقلها السلطان سليم الى القسطنطينية ، وهى محفوظة الى الآن فى صندوق من الفضة فى غرفة بالسراى القديمة « طوبقبيو » سيأتى ذكرها (*)

(*) المراجع الاسلامية القديمة عن نظام الخلافة معروفة، أهمها الاحكام السلطانية للماوردى. والفصل لابن حزم ، والملل والنحل للشهرستانى ، ومقدمة ابن خلدون . ونكتفى هنا بذكر بعض الابحاث والدراسات الحديثة فى هذا الموضوع :

عبد العزيز شاويش : الخلافة الاسلامية (لم نجد فى الطبعة التى بين أيدينا سنة الطبع أو مكانه)

على عبد الرازق : الاسلام وأصول الحكم ،القاهرة ١٩٢٥

محمد رشيد رضا : الخلافة ، القاهرة ١٩٢٣

T.W. Arnold, The Califate (London, 1924)

C.A. Nallino, Appunti sulla Califfato Ottomano' (Roma 1917)

L. Massignon, Introduction à l'étude des revendications musulmanes (ds Revue du Monde Musulman) XXXIX, 1 sq.

C. Snouk Hurgronje, Islam and Turkish nationalism (in Foreign Affairs), Vol. III. New-York, 1924 No. 1 p. 61 sqq.

Henri Laoust, Le Califat dans la doctrine de Rashid Rida. Beyrout 1938.

R. Hartmann, Wesen und Ende des Osmanischen Chalifats. Leipzig, 1924.

H. Ritter, Die Abschaffung des Kalifats (in Archiv für Politik und Geschichte) II, 343 ff.

Marfat.com

مبايعة الخلفاء

نوع المبايعة

لم تجر ولاية الخلافة على عهد الخلفاء الراشدين على نظام واحد ، فقد كان المفروض أن تكون انتخابية ، ولهذا لم يوص رسول الله (صلعم) بمن يخلفه ، بل ترك الامر فى ذلك للمسلمين ، فاختاروا أبا بكر . ولم يشأ أبو بكر أن يدع الامر للناس ليختاروا من يشاءون ، فأوصى لعمر بن الخطاب ، وعندما حضرت عمر الوفاة لم يدعها شورى خالصة ، ولا انتخابية خالصة ، بل اوصى لستة نفر من كبار الصحابة ليجتمعوا ويختاروا الخليفة من بينهم ، وسمى ابنه عبد الله فى جملتهم ولكنه نهى عن انتخابه ، فاختاروا عثمان بن عفان ، فلما قتل دون أن يوصى اختار الناس عليا بلا شورى ، فشق ذلك على كثيرين من كبار الصحابة لانهم كانوا وقت مقتل عثمان متفرقين فى الامصار لم يشهدوا بيعة على ، فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس . ثم كان ما كان من أمر الفتنة المشهورة

فلما قتل على أرادت شيعته حصر الخلافة فى نسله ، باعتبار أنهم بضعة من النبى ، فسألوه وهو على فراش الموت : « أنبايع الحسن ؟ » فقال : « لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر » ، أما هم فبايعوا ابنه الحسن ، وهذا تنازل عنها لمعاوية بن أبى سفيان ، فصارت فى بنى امية

فطريقة الخلفاء الراشدين فى انتخاب الخلفاء من أفضل ما بلغ اليه جهد المتمدنين حتى الآن ، وهى جامعة بين الجمهورية والملكية والشورى ، أما الجمهورية فلأن الخليفة كان ينتخب من جمهور القرشيين بلا حصر ولاتعيين ، وهى شورية لان الانتخاب يكون بالشورى ، وهى مطلقة لان الخليفة اذاقبض على أزمة الملك كان مطلق التصرف . فاذا اضفت الى ذلك شروطها الاربعة التى ذكرناها كانت أفضل أنواع الحكومات على الاطلاق ، لان الحاكم المطلق اذا كان عادلا مع علم وكفاية وسلامة الحواس لم يكن أقدر منه على النهوض بأعباء المملكة وتوسيع نطاقها والتوفيق بين رعاياه ، هذا الى جانب مافى طريقتهم هذه من أدلة التقوى والزهد فى الدنيا ، كما يتضح ذلك من مراجعة سير الخلفاء الراشدين

فلما أفضى الامر الى بنى امية واختلطوا بالروم فى الشام ، واطلعوا على

Marfat.com

طرق الحكومات عندهم ، وفى جملتها توالى الملك فى الاعقاب ، رأى معاوية أن يجعله كذلك فى نسله ، ولكنه تهيب لعلمه بما فيه من مخالفة سنة الراشدين ، فاستشار بعض خاصته ، فشجعه المغيرة بن شعبة

وقد زاده اقداما ما خافه من افتراق الكلمة اذا ترك الامر بعده فوضى فيتطلبه بنو هاشم ، ولا يرضى بنو أمية تسليمه الى سواهم ، فيؤول ذلك الى الفتنة بعد ذهاب دهشة النبوة ، وتغلب طبيعة الملك ورجوع الناس الى العصبية . فتجنبا للفتنة بايع ابنه يزيد ، وخوفا من الافتتان عليه بعد موت معاوية طلب له البيعة فى حياته ، وتربص ليرى مايبدو من الناس فلم ير شرا . وجرى على ذلك خلفاؤه بعده ـ الا عمر بن عبدالعزيز ـ فانه أراد الرجوع الى طريقة الخلفاء الراشدين ، ولكنه لم يوفق الى ذلك لتغلب العامة عليه ، فلم تطل مدته ، فعادوا الى طريقة معاوية (*)

وأراد مثل ذلك أيضا المأمون فى الدولة العباسية ، فعهد الى على بن موسى ابن جعفر الصادق من نسل الامام على وسماه « الرضى » ، فعظم ذلك على بنى العباس ونقضوا بيعة المأمون وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدى . ولو لم يبادر المأمون الى ملافاة الامر لخرجت الخلافة من يده ، فعاد الى الخلافة بالارث ، وجرى عليها العباسيون والفاطميون وغيرهم من خلفاء المسلمين

البيعة

البيعة هى العهد على الطاعة ، فاذا بايع الرجل أميرا كأنه عاهده وسلم اليه النظر فى أمر نفسه لا ينازعه فى شىء من ذلك ، وأنه يطيعه فيما كلفه به من الامر على المنشط والمكره . وكان العرب اذا بايعوا أميرا جعلوا أيديهم فى يده ، تأكيدا للعهد بما يشبه فعل البائع والمشترى ، فسمى « بيعة » مصدر « باع » . وصارت البيعة مصافحةالايدى ، وهو مدلولها بعرف اللغة أيضا . وأقدم بيعة فى الاسلام بيعة العقبة ، ومنها ايمان البيعة التى كان الخلفاء يستحلفونها على العهد ويستوعبون الايمان كلها (**)

(*) انظر كلام ابن خلدون فى ذلك وتأييده لنظام الوراثة فى الخلافة فى المقدمة (طبعة دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٥٦ ج ٢ ص ٣٧٦ وما يليها)

(**) المؤلف يتابع هنا ابن خلدون فىالمقدمة حرفيا تقريبا، ولكنه افترق عنه افتراقا ظاهرا ابتداء من « فصارت البيعة مصافحة الايدى ... » ، وعبارة ابن خلدون أوضح وأكثر فائدة ، وها هى بنصها : « وصارت البيعة مصافحة بالايدى ، هذا مدلولها فى عرف اللغة ومعهود الشرع ، وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وعند الشجرة ، وحيثما ورد هذا اللفظ ، ومنه بيعة الخلفاء ، ومنه ايمان البيعة ، كان الخلفاء يستخلفون على العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك ، فسمى هذا الاستيعاب ايمان البيعة ، وكان الاكراه فيها أكثر وأغلب ، ولهذا ، لما أفتى مالك ، رضى الله عنه بسقوط يمين الاكراه أنكرها الولاة عليه ، ورأوها قادحة فى أيمان البيعة ، ووقع ما وقع من محنة الامام رضى الله عنه » ـ نفس الطبعة ، ج ٢ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥

Marfat.com

وكانت العادة اذا هموا بمبايعة خليفة بايعه أولا كبار الدولة ، ثم من يليهم من أصحاب المناصب . وفى الدولة العباسية كان أول من يبايع الخليفة الجند والقواد وقضاة بغداد . وكان كاتب الجيش هو الذى يتولى استحلافهم على الغالب ، ويدعوهم بأسمائهم ، ويقف الوزير أو من يقوم مقامه فيعمم الخليفة بيده ويلبسه البردة . ومتى تمت المبايعة يعرضون على الخليفة ألقابا فيختار لقبا منها . وهذه الالقاب حادثة فى الاسلام ، وكانت فى أوائل الدولة العباسية بسيطة ، كالامين والمأمون والرشيد . فلما كانت أيام المعتصم اضاف اسم الجلالة الى لقبه فسموه « المعتصم بالله » ، وصارت تلك عادة فى من خلفه من بنى العبـــاس

فاذا بويع فى داره جاءوه بموكب الخلافة ، وهى أفراس مسرجة ولـكل دابة سائس بالالبسة الفاخرة ، فيركب الخليفة وحوله الفرســان من كبار الدولة ، ويمشى بين يديه رجل بالحربة ، ويصف الجنود فى الطريق صفين يسير الموكب بينهما الى دار الخليفة ، وهى دار العامة فى بغداد . ثم ترد عليه وفود المهنئين من الامصار على مقتضى الاحوال

يمين البيعة

يختلف نص يمين البيعة باختـلاف الدول والاحوال ، وان كان مرجعها واحدا . فلما بايع الانصار النبى بالعقبة قالوا : « يا رسول الله ، انا براء من ذمامك حتى تصير الى دارنا . فاذا وصلت فانك فى ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا » (*) وهناك نص آخر تمت به البيعة بالعقبة يعرف ببيعة النساء ، وهى : « بايعنا على أن لا نشرك بالله شيئا ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه فى معروف فان وفيتم فلـكم الجنة ، وان خشيتم من ذلك شيئا ، فأمركم الى الله عز وجل ، ان شاء عذب وان شاء غفر » (**)

ويمين بيعة بنى العباس منذ طلبها لهم أبو مسلم الخراسانى هى : « ابايعكم

(*) هذه هى بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة مباشرة ، ونصها فى المراجع الاولى يختلف عن ذلك بعض الشىء ، فان الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه لم يبايعوه بصيغة معينة ، وانما قال رسول الله : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا عن كابر » — سيرة ابن هشام ، ج ٢ ص ٨٤ — ٨٥ وانظر أيضا : طبقات ابن سعد (طبعة سخاو ١/١ : ١٤٨) وتاريخ الطبرى ، ج ٢ ص ٢٣٥

(**) هذه هى بيعة العقبة الاولى قبل الهجرة بعامين ، وقد أكملت نصها من سيرة ابن اسحاق برواية ابن هشام ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٣٦ ، ج ٢ ص ٧٥ . وقد عرفت ببيعة النساء لان الحرب لم تفترض فيها

على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله صلى اللهعليه وسلم . عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى الى بيت الله الحرام على أن لا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يبتدئكم به ولاتكم »

وقد اختلفوا فى نص يمين البيعة وفى كيفية الاحتفال بالمبايعة باختلاف الدول ، ولكن الجوهر واحد ، وهو تبادل العهود بين الخليفة ورعيتهبالسير على مايقتضيه الكتاب والسنة ونحو ذلك . وكانشأنهم فى المبايعةالاختصار كما تكون الدول فى أبسط أحوالها . وكانت البيعة تتلى شفاها ثم صارت تكتب وتحفظ . وكانت كلمات قليلة فصارت سطورا عديدة بما أدخلوه فيها من الحشو والاطناب ، لما اقتضاه استغراق القوم فى الترف من الميل الى التفخيم والتبجيل والتطويل ، شأن الدول فى أيام بذخها

وقد تغيرت صورتها ، فبعد أن كان الرجل يخاطب الخليفة بالبيعة ، أصبح أحد الوزراء ممن يأخذون البيعة للخلفاء يخاطبون المبايع ويشترطون عليه الشروط ، كما فعل أبو مسلم . وهذا نص بيعة الخلفاء العباسيين فى أواسط دولتهم ، وفى نشرها ما يغنى عن الاسهاب :

« تبايع عبد الله الامام أمير المؤمنين بيعة طوع وايثار ، ورضى واختيار ، واعتقاد واضمار ، واعلان واسرار ، واخلاص منطويتك ، وصدق منيتك ، وانشراح من صدرك ، وصحة من عزيمتك ، طائعا غير مكره ، ومنقادا غير مجبر ، مقرا بفضلها ، مذعنا بحقها ، ومعترفا ببركتها ، ومعتدا بحسن عائدتها ، وعالما بما فيها ، وفى توكيدها من صلاح الكافة ، واجتماع كلمة العامة والخاصة ، ولم الشعث وأمن العواقب ، وسكون الدهماء ، وعز الاولياء ، وقمع الاعداء ــ على أن فلانا عبد الله وخليفته ، المفترض عليك طاعته ، الواجب على الامة امامته وولايته ، اللازم لهم القيام بحقه ، والوفاء بعهده ، لا تشك فيه ، ولا ترتاب به ، ولا تداهن بأمره ولا تميل . وانك ولى أوليائه ، وعدو أعدائه ، من خاص وعام ، وقريب وبعيد ، وحاضر وغائب ، متمسك فى بيعته بوفاء العهود وذمة العقد ، سريرتك مثل علانيتك ، وضميرك فيه وفق ظاهرك ، على أن اعطاءكهذه البيعة من نفسك ، وتوكيدك اياها فى عنقك لفلان أمير المؤمنين عن سلامة من قلبك ، واستقامة من عزمك ، واستمرار من هواك ورأيك ، فى أن لا تتأول عليه فيها ، ولا تسعى فى نقض شىء منها ، ولا تقعد عن نصره فى الرخاء والشدة ، ولا تدع النصح له فى كل حال راهنة أو حادثة ، حتى تلقى الله موفيا بها ، مؤديا للامانة فيها ، اذ كان الذين يبايعون ولاة الامر خلفاء الله فىالارض انما يبايعون الله ، ويد الله فوق

Marfat.com

أيديهم . فمن نكث فانما ينكث على نفسه . عليك بهذه البيعة التى طوقت بها عنقك ، وبسطت لها يدك ، وأعطيت فيها صفقتك ، وما شرط عليك فيها من وفاء وموالاة ونصح ومشايعة وطاعة وموافقة واجتهاد ومبالغة ، عهد الله ان عهده كان مسئولا ، وما أخذ الله على أنبيائه ورسله عليهم السلام ، وعلى من أخذ من عباده من مؤكدات مواثيقه ومحكمات عهوده ، وعلى أن تتمسك بها فلا تبدل ، وتستقيم فلا تميل . وان نكثت هذه البيعة ، ومتى بدلت شرطا من شروطها ، أو عفيت رسما من رسومها ، أو غيرت حكما من أحكامها ، معلنا أو مسرا أو محتالا أو متأولا ، أو زغت عن السبيل التى يسلكها من لا يحقر الامامة ، ويستحل الغدر والخيانة ، ولا يستجيز حل العقود وختل العهود ، فكل ماتملكه من عين أو ورق او آنية أو عقار أو سائمة أو زرع ، أو غير ذلك من صنوف الاملاك والاموال المدخرة ، صدقة على المساكين يحرم عليك أن ترجع شيئا من ذلك الى مالك بحيلة من الحيل ، على وجه من الوجوه وسبب من الاسباب ، أو مخرج من مخارج الايمان ، وكل ماتستفيده فى بقية عمرك من مال يقل خطره أو يجل فصدقة فى سبيل الله ، الى ان تتوفاك منيتك ويأتيك أجلك . وكل مملوك لك اليوم من ذكر أو انثى وتملكه الى آخر أيامك أحرار سائبون لوجه الله . ونساؤك يوم يلزمك الحنث ومن تتزوج بعده فى مدة بقائك طوالق ثلاثا طلاق الحرج والسنة لا مبتوتة ولا رجعة . وعليك المشى الى بيت الله الحرام ثلاثين حجة حافيا راجلا لا يرضى الله منك الا بالوفاء بها ، ولا يقبل الله لك صرفا ولا عدلا . وخذلك يوم تحتاج اليه وبرأك من حوله وقوته وألجأك الى حولك وقوتك . ولله عز وجل بذلك شهيد وكفى بالله شهيدا » (١) . وبلغت المبايعة التى كتبت للحاكم بأمر الله العباسى فى أواسط القرن الثامن للهجرة بمصر ما يملأ أربع صفحات من هذا الكتاب . ونشر السيوطى فى حسن المحاضرة مبايعة أحد الخلفاء العباسيين بمصر فى سبع صفحات كبار (٢)

بيعة ولى العهد

ذكرنا فى كلامنا على الخلافة بعد أن صارت وراثية أن الخلفاء كانوا يبايعون لاولادهم بولاية العهد أو لغيرهم من ذوى قرابتهم ، وكانوا يحتفلون بذلك مثل احتفالهم بمبايعة الخلفاء . وكثيرا ماكانوا يعرضون عزمهم فى ذلك على أهل الرأى ، كما فعل المنصور لما أراد البيعة لابنه المهدى ، وكان جعفر يعترض عليه

---

(١) Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft, 1853
نقلا عن تذكرة ابن حمدون

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ص ٧٠ ج ٢

فى ذلك فأمر المنصور باحضار الناس ، وقامت الخطباء فتكلموا وقامت الشعراء فأكثرت فى وصف المهدى فرجحت بذلك بيعة المهدى (*)

وكانوا اذا رأوا غير واحد من أولادهم أو اخوتهم أهلا للخلافة بايعوا لاحدهم وشرطوا ان يخلفه فلان او فلان ، كما فعل يزيد بن عبد الملك لما اراد ان يبايع بولاية العهد ، وكان ابنه لايزال صغيرا فبايع أخاه هشاما على أن يخلفه ابنه الوليد بن يزيد ، وكثيرا ماكانوا يغيرون فى شروط المبايعة بعد حين اذا رأوا لزوما لذلك . وقد يبايع الخليفة بولاية العهد لاحد اولاده ويذكر من يخلفه وبخيره فى استخلافه ، كما فعل الرشيد لما كتب بولاية العهد لابنه المأمون ومن بعده للقاسم وجعل أمره للمأمون ان شاء أقره وان شاء خلعه (**)

والعهد كتاب يكتبه الخليفة أو من يكتب له ، ويختمه بخاتمه وخواتم أهل بيته ، ويدفعه الى ولى العهد أو من يتولى أمره فيحفظه الى حين الحاجة . وقد يحفظه فى مكان أمين فى خزانة او مسجد او فى الكعبة ، كما فعل الرشيد بالكتابين اللذين كتبهما لاولاده بولاية العهد ، احدهما للامين والآخر للمأمون وبعد هذا للقاسم

ويدعى لولى العهد على المنابر بعد الدعاء للخليفة ، فيقولون بعد الدعاء للخليفة : « اللهم وبلغه الامل فى ولده فلان ولى عهده فى المسلمين ، اللهم وال من والاه من العباد وعاد من عاداه فى الاقطار والبلاد ، وانصر من نصره بالحق والسداد ، واخذل من خذله بالغى والعناد ، اللهم ثبت دولته وشعاره ، وانبذ من نابذ الحق وانصاره »

(*) جعفر المذكور هنا هو جعفر البرمكى، وقصة خلع المنصور لعيسى بن موسى عن ولاية العهد وجعلها لابنه المهدى مروية هنا باختصار شديد يضيع الكثير من مغزاها التاريخى ، والحقيقة أن المنصور اراد عيسى على خلع نفسه فرفض ، فلجأ الى امتهانه ومضايقته ومازال يلح فى ذلك حتى أرغمه على التنازل ، وللمؤرخين فى ذلك أقوال كثيرة منها : « ... وقيل : بل ارسل اليه خالد بن برمك ، فأخذ معه جماعة من أهل المنصور ، نحو ثلاثين رجلا ، ومضى الى عيسى فخاطبه فى ان يخلع نفسه ، فأبى ، فلما ابى قال خالد للجماعة : نشهد عليه انه قد خلع نفسه، ونحقن بذلك دمه ، وتسكن هذه الفتنة ، فشهدوا عليه بذلك فقامت البينة به ، وانكر عيسى، فلم يلتفت اليه . وتم خلعه ، وبويع للمهدى »
تاريخ اليعقوبى ، حـ ٢ ص ٤٧٢ — ٤٧٤
ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، القاهرة ١٩٣٨ ص ١٤٩ وما يليها

(**) القاسم المذكور هنا هو القاسم المؤتمن احد أولاد الرشيد (انظر ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، حـ ٥ ص ١٣١)
ويبدو من كلام ابن الاثير ان القاسم كان ثالث ابناء الرشيد من حيث السن ولكنى لم اجد فى النصوص شيئا يشير الى توليته العهد بعد المأمون

علامات الخلافة

علامات الخلافة ثلاث : البردة ، والخاتم ، والقضيب

البردة

أما البردة فهى بردة النبى ، ومازال النبى يلبسها حتى أعطاها الى كعب بن زهير بن أبى سلمى الشاعر المشهور . وكان كعب قد هجا النبى وفر من وجه المسلمين ، فلما فتح المسلمون مكة كتب اليه أخوه بجير بن زهير : « ان رسول الله (ص) قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وان من بقى من شعراء قريش قد هربوا فى كل وجه ، فان كانت فى نفسك حاجة فطر الى رسول الله (ص) فانه لا يقتل أحدا جاءه تائبا » . فلم ير كعب مفرجا الا رجوعه وتوبته، فجاء المدينة وسلم نفسه الى النبى ومدحه بقصيدته المشهورة التى مطلعها : « بانت سعاد فقلبى اليوم متبول »

فأكرمه النبى ، وأراد بعض الصحابة قتله فمنعهم ، وبالغ فى اكرامه فخلع عليه بردته . فظلت البردة عند أهل كعب حتى اشتراها منهم معاوية بن ابى سفيان فى أثناء خلافته بأربعين الف درهم (١٦٠٠ جنيه) وتوارثها الخلفاء الامويون والعباسيون . وذكر ابو الفداء انها انتقلت من العباسيين الى التتر ، لكنها الآن فى جملة المخلفات النبوية فى السراى القديمة فى الآستانة . ولعل أبا الفداء وهم بما علمه من غزو التتر بغداد وفرار العباسيين الى مصر ، فظن البردة كانت فى جملة ماانتهبوه من قصرالخليفة ، والظاهر أنالعباسيين حملوا البردة معهم الى مصر فأخذها السلطان سليم مع الخلافة (*)

الخاتم

وأما الخاتم فقد اتخذه الخلفاء تشبها بالنبى ، لانه لما أراد ان يكتب الىقيصر وكسرى يدعوهما الى الاسلام قيل له ان العجم لا يقبلون كتابا الا ان يكون مختوما ، فاتخذ خاتما من فضة ونقش عليه « محمد رسول الله » . وانتقل

(*) من المشكوك فيه ان تكون البردة التى كان سلاطين آل عثمان يحتفظون بها هى بردة الرسول صلى الله عليه وسلم

انظر : مادة « بردة » فى :

Dozy, Dictionnaire détaillé des Noms des Vêtements chez les Arabes (Amsterdam 1845) pp. 59-64

هذا الخاتم الى أبى بكر ، ثم الى عمر ، ثم الى عثمان ، ووقع من يد عثمان فى بئر أريس ولم يعثروا عليه بعد ذلك ، فاصطنع عثمان خاتما مثله . وكان كل من ولى الخلافة بعده يصطنع له خاتما يختمون به الكتب فى أسفل الكتابة وفى أعلاها بالطين أو المداد ، ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمع بعد طيها . وأول من فعل ذلك معاوية تجنبا للتزوير ، لانه كتب مرة الى زياد ابن أبيه عامله بالكوفة أن يدفع لعمر بن الزبير مائة ألف درهم وسلم الكتاب الى عمر ليحمله الى زياد ، فجعل عمر المائة مائتين فدفعهما زيادله، ولما رفع حسابه الى معاوية بان التزوير ، فأمر من ذلك الحين بحزم الكتب وختمها على طرفيها بعد طيها أو لفها

وذكر البلاذرى ان زيادا أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم فى أثناء ولاية العراق امتثالا لما كانت الفرس تفعله . وانه كان للملوك الفرس قبل الاسلام عدة خواتم يستخدم كل منها لغرض : خاتم للسر ، وخاتم للرسل ، وخاتم للسجلات والاقطاعات ، وخاتم للخراج ، وكان الذى يتولاها يسمى صاحب الزمام

وما زال ديوان الخاتم معدودا من الدواوين الكبرى من أيام معاوية الى أواسط دولة بنى العباس فأسقط ، لان مباشرة الاعمال تحولت الى الامراء والوزراء والسلاطين وغيرهم . ولما أراد الرشيد أن يستوزر جعفر بن يحيى بدل الفضل أخيه قال لابيهما يحيى : « يا أبت انى أردت ان احول الخاتم من يمينى الى شمالى » فكنى بالخاتم عن الوزارة

وكان لخاتم الخلفاء عندهم مقام عظيم ، اذا تناوله الوزير أو غيره ليختم به كتابا وقف على رجليه تعظيما للخلافة . وكانوا اذا ختموا كتابا دافوا (*) الطين أو المداد وطبعوه على صفح القرطاس أو على جسم لين كالشمع حتى ترتسم صورة الختم عليه (**) . وقد يكون ذلك فى آخر الكتاب أو فى أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح أو اسم الخليفة او شىء يعنونه ، ويكون ذلك اشارة الى صحة ذلك الكتاب ويكون الكتاب بدونه ملغى ، ويسمون الختم أيضا علامة

(*) داف الشىء يدوفه دوفا بله بماء أو غيره ، فهو مدوف ومدووف أى مخلوط ممزوج

(**) يتابع المؤلف هنا نص ابن خلدون فى المقدمة (طبعة بيروت ١٩٥٦) حـ ٢ ص٤٧٦ ، وقد جاء فيه : « وكان فى المشرق فى الدول القديمة يختم على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد غمس فى مداف من الطين معد لذلك ، صبغه احمر ، فيرتسم ذلك النقش عليه، وكان هذا الطين فى الدولة العباسية يعرف بطين الختم ، وكان يجلب من سيراف ، فيظهر انه مخصوص بها »

Marfat.com

ولما نشأت السلطنات جعلَ السلاطين علامة السلطنة مثل علامة الخلافة ، وسموها الطغراء . وهى نقشة تكتب بقلم غليظ وفيها القاب الملك ، وكانت تقوم عندهم مقام خط السلطان بيده على المناشير والكتب ويستغنى فيها عن علامة السلطان بيده . وكانت الدولة السلجوقية تسمى ديوان الانشاء ديوان الطغراء

والطغراء سمى بها الحسين أبو اسماعيل الطغرائى صاحب لامية العجم المشهورة ، كان وزيرا للسلطان مسعود السلجوقى وكان خطه جميلا ويكتب تلك الطغراء بخط جميل فلقبوه بها ، ويقال انه أول من كتبها (قتل ٥١ هـ)

ولم يكن الخلفاء ينقشون على خواتمهم اسماءهم ، ولكنهم كانوا ينقشون عليها عبارات فيها مواعظ وحكم . فقد كان نقش خاتم أبى بكر « نعم القادر الله » وخاتم عمر « كفى بالموت واعظا يا عمر » وخاتم عثمان « لتصبرن أو لتندمن » وخاتم على « الملك لله » ، وجرى على نحو ذلك خلفاء بنى امية وبنى العباس ، ولكل منهم فقرة خاصة نقشها على خاتمه . والغالب ان يكون بينها وبين اسمه مناسبة معنوية . فقد كان نقش خاتم المأمون « عبد الله يؤمن بالله مخلصا » ، وختم الواثق « الله ثقة الواثق » ، وختم المتوكل « على الله توكلت » ، والمعتمد « اعتمادى على الله وهو حسبى » ، وقس على ذلك (*)

وكانوا يعبرون عن علامات الخلافة أيام الخلافة العثمانية بالمخلفات النبوية ، وكانت محفوظة فى الآستانة فى صندوق من الفضة فى غرفة بقصر طوب قبو . وهى : البردة ، وسن من اسنان النبى ، وشعرات من شعره ، ونعاله ، وبقية من العلم النبوى ، واناءان من حديد يقال ان ابراهيم الخليل كان يشرب بهما من بئر زمزم ، وجبة الامام ابى حنيفة ، وذراع سيدنا يحيى . ويحتفلون بزيارة هذه المخلفات فى ١٥ رمضان من كل سنة ، فيخرج السلطان بموكبه الى السراى المذكورة ، فيؤدى فروض الزيارة والتبرك بها ومعه كبار رجال الدولة ، وقد وصفنا هذه الغرفة فى السنة الثامنة عشرة من الهلال ورسمها فى الصفحة المقابلة

(*) انظر عن الخاتم المادة المستفيضة التى كتبها Fr. Buhl, J. Allan فى دائرة المعارف الاسلامية

Marfat.com

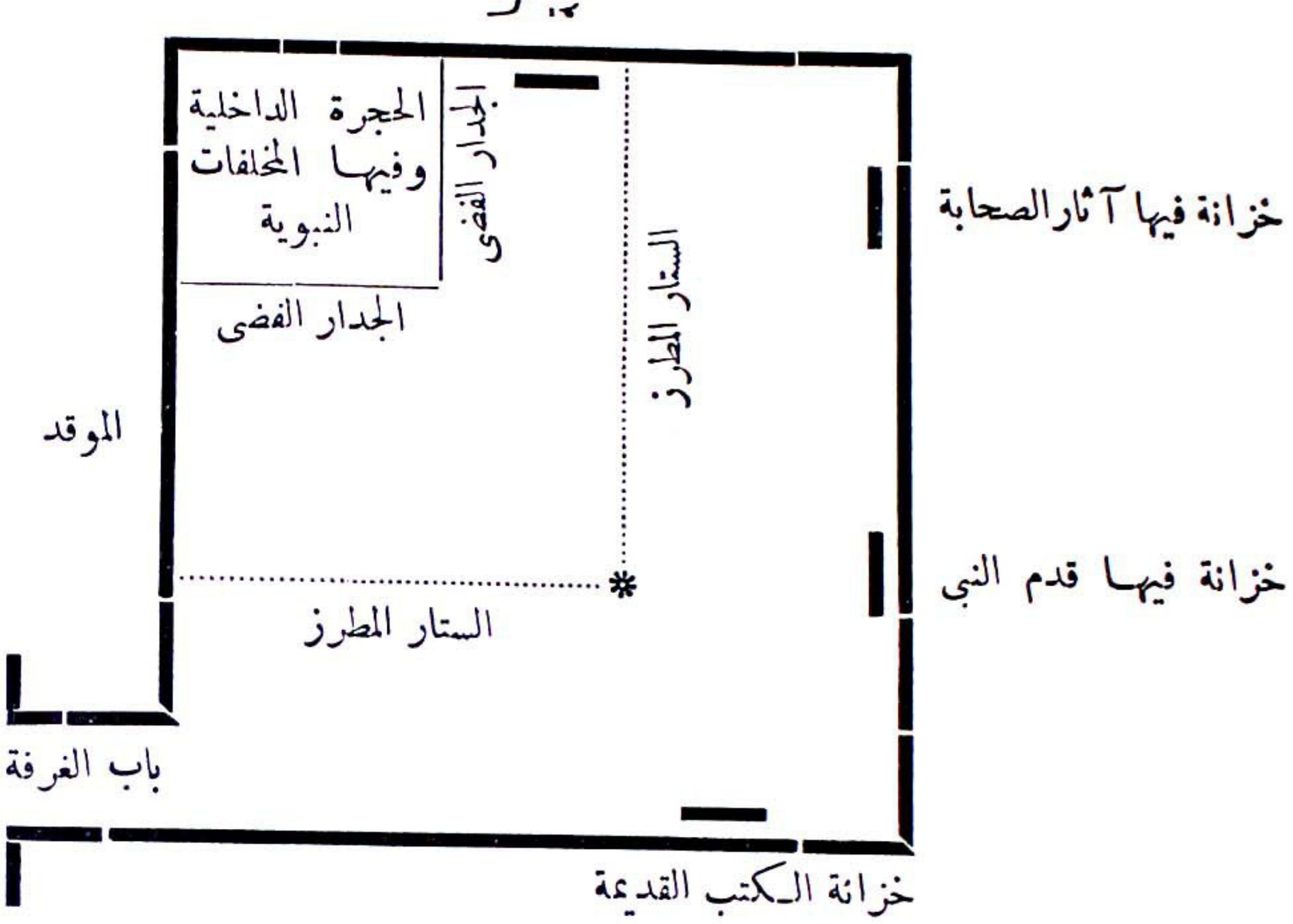

أما القضيب فهو ثالث علامات الخلافة ، واذا تولى الخليفة جاؤوه بالبردة والخاتم والقضيب . وظل الامر على ذلك فى بنى أمية وبنى العباس

Marfat.com

شارات الخلافة

وشارات الخلافة أيضا ثلاث : الخطبة ، والسكة ، والطراز

الخطبة

هى الدعاء للخلفاء على المنابر فى الصلاة ، واصلها أن الخلفاء كانوا يتولون امامة الصلاة بأنفسهم فكانوا يختمون فروض الصلاة بالدعاء للنبى والرضى عن الصحابة . فلما فتحوا البلاد وبعثوا اليها العمال ، صار الولاة يتولون امامة الصلاة فى ولايتهم ، فكانوا اذا صلوا ختموا الصلاة بالدعاء للخلفاء . وأول من فعل ذلك منهم عبد الله بن عباس لما تولى البصرة على عهد الامام على ، فانه وقف على منبر البصرة وقال : « اللهم انصر عليا على الحق» (١) (*) واتصل العمل على ذلك فيما بعد ، وصار الدعاء للخليفة فى بلاد علامة سلطانه عليها . ولما ضعف شأن الخلفاء فى بغداد كان المتغلبون من السلاطين أو الامراء يشاركون الخلفاء بذلك فيذكرون اسماءهم بعدهم . ثم صار السلاطين يستقلون فى الدعاء لانفسهم ، ولا يزال الدعاء على المنابر لاولى الامر الى اليوم

السكة والنقود

ومن شارات الخلافة ـ أو هى شأرات الملك على الاطلاق ـ الختم على النقود بطابع من حديد ينقش فيه اسم الخليفة أو السلطان ويقال لها السكة . وهى لازمة للدولة واليك خلاصة تاريخها :

نقود العرب قبل الاسلام

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر ، وهى الدراهم والدنانير . وكانت الدنانير على الاجمال نقودا ذهبية ، والدراهم نقودا فضية ، بما يقابل الجنيه والريال عندنا . وكانوا يعبرون عن الذهب بالعين ، وعن الفضة بالورق . وكان عندهم أيضا نقود نحاسية ، منها الحبة والدانق . ومرجع قيمة هذه النقود الى الوزن ، لان المراد بالدينار قطعة من الذهب وزنها مثقال عليه نقش الملك أو السلطان الذى ضربه . والمراد بالدرهم وزن درهم من الفضة ، ويسمونه الوافى . ويقدرون الدينار اليوم بثمانية وأربعين قرشا مصريا ، وكان الدينار عندهم عشرة دراهم ، وربما اختلفت قيمته الى

---

(١) ابن خلدون ٢٢٥ ج ١
(*) انظر طبعة بيروت ١٩٥٦ حـ ٣ ص ٤٨٣

Marfat.com

١٣ أو ١٥ درهما أو اكثر ، على حسب الاحوال . فكأن الدرهم يقابل أربعة قروش ونصف فى المتوسط

الدراهم

وقد ذكر صاحب الاحكام السلطانية ان الدراهم الفارسية كانت ثلاثةأوزان: منها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطا وهى الدراهم البغلية ، ودرهم وزنه اثنا عشر قيراطا ، ودرهم وزنه عشرة قراريط . وذكر غيره دراهم وزن الواحد منها ستة مثاقيل ويسمونها الدراهم السمرية الثقال ، ودراهم وزنها خمسة مثاقيل وهى السمرية الخفاف ، وكلها فارسية

الدينار الرومى

الدنانير

وكانت الدنانير عند العرب قبيل الاسلام صنفين : دنانير هرقلية أو رومية، ودنانير كسروية أو فارسية . وكذلك كانت الدراهم ، ولكن الغالب أن تكون معاملتهم بالدنانير الرومية والدراهم الفارسية . ولذلك كانت الهرقلية أعز عندهم وأرغب ، حتى ضربوا المثل بجمالها وزهوها

والدينار لفظ لاتينى ، والاصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوى عشرة آسات ، والآس درهم من دراهم الروم . والدينار صرب أولا لهده الغاية ، وهو مشتق عندهم من (Deni) أى عشرة ، وكان وزنه سبع الاوقية الرومانية أو جزء من مائة من الرطل (الليبرة) ، أى انهم كانوا يقسمون الليبرة من الفضة الى مائة دينار . ثم ضربوه من الذهب ، فصار عندهم ديناران : الواحد من الفضة ، والآخر من الذهب . وعنهم أخذ الفرس فضربوا نقودا مثلها وسموها باسمها (*)

الدينار الفارسى

(*) الدينار يوس Denarius يطلق فى الاصل على الدانق من الفضة عند اللاتين وهو عندهم جزء من مائة من الرطل Libra . والعملة الاساسية عندهم كانت الاوريوس Aureus اى الذهبى. ثم سكوا الدينار من الذهب، فارتفع سعره وسمى دينار يوس أوريوس Denarius aureus واختفى الدينار الفضى ولم يبق غير الدينار الذهبى ، وأصبح هو الذى يسمى عرفا بالدينار

وقد عرف العرب الدينار قبل الاسلام ، أخذوه عن السريان وهؤلاء عن البيزنطيين ، وكانت العملة الذهبية عندهم تسمى بالدينار يوس فقط . وعندما أصلح عبد الملك بن مروان السكة سنة ٧٧ ـ ٦٩٦ ثبت وزن الدينار فجعله يعادل بموازيننا الحالية ٤ر٢٥ جراما من الذهب وهذا يعادل واحدا على مائة من وزن الرطل ، وهذا ايضا هو وزن الصلدى Solidus البيزنطى

Marfat.com

النقود الاسلامية

وما زال العرب يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية ، حتى ظهر الاسلام وافتتحوا البلاد واسسوا الدولة الاسلامية فعمدوا الى انشاء تمدنهم ، فكان فى جملة عوامله السكة ، فضربوا الدراهم والدنانير اولا مشتركة بينهم وبين الروم والفرس ، منها قطعة ضربها خالد ابن الوليد فى طبرية فى السنة الخامسة عشرة للهجرة ، وهى على رسم الدنانير الرومية تماما بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك ، وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية Xaved وهذه الاحرف (Bou) ، ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالمانى ناقل هذا الرسم أنها مقتطعة من « أبو سليمان » كنية خالد بن الوليد (*)

نقود خالد بن الوليد

وهناك قطعة اخرى ضربت باسم معاوية ، ولكنها على مثال دينار من دنانير الفرس برسمه وشكله الا اسم معاوية عليه ، وقد نقلنا رسمه عن الدكتور مولر المشار اليه ايضا

نقود معاوية بن ابى سفيان

وذكر الدميرى فى كتاب « حياة الحيوان » ضربا من النقود يقال لها البغلية ، قال ان « راس البغل(**) » ضربها لعمر بن الخطاب بسكة كسروية عليها صورة الملك وتحت الكرسى مكتوب بالفارسية « نوش خور » أى كل هنيئا

وذكر المرحوم جودت (باشا) انه راى نقودا ضربها الامراء والولاة فى عهد الخلفاء الراشدين ، أقدمها ضرب سنة ٢٨ هـ فى قصبة هرتك طبرستان ، وعلى دائرها بالخط الكوفى « بسم الله ربى » ، ورأى نقدا مضروبا سنة ٣٨ هـ على دائرته هذه العبارة أيضا ، ونقدا ضرب سنة ٦١ هـ فى يزد على دائرته « عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين » بخط بهلوى . وقال المقريزى :

(*) انظر عن الدينار المادة التى كتبها زامباور فى دائرة المعارف الاسلامية ، والمراجع المعطاة هناك وخاصة .

E. von Bergmann: Die Nominale der Münzreform des Chalifen Abdelmelik (Sitz. Ber. phil. hist. Cl. d. Kais. Akad. der W. Wien 1876) pp. 239-286.

(**) « راس البغل » اسم لرجل يهودى يقال انه هو الذى ضرب الدراهم البغلية لعمر بن الخطاب ، ووزن الدرهم البغالى أربعة دوانق ، والدانق واحد من مائة من وزن الرطل وهو من الفضة

انظر : تقى الدين احمد بن على المقريزى : كتاب اغاثة الامة بكشف الغمة ، طبعة الدكتورين محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ٤٩ والتعليقات

Marfat.com

« واول من ضرب المعاملة فى الاسلام عمر بن الخطاب فى سنة ثمانى عشرة من الهجرة على نقش الكسروية وزاد فيها « الحمد لله محمد رسول الله » ، وفى بعضها « لا اله الا هو » وعلى جزء منها اسمه « عمـــر » . وعبد الله بن الزبير ضرب بمكة دراهم مستديرة ، وهو أول من ضرب هذه الدراهم ونقش بدائرها « عبد الله » وبأحد الوجهين « محمد رسول الله » وبالآخر « أمر الله بالوفاء والعدل » (*)

عبد الملك والنقود

على أن هذه المسكوكات لم تكن تعتبر رسمية فى الدول الاسلامية ، بل كانت اكثر معاملاتهم بالنقود الرومية والفارسية . فاتفق فى ايام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ ــ ٨٦ هـ) أن هذا الخليفة اراد تغيير الطراز من الرومية الى العربية كما سيجىء ، فشق ذلك على ملك الروم ، فبعث اليه يهدده بأن ينقش على دنانيره شتم النبى فعظم هذا الامر على عبد الملك ، فجمع اليه كبار المسلمين واستشارهم ، فأشار عليه أحدهم بمحمد الباقر أحد الأئمة الاثنى عشر من الشيعة وكان يقيم فى المدينة ، فلم يشأ عبد الملك ان يستنجد احد ائمة بنى هاشم ــ وهم مناظروه فى الملك ــ لكنه لم ير بدا من استقدامه ، فكتب الى عامله فى المدينة أن « اشخص الى محمد بن على بن الحسين مكرما ومتعه بمائة الف درهم لجهازه و ... ٣٠ لنفقته ، وارح عليه فى جهازه وجهاز من يخرج من أصحابه » . فلما قدم محمد الى دمشق استشاره عبد الملك فيما ينويه ملك الروم فى الاساءة بالاسلام ، فقال محمد : « لا يعظم هذا عليك . ادع هذه الساعة صناعا فيضربون بين يديك سككا للدراهم والدنانير ، وتجعل النقش عليها صورة التوحيد وذكر رسول الله (ص) أحدهما فى وجه الدرهم اوالدينار والآخر فى الوجه الثانى ، وتجعل فى مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذى يضرب فيه والسنة التى تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير ، وتعمد الى وزن ثلاثين درهما عددا ــ من الاصناف الثلاثة التى العشرة منها وزن عشرة مثاقيل، وعشرة منها وزن ستة مثاقيل ، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل ، فتكون اوزانها جميعا واحدا وعشرين مثقالا ــ فتجزئها من الثلاثين فتصير العــدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل ، وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل الى زيادة ولا نقصان ، فتضرب الدراهم على وزن عشرة مثاقيل ، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل » (**)

ففعل ذلك عبد الملك ، وبعث نقوده الى جميع بلدان الاسلام ، وتقــدم الى الناس فى التعامل بها ، وهــدد بقتل من يتعامل بغ يرهذه السكة من الدراهم

(*) انظر : المقريزى : شذور العقود فى ذكر النقود طبعة Tychsen فى Roslok سنة ١٧٩٧
(**) الدميرى : حياة الحيوان ، مادة بغل

Marfat.com

والدنانير وغيرها ، وان تبطل تلك وترد الى مواضع العمل حتى تعاد الى السكة الاسلامية

هذا ماقاله الدميرى ، ولكن ابن الاثير ينسب هذا الرأى الى خالد بن يزيد بن معاوية ، وغيره ينسبه الى غيره . وتسمى دنانير عبد الملك الدنانير الدمشقية . وأمر الحجاج عامله فى العراق أن يضرب الدنانير على ١٥ قيراطا من قراريط الدنانير ، ثم صار امراء العراق يضربون النقود لبنى امية فى الاكثر (*)

نقش النقود

ونقش نقود بنى أمية على أحد الوجهين فى الوسط « لا اله الا الله وحده لا شريك له » وحول ذلك « بسم الله ضرب هذا الدرهم فى بلد كذا سنة كذا » وفى الوجه الآخر بالوسط « الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » وحولها محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وكانت هذه الكتابة تنقش على الدينار والدرهم على السواء

نقود عبد الملك بن مروان

وأبطل المسلمون استخدام النقود الرومية والفارسية وغيرها من ذلك الحين . وأجود نقود بنى أمية الهبيرية التى ضربها لهم عمر بن هبيرة ، والخالدية نسبة الى خالد بن عبد الله البجلى ، واليوسفية التى ضربها يوسف بن عمر ، وكلهم من عمال العراق لبنى أمية . فلما أفضت الخلافة لبنى العباس لم يكن المنصور يقبل فى الخراج من نقود بنى أمية سواها (**)

نقود اسلامية صقلية

وللنقود الاسلامية تاريخ طويل لا محل له هنا . وفى كتابنا « تاريخ مصر الحديث » رسوم أكثر النقود الاسلامية وأسماء ضاربيها ، ولكننا نقول بالاجمال أن المسكوكات الاسلامية ضربت فى كل عواصم الاسلام وفى أشهر مدنها فى العراق والشام

(*) البلاذرى : فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥
(**) البلاذرى : فتوح البلدان ، نفس الصفحات الواردة فى التعليق السابق

Marfat.com

والاندلس وخراسان وصقلية والهند وغيرها ، وهى تختلف رسما وسعة ونصا باختلاف الدول والعصور

وكانت الكتابة على النقود تنقش بالحرف الكوفى ، ثم تحولت الى الحـرف النسخى الاعتيادى سنة ٦٢١ هـ فى أيام العزيز محمد بن صلاح الدين الايوبى بمصر

ويظهر أنهم لم يكونوا يذكرون اسم البلد الذى ضربت النقـود فيه الى أوائل القرن الثانى للهجرة . وكانوا اذا ذكروا تاريخ الضرب سبقوه بلفظ « السنة » ثم أبدلوها بلفظ « عام » ، وكثيرا ما كانوا يقولون شهور سنة كذا أو شهور عام كذا أو فى أيام دولة فلان . وكان يكتب التاريخ أولا بالحروف على حساب الجمل ثم كتب بالارقام ، واقدم ما عثروا عليه مؤرخا بالارقام سنة ٦١٤ هـ (*)

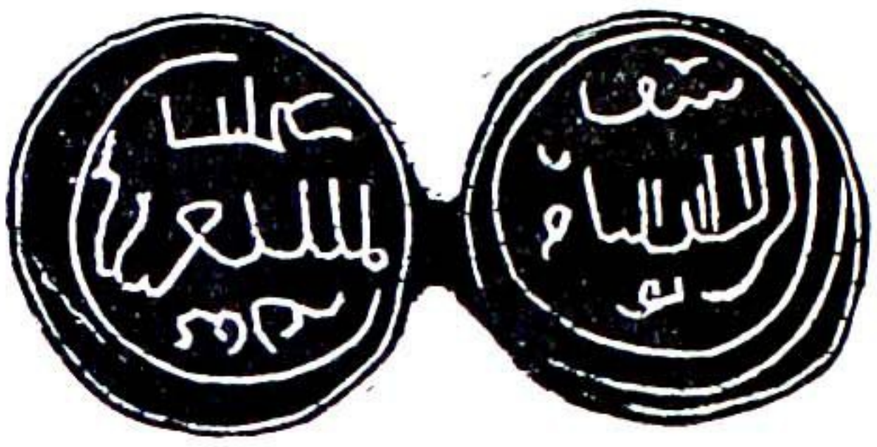

نقود العزيز بن صلاح الدين

دار الضرب

وكانت دار الضرب ضرورية للدولة كما نراها ضرورية فى هذه الايام ، اذ لا تخلو دولة من دول الارض المتمدنة من دار تضرب فيها النقود . وكان ذلك شأن الدول الاسلامية فى كل أدوارها ، ولم تكن تخلو عاصمة أو قصبة من دار للضرب، فى بغداد والقاهرة ودمشق والبصرة وقرطبة وغيرها شىء كثير . وكان لدار الضرب ضريبة على ما يضرب فيها من النقود يسمونها ثمن الحطب وأجرة الضراب ، ومقدار ذلك درهم عن كل مائة درهم أى واحد فى المائة ، وربمـا اختلفت هذه الضريبة باختلاف المدن ، فكان للدولة من ذلك دخل حسن

وأما مقدار ماكان يضرب فى الدولة من النقود فيختلف كثيرا ، ويتعذر تقديره لاختلاف أحوال السكة عندهم ، فقد يمر على الدولة أعوام وهى تتعامل بنقود دولة اخرى ولا دار للضرب عندها ، أو ربما كانت تضرب نقودا فى عاصمتها وتتعامل بنقود غيرها أيضا مما لا يمكن ضبطه ، ولكننا نأتى بما اتصل بنا من هذا القبيل على سبيل المثال . فقد ورد فى نفح الطيب للمقرى أن دار السكة فى الاندلس بلغ دخلها من ضرب الدراهم والدنانير على عهد بنى أمية فى القرن الرابع للهجرة ٢٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة وصرف الدينار ١٧ درهما . فاذا اعتبرنا هذا الدخل باعتبار واحد فى المائة عن المـال المضروب ، بلغ مقـدار ما كان يضرب فى الاندلس وحدها من ممالك الاسلام ٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دينـار

(*) وجدت بعد ذلك فى مسكوكات ترجع الى ما قبل ذلك بكثير

Marfat.com

أو نحو عشرة ملايين جنيه ، وذلك نحو ضعفى ماكانت تضربه انجلترا قبل الحرب العالمية الاولى وهى فى ابان قوتها الاقتصادية وثبات عملتها . فاذا أضيف اليها ماكان يضرب فى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية ، وفى بغداد عاصمة الدولة العباسية ، وفى غيرها من المدن الاسلامية يومئذ ، كان مبلغ ذلك شيئا كثيرا

وكانت صناعة ضرب النقود فى تلك العصور لا تزال فى أبسط أحوالها ،وهى عبارة عن طابع من حديد تنقش فيه الكلمات التى يراد ضربها على النقود مقلوبة ، ثم يقسمون الذهب أو الفضة أجزاء بوزن الدنانير أو الدراهم ، ويضعون الطابع فوق تلك القطعة ويضربون عليها بمطرقة ثقيلة حتى تتأثر وتظهر الكتابة عليها . وكانت هذه الحديدة تسمى أولا « السكة » ، ثم نقل هذا المعنى الى أثرها فى النقود وهى النقوش ، ثم نقل الى القيام على ذلك العمل والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة ، فصار علما عليها . ويدخل فى دار الضرب كثير من الوظائف ، وفيها عدد كبير من العمال ، من الوازن والضارب وصاحب العيار وغيرهم

الطراز

ومن شارات الخلافة أيضا الطراز ، وهو قديم فى الدول من عهد الفرس والروم . وذلك أن يرسم الملوك والسلاطين أسماءهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير او الديباج او الابريسم ، كأنها كتابة خطت فى نسيج الثوب لحاما وسدى بخيط من الذهب ، أو بما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، ما يحكمه الصياغ بحيث تصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، للدلالة على أن لابسها من أهل الدولة من السلطان فما دونه ، كما هى الحال فى لباس أجناد هذه الأيام ، فترى على بعضهم شرائط القصب والازرار الصفراء ونحوها من علامات الرتب ، كرسوم التيجان والسيوف والنجوم ونحوها

وكان ملوك الفرس والروم يجعلون رسم ذلك الطراز بصور ملوكهم واشكالهم، أو صور اخرى تشير الى الملك . فلما استقر المسلمون على عرش الاكاسرة والقياصرة وعظمت دولتهم أحبوا الاقتداء بهم ، ولم يستحسنوا اتخاذ الصور فاعتاضوا بكتابة أسمائهم وكلمات اخرى تجرى مجرى الفأل أو الدعاء

الطراز العربى

وأول من نقل الطراز الى العربية من ملوك المسلمين عبد الملك بن مروان الاموى ، لان الخلفاء الراشدين ظلوا على سذاجة البداوة كما تقدم . فلما

افضت الخلافة الى بنى أمية وخالطوا الروم ، وساروا على خطـواتهم فى اكثر شؤون دولتهم . وكان فى جملة ذلك الطراز على أثوابهم وسـتور منازلهم وقراطيسهم (والقراطيس برد مصرية كانوا يحملون بها الآنية والثياب) فاتخذ المسلمون الطراز كما كان عند الروم والكتابة عليه بالرومية ، وظلوا على ذلك أيام عبد الملك بن مروان فجعله فى العربية ، وبدأ بالقراطيس وكانت تنسج بمصر ، وأكثر من فى مصر لا يزال على النصرانية ، فكانوا يطرزونها بالروميـة وطرازها : « بسم الاب والابن والروح القدس » . فظهر الاسلام وفتحت مصر والشام والطراز باق على ماكان عليه . وكيفية تنبه عبد الملك لذلك ، انه كان يوما فى مجلسه فمر به قرطاس فرأى عليه الطراز بالرومية ، فلاح لهأن يستطلع فحواه فأمر أن يترجم بالعربية ، فلما وقف على الترجمة أكبر أمرها وقال : « ما أغلظ هذا فى امر الدين والاسلام ، ان يكون طراز القراطيس وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل مصر تدور فى الآفاق والبلاد وقد طرزت على هذه الصورة » . ثم كتب الى أخيه عبد العزيز بن مروان عامله على مصر بإبطال ذلك الطراز ، على ماكان يطرز به من ثوب وقرطاس وغير ذلك ، وأن يستبدلوا تلك العبارة بصورة التوحيد : « لا اله الا هو » ففعل . وظل هذا طراز القراطيس فى سائر أيام الدول الاسلامية ، ولم يغير شىء من جوهره . وكتب عبد الملك الى عمال الآفاق جميعا بابطال مافى أعمالهم من القـراطيس المطرزة بطراز الروم ، ومعاقبة من يخالف ذلك بالضرب الوجيع والحبس الطويل

فلما حملت هذه القراطيس الى بلاد الروم ، وعلم الامبراطور بخبرها وعلم ترجمة مافيها أنكره واستشاط غيظا ، فكتب الى عبد الملك : « ان عمـل القراطيس بمصر وسائر مايطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطرازهم ، فان كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت ، وان كنت قد أصبت فقـد أخطأوا ، فاختر احدى الحالتين » وبعث اليه بهدية يسترضيه بها للرجوع الى الطراز . فرد عبد الملك الهدية وأخبر الرسول أن لارد عنده ، فأعاد اليه أضعافها وطلب الجواب ، فلما لم يرد عليه جوابا غضب الامبراطور وبعث يهدد بنقش سب النبى على النقود ، فكان ذلك داعيا الى تنبه عبد الملك الى ضرب النقود الاسلامية الحقيقية كما تقدم

ذلك ما كان من أمر القراطيس ، والظاهر أن المسلمين تنبهوا للطراز على الاثواب من ذلك الحين ، فجعلوا على ملابس أجنادهم ورجال دولتهم شـارة الخلافة ، وهى اسم الخليفة أو لقبه أو نحو ذلك . وبقاء هذا الطراز على شارات الدولة وبنودها وكسائها يدل على بقاء سلطانها ، فاذا أراد أحـد

Marfat.com

الولاة الخروج من طاعة الخليفة قطع الخطبة له واسقط اسمه من الطراز ، كما فعل المأمون لما بلغه وهو على خراسان ان أخاه الامين نكث بيعته

دور الطراز أو الكسوة

وأنشأ الخلفاء للطراز دورا فى قصورهم تسمى دور الطراز ، لنسج أثوابهم وعليها تلك الشارة . وكان القائم على النظر فيها يسمى « صاحب الطراز » ، وهو ينظر فى أمور الصياغ والآلة والحاكة فيها ويجرى عليهم أرزاقهم ويشارف أعمالهم . وبلغت تلك الدور أفخم احوالها فى ايام الدولتين الاموية والعباسية ، وكانوا يقلدون أعمال هذه الدور لخاصة دولتهم وثقات مواليهم . وكذلك كانت الحال فى دولة بنى أمية بالاندلس ، وفى الدولة الفاطمية بمصر ، ومن كان على عهدهم من ملوك العجم

ومن هذا القبيل ماكان يسمى فى الدولة الفاطمية بدار الكسوة ، وكان يفصل فيها جميع أنواع الثياب والبز وقيمة ماكان يخرج منها من الكسى ٦٠٠ ٠٠٠ دينار فى العام ، وكانت خلعهم على الامراء الثياب الديبقى والعمائم بالطـــراز الذهب . وكانت قيمة طراز الذهب والعمامة خمسمائة دينار . وكانوا يفرقون الكسوات مرتين فى العام ، مرة لتفريق كسوة الصيف ومرة لتفريق كســـوة الشتاء ، على جميع أهل الدولة من الخدم والحواشى من العمامة الى السراويل . وقدروا عدد القطع التى صدرت منها سنة ٥١٦ هـ فبلغت ١٤٣٠٥ قطع . وفى المقريزى فصل خاص فى تعداد ضروب الالبسة التى كانت تفـرق فى تلك الدار

وما زالت دور الطراز فى الدول الاسلامية على نحو ما تقدم ، حتى ضـاق نطاق تلك الدولة وضعف امرها وتعددت فروعها ، فتعطلت هـذه الوظيفة من اكثرها . ولـكن الطراز نفسه لم يبطل فى ملابسهم ، على انهم لم يعودوا يصنعونه فى دورهم ، بل صاروا ينسجون ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير أو من الذهب الخالص ، ويسمونه المزركش ويرسم اسم السلطان أو الامير عليه . كذلك فعل السلاطين المماليك بمصر . ويشبهه فى الدولة العثمانية رسم الطغراء العثمانية ، والشرائط المزركشة على ألبسة الضـباط وغيرهم من رجال الدولة ، والعلامات الاخرى فى الدول الاخرى

وأما الهلال فى الدولة العثمانية فلم نقف على مايقابله فى دول الخلفاء سوى ماكان يؤخذ من ألوان الرايات عندهم ، واختصاص كل لون بدولة كما سيجىء . والظاهر أنهم كانوا يطرزون أسماء الخلفاء أو القابهم على راياتهم واسلحتهم ، كما كانوا يضربونها على نقودهم

Marfat.com

اسم السلطان بيبرس

فقد ذكر ابن خلكان فى ترجمة العزيز بالله الفاطمى ، أن مملكته اتسعت وفتحت له حمص وحماه وشيزر وحلب ، وخطب له المقلدبن المسيب صاحب الموصل بالموصل وضرب اسمه على السكة والبنود . وفى كلام أبى الفداء عن استيلاء بجكم على بغداد أنه اتصل بخدمة ابن رايق وانتسب اليه حتى كتب على رايته «الرايقى» ، فالظاهر أن تطريز الاسم على الرايات والبنود بعد أن كان خاصا بالخلفاء فى أوائل الاسلام شاع فى أواخر الدولة بين الامراء وكل ذى سلطان (*)

وكانوا يعدون من قبيل شارات الملك أيضا السرير والمنبر والتخت والكرسى، وذكروا من شارات الخلافة الآلة وهى الالوية (وهى الاعلام) والرايات والموسيقى، سيأتى الكلام عليها فى باب الجند

(*) انظر عن الطراز المادة المستفيضة التى كتبها Adolf Grohmann فى دائرة المعارف الاسلامية والمراجع الوافية المعطاة هناك

Marfat.com

ولايـــة الأعمـال

الولايات قبل الاسلام

يراد بالولاية الامارة على البلاد ، فيولى السلطان أو الملك من يقوم مقامه فى حكومة الولايات ، وهى الاعمال فى اصطلاحهم . وهذا النوع من الحكومة قديم. وكانت الشام لما فتحها المسلمون واحدة من ولايات الروم يسمونها ولاية الشرق ، وتقسم الى ١١ اقليما تحت كل اقليم عدة بلاد ولكل اقليم قصبة . وهاك أسماؤها وأسماء قصباتها وعدد المدن التابعة لها :

أسماء الاقاليم	عدد بلادها	اسم قصبتها
١ سوريا الاولى	٩	انطاكية
٢ « الثانية	٧	حماه
٣ « الثالثة	١٣	منبج
٤ فينيقية الاولى أو البحرية	١٢	صور
٥ فينيقية الثانية	١٣	دمشق
٦ بلادالعرب(*)	١٤	بصرى
٧ الجزيرةأوبين النهرين	١٣	دياربكر
٨ اسروانا	١٢	اورفا(**)
٩ فلسطين الاولى		قيسارية
١٠ « الثانية	٦	بيسان
١١ « الثالثة		بطرا

وكان لكل اقليم حاكم أوعامل ، والغالبأن يكون بطريقا ، والبطريق patricius عند الروم غير البطريرك ، وانما هو لقب جماعة من شرفاء المملكة الرومانية نشأوا بنشوء مدينة رومية ، وكان لهم نفوذ عظيم فى دولة الرومان . وكانوا بعد انقسام الدولة الرومانية قدانحط شأنهم ولم يعد لهمعمل فىالحكومة، فلما امتدت تلك المملكة الى افريقية وسائر المشرق ، رأت الحكومة ان هذه الولايات البعيدة تحتاج الى من يتولاها ويكون له هيبة وسطوة ، فجعلوا يولونهم الحكومات فى تلك المستعمرات ، وفى جملتها الشام ومصر وما يليها (***)

(*) يراد بها بادية الشام ، وتسمى ارابيا Arabia

(**) هذا الاقليم يسمى Seriana وعاصمته Oraba وقد راجعت ما أورده المؤلف عن التقسيم الادارى لسوريا أيام البيزنطيين الى :

Atlas historique. Le Moyen-Age par J. Calmette, R. Grousset et J. J. Gruber
Paris 1936. Planche II

(***) هذا التفسير لتطور مركز البطارقة طريف فى ذاته، وان كنا لا نجد ما يؤيده فيما بين ايدينا من المراجع ، والحقيقة أن البطريق patricius وجمعه patricci تسمية تطلق على طبقة من سكان روما يقال ان اصلهم يختلف عن اصل بقية سكانها المسمين الشعب plebs ، بل يقال ان البطارقة هم اصل سكان روما وانهم فرع من السابيين Sabini ثم وفدت عليهم جماعات البليبيين من اصول شتى وموارد مختلفة ، ولهذا كان البطارقة هم النبلاء والاشراف فى حين ان البليبيين كانوا العامة . وعلى أى حال ، فمن الثابت ان البطارقة كانوا يقبضون على زمام الحكم اول الامر فى البلد ، ومنهم كان ينتخب القناصل اى حكام روما واعضاء السناتو ، مجلس الشيوخ . ثم بدأ الصراع بين البطارقة والبليبيين ،

Marfat.com

فكان على كل اقليم من اقاليم الشام حاكم يقيم فى قصبته ومعه الجند فى القلاع ، وكان على كل من هذه الاقاليم حاكم عام يقيم فى انطاكية ، ولهذا الحاكم أن يولى ويعزل من يشاء من حكام الاقاليم . وهو يتولى جباية الخراج والانفاق على الجند وسائر أعمال الولاية . وكانت مصر أيضا على نحو هذا النظام من حيث الانقسام الى أقاليم وبلاد ، وحاكمها العام كان يقيم فى الاسكندرية (*)

وكانت العراق وبلاد فارس هكذا أيضا ، وربما كان ولاتها أكثر تقيدا من ولاة الشام ومصر لقرب دار الملك منهم

الولايات فى الاسلام

فلما ظهر الاسلام ونهض المسلمون للفتح ، كانوا اذا أرسلوا قائدا الى فتح بلد ولوه عليه قبل خروجه لفتحه . أو شرطوا عليه اذا فتحه فهو أمير عليه . وكان ذلك شأنهم من أيام النبى ، فانه أرسل فى السنة الثامنة للهجرة أبا زيد الانصارى وعمرو بن العاص ومعهما كتاب منه يدعو الناس الى الاسلام وقال لهما : « ان أجاب القوم الى شهادة الحق وأطاعوا الله ورسوله فعمرو الامير وأبو زيد على الصلاة وأخذ الاسلام على الناس وتعليمهم القرآن والسنن » . وكان كذلك (١)

فلما تولى أبو بكر وبعث البعوث لفتح الشام ، كان اذا عقد لاحدهم لواء على بلد او اقليم ولاه قبل ذهابه لفتحه . هكذا فعل فى اول بعث بعثه وولى عليه ثلاثة من كبار قواد الدولة اذ ذاك ، فعقد لواء لعمرو بن العاص وأمره أن يسلك طريق ايلة (**) عامدا الى فلسطين ، وعقد لواء آخر ليزيد بن أبى سفيان وأمره أن يسلك طريق تبوك الى دمشق ، وعقد لشرحبيل بن حسنة على أن يسير فى طريق تبوك ايضا الى الاردن . وولى كل واحد منهم البلد

وهو صراع طويل انتهى بان كسب الشعب معظم حقوق النبلاء ، وازيلت الحواجز الاجتماعية التى تفصل احدى الطبقتين عن الاخرى ، وحصل الشعب على حق انتخاب ممثلين له يحميان حقوقه ، يسمى كل منهما تريبيون

وكان العرف الرومانى يقضى بأن يتولى حكومة الولايات القناصل السابقون ، والقناصل من النبلاء أى البطارقة ، فكل حاكم اقليم على هذا الاعتبار بطريق . وقد ثبت ذلك دقلديانوس ، عندما اصلح النظام العام للدولة خلال النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى ، وبمقتضى ذلك الاصلاح اصبح حاكم الاقليم يسمى بطريقا ، وجرى الامر على ذلك فى الدولة البيزنطية ايضا ، وكلام المؤلف منصب عليها هنا ، اما اللقب الرسمى لحاكم الولاية عندالبيزنطيين فكان فيكاريوس Vicarius والولاية نفسها تسمى ديوسيسيس Diocisis وكان هناك حكام عامون كبار يسمى الواحد منهم مديرا Praefectus

(*) كان لمصر مركز خاص فى التنظيم العام للدولة الرومانية والدولة البيزنطية بعد ذلك، فبينما كان حاكم غيرها يلقب بلقب فيكاريوس (انظر التعليق السابق) كان حاكمها يلقب بالمدير الاغسطى Praefectus Augustoli

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، طبعة ليدن ، ص ٧٦

(**) هى التى تسمى ايلاث اليوم Elath فى اقصى الطرف الشمالى لخليج العقبة ، وتسمى ايضا ام رشرش

الذى هو سائر لفتحه وقال لهم : « اذا كان بكم قتال فأميركم الذى تكونون فى عمله »

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة ولى ابا عبيدة بن الجراح أمر الشام كله وامرة الامراء فى الحرب والسلم ، فأشبه عمله هذا ماكانت عليه الشام قبل فتحها ، وهى أن يكون على كل اقليم عامل ، وعلى عمال الاقاليم وال عام كما رأيت . ولكن حاكم الروم العام كان يقيم فى انطاكية ، فاختار المسلمون دمشق بدلا منها لبعدها عن البحر وقربها من بلاد العرب ، عملا برغبة عمر بن الخطاب أن لا يقيم المسلمون فى مكان يحول بينه وبينهم ماء كما تقدم

الاحتلال العسكرى

وكانت ولاية الاعمال فى بادىء الرأى أشبه بالاحتلال العسكرى منه بالتملك. وكان العمال ، أو الولاة ، عبارة عن قواد الجند المقيم بضواحى البلاد المفتوحة بما يعبرون عنه بالرابطة أو الحامية . وكانت الجنود الاسلامية تنقسم الى قوات تقيم فى قواعد عسكرية بأماكن أقرب الى طريق الصحراء منها الى السواحل للاسباب التى قدمناها

وكانت كل قاعدة عسكرية تسمى جندا ، فيقال جند دمشق وجند قنسرين وجند الاردن ، وكان سلطانها يشمل زماما واسعا يعادل زمام الولاية الرومانية أو البيزنطية التى تقع فيها القاعدة ، ومن هنا فقد أطلق على هذه الولايات التى يحكمها قائد قاعدة عسكرية : الجند ، فالجند على هذا الاعتبار هى الولاية العسكرية ، وكانت أكثر ما تكون على الحدود .

فكانت عساكر الشام أربعة اجناد تقيم فى دمشق وحمص والاردن وفلسطين ومنها تسمية هذه الاقاليم بالاجناد . وقوات العراق كانت تقيم فى الكوفة والبصرة . وقوات مصر فى الفسطاط وضواحى الاسكندرية . ولم يكونوا يسكنون القرى ولا المدن ولايختلطون بالاهلين اول الامر ، وقد منعهم الخليفة عمر بن الخطاب من اتخاذ الزرع ، وشدد عليهم فى ذلك ، فكانوا يقيمون فى معسكراتهم الى زمن الربيع ، فيسرحون خيولهم بالمرعى فى القرى يسوقها الاتباع ومعهم طوائف من السادات . وكانوا كثيرى العناية بتربية خيولهم وأسمائها ، ومن أقوال عمرو بن العاص لجنده فى مصر : « لا أعلمن ما اتى رجلا قد اسمن جسمه واهزل فرسه ، واعلموا انى معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه من غير علة حططت من فريضته قدر ذلك »

انتشار الاسلام فى البلاد المفتوحة

وكان عمرو بن العاص اذا جاء الربيع كتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم (*) الى

(*) اى خصص لكل قوم ناحية يربعون فيها خيولهم وجمالهم

Marfat.com

حيث أحبوا ، فتتفرق العرب فى القرى على حسب راياتهم وقبائلهم،وخصوصا فى منوف وسمنود واهناس وطحا . وكانت قرى مصر كلها فى جميع الاقاليم يسكنها القبط والروم (*) ، ولم ينتشر الاسلام فى قرى مصر الابعد المائة الاولى من تاريخ الهجرة ، ثم تضاعف فى اواسط المائة الثانية . ولم يقووا الا فى المائة الثالثة ــ يؤيد ذلك أن المسلمين لم ينشئوا فى القرى مساجد قبل ذلك الحين ، وان القبط كانوا اذا انتقضوا اتعبوا المسلمين ولايهون على هؤلاء اخضاعهم . وما زالوا فى ذلك حتى أوقع المأمون بهم سنة ٢١٦ هـ وجعل الاسلام ينتشر فى القرى

وقس على ذلك حال الاندلس لما فتحها المسلمون سنة ٩٢ هـ ، فانهم أقروا أهلها على ماكانوا عليه اداريا وسياسيا ودينيا ، وتركوا لهم أعمال الحكومة وادارة شؤونها ، وانما ابقوا لانفسهم الرئاسة العامة وقيادة الجند . هكذا كانت حال الاعمال الاسلامية فى أوائل الاسلام ، الا ما قرب منها من مركز الخلافة كالشام فى أيام بنى امية ، والعراق فى أيام بنى العباس

فكان العمال فى عهد الخلفاء الراشدين قواد الجند الذين افتتحوا تلك الاعمال، وواجباتهم الرئيسية مراقبة سير الاحكام فى البلاد التى افتتحوها واقامة الصلاة واقتضاء الخراج . وقد رأيت فى غير هذا المكان أن أعمال الحكومة فى البلاد المفتوحة فى مصر والشام والعراق ظلت سائرة على ماكانت عليه قبل الفتح ، الى أواسط أيام بنى أمية . وبدأت ولايات الاعمال تتحول الى حكومات محلية من اواخر دولة الراشدين ، حتى كانت ايام عبد الملك بن مروان ، فأتم السيطرة الاسلامية بنقل الدواوين الى اللغة العربية ، واخرج منها من لم يعرف لغة العرب فاجتهد أهل البلاد فى تعلم اللغة العربية حتى يحتفظوا بهذه الوظائف ، وبذلك كان هذا الاجراء الذى قام به عبد الملك بن مروان من أهم ما قام به خلفاء الاسلام ، فقد كان له أثر حاسم فى تعريب ادارة الدولة الاسلامية وفى نشر اللغة العربية ، ثم تنوعت الولايات وصارت درجات متفاوتة،على ما اقتضاه الزمان والمكان ، ولكنها ترجع الى امارتين : امارة عامة ، وامارة خاصة . والامارة العامة ضربان : امارة استكفاء ، وامارة استيلاء

الامارة العامة

١ ــ امارة الاستكفاء

فامارة الاستكفاء أو امارة التفويض ، هى التى كان يعقدها الخليفة لمن يختاره من رجاله الاكفاء ، فيفوض اليه امارة الاقليم على جميع أهله ، ويجعله

(*) لم يكن الروم يقيمون فى ارياف مصر الا فى مواضع معينة محدودة ، غالبها غربى الدلتا وبعض مواضع الصعيد الاوسط

عام النظر فى كل اموره . ويشتمل نظره فيه على سبعة امور :

١ ــ تدبير الجيوش ، وترتيبهم فى النواحى ، وتقدير ارزاقهم (الا اذا كان الخليفة قدرها)

٢ ــ النظر فى الاحكام ، وتقليد القضاة والحكام

٣ ــ جباية الخراج ، وقبض الصدقات ، وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما

٤ ــ حماية الدين والدفاع عن الحريم

٥ ــ اقامة حدود الشرع

٦ ــ الامامة فى الصلوات

٧ ــ تيسير الحج

واذا كان الاقليم المشار اليه متاخما لعدو ، ترتب على العامل أمر ثامن هو جهاد ذلك العدو ، وقسمة الغنائم فى المقاتلة ، واخذ خمسها لاهل الخمس ، كما هو مفصل فى باب الجند والمال

وكان أكبر ولايات الاسلام على هذه الصورة ، وخصوصا لما بعد منها عن مركز الخلافة ، كالعراق فى بنى امية ومصر والشام فى بنى العباس وخراسان فى كليهما

عمال الاستكفاء فى زمن بنى امية

ومن عمال الاستكفاء فى ايام بنى امية فى العراق زياد بن ابيه ، وابنه عبيد الله ، وبشر بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ويزيد بن المهلب ، ومسلمة ابن عبد الملك ، وعمر بن هبيرة ، وخالد بن عبيد الله القسرى ، ويوسف بن عمر الثقفى ، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عمر بن هبيرة . وكانت تسمى امارة كل منهم « امارة العراقين » لاشتمالها على الكوفة والبصرة

فكان كل أمير من هؤلاء يتصرف فى امارته تصرف الملوك المستقلين بالكيفية التى قدمناها ، فيعين العمال على البلاد تحت امارته وسائر عمال حكومته ، ويجبى الاموال فينفق منها على جنده وفى ماتقتضيه العمارة من اصلاح الجسور وحفر الترع ونحو ذلك ، ويرسل مايبقى عنده الى بيت المال فى الشام

وكانت الحال نحو ذلك فى مصر ، فقد كان عاملها من عمال الاستكفاء من عهد عمرو بن العاص فما بعده . وربما كان عامل مصر اكثر استقلالا من سواه ، وخصوصا عمرو بن العاص لما تولاها المرة الاخيرة بأمر معاوية بعد ان نصره على

Marfat.com

على . وربما فعل معاوية مثل ذلك بزياد بن أبيه لما ولاه خراسان ، وبالمغيرة ابن شعبة لما ولاه الكوفة رغبة منه فى ارضاء اطماع هؤلاء الدهاة كما تقدم (*)

عمال الاستكفاء فى أيام العباسيين

ولما أفضت الخلافة الى بنى العباس ساروا على نحو هذه الخطة ، لكنهم قلما كانوا يجعلون أمر العراق مفوضا للعمال ، لقربه من مركز الخلافة . على أنهم كانوا يفوضون العمال فى الاقاليم البعيدة ، كالشام ومصر وخراسان وسائر ما وراء العراق نحو الشرق الى أقصى بلاد الترك وما وراء النهر . ولما تمكن البرامكة من الدولة وغلب نفوذهم فيها ، ولى الرشيد أحدهم ــ جعفر بن يحيى ــ الغرب كله ، من الانبار الى افريقية ، وقلد أخاه ــ الفضل بن يحيى ــ الشرق كله ، من شروان الى أقصى بلاد الترك سنة ١٧٦ هـ ، فأقام جعفر بمصر ، وأرسل العمال بأمره الى الشام وافريقيا وغيرهما . وأما الفضل فانه سار الى عمله حتى وصل الى خراسان ، فأصلح وبدل واستخلف عمالا ، وعاد الى العراق

وكثيرا ما كان الخلفاء يفوضون الى بعض خاصتهم عملا من الاعمال ، فيرسل هذا من يقوم مقامه فى ذلك العمل ، ويبقى هو فى بلاد الخليفة . وأكثر ماكان يقع ذلك فى الدولة العباسية ، فى عصرها الثانى

وكانت امارة الاستكفاء هذه من جملة الاسباب التى ساعدت على تشعب المملكة العباسية الى دول مستقلة ، لان الوالى كان يقيم فى ولايته كأنه ملك مستقل ، الا فيما يتعلق بارسال فضلات الخراج الى الخليفة ، والخطبة له ، وضرب النقود باسمه ، وأمور أخرى لاتضغط على ارادته . فاذا كان الوالى ذا دهاء وآنس من الخليفة ضعفا ، جمع أهل الاقليم على ولائه واستقل بعمله ، اما استقلالا تاما واما على مال معين يبعث به الى الخليفة ببغداد ، أوعلى شروط اخرى . وعلى نحو هذا النمط استقل الاغالبة فى افريقية ، وبنو طاهر فى خراسان ، وابن طولون فى مصر ، ولكن تلك الأقاليم ظلت تعد امارات عباسية من الناحية النظرية على الاقل

(*) واضح ان امارة الاستكفاء كانت امتيازا يختص به الخليفة الرجال ذوى القدرة العظيمة او اصحاب الفضل الكبير على الدولة . فكان الخليفة يولى الواحد منهم ولاية كاملة على ناحية بعينها ، او على بضع نواح ، كما كان الحال مع الحجاج وزياد بن ابيه ، اذ كانت تتبعهما ولايات أخرى مما يلى العراق شرقا . أى ان الخليفة كان « يستكفى » بهم عمن عداهم ، وكانت لهم السلطات كلها على ما بأيديهم ، فهم مسئولون عن الاموال والقضاء وامامة الناس ، فى حين ان الامير او الوالى العادى كان يؤمر على الجند فقط ، اى يعتبر قائدا عسكريا ، ويعين الخليفة معه عاملا على الاموال يسمى عامل الخراج ، وقاضيا يشرف على سير العدالة ، وقد تجمع لبعض الامراء العاديين امرة الجيوش ، والعمالة على الخراج ، غير انه عندما ضعف امر الدولة خلال العصر العباسى الثانى اصبح الامراء كلهم امراء استكفاء ، وكان هذا تمهيدا لاستقلالهم بنواحيهم كما يقول المؤلف

٢ ـ امارة الاستيلاء

ويراد بامارة الاستيلاءان يعقد الخليفةلامير على اقليم اضطرارا، بعد ان يستولى الامير على ذلك الاقليم بالقوة . فكان الخليفة يثبته فى امارته، ويفوض اليه تدبير سياسته فيكون الامير باستيلائه مستبدا بالسياسة والتدبير، ويكون الخليفة باذنه منفذا لاحكام الدين . ولهذه الامارة شروط تفرض على الامير فى مقابل ذلك وهى :

١ ـ حفظ منصب الامامة فى خلافة النبوة وتدبير أمور الملة
٢ ـ الزام الناس بالتزام اشراط العقيدة
٣ ـ جمع الكلمة على الالفة والتناصر ليكون للمسلمين يد على من سواهم
٤ ـ أن تكون عقود الولايات الدينية جائزة والاحكام فيها نافذة
٥ ـ أن يكون استيفاء الاموال الشرعية بحق تبرأ به ذمة مؤديها
٦ ـ أن تكون الحدود مستوفاة بحق وقائمة على مستحق
٧ ـ أن يهتم الامير فى حفظ الدين

ولامير الاستيلاء أن يستخدم الوزراء وغيرهم . ومن هذه الامارات ما انتهت اليه الدولة العباسية من التشعب وظهور الدول الصغرى فيها ، كالدولة الحمدانية والبويهية والغزنوية والاخشيدية وغيرها ، وكلها كانت امارات مستقلة تدعو للخليفة على المنابر ، وتضرب السكة باسمه ، وترسل اليه مالا معينا فى السنة يتم الاتفاق عليه ، وهو الذى يثبت امراءها ، ويكون الحكم متسلسلا فى أعقابهم

الامارة الخاصة

وأما الامارة الخاصة ، فهى أن يكون الامير فيها مقصورا على تدبير الجيش، وسياسة الرعية ، وحماية البيضة ، والدفاع عن الحريم ضمن حدود معينة. وليس له أن يتعرض للقضاء أو الاحكام أو لجباية الخراج أو الصدقات فى شىء ، حتى الأمامة فى الصلاة ، فربما كان القاضى اولى بها منه . والخليفة يعين لهذه الامارة قضاة وجباة من عنده ، فالجباة يجمعون الخراج لحساب بيت المال المركزى ، وهم يؤدون أعطيات الجند وغيرها مما يجمعونه . والامارات الخاصة كانت قليلة فى ابان الدولة العباسية

رواتب العمال

أما رواتب العمال فقد قدرها عمر بن الخطاب ، بعد تدوين الدواوين وتعيين ارزاق الجند . واول ما فعل ذلك لما وجه عمار بن ياسر الى الكوفة وولاه صلاتها وجيوشها ، فجعل له ستمائة درهم فى الشهر . وعين الرواتب لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يقوم بالامر معه . فبعث عثمان بن حنيف

Marfat.com

على مساحة الارض ، وعبد الله بن مسعود على قضـــاء الـكوفة ، وشريحا على قضاء البصرة . وأجرى على عثمان ربع شاة وخمسة دراهم كل يوم ، وجعل عطاءه خمسة آلاف درهم فى السنة . وأجرى على عبدالله مائة درهم فى الشهر وربع شاة فى اليوم . واجرى على شريح مائة درهم وعشرة اجربة فى الشهر . فترى مما تقدم انه فضل عمار بن ياسر عليهم اجمعين ، لانه كان على الصلاة والجند وهى الامارة يومئذ . ولمـا ولى عمر معاوية بن أبى سفيان على الشام ، جعل له ألف درهم كل سنة . وكان عمر يشـــدد فى محاســبة العمال ، فاذا رآهم ربحوا مالا من شىء قاسمهم وأخذ النصـــف لبيت المـــال

وأما بنو أمية فقد نال عمال الاقاليم فى أيامهم امتيـازات كثيرة ، منحهم اياها معاوية ترغيبا لهم فى البقاء على ولائه . فولى زياد بن أبيـــه البصرة وخراسان وسجستان ووسع له بما يريد ، وفعـــل نحو ذلك مع عمرو بن العاص بمصر

وجرى العباسيون على نحو ذلك ، فلما ولى المأمون الفضل بن سهل على الشرق جعل له ٣ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة . وكانت رواتب العمال تختلف باختلاف نوع العمل وسعته وأهميته

Marfat.com

الوزارة ومايتبعها

١ ـ الوزارة

الوزارة أسمى الرتب السلطانية ، وليست من محدثات الاسلام بل هى فارسية الاصل اتخذها المسلمون فى عهد الدولة العباسية . اما اذا اريد بالوزارة استعانة الخليفة بمن يشد أزره أو يعاونه فى الحكم ، فهى تتصل بصدر الاسلام . لان النبى (صلعم) كان يشاور أصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة ، ويختص أبا بكر بخصوصيات أخرى ، حتى ان العرب الذين خالطوا الروم والفرس قبل الاسلام كانوا يسمون أبابكر وزيره. وكذلك كان شأن عمر مع أبى بكر ، وشأن على وعثمان مع عمر . ولكن لفظ الوزير لم يكن يعرف بين المسلمين فى سذاجة الدولة

على ان بنى امية لما جعلوا الخلافة ملكا ، واصبح معولهم فى استبقاء ملكهم على السياسة والدهاء ، احتاجوا الى من يستشيرونهم ويستعينونهم فى أمور القبائل والعصائب واستئلافهم واصطناع الاحزاب منهم ، فاستخدموا اناسا لنحو ذلك الغرض ، وهى الوزارة بمعناها ، ولكن يظهر انهم لم يكونوا يسمون صاحب هذه الرتبة الوزير ، فانقضت دولة بنى أمية دون أن يتخذ الخلفاء وزراء ، ودون ان تظهر الوزارة فى نظم الاسلام

ولكن دولة بنى أمية عرفت نظام الكتاب أو كتاب الخلفاء ، ووظيفة الكاتب هى الاصل الذى تطور فيما بعد الى وظيفة الوزير . وقد عرف الاسلام الكتاب من أول أمره ، وكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفر من الصحابة. وكان لكل واحد من الخلفاء الراشدين كاتب أو أكثر يكتب عنه . وعلى هذا النظام مضى بنو أمية

ولم يكن الكاتب أول الامر كاتب الدولة بل كاتب الخليفة ، أى أمين سره وصاحب ديوانه وسجلاته ، ثم صار مع الزمن كاتبا للدولة أى أمينا عاما لها. وقد حدث هذا التطور على أيام عبد الملك بن مروان

فلما افضت الخلافة الى بنى العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه ، عظم شأن الوزير وصارت اليه النيابة فى انفاذ الحل والعقد ، واضيف الى الوزارة النظر فى ديوان الحساب ، ثم النظر فى المكاتبات لصون أسرار الخليفة . فأصبحت الوزارة شاملة لخطتى السيف والقلم

Marfat.com

وأول وزراء بنى العباس أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير أبى العباس السفاح وهو أول من سمى وزيرا فى الاسلام ، قال ابن خلكان : « ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت لا فى دولة بنى أميـــة ولا فى غيرها » . وكان أبو سلمة يسمى وزير آل محمد ، كما يسمى أبو مسلم الخراســانى أمير آل محمد ، وكلاهما فارسيان . والعباسيون أول من عول على الوزراء ، فسلموا اليهم أمور الدولة ، وأكثرهم من الفرس . وأشهر وزرائهم البرامكة ، وقــد استفحل أمرهم فى الدولة حتى اضطر الرشيد الى الفتك بهم فى نكبتهم المشهورة

وتقلبت على الوزارة أحوال شتى فى أيام بنى العباس ، ففى القرن الرابع للهجرة اضيف الى اسم الوزير لقب « صاحب » ، واول من لقب به منهم ابو القاسم اسماعيل بن أبى الحسن عباد بن العبــاس ، وكان أولا وزير مؤيد الدولة بن بويه وعرف بالصاحب ، وصار كل من تولى الوزارة بعده يسمى الصـــاحب ..

واخذ نفوذ الوزارة فى بنى العباس يتقلص بتقلص نفوذ الخلفاء ، حتى استبد العمال فى الاعمال ، وتفرعت المملــكة العباسية ، فأصبحت الوزارة كالخلافة اسما بلا مسمى ، فأسقطوها وأبدلوها بامرة الامراء (*)

(*) لم تسقط الوزارة ولم تلغ بظهور منصب أمير الامراء ، وانما عاد الوزير «كاتبا» موكلا بالاموال ، وأصبح بعد ذلك وزيرا شخصيا للخليفــة العباسى المستضعف ، فى حين انتقلت سلطات الوزير السابقة ، ومعظم سلطات الخليفة نفسه ، الى أمير الامراء . وكانت الوزارة قبل ذلك قد صارت نوعين : « وزارة تنفيذ » وهى حالما يكون السلطان قائما على نفسه ، و « وزارة تفويض » وهى حالما يكون الوزير مستبدا عليه . ثم استمر الاستبداد ، وصــار الامر للملوك العجم ، وتعطل رسم الخلافة ، ولم يكن لاولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة، واستنكفوا من مشاركة الوزراء فى اللقب، لانهم خول لهم، فتسموا بالامارة والسلطان ــ ابن خلدون: المقدمة ج ٢ ص ٤٢٨

قال ابن خلدون : « ثم جاءت دولة الترك آخرا بمصر ، فرأو أن الوزارة قدابتذلت بترفع اولئك عنها ، ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ، ونظره مع ذلك متعقب بنظر الامير فصارت مرءوسة ناقصة ، فاستنكف أهل هذه المرتبة العالية فى الدولة عن اسم الوزارة ، وصار صاحب الاحكام والنظر فى الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد ، وبقى اسم الحاجب فى مدلوله ، واختص اسم الوزير عندهم بالنظر فى الجباية » ــ نفس المصدر ، ص ٤٢٨ ــ ٤٢٩

وقد اتخذ المستبدون بأمور الخلافة العباسية لانفسهم وزراء الى جانب وزراء الخلفاء ، ومن أشهر وزرائهم أبو الفضل بن العميد وزير ركن الدولة بن بويه ــ ابن خلكان فى وفيات الاعيان ج٢ ص ٥٧

وقد عرف تاريخ الوزارة فى التاريخ الاسلامى تطورات أوسع مدى من هذه ، وخاصــة بما يتصل بالوزارة فى الاندلس الاسلامى ومصر الاسلامية ، وفى دولة السلاجقــة وعنــد الاتراك العثمانيين ، مما لا يتسع المجال للافاضة فيه هنا ، ويكفى أن نشير الى أهم المراجع :

أبو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ، طبعة الاساتذة السقا والابيارى وشلبى (مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٣٨)
هلال الصابى : تحفة الامراء فى تاريخ الوزراء ، طبعة أمدروز ، بيروت ١٩١٠
الماوردى : الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٢٩٨
ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية
الماوردى : كتاب أدب الوزير ، القاهرة ١٩٢٩
ابن الصيرفى : الاشارة الى من نال الوزارة ، القاهرة ١٩٣٤
مسكويه : تجارب الامم ، طبعة أمدروز ، القاهرة ١٩١٤ ــ ١٩١٥

Marfat.com

٢ ـ أمير الامراء

عندما عجز خلفاء بنى العباس عن ضبط الامور ، بسبب استبداد امراء النواحى بما تحت أيديهم وضعف الخلفاء عن السيطرة على جندهم ، بسبب قلة الجباية والتوقف عن دفع الاعطيات ، أخذوا يستبدلون الوزراء واحدا بواحد ، باحثين عن شخصيات تستطيع القيـــام بشئون الدولة ومواجهة المشاكل العسيرة التىواجهتها ، وقدعين الخليفةالراضى سنة (٣٢٢/٩٣٤ ـ ٣٢٩/٩٤٠) خمسة وزراء واحدا بعـــد الآخر ، وكان آخرهم سليمان بن الحسن بن مخلد . وعندما ضاقت به الحيل اتجه ببصره الى اكبر القواد العسكريين فى أيامه ، وهو ابن رائق ، وكان واليا على واســـط والبصرة ، فاستدعاه وسلم اليه مقاليد الامور ولقبه أمير الامراء

فاستحدث بذلك وظيفة كبرى كانت قاضية على الوزارة ، وكان لها اثر بعيد فى الهبوط بمستوى الخلافة ، وفى ذلك يقول ابن طباطبا : « واســتبد ابن رائق أمير الامراء بالامور ، ورد الحكم فى جميع الامور الى نظره ، ولم يبق للوزير سوى الاسم » ـ (الفخرى ، ص ٢٥٣)

ويقول مسكويه ان الراضى « عرفه انه قلده الامارة ورياسة الجيش ، وجعله امير الامراء ، ورد اليه تدبير اعمال الخراج ، والضياع واعمال المعادن فى جميع النواحى ، وفوض اليه تدبير المملكة ، وامر بأن يخطب له علىجميع المنابر فى الممالك .. » ـ (تجارب الامم ، ج ١ ص ٣٥٦)

ويبدو ان ابن رائق لم يكن اول من تلقب بأمير الامراء ، فقد ذكر مسكويه ان الخليفة المقتدر منح هذا اللقب لمولاه مؤنس الخادم ، ولقبه بمؤنسالمظفر، ولـكن هذه الوظيفة لم تأخذ مظهرها الحقيقى الا فى ايام ابن رائق . وعندما استبد بنو بويه بأمور الخلافة على يد معز الدولة بن بويه ابتداء من سنة ٣٢٠/٩٣٢ انتقل اليهم هذا اللقب

وما زال هذا اللقب فى بنى بويه الى سنة ٤٤٩ هـ ، فانتقل الى السلاجقة الاتراك وأولهم طغرل بك ، ثم صار خلفه ألب أرسلان من أعظم ملوك زمانه . وظل هذا اللقب فى السلاجقة الى سنة ٥٤٧ هـ وسقط بسقوط دولتهم فى بغداد

أبو شجاع : ذيل تجارب الامم ، طبعة أمدروز ، القاهرة ١٩١٦
المقريزى : اتعاظ الحنفا ، طبعة الدكتور الشيال
السيوطى : حسن المحاضرة ، فىأخبار مصر والقاهرة ١٣٥١
ابن خلدون : المقدمة ، مطبعة بيروت ، ١٩٥٧
خليل الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، طبعة رافيس Ravaisse باريس ١٨٨٤
المقريزى : الخطط ، طبعة بولاق ، الجزء الثانى
H. Bowen : The good vizier Ali ibn Isa. Cambridge 1928.
S. de Sacy : Chrestomatie Arabe II, 57 note 31
والمادة التى كتبها عن لفظ « وزير » Franz Babinger فى دائرة المعارف الاسلامية

وكان بنو بويه لما استفحل أمرهم يولون أمير الامراء من عند أنفسهم ، ولم يتركوا للخلفاء الا نائبا يسمى « رئيس الرؤساء » ، ثم عاد الخلفاء فى أيام السلاجقة الى تولية أمير الامراء

ومن يتدبر تاريخ منصب الوزارة فى الدولة العباسية ، يتبين له انهاكانت من جملة أسباب انحلال هذه الدولة ، لان الخلفاء سلموا مقاليد الحكومة الى وزرائها وتقاعدوا عن أمور السياسة ، فأصبحوا بتوالى الاجيال عاجزين عنها

وأما الدول الاخرى ، فالدولة الفاطمية بمصر أول وزرائها يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله سنة ٣٦٣ هـ . والدولة الاموية فى الاندلس كانت الوزارة فيها كما كانت فى أيام أمويى الشام : كانت مشتركة فى جماعة يعينهم الخليفة للاعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فى دولة بنى العباس ، فيسميه الحاجب ثم سمى الوزير . وكانت هذه الرتبة عندهم كالمتوارثة فى البيوت المعلومة ، كما كان شأن البرامكة فى بغداد (*)

وزارة التفويض

كانت الوزارة وزارتين : وزارة تفويض ووزارة تنفيذ مثل امارة الاعمال . فوزارة التفويض أن يستوزر الخليفة رجلا يفوض اليه تدبير الامور برأيه وامضاءها على اجتهاده ، فيتولى الوزير كل شىء يمضيه عن الخليفة الا ثلاثة أشياء :

١ ــ ولاية العهد فان للخليفة أن يعهد الى من يرى وليس ذلك للوزير

٢ ــ للخليفة أن يعزل من قلده الوزير وليس للوزير أن يعزل من قلده الخليفة

٣ ــ للخليفة أن يستعفى الامة من الامامة وليس ذلك للوزير

ومن وزراء التفويض آل برمك ، ويحيى بن أكثم ، وابن الفرات وغيرهم فى الدولة العباسية ، وأمير الجيوش فى الدولة الفاطمية . وقد بلغ من تفويض بنى العباس لوزرائهم أنهم كثيرا ما كانوا يسلمون اليهم خاتم الخلافة يختمون به الكتب دونهم ، وفى حكاية الرشيد مع جعفر والفضل يوم أخذ الخاتم من جعفر وسلمه الى الفضل دليل على مقدار نفوذهم

وناهيك بحكاية جعفر بن يحيى البرمكى مع عبد الملك بن صالح دليلا على ذلك : كان جعفر فى مجلس فدخل عبد الملك بن صالح (ابن عم الرشيد) عليه وهم فى الطرب ، فقال له جعفر : « هل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتى فأقضيها لك مكافأة على ماصنعت ؟ » . قال : « بلى ، ان فى قلب

(*) انظر عن الوزارة فى الاندلس : ابن خلدون : المقدمة ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ ، وما يليها

Marfat.com

أمير المؤمنين تغيرا على فتسأله الرضى عنى » . فقال جعفر : « قد رضى عنك أمير المؤمنين » . قال : « وعلى عشرة آلاف دينار » فقال جعفر : « هى حاضرة لك من مالى ، ولك من مال أمير المؤمنين مثلها » . قال : « وأريد أن أشد ظهر ابنى ابراهيم بمصاهرة أمير المؤمنين » . قال : « قد زوجه أمير المؤمنين بابنته الغالية » . قال : « وأحب أن تخفق الولاية على رأسه » قال : « قد ولاه أمير المؤمنين مصر » ، ثم انصرف عبد الملك . وقد اقدم جعفر على ذلك كله من غير استئذان

وفى الغد دخل جعفر على الرشيد فقال له الرشيد : « كيف يومك ياجعفر بالامس ؟ » . قال جعفر : « فقصصت عليه القصة حتى بلغت الى دخول عبد الملك بن صالح ، وكان الرشيد متكئا فاستوى جالسا وقال : « لله أبوك ! ما سألك ؟ » . قلت : « سألنى رضاك عنه يا أمير المؤمنين » قال : « بم أجبته ؟ » . قلت : « قد رضى عنك أمير المؤمنين » . قال : « قد رضيت عنه . ثم ماذا ؟ » . قلت : « وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار فأجبته : قد قضاها عنك أمير المؤمنين » . قال : « وقد قضيتها عنه . ثم ماذا ؟ » . قلت : « ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده ابراهيم بمصاهرة منه ، فقلت له قد زوجه أمير المؤمنين ابنته الغالية » . قال : « قد أجبته الى ذلك . ثم ماذا ؟ » قلت : « قال وأحب أن تخفق الالوية على رأسه ، فقلت قد ولاه أمير المؤمنين مصر » . قال : « قد وليته اياها » . ثم أنجز له جميع ذلك من ساعته

وكثيرا ما كان الخلفاء يقلدون وزراءهم مع الوزارة منصبا آخر مهما ، كما تقلد الفضل بن سهل رئاسة السيف مع الوزارة ، فسموه ذا الرئاستين

وزارة التنفيذ

أما وزارة التنفيذ فالنظر فيها مقصور على تنفيذ ما يراه الخليفة ، فيكون الوزير واسطة بين الخليفة وبين الرعية ، فيمضى ما يأمره الخليفة به من تقليد الولاة ، وتجهيز الجيوش ، ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم . خلافا لوزير التفويض ، فانه يولى ويعزل كما يشاء ، ويقضى ويمضى بلا حد ولا قياس . ويجوز للخليفة أن يستوزر وزيرى تنفيذ : أحدهما للحرب مثلا والآخر للخراج ، ولكنه لايستوزر الا وزيرا واحدا تفويضيا

راتب الوزير

أما راتب الوزير فقد كان يختلف باختلاف العصور واختلاف الاشخاص. ولكن الوزراء لم تكن نفقاتهم تقتصر على رواتبهم ، لان الخلفاء كانوايفرضون

Marfat.com

الرواتب لاخوتهم وأولادهم وحواشيهم ، وقد فرض المقتدر بالله العباسى لوزيره على بن عيسى خمسة آلاف دينار فى الشهر . واليك راتب الوزير فى الدولة الفاطمية وما يلحقه من رواتب أهله وأتباعه :

الوزير	راتبه فى الشهر	٥٠٠٠ دينار
لكل واحد من أولاده واخوته	« « « من ٢٠٠ ـ ٣٠٠	«
لكل واحد من حواشيهم	« « « من ٣٠٠ ـ ٥٠٠	«

ما عدا الاقطاعات وما كان يدفع اليهم فى المواسم من الهدايا وما يخلع عليهم من الخلع فى الاعياد ونحوهافربما بلغ راتب الوزير وتوابعه بما يلحقهم من الاقطاع نحو ١٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة . وسنعود الى الرواتب فى الجزء الثانى من هذا الكتاب فى الكلام عن مالية الدولة

السلطان

كان هذا المنصب فى أوائل أمره لقبا لوزراء الدولة العباسية ، يلقبون به على سبيل التفخيم بأمر الخلفاء كما تقدم ، وذكر ابن خلدون أن جعفر بن يحيى دعى سلطانا . ويظهر من مجمل ما نقرأه فى كتبهم انهم يطلقون لفظ السلطان على والى بغداد أو والى الشام ، ولعله رئيس الشرطة أو ما يشبه المحافظ اليوم . وقد يريدون بالسلطان الخليفة نفسه ، وكل ذلك على سبيل المجاز . ولم تصر السلطنة رتبة رسمية الا فى أيام محمود الغزنوى بن سبكتكين ، وهو أول سلطان فى الاسلام ، سمى به فى أواخر القرن الرابع للهجرة بدلا من لقب أمير الامراء الذى ذكرناه . وكأنه ابتذل كما ابتذل اسم الوزير قبله ، فأبدلوه بلقب سلطان . وصار بعد ذلك لقبا لملوك الاتراك والاكراد والجراكسة ، وغيرهم من السلاجقةوالايوبية والمماليك والعثمانيين. والوزارة لم يكن الارث شرطا فيها ، فلما صارت الى السلطنة صار الارث شرطا فيها ، والسلطان يعهد الى ولى عهده قبل موته (*)

(*) ورد لفظ « سلطان » فى القرآن الكريم مرارا ، ولكن المراد به دائما هو السلطة المعنوية أو قوة السحر وما الى ذلك . وورد اللفظ فى الاحاديث بالمعنى السابق ، وبمعنى الحاكم أو الوالى . وقد روى عن الرسول (صلعم) حديث : « السلطان ظل الله على الارض » ، وقد كان لهذا الحديث أثر بعيد فيما ادعاه السلاطين من تفويض الهى لهم بحكم الناس فيما بعد ، واستعمل المؤرخون المسلمون الاولون السلطان للدلالة على بعض الحكام قبل الاسلام . وقد استعمل المنصور العباسى اصطلاح « سلطان الله » فى احدى خطبه ، وذكر الخليفة الموفق ملقبا بلقب السلطان فى أحد نصوص الطبرى . وقد ذهب بعض المستشرقين الى ربط لفظ « سلطان » العربى بلفظ « شلطانا » السريانى ، لان كليهما كان يدل أول الامر على النفوذ دون صاحبه

وقد ذكر ابن خلدون أن جعفر البرمكى كان يلقب بالسلطان . وقد اتخذ الامراء البويهيون لقب سلطان دون أن يمنحهم الخليفة اياه . ولكن أول من منحه الخليفة لقب سلطان هو

Marfat.com

وذكر ابن خلـكان فى ترجمة الرازى الطبيب ان الملوك السامانية كانوا يسمون ملكهم « سلطان السلاطين » (١) ـ والملوك السامانية قبل الغزنوى ـ فالظاهر ان هذا اللقب كان معروفا من قبل ، فاذا صح ذلك كان لقب الغزنوى موروثا عنهم . ولـكننا رأينا لبعض الباحثين كلاما فى شأن هذا اللقب يرجح قولنا الاول ، والا فربما كان ذلك اللقب عند السامانية قبل اعتناقهم الاسلام، فيكون محمود أول سلطان فى الاسلام والله اعلم

وكان الخلفاء هم الذين يولون السلاطين ، وان كانت القوة فى ايدى هؤلاء ، ولـكنهم كانوا يعتبرون ذلك من وجهه الدينى . وكانوا يحتفلون بتولية السلطان احتفالا شائقا ، فيخلع عليه الخليفة سبع خلع ، ويلبسه طوقا وتاجا وسوارين ، ويعقد له اللواء ، ويقلده السيف ، ويخطب له

محمود الغزنوى كما يقول ابن الاثير ، وذلك غير ثابت لان العملة التى بقيت لنا عن محمود الغزنوى لا تلقبه سلطانا . أما أول من تلقب بذلك رسميا ونقشه على العملة فابراهيم الغزنوى الذى حكم من ١٠٥٩ الى ١٠٩٩

وقد تلقب الخلفاء الفاطميون حوالى سنة ١٠٠٠ ميلادية بلقب سلطان الاسلام . وخلع الخليفة العباسى على طغرل بك السلجوقى لقب « السلطان ركن الدولة » ، وكان طغرل بك أول من حمل هذا اللقب رسميا بوثيقة خليفية لقب فيها بالسلطان المعظم ، ومن ذلك الحين أصبح لقب سلطان أعظم لقب يستطيع حاكم مسلم الحصول عليه ، وأصبح منصبا لا صفة كما كان الحال قبلا ، اذ أن المراد به كان « صاحب السلطان » أو « ذو السلطان » ومن هنا جاء لفظ « سلطان شاه » وهو معادل للقب سلطان ، وكان يحمله أكبر رجال الدولة . أما من دونه من الاتابك فكانوا يلقبون بلقب « ملك » أو « شاه » . ثم شاع اللقب بعد ذلك

ولم يتسم الايوبيون بالسلطنة وانما تسموا بالملوك فقط ، ولم يستعملوا لفظ ملك مطلقا بل مضافا ، فقالوا : الملك المعظم والملك الصالح وهكذا . وأصبح المعنى المحدد للسلطان هو الحاكم المطلق الذى لا سلطان فوقه ، وان كان سلاطين المماليك حرصوا على أن يخلع الخلفاء عليهم هذا اللقب ، واستعملوه مضافا فقالوا : « السلطان العادل » ، و « السلطان الاعظم »

وهذا يبين لنا الفرق بين المعنى الاخير للفظ سلطان وبين معناه قبل ذلك ، فقد أريد به سلطان الدولة أو سلطان الحكومة ، ولهذا سمى الماوردى كتابه بالاحكام السلطانية ، أى الاحكام الحكومية أو الادارية

ومن الملاحظ ان السلاطين كانوا دائما من السنيين، فيما عدا سلاطين الخوارزمية ، وهذا يفسر لنا السر فى أن السلاطين أصبحوا مع الزمن حماة السنة والاسلام عامة . ولهذا أخذ سلاطين المغول الذين دخلوا فى الاسلام هذا اللقب ، وهذا أيضا يفسر لنا السبب فى أن أمراء الترك العثمانيين أخذوا هذا اللقب من أيام أورخان ، وعندما صارت اليهم الخلافة جمعوا بين اللقبين : فصاروا خلفاء وسلاطين ، وخاصة بعد قضائهم على سلطنة المماليك المصريين

أما فى ايران الشيعية ، فكان الحاكم الاعلى يسمى « شاه » ، فى حين أطلق لقب « سلطان » على الضباط والحكام . وقد تلقب خديو مصر بلقب السلطان عندما تحرر من سلطان العثمانيين بعض الشىء أيام الاحتلال الانجليزى ، فأطلق على حسين كامل ثم على فؤاد ، اى من سنة ١٩١٤ ـ الى ١٩٢٢ ، ثم اختفى وحل محله لقب ملك

وقد استعمل اللقب فى المغرب من أيام بنى مرين ، ولا زال يستعمل لقبا للاسرة العلوية الحاكمة فى القطر المراكشى الى اليوم

واستعمل الصوفية لقب سلطان وأطلقوه على كبار الصالحين منهم ، ومن أمثلة ذلك : السلطان أبو العلاء والسلطان الحنفى. وفى نواحى السودان يطلق اليوم لقب سلطان على حكام الاقاليم من شيوخ القبائل

انظر المراجع الوافرة التى يقدمها J. H. Kramers فى ثنايا مادة سلطان التى كتبها فى دائرة المعارف الاسلامية

(١) ابن خلكان ٧٨ ج ٢

ومن أمثلة ذلك احتفال الخليفة المستظهر بالله بتولية محمد بن ملكشاه فى بغداد بحضور أخيه سنجر (١) ، فان الخليفة جلس لهما فى قبة التـــاج على سدته ، وعلى كتفه بردة النبى ، وعلى رأسه العمامة ، وبين يديه القضيب ، وأفاض على محمد بالخلع وألبسه الطوق والتـــاج والسوارين ، وعقد له اللواء بيده وقلده ســـيفين وأعطاه خمسة أفراس بمراكبهـــا ، وخطبوا له بالسلطنة فى جامع بغداد

وكانوا يلقبون السلاطين يوم الاحتفال بتوليتهم القابا تشير الى تأييد الخلافة بهم ، مثل ناصر الدولة وسيف الدولة وعضد الدولة ونحو ذلك

---

(١) ابن خلكان ٤٧ ج ٢

Marfat.com

الجنـــد وتوابعـــه

تاريخ الجنـــد

اصل الجند ونظامه

كان الناس فى أوائل أدوار تمدنهم قبائل جندها رجالها ، اذا احتاجت الى قتال اجتمع الرجال من كل قبيلة بلا نظام ولا ترتيب ، وينال كل واحد من الغنيمة ما يستطيع الحصول عليه بنسبة شجاعته وقوة بطشه ، فلما تحضر الناس وتقاسموا الاعمال ونشأت الدول كان من أقدم المهن عندهم الـكهانة والجنـــدية

وأول دولة نظمت الجند الدولة المصرية الفرعونية ، فقـد جندت جيشـا من الزنوج والاحباش حوالى القرن العشرين قبل الميلاد ، أخضعت بهم سكان سواحل البحر الاحمر . ثم انتشر أمر التجنيد فى الدول القديمة فى أشـور وبابل وفينيقية واليونان والرومان والاسلام

فالفراعنة أسبق الامم الى تنظيم الجند ، وكان نظامه عنـدهم الصفوف المتعاقبة المتراصة ، وعلى آثارهم كثير من صور هذه الصفوف . والمشهور ان رعمسيس الثانى هو منظم الجند المصرى على النظام المعروف لانه كان يحب الحرب ، وبلغ عدد جنده الى ٦٠٠ر٠٠٠ راجل و ٢٤٠٠٠ فارس و ٢٧٠٠٠ مركبة وعمارة بحرية . واقتبس البابليون والفرس هـذا النظام مع بعض التعديل على مقتضيات الاحوال ، وبه تغلب قورش وقمبيز فى حروبهما مع اليونان وغيرهم

جند الروم

وأما اليونان فانهم اقتبسوا نظام الجند المصرى ونوعوه ، فأنشأوا الكتائب ويعبر عنها فى لسانهم بلفظ Phalanx وهو أن تتراص الجنود صفوفا متعاقبة، وكانت الـكتيبة تتألف من ٤٠٠٠ رجل ، يصطف رجالهـا الواحد بجانب الآخر على بضعة أقدام فى صفوف متعاقبة ، الواحد وراء الآخر . فجعلهـا فيليب المقدونى ضعفى ذلك ، ثم جعلها ابنه الاسكندر أربعة أضعافه ، وقارب ما بين الرجال حتى كادت تتماس أكتافهم وتترابط تروسهم . واصطنع لهم رماحا طول بعضها ٢٣ قدما . وتكون رماح الصف الامامى قصـيرة ، ورماح ما وراءه أطول فأطول ، حتى تبرز رماح الصف الخامس ثلاثة أقدام نحو الامام . وكان فيليب قد نظم فرقة من الفرسان ، فأضاف ابنه اليها

Marfat.com

آلات الحرب وفى جملتها المنجنيق ، وبهذا النظام تغلب الاسكندر على العالم فى القرن الرابع قبل الميلاد

كتيبة الاسكندر فى أثناء المعركة وقد فتكت رماحها بالاعداء

جند الرومان

فلما نشأت دولة الرومان اقتبست نظام الـكتائب عن اليونان وأدخلته فى جندها ، وكان الجيش الرومانى فى ابان الدولة مؤلفا من فرق عدد رجال كل منها ٦٠٠٠ تتألف من ثلاث طبقات من الرجال

١ ــ الشبان ومنهم يتألف الصف الاول من الكتيبة فى الحرب

٢ ــ الـكهول فى الصف الثانى

٣ ــ أهل الدربة والحنكة ويتألف منهم الصف الثالث

وكان يلحق كل فرقة عندهم كوكبة من الفرسان تتقلد السهام والمقاليع والمزاريق لمشاغلة الاعداء عن حرب المشاة

ثم قسم الرومان الفرق الى كراديس بلا تقييد بالصف ، فجعلوا الفرقـة عشرة كراديس ، والـكردوس ثلاثة أقسام ، وكل قسم فصيلتين عددرجال كل منهما مائة رجل . وهذا النظام يخالف نظام الـكتائب المتقدم ذكره بأن لايتقيد الجند بصف واحد أو كتيبة واحدة ، بل يكون عدة كتائب كل كتيبة منها كردوس . وظل نظام الجند الرومانى فى حروبه على هذه الصورة الى الفتح الاسلامى

Marfat.com

ولما ظهر الاسلام كانت جنود الروم ١٢٠٫٠٠٠ ، يقود كل عشرة آلاف منها قائد يغلب أن يكون بطريقا ، وتحت البطريق ضابطان يسمى كل منهما طومرخان يتولى قيادة ٥٠٠٠ ، وتحت الطومرخان خمسة طرنجارية Drungarii كل واحد يقود ألف رجل ، وتحته خمسة قوامس واحدهم قومس Comes يتولى قيادة ٢٠٠ جندى ، وتحت القومس قمطرخ Centuriones ، وتحته الدمرداخ ، وهذا تحته عشرة رجال . وترى فى هذا النظام مشابهة كلية بنظام جند هذه الايام

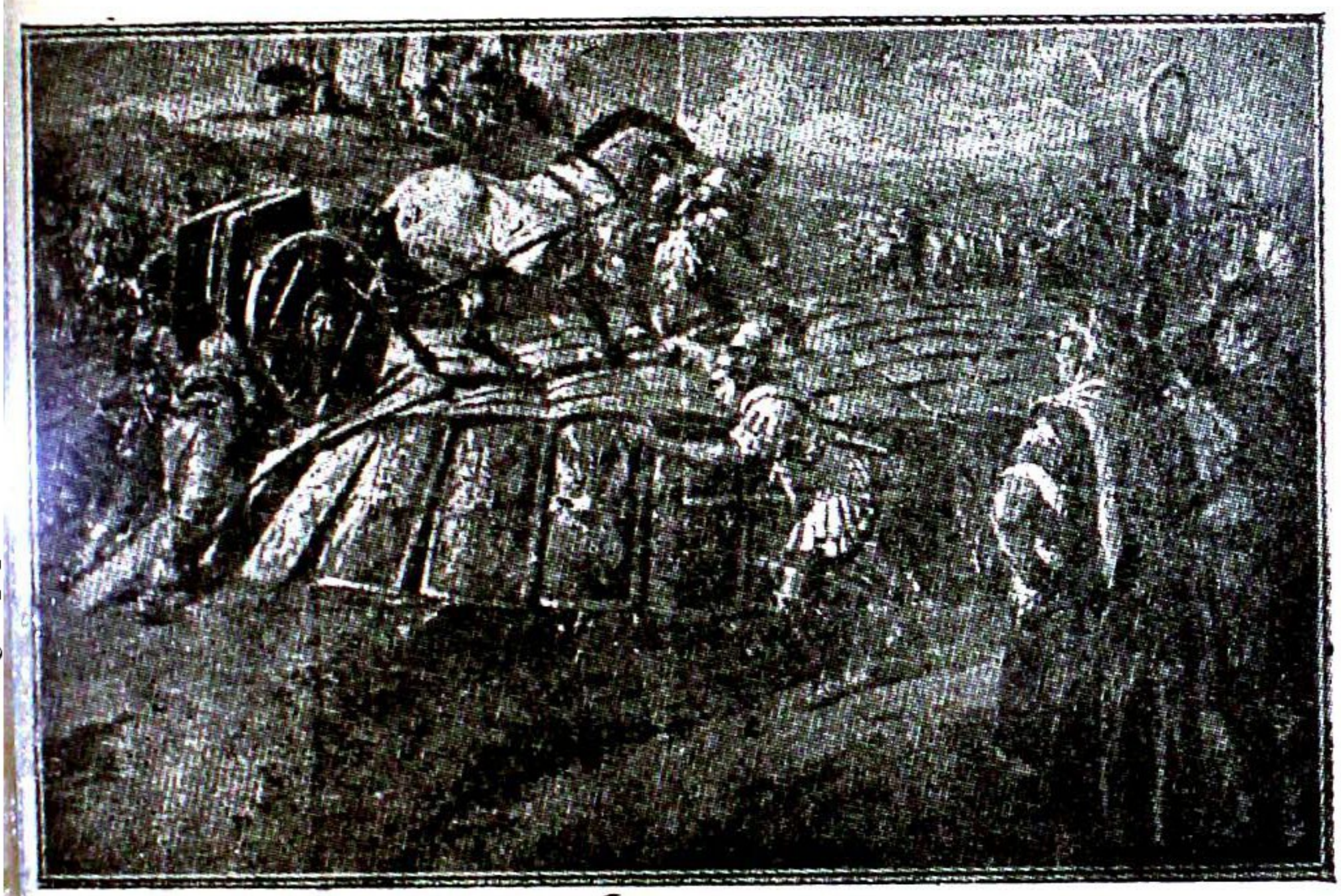

قواد الروم واجنادهم وآلاتهم واسلحتهم

وأما الفرس فقد كان جندهم أربع طبقات : الاولى طبقة القواد العظام ويسمى واحدهم ميرميران ، تحته أربعة قواد يسمى كل منهم اصفهبذ ، وتحت كل اصفهبذ أربعة مرازبة ، وتحت كل مرزبان اربعة سالارية ، وتحت كل سالار عشرة أساورة (وهم الفرسان المفردة) وخمسة من الرجال المشاة ويسمونهم البيادة

جند العرب

أما العرب قبل الاسلام فقد كانوا أهل بداوة لا نظام للجند عندهم ، وانما كانوا قبائل اذا أرادت احداها حربا جردت رجالها ، وفيهم الفرسان والمشاة

Marfat.com

ومعهم الاسلحة المعروفة فى الجاهلية ، كالقوس والرمح والسيف.. الا ما كان من نظام الجند فى الدول العربية التى تمدنت قبل الاسلام ، كالتبابعة ملوك حمير والمناذرة ملوك الحيرة ، فقد ذكروا للمناذرة كتيبتين من الجند تسمى احداهما الدوسر والاخرى الشهباء . وأما عرب الحجاز فقد كانوا قبل الاسلام على الفطرة البدوية كما قدمنا

فلما ظهر الاسلام انفرد المسلمون عن سائر العرب ، واتحدوا بجامعة الدين يدا واحدة فى محاربة أعدائهم ، فكانوا كلهم جندا كبيرهم وصغيرهم. وأول جنود المسلمين المهاجرون ، فلما جاءوا المدينة اتحدوا بالانصار وصاروا جميعا جندا واحدا قائدهم النبى بنفسه ، ورابطتهم المعاهدة والمؤاخاة وعددهم يومئذ قليل جدا

جند العرب فى دولة الراشدين

ثم جعلوا يزدادون بالفتح والغزو فى أيام النبى وأبى بكر ، بمن انضم اليهم من قبائل العرب فى الحجاز واليمن ونجد واليمامة كبارا وصغارا ، تجمعهم جامعة الاسلام ، حتى تكاثروا فتكاتفوا وحملوا على الشام والعراق ومصر ، ففتحوا البلاد ومصروا الامصار ، وانقسموا الى اجناد يقيم بعضها فى مصر وبعضها فى الشام وبعضها فى العراق ، فى محطات خاصة بهم . وكان جند كل محطة ينقسم باعتبار القبائل والبطون ، فكان جند البصرة مثلا خمسة أقسام تسمى الاخماس ، يقيم فى كل خمس منها قبيلة من قبائل المسلمين وهم : الازد وتميم وبكر وعبد القيس وأهل العالية « قريش وكنانة والازد وبجيلة وخثعم وقيس عيلان كلها ومزينة » وكانوا يسمون أهل العالية والكوفة أهل المدينة ، وكان على كل خمس أمير من أمراء تلك القبائل . وقس على ذلك سائر أجناد المسلمين فى الكوفة والفسطاط مما مصره المسلمون ، أو فى غيرهما من مدن العراق والشام ومصر ، فقد كان لهم فى كل اقليم جند ينقسم على نحو هذه الكيفية

كل ذلك والمسلمون كلهم جند محارب لا يعمل أحد منهم عملا . وقد نهاهم عمر بن الخطاب عن الزرع ، كأنه رآهم بعد أن فتحت لهم الامصار ورأوا خصب الارض قد مالوا الى الرخاء والتقاعد عن الحرب ، فأمر مناديه أن يخرج الى أمراء الاجناد يتقدمون الى الرعية ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم سائر فلا يزرعون ، ولعله أراد بذلك ان لا يتوطنوا فى بلد ، اذ ربما مست الحاجة الى تجنيدهم لنجدة اخوانهم فى بلاد أخرى أو لحماية بعض الامصار فلا يثقل عليهم ذلك

Marfat.com

تنظيم جند العرب

فى ايام بنى امية

أما تنظيم الجند فئة خاصة دون سائر فئات المسلمين ، فقد بدأ فى أيام عمر عند تدوين الدواوين كما سيأتى ، وتم فى أيام بنى اميـــة . ويظهر ان التجنيد الالزامى بدأ فى أواسط هذه الدولة ، وكان الناس من قبل يذهبون الى الحرب جهادا فى سبيل الله فيصيبون الغنائم والفىء ، فلما قامت الفتنة بعد مقتل عثمان (سنة ٣٥ هـ) اشـــتغلوا بالحرب فيما بينهم مدة ، وكل طائفة تندفع الى ذلك دفاعا عن رأيها واعتقادها بأنها تدرأ عن الحق . فلما أفضى الامر الى بنى أمية ، وصار المسلمون دولة واحدة ، وضـــعفت قوة الاحزاب بتغلب العنصر الاموى ، لم يعد الناس يرون مايدفعهم الى الحرب طوعا ، فجعلوا يتقاعدون فاضطر الخلفاء الى التجنيد بالالزام

ولعل أول من فعل ذلك الحجاج بن يوسف على عهد عبد الملك بن مروان . وكانت الدولة الاموية قد بلغت ذروة مجـدها ، وكثر المسلمون ومالوا الى العمل فى الارض واطلق لهم السراح . وكانوا قد هموا بالتقاعد عن الحرب فى أيام معاوية ، فغلبهم بدهائه وعطائه . فلما تولى ابنه يزيد ، ثم معـــاوية الثانى ، ثم مروان بن الحكم ــ ولم يكن فيهم من يملك القلوب أو الاعناق ــ تجرأ الجند على التقاعد . فتولى عبد الملك الخلافة والجنـــد على ماتقدم لايرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فشكا ذلك الى روح بن زنباع صاحب شرطته فقال له : « ياأمير المؤمنين ، ان فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين عسكره لارحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف » فأطاعه عبد الملك وقلد الحجاج أمر العسكر

وكان الحجاج شديدا عاتيا ، فلم يعد أحد يتخلف عن الرحيل والنزول الا أعوان روح بن زنباع ، فوقف الحجاج عليهم يوما وقد رحل الناس وهم على طعام ، فقال لهم : « ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ » فقالوا له : « انزل يا ابن اللخناء فـكل معنا ! » فقال : « هيهات ! ذهب ماهنالك ! » . ثم أمر بهم فجلدوا بالســياط وطوفهم فى العسكر وامر بفساطيط روح بن زنباع فأحرقت بالنار ، فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكيا فقال له : « مالك ؟ » فقال : «ياأمير المؤمنين ، الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبيدى وأحرق فساطيطى » . قال : « على به » . فلما دخل عليه قال : « ما حملك على مافعلت ؟ » . قال : « ما أنا فعلتـــه يا أمير المؤمنين » . قال : « ومن فعله ؟ » . قال : « انت والله فعلته ! انما يدى يدك ، وسوطى سوطك ، وما على أمير المؤمنين الا ان يخلف على روح ابن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له »

Marfat.com

فأخلف الخليفة لروح بن زنباع ماذهب له ، وتقدم الحجاج فى منزلته ، وكان ذلك أول ما عرف من كفايته

فيشبه أن يكون ذلك أول تاريخ التجنيد الالزامى ، ثم صار التجنيد سنة وأصبح الجند الاسلامى فئتين : المرتزقة والمتطوعة ، وكلاهما عرب يرجعون فى انسابهم اما الى قحطان وهم اليمنية ، او الى عدنان وهم المضرية ، وفيهم جماعة من الموالى او العبيد

جند الاعاجم فى الاسلام

١ ـ فى الدولة العباسية

فلما تولى بنو العباس واحتاجوا الى مؤازرة الاعاجم فى تأييد سلطانهم ، دخل فى جند العرب جماعات منهم ، وأول من دخل فى الجند الاسلامى منهم آل خراسان ، لانهم هم الذين نصروا العباسيين فى دعوتهم ، وسلموا اليهم أزمة الخلافة بقيادة أبى مسلم الخراسانى ، فكانت فرق الجند فى أيام المنصور ثلاثا : اليمنية ، والمضرية ، والخراسانية ، ثم أضيف اليها فرقة رابعة هى فرقة الحرس الخاص ، اتخذها الخلفاء خوفا مما كانوا ينصبونه لهم من الحبائل أو يقيمونه عليهم من الثورات . ومن غريب هذه الاعمال أن الامر الذى أراد الخلفاء أن يحفظوا سلطانهم به كان علة خروج ذلك السلطان من أيديهم ..

ولما أفضت الخلافة الى المعتصم بالله (سنة ٢١٨ هـ) كانت العناصر الاجنبية قد تمكنت من الدولة ، وزاد الخلفاء خوفا على أنفسهم . فخاف المعتصم من جنده على نفسه ، فاصطنع قوما من الحوف بمصر (الشرقية والدقهلية) استخدمهم فى حاشيته ، وسماهم المغاربة ـ لان مصر غربى بغداد ـ ولعل فيهم بعض أهل المغرب ، وجمع خلقا من أشروسنة وسمرقند وفرغانة ابتاعهم من أسواق بغداد تدريجا وجند منهم جندا سماه جند الفراغنة ثم سموا الاتراك . وقد كانوا أشد خطرا على الدولة العباسية من سائر فرق الجند ، وآل الامر بهم الى الاستبداد بأهل الدولة ، واحتقار الجند العربى الاصلى واساءة سائر أهل بغداد ، حتى أنهم كثيرا ما كانوا يركبون الدواب فى شوارع بغداد ويركضونها ، فيصدمون الرجل والمرأة والصبى ، فتأذى الناس وشكوا أمرهم الى المعتصم ، فلم ير سبيلا الى ملافاة ذلك الا باخراج جنده من بغداد ، فبنى لهم سامرا (سنة ٢٢١) وأقام معهم فيها

وكانت خلافة المعتصم بدء نفور العرب من خلفائهم وشكواهم منهم . وكانوا يعبرون بالجند يومئذ عن الاتراك وغيرهم من الاعاجم ، « وبالحربية » عن جند العرب وكلهم مشاة (*) ، ثم المتطوعة وهم الذين يقدمون على الحرب

(*) كان الحربية من الفرسان الذين يتسلحون بالرماح ، وهم من جند العرب . اما المشاة فكانوا فى الغالب من الفرس ولا سيما الخراسانيين

Marfat.com

من تلقاء أنفسهم ، ويغلب أن يكون المتطوعة فى الحروب خارج حدود المملكة الاسلامية . وكان من فرق الجند عند الخلفاء النشابون الذين يرمون النشاب ، والنفاطون الذين يرمون النفط لاحراق حصون الاعداء ، والمنجنيقيون رماة المنجنيق وهم مثل مدفعية هذه الايام ، والعيارون وهم رماة الحجارة من المخالى . وكان للجند أطباء وصيادلة يرافقونه فى الحرب والسلم ، كما تفعل الدول المتمدنة اليوم

جند من المسلمين بأعلامهم وأبواقهم فى القرن الثامن للهجرة نقلاعن مخطوط قديم

ثم نشأت فرق أخرى من جند الاتراك وجعلوا يتنازعون النفوذ فى الدولة ، وكان فى جملة تلك الفرق فرقة الشاكرية .. ظهرت فى أيام المهتدى واستفحل أمرها فى أيام المستعين بالله ، ونشأ فى أثناء ذلك ضرب من الحرس الخاص فى قصور الخلفاء يسمونهم الغلمان الحجرية ، وكان فى دولة الفواطم بمصر فرقة منهم ، وتحول قسم كبير من جند المشاة العرب الى فرقة عرفت بالرجال المصافية ، ثم تشكلت فرقة عرفت بالفرقة الساجية نسبة الى ابن الساج أحد عمال المقتدر بالله ، وهناك فرق أخرى من الاتراك وغيرهم نقرأ أسماءهم عرضا فى تاريخ الدولة العباسية كالبلالية والسعدية وغيرهما . وكانت كل فرقة تستعمل نفوذها فى الدولة على ما يبلغ اليه جهدها ، وكثيرا ما كانت تقوم الفتن فيما بينها أو بينها وبين حرس الخلفاء ، حتى آل الامر الى خروج الاحكام من العرب على الاجمال ،ونسى أمر قريش والعرب كما سيأتى . وصارت

Marfat.com

الاحكام الى الاتراك ونحوهم ، فنشأت منهم الدول المشهورة . وتقلبت نظم الجند بعد قيام دول الاتراك الكبرى على أحوال شتى ، نذكر منها نظامهم فى زمن السلاطين المماليك بمصر ثم العثمانيين

٢ ـ جند السلاطين المماليك بمصر

كان جند المماليك أخلاطا من الاتراك والجركس والروم والاكراد ، وأكثرهم من المماليك المبتاعين ، وهم طبقات أعلاها الامراء ومن يليهم الى الجندى البسيط . وأما الامراء فهم كالضباط فى هذه الايام ، ومنهم من له امرة مائة فارس أو أكثر الى الف فارس ، وهؤلاء من الامراء يسمون اكابر النواب ، وتحتهم أمراء الطبلخانات ولكل منهم امرة اربعين فارسا الى السبعين ، ولا تكون الطبلخانة لاقل من ٤٠ فارسا ، يليهم أمراء العشرات من عشرة الى أربعين ، ثم جند الحلقة وهؤلاء لكل اربعين منهم مقدم ليس له حكم عليهم الا اذا خرج العسكر ، وكانت قيادتهم اليه وكانت رواتبهم تعطى بالاقطاع كما سيجىء

خوذة أحد السلاطين المماليك بمصر

وكان لهم فى الجند مناصب تتفاوت رفعة ونفوذا ، أهمها امير السلاح وصاحبها يتولى حمل السلاح للسلطان ، والدوادار لتبليغ الرسائل عن السلطان وهو من أمراء المئين ، والحاجب يقف بين الامراء والاجناد ، وأمير جاندار كالمتسلم للباب ومن اراد السلطان قتله كان على يده ، والاستاذ دار

Marfat.com

يتولى أمر بيوت السلطان ونفقاتها ، ونقيب الجيش لاحضار من يطلب السلطان احضارهم ، والوالى وهو صاحب الشرطة (١) . وقد تولدت هـذه المناصب فى دولة المماليـك بالتدريج حسب الاحوال ، ومن اكثر السلاطين عمـلا فى ذلك السلطان ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فانه من كبـار المؤسسين لهذه الدولة

ولهم فى تدريب ذلك الجند طرق خاصة بهم ، يبدأون به منذ دخول المملوك فى ملك السلطان : اذا قدم تاجر عرض مملوكا على السلطان يشتريه ويجعله فى طبقته ، ويسلمه الى الطواشى برسم الكتابة ، فأول ما يبدأ تعليمه مايحتاج اليه من القرآن . وكانت كل طائفة لها فقيه يأتيها كل يوم ، ويأخذ فى تعليمها القرآن ومعرفة الخط ، والتمرن بآداب الشريعة الاسلامية وملازمة الصلوات والاذكار . وكان الرسم اذ ذاك أن لاتجلب التجار الا المماليك الصغار ، فاذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئا من الفقه وأقرأه فيه مقدمة . فاذا صار الى سن البلوغ اخذ فى تعليمه فنون الحرب من رمى السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية فى معرفة ما يحتـاج اليه . واذا ركبوا الى لعب الرمح أو رمى النشاب لايجسر جندى ولا أمير ان يحدثهم او يدنو منهم ، فينقل عند ذلك الى الخدمة وينتقل فى اطوارها رتبة بعد رتبة ، الى أن يصير من الامراء . فلا يبلغ هذه الرتبة الا وقد تهـذبت أخلاقه وكثرت آدابه ، وامتزج تعظيم الاسلام واهله بقلبه ، واشتد ساعده فى رماية النشاب ، وحسن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل

ولما فتح السلطان سليم مصر سنة ٩٢٣ ضعف أمر المماليك ، لكنهم مازالوا محافظين على جنديتهم يتوارثون تقاليدها اجيالا . حتى تولى محمد على ففتك بالمماليك فى قلعة القاهرة سنة ١٨١١ وأباح قتلهم حيثما وجدوا ، فلم ينج من امرائهم الا مملوك اسمه أمين بك وثب بجواده من امام باب القلعة فى اثنـاء المذبحة فقتل جواده ونجا هو ، وانقرض المماليك وجندهم من ذلك الحين (٢) . وكان جند محمد على من الالبانيين ، ثم اتخذ الجند النظامى من المصريين (*)

---

(١) السيوطى ١١٢ حـ ٢

(٢) تاريخ مصر الحديث حـ ٢

(*) أوجز المؤلف فى هذه السطور القليلة نظم الجيوش الاسلامية وتطورها ، وهو ملخص لما أورده القلقشندى فى صبح الاعشى . وقد ظهرت حديثا سلسلة طيبة من الابحاث والدراسات فى نظم الحرب وترتيب الجيوش عند المسلمين ، معظمها يتناول نظم الجيوش المصرية وخاصة ابتداء من العهد الايوبى ، ونخص بالذكر منها رسالة الدكتور نظير سعداوى عن التاريخ الحربى لصلاح الدين ، ورسالة الدكتور السيد الباز العرينى عن الفروسية فى مصر فى عهد سلاطين المماليك ورسالة الدكتور على طرخان عن الاقطاع فى العصر المملوكى

وأهم المراجع الاصلية التى تتناول نظم الحرب وتاريخ الجيوش فى الاسلام :
محمد بن أبى بكر الدرعى المعروف بابن القيم : الفروسية ، القاهرة ١٩٤١

الجند العثمانى الانكشارية

وللجند العثمانى تاريخ طويل ، يبدأ منذ تأسيس الدولة العثمانية ، وقد بنى على نظام جند السلاجقة . ثم نشأ جند الانكشارية المشـــهور ، أنشأه قره خليل احد كبار رجال الدولة العثمانية فى زمن السلطان أورخان . وقد نظر فى تنظيمه الى خلوه من عصبية تبعثه على التمرد (١) وكان العثمانيون يومئذ يفتحون البلاد وأكثر أهلها مسيحيون ، فيدخل فى حوزتهم جماعة من غلمان النصارى الذين قتل آباؤهم واصبحوا لا نصير لهم ولا مرجع لآمالهم ، فارتأى ان يربى أولئك الغلمان تربية اسلامية ، ويدربهم على الفنون الحربية ، ويجعلهم جندا دائما لا يخشى منه التمرد . لانه لا يعرف عصبية غير الدولة ، ولا عملا غير الجندية ، ولا دينا غير الاسلام . فجندهم وسار بهم الى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية بأماسية ، ليدعو لهم ، فدعا لهم وسماهم : « يـكى جرى » اى الجند الجديد

ولم يكن قره خليل هذا أول من جند غلمان النصارى ، كما يظن أكثر مؤرخى الاتراك . فان الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر فعل ذلك قبل تأسيس الدولة العثمانية ، وهو متوجه الى دمشق سنة ٥٦٥ هـ لملاقاة عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس ، فنزل بلدا اسمه قارا بين دمشق وحمص ، فأمر بنهب أهلها النصارى وقتل كبارهم ، لانهم كانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم سرا للصليبيين ، وأخذ صبيانهم مماليك رباهم بين الاتراك فى الديار المصرية ، فنشأوا على الاسلام وتجندوا فى الجيش التركى

على أن قره خليل جعل شروطا للانكشارية لم يسبق لها مثيل ، فقسمهم الى وجاقات ، وأحدها وجاق . والوجاق يقسم الى أورط ، احداها اورطة . ولكل أورطة عدد تعرف به ، ولبعضها أسماء خاصة . ويختلف عدد الجند

محمد بن بكتو الاشرفى الرماح : كتاب الفروسية وعلاج الخيـــل ، مخطوط بدار الكتب
أبو المحاسن جمال الدين بن تغرى بردى : النهر الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط بدار الكتب
محمد بن منكلى : الاحكام الملوكية والضوابط الناموسية ، مخطوط بدار الكتب
شمس الدين محمد السخاوى : القول التام فى الرمى بالسهام ، مخطوط بدار الكتب
خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، طبعة باريس ١٨٩٤
الماوردى : الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٠٦
المقريزى : الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ
اغاثة الامة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٤٠
النويرى : نهاية الارب ، طبعة دار الكتب (١٤ جزءا)
طيبغا الاشرفى : كتاب الجهاد والفروسية ، مخطوط بدار الكتب
حسام الدين لاجين : كتاب الميادين ، مخطوط بدار الكتب
ابن خلدون : المقدمة ، ج ٣ ، ص ٤٨٨ وما يليها
الدكتور عبد الرحمن زكى : السلاح فى الاسلام

(١) راجع تاريخ الانكشارية فى الهلال ٤٥٨ سنة ١٧

Marfat.com

فى كل أورطة حسب العصور من ١٠٠ الى ٥٠٠ ، ويختلف عدد الاورط فى الوجاق ، وعدد الوجاقات بمقتضى ذلك . واكبر ضباط الوجاق او قائدها الاكبر يسمى « آغا » ، تحته سكبان باشى ، تحته غيره فغيره ، على هذه الصورة :

الاغا	قائد الوجاق ، ويقابل اللواء فى هذه الايام
سكبان باشى	ينوب عن الاغا فى الآستانة، ويقابل القائمقام اليوم
قول كخيا او كخيابك	نائب الاغا أو السكبان باشى
سمسونجى باشى	قائد اورطة رقم ٧١
زغرجى باشى	قائد الاورطة رقم ٦٤
محضر اغا	ينوب عن الانكشارية عند الصدر الاعظم
خصكى	ينوب عن الاغا فى القيادة على الحدود
باشجاويش	قائد الاورطة الخامسة
كخيايرى	ينوب عن الوجاق لدى الاغا
الافندى	الكاتب

ولكل اورطة ضباط يقتسمون قيادتها وادارة شؤونها على هذه الصورة :

١ ـ الجوربجى	رئيس الاورطة ، يشبه الكولونيل
٢ ـ اوده باشى	نائب الجوربجى فى المناورات العسكرية وغيرها
٣ ـ وكيل الخرج	يتولى امر الطعام والشراب
٤ ـ بيرقدار	يتولى الاعلام والبيارق
٥ ـ باش اسكى	يتولى قيادة القراقولات
٦ ـ اشجى	الطاهى

قوانين الانكشارية

قد رأيت ان جند الانكشارية تشكل فى زمن السلطان اورخان ، لكن الفضل الاكبر فى تنظيمه وترتيبه للسلطان مراد الاول (تولى سنة ٧٦١ هـ) وهذه خلاصة قوانينهم :

١ ـ الطاعة المطلقة لقوادهم وضباطهم او من ينوب عنهم

٢ ـ الاتحاد بين سائر الفرق كأنها فرقة واحدة وتكون مساكنها متقاربة

٣ ـ التجافى عن كل ما لا يليق بالجندى الباسل من الاسراف اوالانغماس، ويكون معولهم على البساطة فى كل شىء

Marfat.com

٤ ــ الاخلاص فى الانتماء الى الحاج بكطاش من حيث الطريقة ، مع القيام بفروض الاسلام

٥ ــ لا يقبل فى سلك الانكشارية الا الذين يشبون من غلمان الاسرى على التربية الخاصة بين الغلمان الاعاجم

ابراهيم بن محمد على فى ثوبه العسكرى عند أول تشكيل الجند النظامى

٦ ــ ان الحكم عليهم بالاعدام ينفذ بشكل خاص

٧ ــ يكون الترقى فى المراتب على حسب الاقدمية

٨ ــ لا يجوز ان يوبخ الانكشارية ولا يعاقبهم غير ضباطهم

٩ ــ اذا عجز احدهم عن العمل يحال على المعاش

١٠ ــ لا يجوز لهم ارسال لحاهم

١١ ــ لا يجوز لهم ان يتزوجوا

١٢ ــ لا يجوز لهم الابتعاد عن ثكناتهم

١٣ ــ لا يجوز لهم ان يتعاطوا عملا غير الجندية

Marfat.com

١٤ ــ يقضون أوقاتهم فى الرياضة البدنية والتمرين بالحركات العسكرية

فاذا تدبرت هذه القوانين ، هان عليك تصور الاعمال العظيمة التى اتاها هذا الجند فى مصلحة الدولة العثمانية من الفتوح العظام . وقد يتبادر الى الذهن ، لأول وهلة ، ترفع الناس عن الانتظام فى هذا الجند ، لانه مجموع لقطاء لا يعرف لأحد منهم اب ولا ام ، لـكنك تفهم من البند الخامس من قوانينهم انهم كانوا يحظرون على غير اللقيط او المملوك الانتظام فى جندهم ، وكان السلاطين يتوخون تعظيم هذا الامر فى عيونهم

وما زال جند الانكشارية معول الدولة العثمانية فى حروبها ، حتى صار عقبة فى سبيل اعمالها لتمكنه من النفوذ . وقاسى السـلاطين منه عذابا شديدا ، الى ان فتك به السلطان محمود الثانى فى أوائل القرن الماضى ، وتم تشكيل الجند النظامى

Marfat.com

ديوان الجند

تأسس ديوان الجند فى المدينة ، اسسه عمر بن الخطاب ودون فيه اسماء الرجال وفرض اعطياتهم . ولم يكن هذا الديوان يومئذ يعرف بديوان الجند ، لكنه كان يسمى « الديوان » فقط . وكان يشمل اسماء المسلمين من المهاجرين والانصار ومن تابعهم ، ومقدار اعطياتهم تبعا للنسب النبوى والسابقة فى الاسلام . وكان لكل مسلم راتب يتناوله لنفسه ، ورواتب لأهله واولاده . فكأنه ديوان المسلمين ، باعتبار ان المسلمين كانوا كلهم جندا فى ذلك الحين . وظل العطاء باعتبار النسب والسابقة ، حتى انقرض اهلّ السوابق ، وصار الجند فئة من المسلمين قائمة بنفسها ، فترتب الجند باعتبار الشجاعة والبلاء فى الحرب

وكان عندهم لاختيار الجند من بين الناس شروط ، منها ان من اراد الانتظام فى الجندية يقدم طلبا الى صاحب ديوان الجند ، وهو ينظر فى اهليته لها ، ولا يكون اهلا لذلك الا اذا كان حرا ، بالغا ، مسلما ، سليما ، مقداما . فاذا استوفى هذه الشروط قبل ، ودون اسمه فى دفاتر الجيش ، مع نسبه وقده ولونه وملامحه وسائر ما يتميز به عن غيره ، لئلا تتفق الاسماء

طبقات الجنود

اما ترتيب الجنود فى الديوان ، فظلوا يراعون فيه ما وضعه عمر من السابقة والنسب ، فيترتب الجند اولا باعتبار القبائل والاجناس ، حتى تتميز كلّ قبيلة من غيرها ، وكل جنس من غيره ، فلا يخلو الجند من ان يكونوا عربا او عجما . فان كانوا عربا تترتب قبائلهم على حسب القربى من النبى ، فيبدأ بالترتيب بأصل النسب النبوى ، ثم بما يتفرع عنه ، فالعرب مثلا عدنان وقحطان ، فيقدمون عدنان على قحطان لان النبوة فيهم . وعدنان يجمع ربيعة ومضر ، فتقدم مضر على ربيعة لأن النبوة فيهم . ومضر تجمع قريشا وغير قريش ، فتقدم قريش لان النبوة فيهم . وقريش تجمع بنى هاشم وبنى امية وغيرهم ، فيقدم بنو هاشم لأن النبوة فيهم . فكان بنو هاشم قطب الترتيب ، ثم من يليهم من اقرب الانساب كما تقدم . وان كانوا عجما لا يجتمعون على نسب ، فكانوا يجمعونهم على الجنس ، كالترك والهند ، او على البلد كالخراسانيين والفراغنة والمغاربة . ثم اذا كان لهؤلاء الاعاجم

Marfat.com

سابقة ، ترتبوا عليها فى الديوان ، والا فيترتبون بالقرب من ولى الامر . فان تساووا فى ذلك ، ترتبوا بالسبق الى طاعته . وكان لديوان الجند فروع ، بعضها للمراسلة وبعضها للعطاء وبعضها للنفقات ، او لغير ذلك مما يختلف باختلاف الاحوال والازمان

اعطيات الجند

فى دولة الراشدين

ويراد بأعطيات الجند رواتبهم التى يستولون عليها فى اوقات معينة من العام . وكانت تلك الاعطيات فى ايام النبى غير محدودة ، فتتبع ما يقع فى ايديهم من الغنائم او الفىء . فكان يفرد خمسه لله ، ويتولى رسول الله انفاقه فى مصالح الجماعة الاسلامية حسبما يرى ، ويفرق الاربعة الاخماس الباقية فى الصحابة على السواء ، بلا تمييز فى السابقة او النسب . وجرى على ذلك ابو بكر . فلما تولى عمر ووضع الديوان ، ميز الناس فى العطاء باعتبار النسب والسابقة ، فرتبهم طبقات . وقد ميز راتب كل منهم باعتبار نسبه من النبى ، او سابقته فى الاسلام ، او غير ذلك على ما تراه فى هذه الجريدة ، وهى عبارة عن رواتب الجند السنوية فى صدر الاسلام :

	درهم
لكل من المهاجرين والانصار الذين شهدوا واقعة بدر الكبرى	٥٠٠٠
لكل من المهاجرين والانصار الذين لم يشهدوا بدرا	٤٠٠٠
لكل من ازواج النبى	١٢ر٠٠٠
العباس عم النبى	١٢ر٠٠٠
الحسن والحسين	٥٠٠٠
عبد الله بن عمر بن الخطاب بن الخليفة	٣٠٠٠
كل من ابناء المهاجرين والانصار	٢٠٠٠
كل واحد من اهل مكة	٨٠٠
كل واحد من سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم	٣٠٠ـ٥٠٠
لكل من نساء المهاجرين والانصار	٢٠٠ـ٦٠٠

تلك هى اعطيات المسلمين ، او رواتب الجند ـ على عهد عمر ـ مع اختلاف طفيف ببعض الروايات (١) . فاذا اعتبرت مقادير هذه الرواتب وقابلتها برواتب هذه الايام ، رأيت الفرق عظيما . فاذا قدرنا الدرهم بأربعة

(١) المقريزى ٩٢ حـ ١ ، الاحكام السلطانية ١٨٩

Marfat.com

قروش ونصف القرش ـ وهى قيمتـه على وجه التقريب ـ كان راتب اعظم رجال الاسلام لايزيد على خمسة آلاف درهم ، اى نحو مائتى جنيه فى السنة . واذا اعتبرنا المسلمين كلهم جندا ، كان المهاجرون والانصار ضباط ذلك الجند ومنهم عمر نفسه . واما الجنود فهم الذين عبرنا عنهم « بسائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم » . ورواتب هؤلاء اقل كثيرا من رواتب اولئك ، فانها تختلف من ثلاثمائة الى خمسمائة درهم ، باختلاف بعض الاعتبارات من حيث القبيلة وجهادها ومقدار فضلها فى الاسلام . وبناء عليه تكون رواتب ضباط الجند الاسلامى ـ على عهد عمر ـ من اربعة آلاف الى خمسة آلاف درهم فى العام ، ورواتب العساكر من ثلاثمائة الى خمسمائة درهم ، غير ما كان يدفع لنسائهم واولادهم ، وما فرض لهم من الحنطة ، وهو جريبان لكل واحد فى الشهر ، والجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع ، ويراد به ما ينبت فى تلك المساحة . وخلاصة ذلك ان رواتب صغار الجند فى اوائل الاسلام كانت تزيد على رواتب انفار جنود هذه الايام ، وبعكس ذلك رواتب ضباطهم

اعطيات الجند فى الدولة الاموية

وظلت اعطيات الجند على هذا القدر فى ايام الراشدين ، فلما طمع بنو امية فى الملك واحتاج معاوية الى الاعتزاز بالعرب ، كان فى جملة ما استخدمه فى سبيل اجتذابهم الى جانبه المال ، فزاد اعطيات الجند . وكان جنده ستين الفا ، ينفق عليهم ستين مليون درهم فى العام ، فيلحق كل رجل الف درهم ، وذلك اكثر من ضعفى ما فرضه عمر

وكان فى مقدمة القبائل التى اخذت بيده وحاربت عنه وايدت دعوته قبائل اليمن ، وهى انما فعلت ذلك رغبة فى العطاء (*) لانه كان يحارب بهم عربا آخرين ، فلم يكن الجهاد دافعهم الى الانضمام اليه . فجعل معاوية اليمنية فرقة قائمة بنفسها وعدتهم الفا فارس ، وفرض لهم عطاء مضاعفا ، وجعلهم جندا مستقلا لا يختلطون بسواهم ، وكان يستشير امراءهم ويقربهم . فاستفحل امر اليمنية حتى عرضوا بذكر فضلهم على دولة بنى امية ، وانهم لو شاءوا لاخرجوا المضرية من الشام (وفيهم بنو امية) فندم معاوية على اختصاصهم بذلك الامتياز ، وقرب منه القيسية واعطاهم مثل عطائهم ، وصار يغزو البحر باليمنية والبر بالقيسية . فشق ذلك على اليمنية ، لان القيسية من مضر ، فعاتبوه فجمع بين القبيلتين واغزاهم معا

(*) لم يكن الطمع فى العطاء هو الدافع الوحيد لليمنيين على الانضمام لمعاوية ، بل كانت هناك اسباب أخرى

Marfat.com

ولم يكن معاوية يعتمد على المال فى استرضاء الجند فقط ، بل كان يستخدمه فى اصطناع الاحزاب وتخفيف ويلات المتعصبين عليه ، فكان كثيرا ما يأمر عماله بزيادة اعطيات اناس يعرف انهم على غرض على . وكان عماله لاينفذون اوامره لقصور ادراكهم عن غرضه ، ومن هذا القبيل ان اهل الكوفة كانوا من اشد الناس تعصبا لعلى ، فأمر معاوية عامله عليها ـ النعمان بن بشير ـ ان يزيد فى اعطيات اهلها عشرة دنانير ، فأبى النعمان ان ينفذها لهم فلم ينفعه ذلك

وظل هذا شأن العطاء ايام يزيد ومروان وعبد الملك ، وكان عبد الملك يبالغ فى الانفاق ، تأييدا لاحزابه فى مقاومة دعاة الخلافة فى ايامه . فان الحجاج سير الجند الى رتبيل باذن عبد الملك ، وكان عددهم اربعين الفا انفق عليهم مليونى درهم سوى اعطياتهم ، فضلا عما اعطاه لكبارهم . ولما تولى الوليد ابن يزيد زاد العطاء عشرة دراهم يوم خلافته ، ولعله فعل ذلك ارضاء للجند، لما كان هو فيه من الاعوجاج والاسراف . وفى اواخر دولة بنى امية قلت الرواتب ، حتى صارت فى آخرها خمسمائة درهم

اعطيات الجند فى الدولة العباسية

فلما آلت الخلافة الى بنى العباس جعل السفاح رزق الجندى ثمانين درهما فى الشهر (٩٦٠ درهما فى السنة) فكأنه ارجعه الى ما كان عليه فى اوائل بنى امية ، وكان للفارس ضعفا هذا الراتب لينفق نصفه على فرسه . ويظهر ان الرواتب لم ترتفع بارتقاء الدولة العباسية بل هى اخذت فى التناقص ، فصارت فى ايام المأمون عشرين درهما فى الشهر للراجل واربعين للراكب . فكان جيش عيسى بن محمد بن ابى خالد عام ٢٠١ هـ ١٢٥ الف فارس ، فأعطى الفارس اربعين درهما والراجل عشرين . وزد على ذلك ان قيمة الذهب كانت قد ارتفعت عما كانت عليه فى اوائل الاسلام ، وكان الدينار فى ايام عمر يساوى عشرة دراهم فأصبح فى ايام المأمون يساوى ١٥ درهما

فرأيت مما تقدم ان الرواتب زادت فى دولة بنى امية عما كانت عليه فى ايام الراشدين ، ثم نقصت فى ايام بنى العباس . والسبب فى ذلك ان بنى امية زادوها ترغيبا لقبائل العرب فى خدمتهم ، لتأييد سلطانهم كما تقدم . واما فى ايام بنى العباس فكان العرب قد انتشروا فى انحاء البلاد واختلطوا بالاعاجم ، وعمل العباسيون على الاستكثار من هؤلاء لانهم ساعدوهم على انشاء دولتهم ، فأصبحت الدولة العباسية مخيرة فى استخدام من شاءت من الفئتين فى جندها . وكان الاعاجم يرضون بالراتب القليل ، ومع ذلك فهو اضعاف ماكان يدفعه الروم لجندهم اذا صح ما نقله ابن خرداذبه ، فقد ذكر ان راتب الجندى عندهم كان يختلف من ١٨ الى ١٢ دينارا فى السنة ، وكانوا لايستولون على

Marfat.com

رواتبهم الا كل ثلاث سنوات او اربع ، واما رواتب جند العرب فقد كانت تدفع فى اوقاتها ، الا فى اواخر الدولة العباسية فقد كانت تتأخر وتتراكم ، ويفوز بالخلافة من يتمكن من ارضاء الجند ، شأن الدول فى دور انحطاطها

عطاء الجند فى الدولة التركية

وما زال العطاء يدفع نقدا الى ايام الدولة السلجوقية ، فصار يعطى اقطاعا. وأول من فعل ذلك نظام الملك الطوسى وزير آل سلجوق (توفى سنة ٤٨٥ هـ) وكان رجلا عظيما وزر للدولة السلجوقية وادخل فيها اصلاحات جمة . وهو اول من انشأ المدارس فى بغداد ، وله فيها المدرسة التى تعرف باسمه (المدرسة النظامية) . وكان وزيرا لألب ارسلان ثم لابنه ملك شاه المشهور، فصار امر الدولة كله لنظام الملك وليس للسلطان الا التخت والصيد . فأقام على ذلك عشرين سنة ، وكان عاقلا حسن القصد ، ورأى الدولة السلجوقية قد اتسع نطاقها فأحب ان يحفظها بالاقطاع ، فحولها الى اقطاعات سلمها الى الجند ، لاعتقاده أن تسليم الأرض الى المقطعين يضمن عمارتها لاعتناء مقطعيها بأمرها ، بخلاف ما اذا شمل جميع اعمال المملكة ديوان واحد ، فان الخرق يتسع ويدخل الخلل فى البلاد . ففعل نظام الملك ذلك ، وعمرت المملكة وكثرت الغلات ، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك والسلاطين ، الى اوائل القرن الماضى

واختلفت غلات الامراء من اقطاعاتهم ، فقد بلغت غلة اقطاع بعض اكابر امراء المئين فى دولة المماليك نحو ٢٠٠ر٠٠٠ ، ويليهم من غلتهم نصف ذلك او ربعه . واما امراء العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار ، الى ما دون ذلك . اما جند الخليفة فمنهم من يبلغ اقطاعه ١٥٠٠ دينار وما دون ذلك الى ٢٥٠ دينارا (١) . وسيأتى الكلام فى الاقطاع

عدد الجند

قلنا ان المسلمين كانوا فى صدر الاسلام كلهم جندا ، فعددهم يومئذ هو عدد الجند الاسلامى . فالجند كانوا فى السنة الاولى للهجرة لا يزيد على بضع عشرات يقيمون فى المدينة ، ثم ازدادوا بمن اعتنق الاسلام من قبائل العرب . وفى حديث اخرجه البخارى أن النبى قال : « اكتبوا لى من تلفظ بالاسلام فكتبنا له الفا وخمسمائة »

وفى غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة ـ وهى آخر الغزوات ـ بلغ عدد المسلمين ثلاثين الفا ، ومعهم عشرة آلاف فرس . فذلك عدد جند العرب

---

(١) السيوطى ٢١٠ حـ ٢

فى اواخر ايام النبى ، ثم تزايد عددهم فى ايام ابى بكر وعمر ، حتى زادوا على مائة وخمسين الفا . وتضاعف ذلك العدد فى اواخر ايام الراشدين

وفى اوائل بنى امية بلغ عدد من فى البصرة والكوفة من الرجال فقط ١٤٠ر٠٠٠ ، منهم ٨٠ الفا فى البصرة و ٦٠ الفا فى الكوفة ، ومعهم من العيال ٢٠٠ر٠٠٠ بين نساء واولاد . وكان فى مصر اربعون الفا ما عدا العيال . وكان جند الشام نحو ذلك ، غير من فى فارس وغيرها

الاحصاء فى الاسلام

وكان للخلفاء فى صدر الاسلام عناية فى احصاء المسلمين اقتداء بما فعله النبى ، فجعلوا على كل قبيلة من قبائل العرب رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : « هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ؟ » فيقال : « ولد لفلان غلام ، ولفلان جارية » فيكتب اسماءهم . ويقال : « نزل بهم رجل من اهل كذا بعياله » ويسميه وعياله . فاذا فرغ من ذلك عاد الى الديوان واثبت الاسماء فيه

وكانوا يجددون التدوين (الاحصاء) كل مدة فى كل ولاية على حدة ، واول تدوين فى مصر مثلا دونه عمرو بن العاص ، ثم دون عبد العزيز بن مروان (تولى امارة مصر من سنة ٦٥ ـ ٨٦ هـ) ، ثم دون قرة بن شريك (سنة ٩٠ ـ ٩٦ هـ) ، ثم بشر بن صفوان (سنة ١٠١ هـ) ، وآخر احصاء احصوا به العرب فى الامصار على ما تقدم كان فى خلافة هشام بن عبد الملك (سنة ١٠٥ ـ ١٢٧ هـ) ، ولكن تلك الاحصاءات لم تصل الينا ، فقد ضاعت فى جملة ما ضاع من آثار بنى امية

فلما تولاها بنو العباس اهملوا امر العرب ، وبذلوا عنايتهم فى اصطناع الاعاجم من الفرس والترك وغيرهما كما قدمنا . حتى اذا بويع المعتصم بالله سنة ٢١٨ هـ بعث الى عماله فى الامصار ان يسقطوا من فى دواوينهم من العرب ويقطعوا العطاء عنهم . فشق ذلك على العرب وثاروا ، ولكنهم لم ينالوا وطرا . فانقضت دولة العرب من ذلك الحين ، وصار جند الدولة العجم والموالى . ولذلك لما مات المعتصم وتولى بعده الواثق ، كان دعبل الخزاعى الشاعر المشهور فى الصميرة ، فلما جاءه نعى المعتصم وقيام الواثق انشد هذين البيتين :

الحمد لله لا صبر ولا جلد ... ولا عزاء اذا اهلّ البلا رقدوا
خليفة مات لم يحزن له احد ... وآخر قام لم يفرح به احد

واما عدد الجند فى اثناء دولة بنى امية وبنى العباس فمما لا يتيسر الوقوف عليه ، لكننا نستدل من عدد ما كانوا يجندونه الى

الحرب انه كان كثيرا . فلما حمل يزيد بن المهلب على جرجان وطبرستان جرد اليهما ...ر١٢٠ من الجند المرتزقة ، سوى الموالى والمتطوعة . وحمل الرشيد على هرقلة بجنـد عدده ...ر١٣٥ من المرتزقة ، ما عدا الاتبـاع والمتطوعة . وكان جند محمد بن طغج مؤسس الدولة الاخشيـدية بمصر (سنة ٣٢٣ ـ ٣٣٤ هـ) ...ر٤٠٠ جندى وثمانية آلاف مملوك ، يحرسه منهم الفان كل ليلة على التناوب . وروى ابن خلدون ان المعتصم نازل عمورية فى جند عدده ...ر٩٠٠ (*) ، ولا غرابة فى ذلك اذا اعتبرنا عـدد الحامية فى الثغور الدانية والقاصية شرقا وغربا ، فضلا عن المصطنعين والموالى والخاصة، فقد احصيت خاصة المأمون من بنى العباس وحدهم فبلغوا ٣٣ الفا

رتب الجند واصنافهم

لم يكن للعرب فى الجاهلية جند ، فلم تكن له عندهم رتب . ولكنهم كانوا يولون على القبيلة اكبر رجالها سنا او اعظمهم حسبا ، ويسمونه الشيخ او الامير . فاذا احتاج الامير الى من ينوب عنه على فصيلة يرسلها الى غزو او نحوه ، ولى رجلا كانوا يسمونه المنكب ، وتحت المنكب العريف . والمنكب يكون على خمسة عرفاء ، والعريف يكون على نفير او نفر

وظل العرب فى اوائلَ الاسلام على نحو ما كانوا عليه فى الجاهلية ، فقسموا الجند الى عرفاء ، تحت كل عريف عشرة رجال ، وسلموا القيادة الى اناس من اهل السابقة ، وكذلك كان نظامهم فى اثنـاء الفتوح . ثم جعلت العرفاء اسباعا ، وجعلوا مائة عريف بعضهم على ثلاثين او اربعين رجلا ، وبعضهم على عشرين على حسب طبقات الجند من حيث السابقة ونحوها . وكان على العرفاء امراء يقال لهم امراء الاسباع ، يتولون تفريق العطاء فى العرفاء ، والعرفاء يفرقونه فى الجند

وقلما حدث تغيير فى رتب الجند فى ايام بنى امية . اما فى الدولة العباسية فكانت رتب الجند ان على كل عشرة رجال « عريفا » ، وعلى كل خمسين « خليفة » ، وعلى كل مائة « قائد » . ثم تنوع الترتيب فصار العريف على عشرة ، وعلى كل عشرة عرفاء (أو مائة نفر) « نقيب » ، وعلى كل عشرة نقباء (أو ...ر١٠ رجل) « امير » . ولا يخلو الامر من وقوع التبديل فى هذا النظام بالنظر الى الدول (**)

ولا بد من ان يكون لكل رتبة علامة تميزها عن سواها ، كما يتميز الضباط

(*) هذا الرقم مبالغ فيه ، وقد أخذه المؤلف من السيوطى . راجع عن هذه المعركة : ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، طبعة المطبعة الاميرية ، القاهرة ١٣٥٧ ، ج ٥ ص ٢٤٧ وما يليها وابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٠٤

(**) انظر المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨

Marfat.com

اليوم بعضهم عن بعض وعن العساكر ، لكننا لم نعثر على شيء صريح بهذا الشأن . وقد تقدم لنا كلام بهذا الموضوع فى بحثنا عن الطراز ، ومن هذا القبيل ما كانوا يسمون به الخيل لتمتاز خيول الدولة عن سواها ، وكان لكل دولة سمة خاصة . وسمة خيل بنى أمية لفظ (عدة) كانوا يطبعونها على الخيول كيا بالنار ، كما كان العرب يفعلون بابلهم فى عصور جاهليتهم ، فقد كان عندهم لكل قبيلة ميسم يميز ابلها عن ابل غيرها ، ووسم الدواب شائع فى الدول المتمدنة اليوم

استعراض الجند

استعراض الجند قديم فى الدول المتمدنة قبل الاسلام : كان الاسكندر يعرض جنده بنفسه ويتفقدهم ويتفقد سلاحهم وخيولهم . ولما ظهر الاسلام كان الفرس يعرضون جنودهم فى مواقيت معينة من السنة ، وكان رسمهم فى ذلك أن يمر الفارس الذى هو فى الطبقة الاولى على حصانه ، ومعه الغلام والدرع والمغفر والكفوف الزرد والرانات والتجافيف للخيل ويسمى بركستوان والترس والرمح والسيف والدبوس والسكين الكبيرة والحبل والمخالى والسكك الحديد والمقاود وكبة خيوط ومخصف ومقص ومطرقة وكاز ومسل وابر وخيوط وزناد وطرطور ولباد وقوسان موتوران ووتران زائدان خوف الانقطاع وجعبتان للنشاب احداهما معه والاخرى مع غلامه

ولما تمدن العرب وجندوا الجنود اتخذوا هذه العادة على نحو ما كانت عند الفرس ، لكن يظهر انهم كانوا يستعرضون رجالهم قبل تمصير الامصار وتجنيد الجنود ، فان النبى نفسه كان يستعرض اصحابه . وقد جاء فى السير أنه استعرضهم يوم بدر الكبرى (سنة ٢ هـ) فجعلهم صفوفا ، وأخذ يعدل صفوفهم وفى يده سهم بلا ريش ، فمر برجل اسمه سواد كان مستنثلا من الصف فطعنه النبى فى بطنه وقال له : « استو ياسواد بن غزية » وبعد ان عدل الصفوف عاد الى العريش الذى كانوا نصبوه له هناك (١)

وكان الخلفاء الراشدون يعرضون الجند على نحو ذلك ، ثم بنو امية . وكان الحجاج اذا عرض الجند يسأل عن رجل رجل من هو ، وماهى قبيلته ، وعن حاله وسلاحه

وكان الاستعراض فى الدولة العباسية اقرب الى عادة الفرس ، لان العباسيين اقتبسوه منهم . فكان الخليفة ، أو وزيره ، يجلس لعرض الجند . وربما جلس الخليفة وعليه الدرع والخوذة كأنه فى استعداد للحرب ، فينادى المنادى بأسماء القواد فيمرون اولا ، فيتفقد افراسهم وعدتهم ، فاذا راى كل شيء

(١) السيرة الحلبية ١٧٩ ـ ٢

Marfat.com

حسنا تاما صرف لهم ارزاقهم ، وهى جائزة يمنحونها يوم العرض . وقد يستنكف القائد الكبير أن ينتفع بتلك الجائزة فيهبها لبعض اتباعه

ومن امثلة ذلك ما كان يفعله عمرو بن الليث على عهد الخليفة المعتمد (سنة ٢٧١ هـ) فانه نال حظوة لدى الخليفة ، وتمكن من قوانين المملكة ، وتولى النظر فى الجند ، وكان ينفق لهم مرة كل ثلاثة اشهر ويحضر بنفسه على ذلك . وكان عارض الجيش يقعد والاموال بين يديه والجند كلهم حاضرون ، وينادى المنادى أولا باسم عمرو بن الليث ، فتقدم دابته الى العارض بجميع آلة الفارس ، فيفتقدها ويأمرون بوزن ثلاثمائة درهم باسم عمرو فتحمل اليه فى صرة ، فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول : « الحمد لله الذى وفقنى لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق » ، ثم يضعها فى خفه فتكون لمن ينزع خفه ثم يدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم ، فيتعرض لآلاتهم التامة ولدوابهم الفره ، ويطالبون بجميع مايحتاج اليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها ، فمن أخل باحضار شىء منها حرموه رزقه . فاعترض يوما فارس كانت له دابة فى غاية الهزال فقال له عمرو : « يا هذا ! تأخذ مالنا تنفقه على امرأتك فتسمنها وتهزل دابتك التى عليها تحارب وبها تجد الأرزاق ؟ امض فليس لك عندى شىء ! »

فقال له الجندى : « جعلت لك الفداء .. لو اعترضت امرأتى لاستسمنت دابتى ! »

فضحك عمرو وأمر باعطائه وقال : « استبدل بدابتك »

مساكن الجند

كان المسلمون فى صدر الاسلام (وهم الجند) اذا فتحوا بلدا جعلوا مساكنهم فى بعض ضواحيه ، وكانوا لا يقيمون فى مكان بينه وبين المدينة بحر أو نهر ، عملا بوصية عمر بن الخطاب كما تقدم . ولذلك لم يقم جند مصر فى الاسكندرية عاصمة الديار المصرية ، بل أقاموا فى الخيام قرب حصن بابل ، فى بقعة عرفت بعد ذلك بالفسطاط . ولم يقم جند العراق فى المدائن عاصمة كسرى ، بل أقاموا على ضفاف الفرات مما يلى بادية الشام ، فى البصرة والكوفة . وفعل ذلك غيرهم فى سائر الاقاليم التى فتحت فى صدر الاسلام ، فأقاموا فى ضواحى البلاد المفتوحة لمجرد حمايتها كما قدمنا فى كلامنا عن ولاية الاعمال . ولكنهم كانوا ينتقلون للحرب يومئذ بنسائهم وأولادهم ، فاذا فتحوا بلدا أقاموا فيه جميعا . فأصبحت تلك المعسكرات بتوالى الاجيال مدنا عامرة

ولما تمدن العرب صاروا يذهبون الى الحرب دون نسائهم ، ولكنهم ظلوا على انشاء المعسكرات خارج المدن . وكثيرا ماكانت هذه المعسكرات تتحول الى مدن

بتوالى الاجيال ، كما حصل فى الفسطاط والكوفة والبصرة : كانت الفسطاط مضرب خيام حول فسطاط عمرو بن العاص ، ثم عمرت وصارت مدينة سميت الفسطاط . وبعد عمرانها بقرن وبعض القرن ، لما قام العباسيون للمطالبة بالخلافة ، فر مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ولجأ الى مصر ، فتعقبه العباسيون بقيادة صالح بن على وعسكروا بضواحى الفسطاط وسموا مقامهم « العسكر » أى المعسكر ، ثم بنى الناس هناك وصار المكان مدينة مثل الفسطاط اسمها العسكر

وبعد ذلك بقرن وبعض القرن سنة ٢٥٧ هـ تولى مصر أحمد بن طولون وأكثر من الجند والحاشية والآلات ، فضاقت الفسطاط دونه ، فأنشأ معسكرا بجوار جبل المقطم ، وبنى لنفسه فيه قصرا وميدانا ، وتقدم الى غلمانه وأتباعه أن يبنوا ، فبنوا حتى اتصل البناء بالفسطاط وصار المكان مدينة سميت القطائع . وفعل مثل ذلك جوهر قائد الفاطميين ، لما جاء لفتح مصر بعد قرن وبعض القرن سنة ٣٦٥ هـ فانه أنزل جنده بسفح المقطم خارج القطائع والفسطاط ، ولما فتح البلاد أنشأ فى ذلك المعسكر مدينة القاهرة الباقية الى الآن . ويقال نحو ذلك فى سائر المدن الاسلامية ، فان المنصور انما بنى بغداد حصنا له ولجنده ، وكذلك فعل ابنه المهدى ببناء العسكر خارجها

وقس عليه غيره من المعسكرات الاسلامية ، فانهم كانوا ينشئونها خارج المدن بعيدا عن بيوت الناس . ولذلك لما أنزل الحجاج جنده فى بيوت أهل الكوفة ، بعد واقعة الجماجم ، نقم عليه أهلها وعدوا ذلك عتوا منه ، وخصوصا لان الامراء الذين جاءوا بعده كانوا كثيرا ما يعملون عمله

اللواء أو الراية

تاريخ الالوية

اللواء والراية شىء واحد ، وربما كان اللواء أصغر من الراية ، أو ان الراية تسمى لواء اذا عقدت للحرب . وهى الاعلام ، أو البنود ، او البيارق فى اصطلاح هذه الايام . والراية قديمة فى التاريخ ، اتخذها المصريون القدماء ومن عاصرهم أو أخذ عنهم . وكانت شائعة فى العرب الجاهلية قبيل الاسلام ، وكان لكل قبيلة راية تجتمع تحتها

وللراية شأن كبير فى الحرب ، لان الناس انما يؤتون من قبل راياتهم : اذا زالت زالوا . وقد رايت ، فى كلامنا عن حكومة الجاهلية ، انه كان فى جملة مناصب قريش منصب اللواء ، ويسمونه « العقاب » باسم رايتهم يومئذ . وكانوا اذا خرجوا الى حرب أخرجوا الراية ، فاذا اجتمع رأيهم على أحد سلموه اياها ، والا فانهم يسلمونها الى صاحبها ، وكان مرة من بنى أمية ومرة

Marfat.com

من بنى عبد الدار . ولعلهم سموا رايتهم « العقاب » اقتباسا من الروم ، لان العقاب اوالنسرشارة الرومان ، يرسمونها علىاعلامهم وينقشونها علىابنيتهم، فاقتبسها العرب منهم

وفى السيرة الحلبية أن المسلمين فى غزوة بدر الكبرى كانتلهم ثلاث رايات : احداها بيضاء دفعها النبى الى مصعب بن عمير ، والاخريان سوداوان احداهما حملها على بن أبى طالب ، ويقال لها العقاب صنعت من مرط لعائشة (والمرط كساء من صوف او خز تضعه المرأة على رأسها او تأتزر به) والاخرى مع رجل من الانصار . وان ابا سفيان كان يحمل راية الرؤساء فى تلك الواقعة ، واسمها ايضا راية العقاب . فالظاهر ان العقاب كان اسما لصنف من الرايات ، فقلدوا الروم بها وليس اسم واحدة منها

ولما جاء الاسلام ، وانتشر العرب فى انحاء الشام وفارس ومصر ، وتعددت دولهم وقبائلهم ، كثرت ضروب الالوية عندهم ، وتنوعت اشكالها وتعددت الوانها واطالوها ، وسموها بأسماء مختلفة : عقد ابو مسلم الخراسانى عند قيامه بالدعوة العباسية لواء بعث به اليه ابراهيم الامام يدعى « الظل » على رمح طوله اربعة عشر ذراعا ، وعقد راية كان قد بعث بها اليه اسمها « السحاب » على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا ارهابا للناس . ولما عقد المتوكل البيعة لبنيه سنة ٢٣٥ هـ عقد لكل واحد منهم لواءين احدهما أسود وهو لواء العهد والآخر أبيض وهو لواء العمل . ولما ولى المأمون الفضل ابن سهل على المشرق كله وسلم اليه رئاسة الحرب والقلم وسماه ذا الرئاستين عقد له لواء على سنان ذى شعبتين . وجملة القول ان اشكال الالوية تعددت بتوالى الازمان وتفاخر الخلفاء والسلاطين بتعدادها ، فقد بلغ عدد رايات العزيز بالله الفاطمى لما خرج الى فتح الشام ٥٠٠ راية و ٥٠٠ بوق . وربما نقشوا على الرايات اسماء الخلفاء او السلاطين او الامراء الذين يتولون قيادة الجند ، كما كتب ابن بجكم على رايته « الرائقى » نسبة الى ابن رائق

ألوان الرايات

لا نعرف ماذا كانت ألوان الرايات فى الجاهلية سوى راية « العقاب » ، فقد تقدم انها كانت سوداء ، وكذلك كانت راية النبى . وذكر صاحب « آثار الاول » انه كانت له ايضا الوية بيضاء . اما الرايات الاسلامية ، فقد كانت الوانها تختلف باختلاف الدول ، فكانت اعلام بنى امية حمراء . وكل من دعا الى الدولة العلوية فعلمه ابيض ، ومن دعا الى بنى العباس فعلمه اسود . والسواد شعار العباسيين على الاطلاق ، اتخذوه حزنا علىشهدائهم من بنى هاشم ونعيا على بنى امية فى قتلهم ، ولهذا سموا المسودة . ولما افترق الهاشميون وخرج الطالبيون على العباسيين فى كل جهة وعصر ،

ذهبوا الى مخالفتهم فى ذلك ، فاتخذوا الرايات بيضاء وسموا المبيضة . والظاهر ان شعار دعاة بنى هاشم من الشيعة كان الخضرة ، لأن المأمون لما بايع لعلى بن موسى بولاية العهد أمر جنده بطرح السواد ولبس الثياب الخضر ، حتى اذا رجع عن البيعة عاد الى السواد

وأما ملوك البربر فى المغرب ، من صنهاجة وغيرها ، فلم يختصوا فى راياتهم بلون واحد بل وشوها بالذهب ، واتخذوها من الحرير الخالص ملونة (*) . وفى دير بظاهر مدينة برغوس فى الاندلس راية من الحرير الاحمر المطرز بالنقوش الجميلة ، وعليها كتابات كثيرة وآيات قرآنية . وقد نشرها غستاف

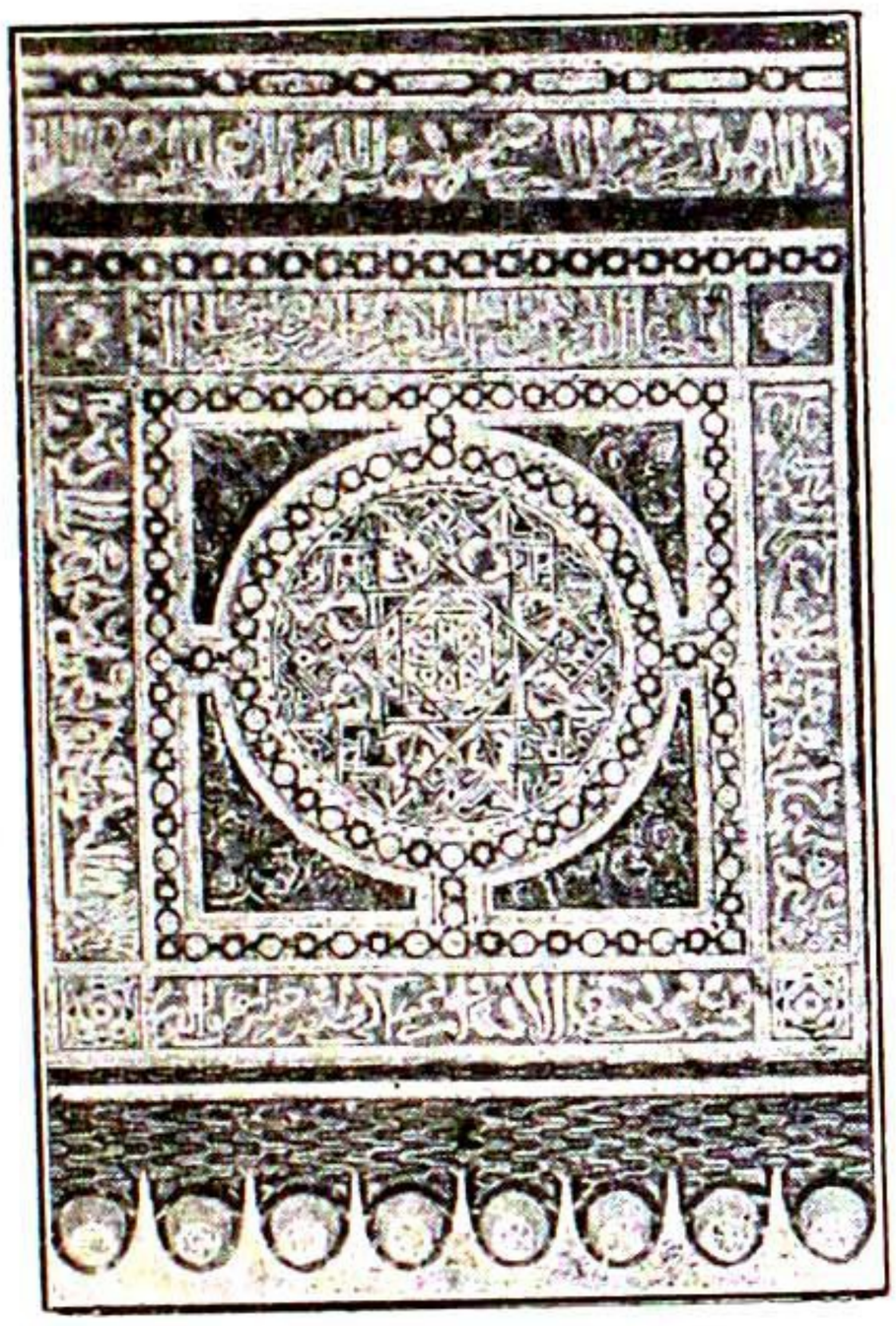

راية الناصر الموحدى فى موقعة العقاب

لوبون فى كتابه « تاريخ تمدن العرب » وسماها : راية الموحدين ، لكن صديقنا المأسوف عليه روحى بك الخالدى بعث الينا بنسخة من صورة هذه الراية سنة ١٩٠٧ وقال فى جملة وصفها : « وأظن هذه الراية كانت بابا لخيمة المنصور ، لانها أشبه بباب الخيمة منها بالراية » (**)

(*) لم يعرف هذا الطراز من الرايات الا عند الموحدين ، أما رايات المرابطين فكانت ذات ألوان بسيطة دون زينة . وراية الناصر الموحدى المشار اليها هنا محفوظة اليوم فى المتحف الحربى فى مدريد ، وقد نشرت صورتها بألوانها الطبيعية فى أكثر من مرجع وخاصة
R. Ballesteros, Historia de Espana II p. 272

(**) لم تكن هذه الراية ـ كما يتضح من الهامش السابق ـ راية المنصور الموحدى ، بل راية رابع خلفاء الموحدين محمد المعروف بالناصر وقد وقعت فى يد الفونسو الثامن فيما وقع فى يده من غنائم جيش الموحدين بعد انهزامهم فى موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ وهذه الراية محفوظة اليوم بالمتحف الحربى فى مدريد

Marfat.com

وأما دول الاتراك فى المشرق فكانوا يتخذون راية واحدة للسلطان ، فى رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والجتر وهى شعار السلطان عندهم . ثم تعددت الرايات ، ويسمونها سناجق وأحدها سنجق وهو الراية فى لسانهم ، والراية العثمانية حمراء عليها صورة الهلال . واختلفوا فى أصل هذه الشارة بين أن يكون الاتراك اقتبسوها من الروم بعد فتح القسطنطينية ، أو أنهم جاءوا بها من بلادهم من تركستان

عقد اللواء

كان الخلفاء فى صدر الاسلام اذا وجهوا جيشا الى حرب عقدوا له الالوية وسلموها الى الامراء ، لكل أمير راية قبيلته ، ويدعون لهم بالنصر ويوصونهم بالصبر والجلاد . وكان عمر بن الخطاب اذا عقد لواء يقول وهو يعقده : «بسم الله وبالله وعلى عون الله ، امضوا بتأييد الله ، ومانصر الامن عندالله ولزوم الحق والصبر . فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله ، ولاتعتدوا ان الله لا يحب المعتدين، ولاتجبنوا عند اللقاء، ولاتمثلوا عند القدرة ، ولاتسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرما ولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم اذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارات » (*)

وكان لكل خليفة أسلوب فى الدعاء والوصاية ، والمرجع واحد فيها كلها . وكانوا يعقدون الالوية أيضا للعمال اذا ولوهم الامصار ، وخصوصا فى أوائل الاسلام ، لان العامل كان قائد الجند . وكانوا يعقدونها على حساب النجوم ، فيختارون أحد الاقترانات على زعمهم . وكان العباسيون اذا عقدوا لواء لقائد أو صاحب جند أو صاحب ثغر ، خرج الى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو من داره ، فى موكب من أصحاب الرايات والطبول ، حتى لا يميز بين موكب العامل وموكب الخليفة الا بكثرة الالوية وقلتها ، أو بما اختص به الخليفة من الالوان لراياته

وكان للدولة الفاطمية بمصر دار يقال لها «خزانة البنود» كانوا يختزنون فيها الاعلام والرايات والدرق ، وكانوا ينفقون عليها ٨٠ الف دينار كل سنة ، ظلوا على ذلك قرنا كاملا . وكل ما صنع من الاعلام بقى متراكما فيها ومعه الاسلحة بأنواعها ، والسروج واللجم ، وفيها المفضض والمذهب . ثم احترقت الخزانة فاحترق كل ما كان فيها من هذه الامتعة والآلات ، وكان يقدر بثمانية

(*) كانت هذه أيضا وصية أبى بكر لجنود المسلمين قبل صدورهم الى الفتوح

Marfat.com

ملايين دينار ، ولم يستطيعوا اخراج غير القليل منها ، وفى جملة ذلك لواء كانوا يسمونه « لواء الحمد » (*)

الموسيقى

واتخاذ الموسيقى فى الجند قديم ، والاصل فى اتخاذه اثارة حاسات الجند فى أثناء الحرب ، أو صرف أذهانهم عن الاشتغال بالاخطار التى يتوقعونها . ومن هذا القبيل الغناء أو النشيد أمام الجند ، فانه من قبيل الموسيقى وكان العرب فى جاهليتهم لا يعرفون من هذه الآلات غير الطبل . وكان المسلمون فى صدر الاسلام يتجافون عن اتخاذ الابواق والطبول ، تنزها عن غلظة الملك ورفضا لاحواله . فلما انقلبت الخلافة ملكا ، وتبجحوا فى زهرة الدنيا ، ولابسهم الموالى من الفرس والروم وأهل الدول السالفة، وأروهم ماكان أولئك يتحلون به من مذاهب البذخ والترف ، كان فى جملة ما اقتبسوه منهم الموسيقى . وأذنوا لعمالهم فى اتخاذها تنويها بالملك وأهله ، ثم جعلوا يستكثرون منها . وهى مقصورة على الطبل والبوق ، وربما كان فى الجند مئات من الابواق والطبول

السلاح

أشهر أسلحة العرب فى جاهليتهم السيف والرمح والقوس والترس ، وكانت لهم عناية كبرى فى استخدامها ، لانهم كانوا يحمون بها أعراضهم ويستجلبون بها معاشهم ، وخصوصا القوس

القوس

كان لهم بالقوس مهارة عظمى ، لحدة أبصارهم نتيجة لسكنى البادية ولانهم أحوج اليها من سائر الاسلحة . فقد كانوا يستخدمونها فى صيد الغزلان ، فضلا عن الحرب والطعان . وبلغ من مهارتهم فى النزع بالقوس مايكاد يفوق طور التصديق ، حتى لو أراد أحدهم أن يرمى احدى عينى غزال دون العين الاخرى لرماها ، ولذلك سموا مهرة الرمى «رماة الحدق» وكان أحدهم يعلق ضبا بشجرة ، ثم يرميه بالنبال فيصيب أى عضو شاء من اعضائه ، حتى يرمى فقراته فقرة فقرة فلا يخطىء واحدة منها (١)

فلما جاء الاسلام كانت مهارتهم هذه من جملة ما ساعدهم على غلبة الروم لان هؤلاء لم يكونوا يحسنون رميها ، وقد بينا ذلك فى كلامنا عن الفتوح الاسلامية . ولم يكن قواد المسلمين يجهلون فضل النبال فى نصرتهم ، فكانوا يحرضون رجالهم على اتقان الرمى بها ، وكان النبى يقول : « اركبوا وارموا ،

(*) انظر عن ذلك : المقريزى فى الخطط ، ج ١ ص ٤١٦ وما يليها
(١) العقد الفريد ٥٢ ج ١

Marfat.com

وان ترموا أحب الى من أن تركبوا » . ومن أقواله : « كل لهو المؤمن فى ثلاث : تأديبه فرسه ، ورميه عن كبد قوسه ، وملاعبته امرأته فانه حق . ان الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب والرامى فى سبيل الله » . ومن أقواله وهو قائم على المنبر : « أعدوا ما استطعتم من قوة . ألا ان القوة الرمى . ألا ان القوة الرمى. الا ان القوة الرمى »

وكان الخلفاء والقواد بعد النبى يستحثون رجالهم على اتقان الرماية ، كما يحرضونهم على العناية بخيولهم ، لان العرب أهل فروسية ، وخيول العرب مشهورة بخفتها وسرعتها وسهولة قيادها . وكان القواد يوصون رجالهم أن يعتنوا بأفراسهم مثل عنايتهم بنسائهم . وقد تقدم لنا كلام فى ذلك

وتفنن المسلمون بالرمى فى العصور الوسطى ، حتى اصطنعوا من الاقواس آلات مركبة ، ولعلهم أخذوا بعضها عن الفرس ، كالمجراة التى استنبطها العجم لما حاربوا التتر ، وهى عبارة عن أنبوب من حديد أو خشب ، فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفا شديدا ، كما تقذف الرصاصة بالبندقية اليوم ، وتكون الاسهم قصيرة . واصطنعوا لرمى السهام ضروبا من المجانيق ، توضع فى الواحد منها عدة سهام ، وترمى عنها بالاقواس (*)

السيف

وكان العرب يعدون السيوف أشرف الاسلحة ، وكانوا يستجلبونها من الخارج ، وأشهرها السيوف اليمانية والهندية والسليمانية والخراسانية ، وتعرف كلها بالسيوف العتيقة . وكان لكل منها شكل مخصوص أو علامة يمتاز بها : فاليمانية العتق مثلا التى صنعت فى الجاهلية ، كانت تمتاز بثقبين فى سنبل السيلان (والسيلان أصل مقبض السيف) ، وثقب السنبل من احدى وجهتيه أوسع من الوجهة الاخرى ، او الوجهتان متساويتان ووسطه أضيق . وكان من السيوف اليمانية سيوف يقال لها المحفورة ، وشطبها شبيه بالانهار ، وقد حفر بمبرد مدور . ومنها ذات حفر مربع ، ومنها ذات شطب . وقلما تسلم اليمانية من العروق ، وقد تنقش عليها تماثيل ، أو يكتب عليها ، أو يصور عليها صورة

غير أن هذه السيوف اكثر قطعها فى اللين ، فاذا صادفت الحديد أو اليابس تقصفت . وكانت أسياف الروم أمتن منها ، لانهم كانوا يجيدون سقايتها حتى تبرى الحديد ، ولذلك كان العرب اذا أصابوا سيفا قاطعا تناقلوا خبره وأطروه . وقد اشتهر فى أوائل الاسلام سيف ذى الفقار لعلى بن أبى طالب ،

(*) انظر عن هذه الاسلحة كلها : الدكتور عبد الرحمن زكى : السلاح فى الاسلام ، القاهرة ١٩٥٦

Marfat.com

وسيف الصمصامة لعمرو بن معدى كرب وغيرهما ، ولعلهما فى الاصل من أسياف الروم . ولذى الفقار شأن كبير فى تاريخ الاسلام ، توارثه آل أبى طالب ، ثم أخذه المهدى العباسى ، ثم صار الى الهادى فالرشيد ، ويقال انه سمى ذا الفقار لانه كان به ثمانى عشرة فقرة . وفى المتحف البريطانى أمثلة من السيف الهندى والسيف الدمشقى ، شاهدناها فى رحلتنا الى لندن سنة ١٩١٢ (*)

الرماح

أكثر ما يكون استخدام الرمح على الخيل ، ولكنهم لم يكونوا يأمنون له خوف انكساره . ومن وصاياهم فى استخدام الرمح فى الحرب قول صاحب « آثار الدول » فى طرائق حركات الرمح وتصرفاته ، قال : « واللعب به فى الميادين وبين يدى الملوك غير التحرك به فى الحروب : منها المواجهة ، وهى أن تحمل على مبارزك وقد أخذت الرمح تحت ابطك وجعلته بين أذنى فرسك ، وتقصده مستويا حتى تقرب منه ، فان رأيته قد طرح رمحه يمنة فاطرح رمحك يسرة ، وان طرحه يسرة فاطرح رمحك يمنة . واجتهد أن تبدأ بالحمل عليه وأنت مسدد . وتحول الرمح يمنة أو يسرة كى تدهشه، فلا يدرى من أين تجيئه ، فاذا دنوت منه دخلت عليه من الخلل الذى لا يكون رمحه فيه . واذا أردت أن تبتدىء بالخروج ، فخذ اسفل الرمح بيدك اليمنى ورأسه الى الهواء وهو على عاتقك الايمن ، وتحمل على قوتك وأنت كذلك . وان شئت قربت منه حتى لا يدرى من أى وجه يلقاك .. وان خرجت الى فارسين وتفرقا فاحمل على الادنى، واذا كانا قريبين فأر أحدهما أنك تريد رفيقه ، واحمل عليه ولا تتم حملتك ثم اعدل الى الآخر واصدقه الحملة . وان حذقا ورأيتهما يفترقان عليك ، فتطرف ولا تتوسط واحمل على الادنى اليك . فان تساويا فأدهش الاضعف، واحمل على الاقوى، فان تساووا وكانوا جماعة فامتد أمامهم حتى يتبعوك ، ثم كر على

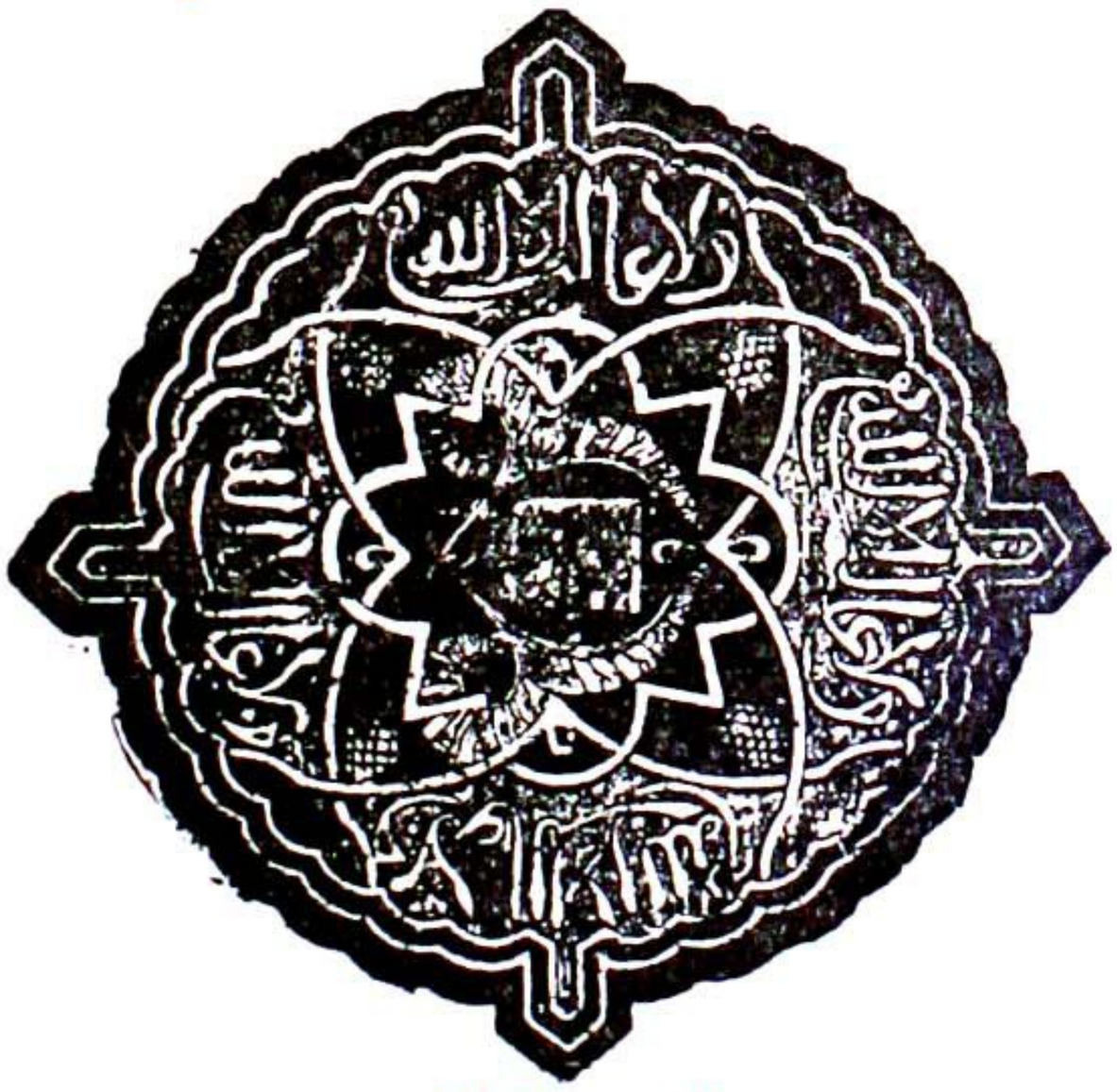

الترس الفرناطى

(*) للدكتور عبد الرحمن زكى رسالة عن السيوف الاسلامية لم تطبع بعد

Marfat.com

خلفاء بنى أمية ، فانه أبطل الصفوف ونظم الكراديس ، فحارب بها الضحاك الخارجى ثم الخبيرى . ولما بطلت الصفوف تنوسى الزحف ، ثم تنوسى الصف وراء المقاتلة بما دخل الدولة من الترف ، ولم يعودوا يحملون نساءهم وأولادهم معهم الى الحرب (*)

وهاك ما قاله عبد الحميد كاتب محمد بن مروان يوصى ولى عهد الخلافة بتعبئة الجيوش ، وهى صورة من صورها فى زمن بنى أمية ، قال :

«اذا كنت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصر، وكان من عسكرك مقتربا وقد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وحماة فتنته ، فتأهب أهبة المناجزة وأعد اعداد الحذر وكتب خيولك وعبىء جنودك . واياك والمسير الا مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، قد شهروا الاسلحة ونشروا البنود والاعلام. وعرف جندك مراكزهم ، سائرين تحت ألويتهم، قد أخذوا أهبة القتال واستعدوا للقاء ، ملحين الى مواقفهم عارفين بمواضعهم عن مسيرهم ومعسكرهم . وليكن ترجلهم وتنزلهم على راياتهم وأعلامهم ومراكزهم . وعرف كل قائد وأصحابه موقفهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة . لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ولا متهاونين بما أهبت بهم اليه ، حتى تكون عساكرهم فى كل منهل تصل اليه ومسافة تختارها كأنه عسكر واحد ، فى اجتماعها على العدة وأخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ونزولها على مراكزها ومعرفتها بمواضعها. ان ضلت دابة عن موضعها عرف أهل العسكر من أى المراكز هى ومن صاحبها وفى أى المحل حلوله منها ، فردت اليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها . فان تقدمك فى ذلك واحكامك له اطراح عن جندك مؤونة الطلب وعناية المعرفة وابتغاء الضالة . ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك فى نفسك صرامة ونفاذا ورضاء فى العامة وانصافا من نفسه للرعية وأخذا بالحق فى المعدلة ، مستشعرا تقوى الله وطاعته ، آخذا بهديك وأدبك واقفا عند أمرك ونهيك معتزما على مناصحتك وتزيينك نظيرا لك فى الحال وشبيها بك فى الشرف وعديلا فى المواضع ومقاربا فى الصيت . ثم اكتشف معه الجمع وأيده بالقوة وقوه بالظهر وأعنه بالاموال واغمره بالسلاح ، ومره بالعطف على ذوى الضعف من جندك ومن زحفت به دابته وأصابته نكبة من مرض أو رجلة أو آفة ، من غير أن تأذن لاحد منهم فى التنحى عن عسكره أو التخلف بعد ترجله الا المجهود أو المطروق بآفة . ثم تقدم اليه محذرا ومره زاجرا وانهه مغلظا بالشدة على من مر به منصرفا عن عسكرك من جندك بغير جوارك شادا لهم أسرا وموقرهم حديدا

(*) تابع المؤلف هنا ابن خلدون متابعة دقيقة . انظر : المقدمة ، ج ٣ ص ٤٨٥ وما يليها ، الفصل السابع والثلاثون فى الحروب ومذاهب الامم فى ترتيبها

ومعاقبهم موجعا ، أو موجههم اليك فتنهكهم عقوبة وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة ..» الخ

على أن بعض دعاة الخلافة من أهل البيت اعتبروا العدول عن الصف الى الكراديس بدعة فى الاسلام ، فظلوا على الزحف صفوفا ولو أدى بهم الى الخطر ، كما فعل ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن ابى طالب ، لما بعث المنصور عيسى بن موسى لمحاربته ، فالتقيا عند باخمرا على ١٦ فرسخا من الكوفة . فأشار عليه بعض أصحابه أن يجعل جنده كراديس «لان الكراديس أثبت فى الحرب ، فاذا انهزم كردوس ثبت كردوس ، أما الصف فاذا انهزم بعضه تداعى سائره» . فقال ابراهيم وسائر من معه : «لا نصف الا صف أهل الاسلام» ، يعنى الآية : «ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا» الخ ، فدارت الدائرة على ابراهيم ..

وبعد رسوخ المسلمين فى المدينة تفننوا فى تعبئة الجيوش ، بما اقتبسوه من فنون الحرب عند القدماء بعد ترجمة كتبهم أو دراستها . وتعددت ضروب التعبئة عندهم حتى صارت سبع تعبئات ، وان كانوا لايستعملونهاكلها، ولكنهم أدخلوها فى فنونهم الحربية : التعبئة الاولى أن ترتب الجيوش بشكل الهلال ، قالوا ان الفرس المتقدمين ذكروه . وهو نوعان : الهلال المرسل أو الحاد وهو البسيط مثل هلال السماء والهلال المركب وهو أن يكون الى جانبى الهلال شبه هلالين كأنهما جناحان ، وهى التعبئة الثانية . والتعبئة الثالثة المربع المستطيل . والتعبئة الرابعة الهلال المقلوب . والخامسة أن ينظم الجيش فى شكل المعين أو المربع المنحرف . والسادسة المثلث . والسابعة الدائرة المزدوجة ، وهى : دائرتان احداهما داخل الاخرى . وكانوا يعمدون الى هذا الضرب من التعبئة اذا كان جندهم قليلا وجند عدوهم كثيرا ، وهو يشبه آخر ما بلغ اليه المتمدنون من التفنن فىالتعبئة ــ نعنى مربع بونابرت الذىدوخ به الممالك،وهو عمدةالجنود المنظمة الى اليوم . فكان المسلمون اذا عبأوا الجيش الى الحرب ، نظموه أما كراديس أو مربعات أو مثلثات ، أو جعلوا بعضه كراديس وبعضه مربعا أو هلاليا أو معينا أو مثلثا ، على ما تقتضيه الاحوال

المعسكر

اما تنظيم المعسكر فلم يكن له علم خاص فى أوائل الاسلام ، بل كان العرب يجرون فى نصب خيامهم وترتيبها على ما كانوا فى جاهليتهم . فيكون فسطاط الامير فى الوسط ، وحوله فساطيط الامراء والخاصة . واذا كانت النساء والاولاد معهم ، جعلوهم وراء المعسكر . ولما أبطلوا حمل العيال معهم كما تقدم، جعلوا يقلدون الروم والفرس فى مضاربهم ، وتفننوا فى ذلك على ما اقتضته الاحوال . فلما تعددت فرق الجند ، وكثرت الحاشية والمماليك والخدمة ،

Marfat.com

صار المعسكر أشبه ببلد ، فيه الكتاب والفقهاء والاطباء والكحالون (*)وأصحاب الطبول والاتباع وغيرهم ، فضلا عن أصناف الجند ، كما ترى فى الصفحة التالية ، وهو ارقى ما بلغ اليه نظام المعسكر فى الاسلام

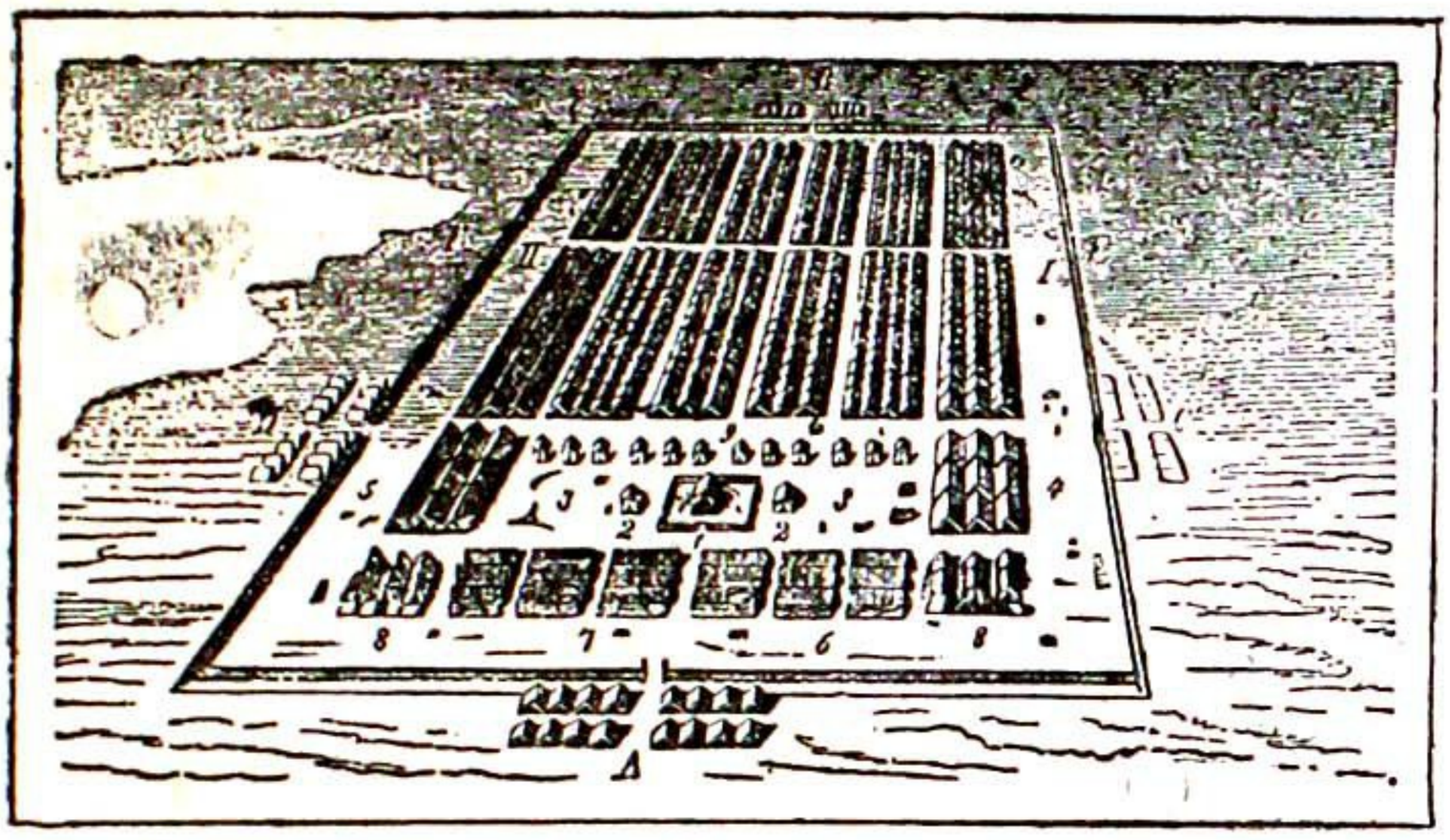

معسكر رومانى

له أربعة أبواب : A فى مقدمه و R فى مؤخره و C و D فى الجانبين ، كل باب منها خاص بطبقة من الجند . وقد ترتبت الكتائب أو الكرانديس فى ستة صفوف مزدوجة بينها طرق طولية ، ويقطعها عرضاً شارع واحد . وأمام الكتائب خيم كبار القواد 1 و 2 و 3 والى جانبها 4 و 5 خيم المتطوعين . وأمامها فى أول المعسكر 6 و 7 جند المتطوعة وبعدها على الزاويتين 8 المساعدون من جند الأجانب

مناداة الجند

كانوا فى أوائل الاسلام اذا تهيأ الجيش للقتال نادى قواده :« النفير النفير » وهى علامة الهجوم عندهم ، تقابل نداء قواد الجند الآن فى مصر : « هجوم حاضر ال (**) »ثم «هجوم ! » واذا أرادوا ارجاعهم قالوا : « الرجعةالرجعة!» وهى مثل قولهم اليوم « جريه ! » . وكانوا اذا أرادوا ان يركب الفرسان للحرب نادوا : « الخيل الخيل ! » ويقال لمثل ذلك فى الجيش المصرى : « بين مايه حاضر ال ! » ثم « بين ! » واذا أرادوا أن يترجلوا قالوا : « الارض الارض ! » ، ومثلها فى مصر : « اين مايه حاضر أل ! » ثم « اين ! »

ولما تمدن المسلمون وتعددت أجزاء جندهم وتنوعت حركاتهم ، جعلوا لكل حركة نداء خاصا يدل لفظه على المراد به . وهذه اسماؤها : ١ ــ الميل ، ٢ ــ الانقلاب ، ــ ٣ الانفتال ، ٤ ــ تسوية الانفتال ، ٥ ــ استدارة صغرى ،

(*) أطباء العيون

(**) كان هذا هو نداء الهجوم فى الجيش المصرى فى ذلك الحين ، وهو نداء تركى ، وقد بطل ذلك من زمن بعيد

Marfat.com

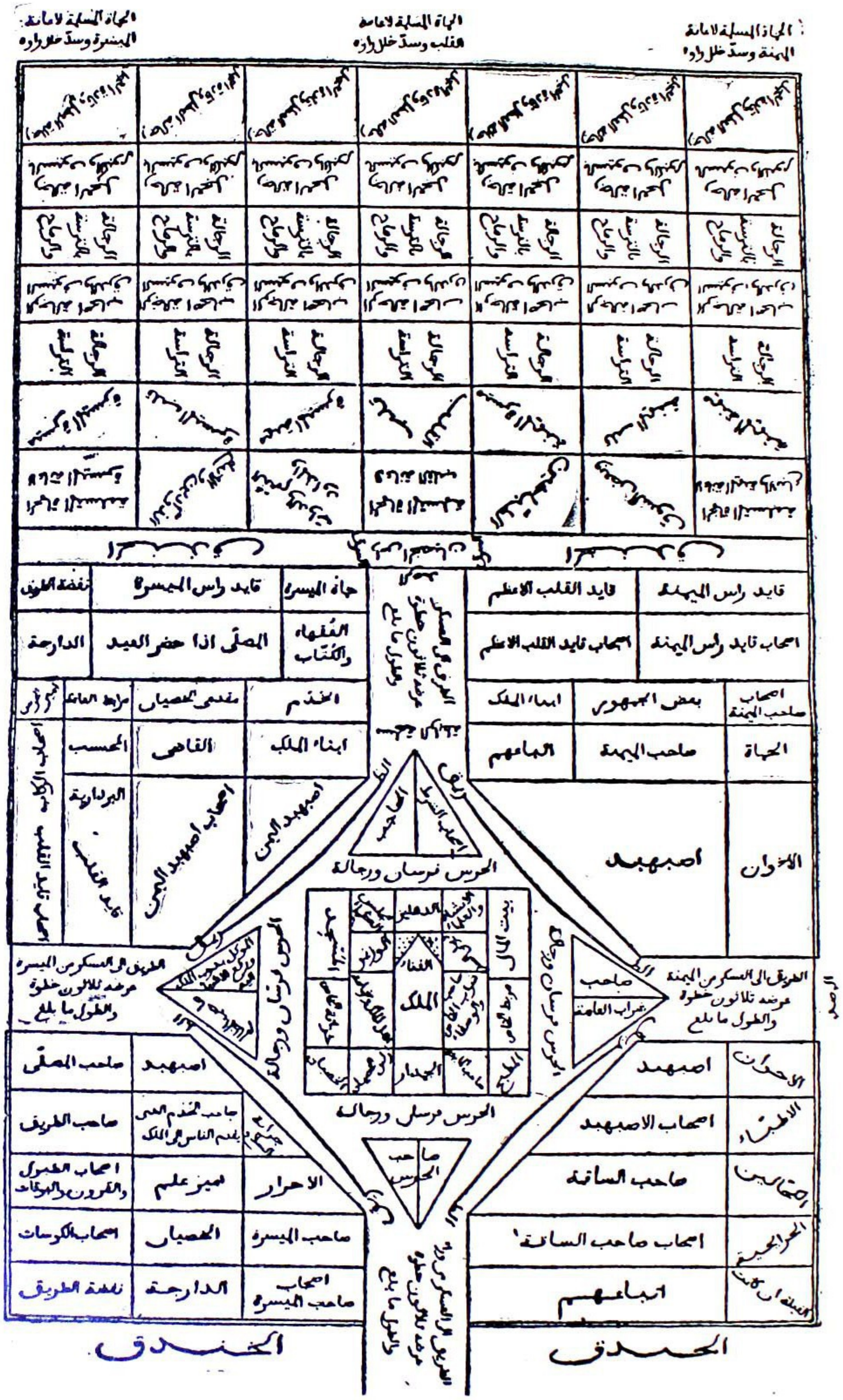

معسكر اسلامى كامل نحو القرن الثامن للهجرة
فى أرقى ما بلغ اليه نظام الجنـــد عنـدهم

Marfat.com

٦ ـ استدارة كبرى ، ٧ ـ تقاطر ، ٨ ـ اقتران ، ٩ ـ رجوع الى الاستقبال ١٠ ـ استدارة مطلقة ، ١١ ـ أضعاف ، ١٢ أتباع الميمنة ، ١٣ ـ أتباع الميسرة ، ١٤ ـ جيش منحرف ، ١٥ ـ جيش مستقيم ، ١٦ ـ جيش مورب ، ١٧ ـ رض ، ١٨ ـ تقدم ، ١٩ ـ حشو ، ٢٠ ـ رادفة ، ٢١ ـ ترتيب بعد ترتيب

فكانوا اذا أراد قائد الجند ان يميل جنده الى جهة ، أو يتخذ شكلا خاصا من هذه الاشكال ، أو حركة من هذه الحركات ، ناداه بكلمة من هذه الكلمات . وهم قد تدربوا على المراد من كل منها ، فيميلون كما يشاء على مثال الحركات العسكرية فى جنود هذه الايام . ثم اختصروا ذلك فى كلمتين هما : «هو جوا ! » و « هو برا ! » واستعانوا على اتمام المراد بالاشارات . ولذلك كان على الجند أن يراعوا الرئيس بأعينهم ، حتى اذا مال الى جهة مالوا معه . وفسروا هذين اللفظين بأن المراد بهو جوا ان تقبل الوجوه تجاه بعضها بعضا ، وعكس ذلك هو برا

شعار الجند

كان للعرب فى جاهليتهم ألفاظ يتعارفون بها فى أثناء الحرب يسمونها الشعار. وليست هى ألفاظا معينة ، ولـكنهم كانوا يصطلحون عليها على مقتضى الاحوال . كان شعار الاحزاب فى غزوة أحد : « يا للعزى يالهبل » ، وكان شعار تنوخ فى الحيرة « ياآل عباد الله » ، وجعل النبى لكل من المهاجرين والانصار شعارا ، فكان شعار المهاجرين « يابنى عبد الرحمن » ، وشعار الاوس « يابنى عبيد الله » ، وشعار الخزرج « يابنى عبد الله » ، وسمى خيله « خيل الله » . وكان المسلمون بعد ذلك يجعلون لجنودهم شعارا يتعارفون به ، على نحو ما تقدم

الثغور والعواصم

ويراد بها حدود المملكة الاسلامية برا وبحرا ، فقد رأيت فيما تقدم ان العرب لما جاءوا لفتح الشام انما بدأوا ببرها من جهة حوران مما يلى الصحراء ، لان قوات الروم كان معظمها فى مدن السواحل ، فجعلوا فتوحهم تمتد من البر نحو البحر ، ومن العرب وأهل البلاد الاصليين الى الروم . فبعد ان فتحوا دمشق ساروا نحو السواحل ، وفى مقدمتهم يزيد بن أبى سفيان وأخوه معاوية ، وكان ذلك فى أيام أبى عبيدة عامر بن الجراح على دمشق . جاءوا بيروت وصيدا وجبيل ففتحوها فتحا يسيرا ، ثم عاد الروم بعدئذ فاسترجعوها لان قواتهم فى البحر كانت كبيرة . وما زالت فى ايدى الروم حتى تولى الخليفة عثمان ، ومعاوية عامله على الشام ، ففتحوا طرابلس وغيرها . وكانت لمعاوية رغبة

Marfat.com

فى غزو البحر ، وعثمان يخافه كما كان عمر يخافه من قبل ، وما زال معاوية يلح على عثمان حتى أذن له ، فسلمت ثغور الشام عندئذ للمسلمين ، فجعل الناس ينتقلون اليها من كل ناحية ، فعمرت بهم

وكانت ثغور الشام فى أيام الخلفاء الراشدين انطاكية ، وغيرها من السواحل التى سماها الرشيد عواصم ، فكان المسلمون يغزون ما وراءها . وكان للروم بقية فى بعض المسالح بين الاسكندرونة وطرسوس ، فلما تولى بنو أمية أتموا فتحها ، وزادت عمرانا فى أيام بنى العباس ، وجعلوا فيها الحامية والسلاح لدفع غارات الروم ، لانهم كانوا لا ينفكون عن مناوأة العرب . فبنى العرب حصونا هناك ، ورمموا الحصون التى كان الروم قد بنوها ، وجعلوا لاهلها عطاء كبيرا وأمروهم بالغزو

وفعلوا نحو ذلك فى حدود المملكة الاسلامية من جهة البر ، فاتخذوا مدنا حصينة جعلوها ثغورا يقيمون فيها الجند والسلاح فى قلاع لدفع العدو أو لغزو بلاده

وبناء على ذلك فان تخوم المملكة الاسلامية بعضها من جهة البر ، والبعض الآخر يتصل اليه بالبر والبحر معا

والحدود البحرية هى على الاطلاق ثغور الشام ومصر . فاذا عددنا الثغور الشامية من الشمال كان أولها طرسوس فأدنه فالمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وأياس ونقابلس ، وارتفاعها ـ أى دخلها ـ نحو ١٠٠ ٠٠٠ دينار تنفق فى مصالحها وسائر وجوه شأنها ، من نفقات الحامية والترميم والمخائض والحصون وغير ذلك ، لا يرد منها شىء الى بيت المال ، بل قد ينفق عليها بيت المال ورواتب الجنود . وثغور مصر منها رفح والعريش ودمياط والاسكندرية

ويلى ثغور الشام من الشمال الثغور التى سموها الجزرية ، نسبة الى جزيرة العراق ، وأولها مرعش ثم الحدث ثم حصون متتابعة الى ثغر شميشاط ثم ملطية . وارتفاع هذه الثغور مع ملطية ٧٠ ٠٠٠ دينار ، يصرف فى مصالحها ٤٠ ٠٠٠ ويبقى ٣٠ ٠٠٠ ، ويحتاج لنفقة الاولياء والصعاليك ١٧٠ ٠٠٠ دينار تضاف الى تلك البقية ، فيكون المجموع مئتى الف دينار سوى نفقات المغازى . والثغور المذكورة هى الواسطة التى منها كانت المغازى ، وعواصم هذه الثغور دلوك ورعبان ومنبج ، ناهيك بالثغور التى تحاذى بلاد الهند فى الشرق ، مما يطول شرحه (*)

(*) أطلق المسلمون أول الامر اسم العواصم على الولايات المتاخمة للدولة البيزنطية شمالى العراق والشام ، والثغور هى المراكز العسكرية لهذه الولايات المتطرفة . وكانت الثغور تقوم عادة على المداخل الى بلاد الروم ، وعلى الموانى التى تصدر منها الاساطيل للغزو . ولم يستقر نظام العواصم والثغور الا على أيام العباسيين ، وفى أيام الرشيد بصورة خاصة ، والاغلب ان

Marfat.com

الغزوات

فالثغور المذكورة هى حدود المملكة الاسلامية ، وهى التى عزلها هارون الرشيد سنة ١٧٠ هـ عن الجزيرة وقنسرين وسماها العواصم . وكان المسلمون يخرجون منها كل سنة للغزو فى البحر والبر ، جهادا فى سبيل الاسلام . وكان الجهاد فرضا على المسلمين يحرضهم الخلفاء عليه ، كما رأيت فى قول ابى بكر يوم تولى الخلافة : « لا يدع أحد منكم الجهاد ، فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل » . أما غزو البحر فقد كانت مراكبهم تجتمع فى سواحل الشام ومصر ، حتى تلتقى فى جزيرة قبرص ، وعددها ما بين ٨٠ — ١٠٠ مركب . ويسمى ما يجتمع منها هناك الاسطول ، وكان يتولى قيادة الاسطول صاحب مراكب الثغور الشامية . وكانت تبلغ النفقة على هذه المراكب ، اذا غزت مصر والشام ، مائة ألف دينار

وكانت غزواتهم تعين باعتبار الفصول ، فمنها غزوة صيفية وتسمى صائفة ، أو شتوية وتسمى شاتية ، أو ربيعية تقع فى العاشر من شهر آيار (مايو) أى بعد ان يكون المسلمون قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون فى الغزوة ثلاثين يوما أى الى العاشر من حزيران (يونيو) فكأنهم يجدون الكلأ حينئذ فى بلاد الروم ممكنا ، فترتبع دوابهم ربيعا ثانيا . ثم يقفلون فيقيمون ٢٥ يوما أى الى ٥ تموز (يوليو) حتى تقوى الخيول فيجتمعون لغزو الصائفة أى الصيف . ثم يغزون لعشر تخلو من تموز ، فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوما ، وكانوا فى بعض السنين يغزون صائفتين ، يسمونهما الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى

اما فى الشتاء ففزواتهم قليلة ولا يبعدون فيها أكثر من عشرين ليلة ، ويكون ذلك فى آخر شباط (فبراير) فيقيم الغزاة الى اوائل اذار (مارس) ثم يرجعون ويربعون دوابهم

الذى حفز الرشيد على وضع نظام هذه الولايات هو تحويل الدولة البيزنطية ـ على أيام الاسرة المقدونية ـ لولاياتها المتاخمة للدولة الاسلاميةالى ولايات عسكرية تسمى واحدتها تيما ويسميها العرب البنود

وكانت العواصم ولايات عسكرية يحكمها قادة عسكريون ، ويسرى فيها القانون العسكرى لا المدنى . وتبعا لذلك كانت الثغور قواعد عسكرية صرفة ، لا يقيم فيها غير الجنود والمجاهدون والمتطوعة ، الذى يطلق عليهم لفظ الصعاليك كما يقول المؤلف . وبالاضافة الى الثغور الشامية والجزرية المذكورة هنا ، كانت هناك ثغور السند فى أقصى المشرق ، والثغور الاندلسية وهى ثغور الاندلس الشمالية ، وكانت ثلاثة : الثغرالاعلى وقاعدته سرقسطة ، والثغر الاوسط وقاعدته مدينة سالم ، والثغر الادنى وقاعدته الاشبونة

انظر : حسين مؤنس : المسلمون فى البحر الابيض الى الحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٤)
ابراهيم احمد العدوى : الامويون والبيزنطيون (القاهرة ١٩٥٣)
ومادة ثغور بدائرة المعارف الاسلامية

Marfat.com

فترى مما تقدم ان الخلفاء لم يقتصروا على حفظ مملكتهم ، بل جعلوا غزو الممالك الملاصقة لها فرضا واجبا عليهم ، وهو من قبيل الجهاد فى سبيل الله كما قدمنا . وكان من أكثر الخلفاء رغبة فى ذلك بنو العباس ، فانهم لما استتب لهم الامر ودانت لهم المملكة الاسلامية تحولوا الى الغزو ، فكانوا فى أوائل دولتهم يرسلون بعض القواد لغزو الروم كل سنة ، كما يرسلون من يحج بالناس ، ثم صاروا يغزون بأنفسهم . فقد غزا المهدى سنة ١٦٣ هـ الروم بنفسه ، وسير ابنه الرشيد سنة ١٦٥ هـ لغزوهم ومعه ٩٣٠ ٩٥ رجلا ، فأوغلوا فى بلاد الروم حتى بلغوا خليج القسطنطينية ، بعد أن مروا بمسالح الروم فى طريقهم ، فاسترضاهم صاحبها بمال مقداره : ١٩٣٤٥٠ دينارا و ٨٠٠ ١٤٠ ٢١ درهم

فلما وصل الرشيد الى القسطنطينية خافه أهلها ، وكان على كرسى القسطنطينية الامبراطورة ايرينى ، فصالحته على فدية مقدارها سبعون ألف دينار تدفعها له كل سنة ، وأن تقيم له الادلاء والاسواق فى الطريق ، وطول الهدنة ثلاث سنين ، وبلغ مقدار ما غنمه المسلمون فى أثناء تلك الغزوة غير ما تقدم ٥٦٤٣ رأسا من السبى ، وعشرين ألف رأس من الدواب ، ومائة ألف رأس غنم وبقر . وقتلوا من الروم فى تلك الغزوة وحدها ٥٤ الف نفس ، ما عدا الاسرى . ومن ذلك يتبين لك ما كان يزيد المسلمين رغبة فى الغزو

الاساطيل

ركوب البحر

لم يركب العرب البحر قبل الاسلام ، الا ما كان من سفائن حمير وسبأ فى أيام التبابعة ، لانهم كانوا أهل تجارة فى البر والبحر . وأما عرب الحجاز فانهم كانوا يخافون البحر ولا يجسرون على ركوبه ـ وذلك شأن البدو الى هذا اليوم. فلما ظهر الاسلام وخفقت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر ، رأوا سفن الروم وشاهدوا حروبها فيها فتاقت أنفسهم للغزو فى البحر . وأول من ركب البحر منهم العلاء بن الحضرمى ، وكان عاملا على البحرين فى أيام عمر بن الخطاب ، فأحب ان يفتح سواحل فارس وبينه وبينها خليج فارس ، فعبر عليها فى المراكب ولم يستأذن عمر ، ولم يفلح فى غزوته

فشق ذلك على عمر ، فجعل قصاصه ان يكون تحت امرة سعد بن ابى وقاص أمير الكوفة يومئذ ، وشدد عمر فى منع المسلمين من ركوب البحر . وكان معاوية قد تولى جند دمشق والاردن ، وهو رجل المطامع البعيدة ، فراقه ركوب بحر الروم لغزو ما وراءه ، فبعث الى عمر يستأذنه فأبى . فألح

Marfat.com

عليه ورغبه فى الكسب ، فكتب عمر الى عمرو بن العاص أمير مصر يطلب اليه أن يصف له البحر فأجابه : « يا أمير المؤمنين . انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير .. ليس الا السماء والماء ، ان ركد أحزن القلوب وان ثار ازاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه دود على عود ، ان مال غرق وان نجا برق » ، فلما جاءه الكتاب بعث الى معاوية : « والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما ابدا »

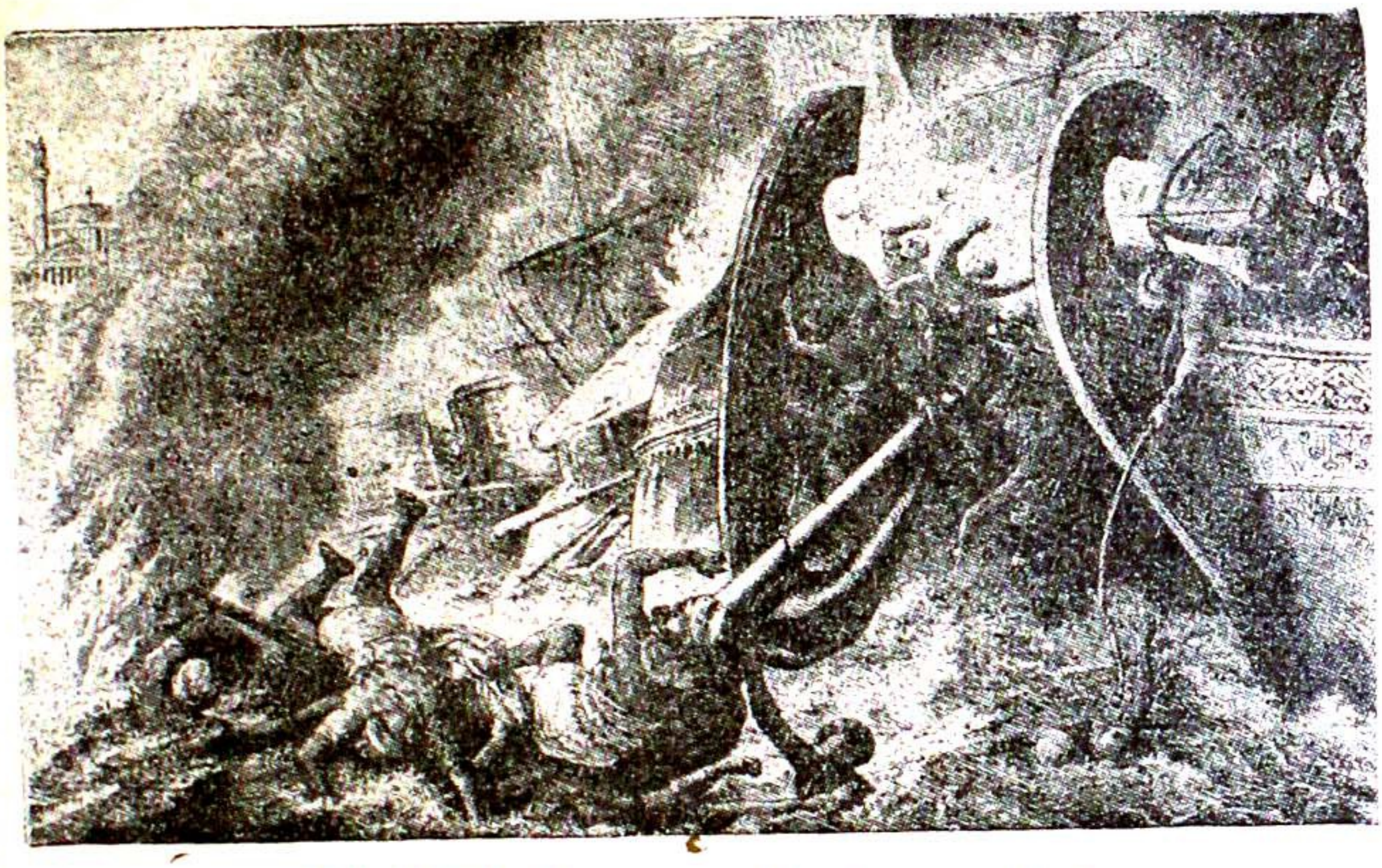

أسطول عربى يحارب الروم وهم يرمونه بالنار اليونانية

فلما كانت خلافة عثمان أطاع معاوية لشدة الحاحه ، ولكنه شرط عليه أن يجعل الغزو فى البحر اختياريا ، فمن اختار ركوبه حمله وأعانه . فركب معاوية فى البحر الى قبرس سنة ٢٨ هـ فصالحه أهلها على ٧٢٠٠ دينار يدفعونها له كل سنة . وهى أول غزوة غزاها المسلمون فى البحر . وراقهم النصر فازدادوا رغبة فى غزوه ، فجعلوا ذلك فى أوقات معينة من الصيف والشتاء كما تقدم (*)

الاساطيل فى الاسلام

ولم يكن للعرب معرفة فى الملاحة ، فاستخدموا أولا من كان فى حوزتهم من الروم ، وفيهم أهل الصناعة والنواتية ، فأنشأوا لهم السفن والشوانى ،

(*) انظر حسين مؤنس : المسلمون فى البحر الابيض المتوسط الى الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٤

وشحنوها بالرجال والسلاح ، وأركبوها العساكر والمقاتلة لغزو ما وراء البحر. وسموا مجموع السفن اسطولا ، وهو لفظ يونانى (Stolos) عربوه . وجعلوا مقر أساطيلهم بحر الروم خاصة ، واشترك فى ملاحة البحر منهم أهل الشام وافريقية والاندلس ، وأنشأوا دور الصناعة (الترسانة) فى تلك البلاد لبناء السفن واعداد معداتها . وأول دار للصناعة فى الاسلام بنيت فى تونس على عهد عبد الملك بن مروان ، فأمر عامله على افريقية حسان بن النعمان بذلك ففعل ، وأنشأ السفن وجهزها بالعدة والسلاح ، وبعث فيها المقاتلة لغزو صقلية (سيسيليا) فلم يتيسر لهم فتحها الا فى أيام الاغالبة ، ففتحها أسد ابن الفرات على عهد زيادة الله بن ابراهيم بن الاغلب . وفتح أيضا قوصرة (*) فازداد المسلمون رغبة فى غزو البحر ، فبالغوا فى انشاء الاساطيل فى افريقية والاندلس ، فبلغ عدد سفن أسطول الاندلس فى أيام عبد الرحمن الناصر فى أواسط القرن الرابع للهجرة مائتى سفينة ، وكان أسطول افريقية نحو ذلك. وأشهر مرافىء الاندلس بجانة والمرية ، وكانت دور الصناعة قد تعددت هناك ، وكل دار تبنى أسطولا عليه قائد ورئيس ، فالقائد يدبر أمر سلاحه وحربه ومقاتلته ، والرئيس يدبر أمر جريه بالريح أو المجاديف . فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو أو غرض آخر عسكرت بمرفئها المعلوم ، وجعلوا النظر فيها كلها لامير واحد من أعلى طبقات المملكة (**)

وأما مصر فقد أنشئت فيها دور الصناعة فى أواخر القرن الاول للهجرة كما سيأتى ، وأول من أنشأ الاسطول فيها عنبسة بن اسحق أميرها من قبل الخليفة المتوكل على الله العباسى . وسبب ذلك ان الروم نزلوا دمياط سنة ٢٣٨ هـ وملكوها ، وقتلوا وسبوا ، فعظم الامر على أمير مصر فأمر بانشاء الشوانى للاسطول ، وجعل للبحر غزاة مثل غزاة البر ، وجعل أرزاقهم من أرزاقهم . فاجتهد الناس فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفين وشحنه بالرجال والسلاح ، وأرسله لغزو الروم فى جملة أساطيل افريقية والاندلس والشام ، فكانت الحروب بين المسلمين والروم سجالا ، يأسر بعضهم بعضا ، فاحتاج الخلفاء الى افتداء أسراهم بالمال ، فوضعوا ما يسمونه الفداء (***)

(*) فى الاصل قوصة ولا نعرف مدينة بهذا الاسم فى هذه الناحية فغلب على ظنى انها قوصرة وهى الجزائر المعروفة باسم Penteleria فصوبتها على هذا النحو

(**) انظر عن ذلك : حسين مؤنس : المسلمون فى البحر الابيض ، ص ٧٦ وما يليها ، والمراجع المعطاة هناك

(***) يرجع تاريخ صناعة السفن فى مصر الى أبعد من ذلك ، فقد كانت مصر منذ معركة الصوارى

Marfat.com

الفـــداء

وأول من افتدى أسرى المسلمين بالمال هرون الرشيد العباسى سنة ١٨٩ هـ ، وكان الفــداء قبله يقع بالمبادلة : النفر بالنفر . وأشهر الافدية ١٣ ، وكلها فى أيام بنى العباس ، آخرها جرى فى ايام المطيع لله سنة ٣٣٥ هـ . وبلغ عدد الذين افتداهم الخلفاء فى هذه المدة نحو ٥٠ الف نفس . وكان الفداء يقع غالبا على ضفتى نهر اللامس من سواحل بحر الروم قريبا من طزسوس ، ويحضر الفداء جمهور من المسلمين والروم فيقضون فى الافتداء بضعة عشر يوما الى بضع عشرات . وشـــهد الفداء الاول نحو ٥٠٠٠٠ نفس من المسلمين ، بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة ، حتى ملأوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وجاءت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزى ومعهم الاسرى ، وكان عدد الذى فودوا فيه ٣٧٠٠ نفس . وفى ذلك يقول مروان بن أبى حفصة يخاطب الرشيد من أبيات :

وفكت بك الاسرى التى شيدت لها محـابس ما فيهـــا حميم يزورها
على حين أعيـــا المسلمين فكاكهـا وقالوا سجون المشركين قبورها (*)

الاساطيل المصرية

ولما دخلت مصر فى حوزة العبيديين (الفاطميين) ملوك افريقية ، بذلوا عنايتهم فى انشاء الاساطيل فى الاسكندرية ودمياط ومصر ، وبلغت الجنود البحرية فى أيامهم خمسة آلاف لهم الرواتب المعينة ، منهم عشرة قواد راتب كل واحد منهم من ١٠ الى ٢٠ دينارا ، ومنهم أقل من ذلك الى دينارين وهى أقلها (**) . ولهم اقطاعات كانوا يسمونها أبواب الغزاة . وكانوا ينتخبون احد

(سنة ٦٥٥/٣٤) مركز صناعة السفن الاسلامية ، وقامت دور الصناعة (أى الترسانات) فى جزيرة الروضة قرب القاهرة وفى الاسكندرية ودمياط ، واشتهر المصريون بالخبرة فى انشاء الموانى ودور الصناعة والسفن ، فكان رجال الدولة الاسلامية يبعثون فى طلبهم ويعهدون اليهم فى كبار المهام البحرية . انظر : المسلمون فى البحر الابيض ، ص ٨٧ وما يليها

(*) قال مروان بن ابى حفصة هذين البيتين فى فداء سنة ١٨٩ الذى أشار اليه المؤلف . انظر : ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ص١٢٢ وهامش ١

وكانت عملية الفداء تتم بصورة منتظمة تقليدية ذات روعة خاصة ، فيقف المسلمون على الضفة الشرقية لنهر اللامس ، ويقف الروم على ضفته الغربية . واللامس نهر صغير ضيق كأنه ترعة ، ويمد جسران من القوارب من ضفة لضفة ، وكلما أطلق الروم أسيرا مسلما أطلق المسلمون أسيرا روميا معادلا له من حيث المكانة والسن وسلامة البدن ، وكلما وصل الى المسلمين أسير من أسراهم صاحوا : الله أكبر! وعندما يصل الى الروم أحد أسراهم يصيحون صياحا مماثلا ، فاذا بقيت لاحد الجانبين بقية من الاسرى افتديت بالمال

(**) المؤلف يتابع هنا القلقشندى فى صبـــح الاعشى ، ونص عبارته : « ... وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية ، كالاسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعســـقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام ، حين كانت بأيديهم ، قبل أن يغلبهم عليها الفرنج ، وكانت

هؤلاء القواد رئيسا للاسطول ، فاذا ساروا الى الغزو كان هو آمرهم وناهيهم ، ومع هذا الرئيس أمير كبير من أمراء الدولة . وأما النفقة على غزاة الاساطيل فكان الخليفة يتولى تفريقها بنفسه بحضور الوزير ، مبالغة فى اكرام رجال البحر ورفع منزلتهم . وبلغت المراكب فى أيام المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين بمصر ٦٠٠ قطعة ، ثم نقصت بعده حتى أصبحت مائة قطعة

وكانوا يحتفلون فى اخراج الاسطول الى الغزو احتفالا شائقا يحضره الخليفة، فيجلس فى منظرة معدة له على ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة لوداع الاسطول (*) . فيجىء القواد بالمراكب الى هناك ، وهى مزينة بأسلحتها وبنودها ، وفيها المنجنيقات فيرمى بها فتنحدر المراكب وتقلع ، وتفعل ماتفعله لو كانت فى حرب ، وهو ما يعبرون عنه اليوم بالمناورة . ثم يحضر الرئيس والمقدم بين يدى الخليفة فيودعهما ويدعو لهما ، ويعطى المقدم ١٠٠ دينار والرئيس ٢٠ دينارا . ويحتفلون مثل هذا الاحتفال عند عودتهم من الغزو . وفى أيام صلاح الدين أنشىء للاساطيل ديوان خاص سموه ديوان الاسطول ، وعينوا الاموال للنفقة عليه

فتوح المسلمين البحرية

وكان للاساطيل تأثير كبير فى توسعة المملكة الاسلامية ، لانهم فتحوا بها أشهر جزر بحر الروم ، ومنها سردينية (سردينيا) وصقلية (سيسيليا) ومالطة وأقريطش « كريد » وقبرص وغيرها . وفتحوا كثيرا من شواطىء هذا البحر مما يلى أوربا ، وسارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة ، وعليها العساكر الاسلامية تجوز البحر من صقلية الى بر ايطاليا فى الشمال ، فتوقع بملوك الافرنج وتشخن فى ممالكهم . وخصوصا فى أيام بنى الحسين الكلابيين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوى الفاطميين . فانحاز الافرنج بأساطيلهم الى الجانب الشمالى الشرقى من هذا البحر ، وملك المسلمون سائره بمراكبهم وأساطيلهم ، وصاروا سلاطين البحر كما كانوا سلاطين البر . وضعف امر الافرنج الى ان ادرك الدولة العبيدية بمصر والاموية بالاندلس الفشل ، وطرقها الاعتلال بحكم ناموس الاجتماع ، وأفاق الافرنج وعادوا الى استرجاع بلادهم فاسترجعوها ،

جريدة قوادهم تزيد على خمسة آلاف مقاتل مدونة ، وجوامكهم فى كل شهر من عشرين دينارا الى خمسة عشر دينارا الى عشرة الى ثمانية الى دينارين ، وعلى الاسطول أمير كبير من أعيان الامراء وأقواهم جأشا ، وكان أسطولهم يومئذ يزيد على خمسة وسبعين شينيا وعشر مسطحات ، وعشر حمالات »

(*) هذا يدل على أن أكبر جانب من سفن الاسطول كان يبنى فى المقس وجزيرة الروضة

Marfat.com

وسطوا على بلاد المسلمين نفسها ، وكان ما كان من الحروب الصليبية على ما هو مشهور (*)

وكان المسلمون قد أهملوا أمر الاساطيل ، وقل تجنيدهم لها وبطل ديوانها . وبعد ان كان جند البحر عندهم يلقبون بالمجاهدين فى سبيل الله ، والغزاة فى اعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس ، أصبح « أسطولى » بمصر لقب اهانة ،

بربروسا أو خير الدين باشا

وصارت خدمة الاساطيل عارا عندهم (**) . وظل ذلك شأنهم حتى تولى الملك الظـاهر بيبرس البندقدارى سلطان المماليك الشـهير ، فأعاد شأن الاساطيل ، لكنها لم تعد الى ما كانت عليه فى عز الاسلام . على انهم بذلوا جهدا كثيرا فى دفع الصليبيين عن مصر ، وكان الصليبيون يأتون غالبا من جهة النيل . وكان المماليك يبنون على ضفتى النيل ابراجا من الخشب يوصلون بينها بسلاسل الحديد ، لتمنع سفن الافرنج من المرور فى النيل

انحط شأن الاساطيل فى مصر والشام ، وبقى فى الاندلس وافريقية ،

(*) يتابع المؤلف هنا ابن خلدون فى المقدمة: الفصل الذى بعنوان « قيادة الاساطيل » . انظر طبعة بيروت ، حـ ٢ ص ٤٥١ وما بعدها

(**) لم أجد ما يدل على ذلك ، راجع مادة « اسطولى » فى « ذيل على القواميس العربية » Supplément aux dictionnaires arabes.

Marfat.com

وبقيت دولة المغرب مختصة بها ، وظل ذلك شأنهم الى اواخر دولتهم ، وكان عدد اساطيلهم فى العدوتين (اوربا وافريقية) ــ على ما رواه ابن خلدون ــ مائة اسطول . وفى اثناء ذلك نبغ احمد الصقلى قائد اساطيل المغرب فى القرن السادس للهجرة ، وانتهت اساطيل المسلمين فى ايامه الى ما لم تبلغه قبله ولا بعده . ثم انحطت بانحطاط الدولة حتى انقضت بانقضاء الاسلام فى الاندلس . ثم عاد الاسطول الاسلامى الى الظهور فى عهد الدولة العثمانية، واشتهر من قواده بربروسا خير الدين باشا فى القرن التاسع للهجرة (*)

دار الصناعة

يراد بدار الصناعة عندهم ما نعبر عنه اليوم بالترسانة او الترسخانة ، وهما منقولتان عن تلك الكلمة . لأن الافرنج لما فتحوا بلاد العرب كان فى جملة ما اقتبسوه عنهم صناعة المراكب ، كما اقتبسها العرب من اسلافهم ، وسمى الاسبان دار الصناعة Darsina ، واخذتها عنهم سائر لغات اوربا ، فتقلبت بالنحت حتى صارت ارسنال Arsenal ، واخذها العرب عن الاسبان Tarsanah بطريق التركية ، فظنوها تركية فعربوها ترسخانة أو ترسانة ، وهى أولى أن تسمى دار الصناعة . وقد يقال ذلك فى اشتقاق لفظ « اميرال » Amiral الافرنجية عن « أمير البحر » العربية

وكانت دور الصناعة فى بلاد الاسلام كثيرة فى الاندلس وافريقية وفى الشام ومصر ، واول دار بنيت بمصر لهذه الغاية انشئت فى جزيرة الروضة تجاه الفسطاط فى القرن الاول للهجرة . ثم عنى احمد بن طولون بتوسيعها وتحسينها ، ثم نقلت الى الفسطاط فى ايام الاخشيد فى اول القرن الرابع للهجرة ، حتى لايكون بينها وبين الفسطاط بحر . ثم انشأ الفاطميون دارا للصناعة فى المقس بقرب مدينتهم (القاهرة) وكانت تصنع فى هذه الدور المراكب على انواعها ومنها النيلية والحربية . فالنيلية كانوا ينشئونها لتمر فى النيل من اعلى الصعيد الى مصاب النيل تحمل الغلال وغيرها ، والحربية هى مراكب الحرب لحمل المقاتلين للجهاد ، وهى التى يقال لمجموعها الاسطول

اشكال السفن ومعداتها

وكانت المراكب الحربية أنواعا تتفاوت شكلا وجرما وقوة ، منها « الشونة » (**) وهى مراكب كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا للدفاع ،

(*) يتابع المؤلف هنا أيضا كلام ابن خلدون،انظر ص ٤٥٧ من طبعة المقدمة المشار اليها ، وهو يروى هناك تاريخ احمد الصقلى المشاراليه هنا

(**) وتسمى أيضا الشينى والشين ، انظر: السلاح فى الاسلام للدكتور عبد الرحمن زكى

Marfat.com

و « الحراقة » كانوا يحملون فيها منجنيقات يرمى بها النفط المشتعل على الاعداء ــ ويسمون المنجنيق عرادة ، و « الطرادة » سفينة صغيرة سريعة الجرى ، و « العشاريات » (*) مراكب يسار بها فى النيل . وهناك سفن اخرى لاغراض أخرى مثل الشلنديات (**) والمسطحات (***) وغيرها . وكانوا يبنون سفنهم على مثال سفن اليونان والرومان ، لانهم أخذوا هذه الصناعة عنهم وعدلوها

وكان من معدات السفن الحربية عندهم الزرد والخوذات والدرق والتروس والرماح والقسى والكلاليب (****) والباسليقات ــ وهى سلاسل فى

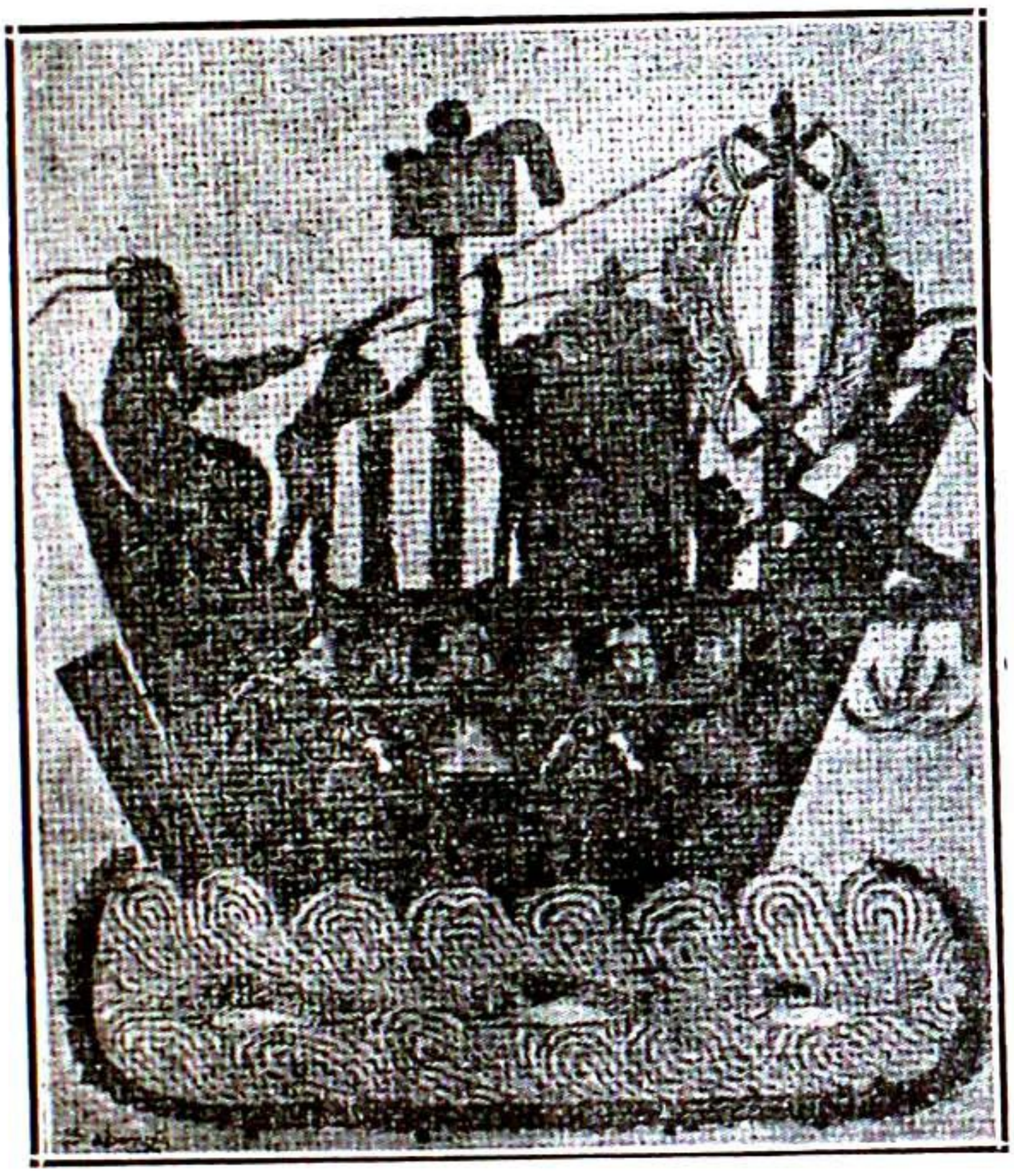

سفينة عربية
نقلا عن نسخة مخطوطة قديمة من مقامات الحريرى فى مكتبة المستشرق شيفر

رءوسها رمانة حديد ــ والعرادات . وكانوا يجعلون فى أعلى الصوارى صناديق مفتوحة من أعلاها يسمونها التوابيت ، يصعد اليها الرجال قبل

(*) العشارى أو العشيرى نوع من المراكب يسير فى النيل يجدف فيه ١٠ رجال بعشرين مجداف وينقل البضائع والرجال من ساحل الى آخر ويتبع الاسطول . عبد الرحمن زكى ، نفس المصدر

(**) مفرده شلندى وهى مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح ، وتعادل فى أهميتها الشونة والحراقة ، وأصل اسمها لاتينى Chalendsum وحرفت أيضا الى صندل ويستعملها الافرنج لنقل البضائع . نفس المصدر

(***) المسطح أكبر سفن الاسطول الاسلامى ، وكانت تجر خلف السفن الصغيرة لئلا تغرق

(****) مفردها كلابة ، أداة أشبه بالهلب تلقى على سفن العدو لتتشبث بها وتجذبها

Marfat.com

استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم حجارة صغيرة فى مخلاة معلقة بجانب الصندوق ، فيرمون العدو بالاحجار وهم مستورون بالصناديق . وقد يكون مع بعضهم بدل الحجارة قوارير النفط للاشعال ، او جرار النورة — وهو مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ — يرمون بها فى مراكب الاعداء فتعمى الرجال بغبارها ، وقد تلتهب عليهم اذا تبددت ، او يرمون عليهم قدور الحيات والعقارب او قدور الصابون اللين فانه يزلق اقدامهم . وكانوا يعلقون حول المراكب من الخارج الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب والنطرون لدفع اذى النفط ، وقد يحتاطون لذلك بالطين المخلوط بالبورق والنطرون او الخطمى المعجون بالخل ، فان هذه مواد تقاوم فعل النفط

وكان من احتياطاتهم فى اثناء الحرب انهم اذا جن الليل لا يشعلون فى مراكبهم نارا ولا يتركون فيها ديكا ، واذا أرادوا المبالغة فى الاختفاء أسدلوا على المراكب قلوعا زرقا كى لا تظهر عن بعد

وكانوا يجعلون فى مقادم المراكب اداة كالفأس يسمونها « اللجام » ، وهى حديدة طويلة محددة الرأس جدا واسفلها مجوف كسنان الرمح ، تدخل من اسفلها فى خشبة كالقناة بارزة فى مقدم المركب يقال لها « الاسطام » ، فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز من مقدم المركب فيحتالون فى طعن المراكب به ، فاذا اصاب جانب المركب بقوة خرقه حتى يخشى غرقه بما ينصب فيه من الماء فيطلب اصحابه الامان

واما الكلاليب ففائدتها انهم اذا دنوا من مركب العدو القوا الكلاليب عليه فيوقفونه ، ثم يشدونه اليهم ويرمون عليه الالواح كالجسر ويدخلون اليه ويقاتلون . واذا كان العدو قويا ابطل فعل الكلاليب بفأس ثقيلة من فولاذ يضربون به تلك الكلاليب فتنقطع

بيت المال

البحث فى بيت المال يشمل النظر فى كل ما يتعلق بأموال الدولة من خراج وصدقة واعشار واخماس وجزية وغير ذلك ، ويسمى الديوان السامى . وهو اصل الدواوين ومرجعها عندهم ، ووظيفته ان يثبت فى جرائده جميع اصول الاموال السلطانية على اصنافها ، من عين وغلال وفىء وغنائم واعشار واخماس ، ويثبت ما تحصل من ذلك ويتخذ بيوتا لأصناف الاموال ويجعل عليها دواوين وحرسا . فالاموال والقماش لها ديوان الخزانة ، ويجب أن يكون مباشروه قضاة المسلمين بأنفسهم بلا نواب عنهم ، ومعهم خزندارية امناء اكفاء من اقوى الناس ديانة . والغلال لها ديوان الاهراء ، يجب ان يكون مباشروه من اكبر العدول الدينيين الاعفاء . والاسلحة والذخائر لها ديوان خزائن السلاح ، يجب أن يكون مباشر هذه الجهة محتسب البلد ، لانه يعرف

Marfat.com

أمور الاستعمالات وأجور الصناع وأسعار الآلات . وكل ما استحقه المسلمون ولم يتعين مالكه منهم فهو من حقوق بيت المال . وكل حق وجب صرفه فى مصالح المسلمين ثلاثة أقسام الصدقة والفنيمة والفىء ، ولكل منها احكام سيأتى بيانها . والاموال المستحقة على بيت المال ارزاق الجند واثمان الكراع والسلاح ، وغير ذلك مما ينفق فى سبيل المصلحة العامة ١*)

الصدقة

الصدقة والزكاة لفظان مترادفان . وهى تؤخذ من اغنياء المسلمين وتفرق فى فقرائهم ، وقد ذكرنا اصلها فيما تقدم . وللصدقة ديوان فى مركز الخلافة له فروع فى سائر الولايات والبلدان . ويستقل والى الصدقة فى كل بلد بالاستيلاء على اموال الصدقة من اغنياء ذلك البلد وتفريقها على فقرائه . ومصادر الزكاة اربعة : زكاة الماشية وزكاة الذهب والفضة وزكاة الاثمار وزكاة الزروع

١ ـ زكاة الماشية

فزكاة الماشية تؤخذ على الابل والبقر والغنم ، ولها احكام وضعها رسول الله نفسه . يستدل على ذلك من كتاب كتبه ابو بكر الى انس بن مالك لما وجهه الى البحرين ، وهاك نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه فريضة الصدقة التى فرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين ، والتى امر الله بها رسوله . فمن سئلها من المسلمين على وجهها فليعطها ، ومن سئل فوقها فلا يعط : فى اربع وعشرين من الابل فما دونها من الغنم من كل خمس شاة . اذا بلغت خمسا وعشرين الى خمس وثلاثين ففيها بنت مخاض انثى . فاذا بلغت ستا وثلاثين الى خمس واربعين ففيها بنت لبون انثى . فاذا بلغت ستا وأربعين الى ستين ففيها حقة طروقة الجمل . فاذا بلغت واحدة وستين الى خمسة وسبعين ففيها جذعة . فاذا بلغت ستا وسبعين الى تسعين ففيها بنت لبون . فاذا بلغت احدى وتسعين الى عشرين ومائة ففيها حقتان طروقتا الجمل . فاذا زادت على عشرين ومائة ففى كل اربعين بنت لبون . وفى كل خمسين حقة . ومن لم يكن معه الا اربع من الابل فليس فيها صدقة الا ان يشاء ربها . فاذا بلغت خمسا من الابل ففيها شاة . وفى صدقة الغنم فى سائمتها اذا كانت اربعين الى عشرين ومائة شاة . فاذا زادت على مائة الى مائتين شاتان . فاذا زادت على مائتين الى ثلاث مائة ففيها ثلاث . فاذا زادت على ثلاث مائة ففى كل مائة شاة . فاذا كانت سائمة الرجل ناقصة من

(*) المؤلف يصف هنا تنظيم دواوين الدولة، كما استقرت فى مصر فى منتصف العصر الفاطمى ثم دول المماليك والترك بعد ذلك ، وهذا النظام يختلف عما كان متبعا أيام العباسيين فضلا عن الامويين

Marfat.com

اربعين شاة واحدة فليس فيها صدقة الا ان يشاء ربها » . وللفقهاء تفاصيل فى ذلك لا محل لها هنا . وأما الخيل والبغال والحمير فلا زكاة عليها (*)

٢ ـ زكاة الذهب والفضة

وزكاة الفضة ليس فيما دون ٢٠٠ درهم صدقة . وأما المائتان فعليها خمسة دراهم كل سنة ، وذلك على تعديل (**) ٢١/٢ فى المائة أى ١ من ٤٠ ، وعلى هذا التعديل تؤخذ زكاة الذهب عن كل عشرين مثقالا منه نصف مثقال، وليس على ما دون العشرين مثقالا زكاة . واذا زادت على العشرين تضاعفت زكاتها على هذا القياس . ويعد من قبيل الفضة والذهب اموال التجارة ونحوها

٣ ـ زكاة الاثمار

واما الاثمار فزكاتها تختلف باختلاف نوع سقايتها . فاذا كانت مما يسقى سيحا ، اى ان الماء يأتيه من المطر او الانهر بلا تعب او حمل ، فزكاتها العشر . واذا كانت مما يسقى بالتعب والرجال فنصف العشر . وفى كل حال لاتستحق الزكاة على الاثمار الا اذا بلغت خمسة اوسق فما فوق . والوسق ستون صاعا ، والصاع خمسة ارطال وثلث بالعراقى . ويدخل فى حكم الاثمارالنخل والكرم ونحوها (***)

٤ ـ زكاة الزروع

واما الزروع ، ويريدون بها الحبوب بأنواعها كالحنطة والارز واللوبيا والحمص وغيرها ، فلا تؤخذ عليها زكاة الا بعد ان تبلغ خمسة اوسق ، وحكمها فى الزكاة مثل حكم الاثمار

الجهات التى تصرف فيها الزكاة

واما الجهات التى تصرف فيها اموال الزكاة فقد جاء ذكرها صريحا فى القرآن ، وهو : « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » . وبناء عليه كانوا يقسمون أموال الزكاة الى ثمانية أسهم ، يدفعون سهما الى الفقراء وهم الذين لا شىء لهم . والثانى للمساكين ، وهم الذين لهم ما لا يكفيهم وهم ارفق حالا من الفقراء . وكانوا يجعلون نصيب كل واحد من هؤلاء بالنظر

(*) انظر : القاضى أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم ، كتاب الخراج (طبعة المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٥٢) فصل فى الصدقات ، ص ٧٦ وما بعدها

(**) أى بنسبة

(***) يحى بن آدم القرشى ، طبعة المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧ ، باب الزكاة فى الارض والزرع والثمار ، ص ١١٢ فما بعدها

Marfat.com

الى حاله او ما يكفيه ، على ما يتراءى لولى الصدقات ، بشرط ان لايزيد ما يأخذه الواحد على ٢٠٠ درهم ، لأنه اذا اخذ اكثر من ذلك وجبت عليه الزكاة

وقد جاء فى تفسير البيضاوى أن الفقير من لا مال له يقع موقعا من حاجته ، والمسكين من له مال أو كسب لا يكفيه من السكون ، كأن العجز أسكنه (*)

والسهم الثالث يعطى للعاملين عليها ، وهم القائمون بجبايتها وتفريقها ، وفيهم الامين والمباشر والمتبوع والتابع فيأخذون اجورهم . فاذا زاد سهمهم على ما يستحق لهم رد الباقى على السهام الباقية . والسهم الرابع يفرق للمؤلفة قلوبهم ، وهم الذين كان النبى وخلفاؤه يتألفونهم لكف اذاهم عن المسلمين ، او لرغبتهم فى الاسلام او لترغيب قومهم وعشائرهم فيه كما تقدم . واذا كان احد المؤلفة قلوبهم غير مسلم لا يدفع له من الزكاة بل يدفع له من الغنائم أو الفىء . والسهم الخامس ينفق فى شراء العبيد وعتقهم . والسادس للغرمين ، وهم المدينون ، فيعطى لهم ما يقضون به ديونهم . والسهم السابع فى سبيل الله ، يعطى الغزاة واهل الجهاد نفقة ما يحتاجون اليه فى حروبهم . والثامن لابناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم

ويمتاز عمال الصدقات عن سائر عمال المال الآخرين ان عامل الصدقة يجوز له ان يقسم ما جباه بغير اذن ، الا اذا نهى عن ذلك عمدا ، بخلاف اموال الفىء أو الغنيمة فان عمالها ليس لهم أن يتصرفوا بالمال الا بأمر الخليفة أو من يقوم مقامه من الولاة او الوزراء

الغنيمة

الغنيمة ما يكسبه المسلمون بالقتال ، وتشتمل على اربعة اقسام : اسرى وسبى وارضين واموال . فالاسرى هم الرجال المقاتلون الذين يقعون فى الاسر ، ولهم فى الشريعة الاسلامية شروط واحكام اختلف الائمة فى تحديدها مما لا محل له هنا ، وفى جملتها قبول الفدية وهى مال يفتدى به الاسير . فالمال المأخوذ على هذه الصورة يضاف الى باقى الغنيمة ، واما السبى فهم النساء والاطفال الذين يقعون فى ايدى المسلمين ، فلا يجوز قتلهم وانما هم يفرقون فى جملة الغنائم ويجوز قبول الفدية عنهم

والارض التى تؤخذ فى الحرب اما ان تكون قد فتحت عنوة فأصبحت ملكا للمسلمين على انها فىء ، او ان تدخل فى حكم المسلمين صلحا على شروط

(*) تفسير البيضاوى ، ص ٢٥٨

Marfat.com

فهى من قبيل الفىء . وباختلاف هذه الاحوال وما يشترك بينها اختلفت أنواع الضرائب عليها كالخراج والعشور ونحوهما (*)

الاموال (**)

اما الاموال المنقولة فهى ما يمكن نقله كالماشية والمال ، وهى تفرق فى المقاتلة . وكانت تفرق فى اول الاسلام بلا قاعدة ، فكان النبى يقسمها على ما يراه . واول غنائمهم غنائم بدر فى السنة الثانية للهجرة ، فتنازع المهاجرون والانصار فى اقتسامها ، ففرقها النبى فيهم على السواء وهو كواحد منهم . ثم جاء الامر بالتخميس فى الآية : « واعلموا انما غنمتم من شىء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وأول غنيمة خمست على هذه الصورة غنيمة غزوة بنى قينقاع بتلك السنة ، فقسمت اموالها الى خمسة اقسام تفرقت اربعة منها فى المقاتلة ، والخمس الخامس — وهو خمس النبى — قسم الى خمسة اسهم : السهم الاول ينفقه على نفسه وازواجه وفى مصالح المسلمين ، والثانى يفرق على ذوى القربى ، وهم بنو هاشم رهط النبى ، وبنو عبد المطلب بن عبد مناف خاصة ، ولا حق لأحد سواهم من قريش ، والثالث لليتامى من ذوى الحاجات ، ويستوى فيه حكم الغلام والجارية ، والرابع يفرق فى المسلمين الذين لايجدون ما يكفيهم ، والسهم الخامس لابناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لايجدون ما ينفقون

ويعد من قبيل الاموال ايضا الاسلاب ، وهى ثياب القتلى واسلحتهم ، فهذه كانوا يفرقونها فى المقاتلين ، فيأخذ كل رجل اسلاب الذى قتله

الاراضى

واما الاراضى التى كانت تقع فى ايديهم عنوة او صلحا ، فقد اراد بعضهم فى صدر الاسلام ان يجعلها غنيمة تقسم بين الفاتحين مثل قسمة اموال الغنيمة ، فأبى عمر بن الخطاب عليهم ذلك كما يتبين من كتاب كتبه الى سعد ابن ابى وقاص بعد فتح العراق ونصه : « اما بعد .. فقد بلغنى كتابك تذكر فيه ان الناس سألوك ان تقسم الارض بينهم مغانمهم وما افاء الله عليهم ، فاذا اتاك كتابى هذا فانظر ما اجلب الناس عليك به من العسكر من كراع

---

(١) يتبع المؤلف هنا رأى الشافعية ، من أن الارض تدخل فى الغنيمة ويوزع خمسها بين من اشتركوا فى فتحها ، ويعين خمس آخر لبيت مال المسلمين . أما المالكية فيرون أن الغنيمة يقتصر أمرها على المنقول مما يصيبه المسلمون فى المواقع والاراضى المفتوحة ، بما فى ذلك سلب المقتولين من جند الاعداء ، أما الارض فتعتبر فيئا ولا تقسم ، فى حين يرى الحنفية أن يترك الامر فى الارض للامام ، فاما اعتبرها غنيمة أوفيئا

(**) هى التى تسمى غنيمة باتفاق الفقهاء ، وخمسها من حق الامام ينفق على نفسه منه شيئا والباقى لذوى القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل أما الاخماس الاربعة الباقية فكانت تقسم بين المقاتلين الذين حضروا المعركة

Marfat.com

ومال فاقسمه بين من حضر ، واترك الارضين والانهار بعمالها لا يكون ذلك فى اعطيات المسلمين ، فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء »

فاعترض عليه بعضهم بأن الارض حق لهم لانهم فتحوها بأسيافهم ، فجادلهم واقنعهم بأن يضع الخراج عليها والجزية على اهلها ، ويكون كلاهما فيئا للمسلمين على ممر الاجيال . وبناء عليه وضع عمر الجزية والخراج على ارض العراق وغيرها من البلاد المفتوحة ، ودون ذلك فى السجلات على مثال ما كان الفرس والروم يدونون ، وهو ما يعبرون عنه بتدوين الدواوين كما تقدم

الفىء

هو سائر ما بقى من اموال بيت المال ، وفى الشرع « الفىء كل مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال ولا بايجاف خيل ولا ركاب » . ويدخل فيه الجزية والخراج والاعشار وغيرها . وكان للنبى خمس الفىء يقسم كما يقسم خمسه من الغنائم ، فأصبحت حصته بعد موته من الفىء ايضا من حق بيت المال . وكانت الاربعة الاخماس الباقية من الفىء تقسم فى صدر الاسلام على الجيش ، وهم المهاجرون والانصار ، يفرق فيهم على السواء ، حتى وضع عمر الديوان وقدر ارزاق الجند على ما ذكرناه ، فأصبح الفىء يوضع فى بيت المال ، وينفق منه على الجند وغيرهم حقوقهم المعينة

وقد رأيت فيما تقدم ان اهل الصدقات هم غير اهل الفىء والغنيمة . فلا تصرف الصدقات فى أهل الفىء ، ولا يصرف الفىء فى أهل الصدقات . فان الفىء والغنيمة لأهل الحرب والمجاهدين فى سبيل الاسلام ، واهل الصدقات ليسوا من المقاتلة ولا هجرة لهم . وكان اسم الهجرة يطلق فى الصدر الاول على من هاجر من وطنه الى المدينة لطلب الاسلام . وكانت كل قبيلة اسلمت وهاجرت بأسرها تدعى « البررة » ، وكل قبيلة هاجر بعضها تدعى « الخيرة » . فكان المهاجرون بررة وخيرة . ثم سقط حكم الهجرة بعد الفتح ، وصار المسلمون مهاجرين وأعرابا لان أهل الصدقة كانوا يسمون على عهد النبى اعرابا ، ويسمى أهل الفىء المهاجرين ، ومن ذلك قول الشاعر :

قد لفها الليل بعصلبى اروع خراج من الذربى
مهاجر ليس بأعرابى

وكان الخلفاء فى صدر الاسلام يدققون فى التمييز بينهما ، فاذا اراد الخليفة ان يعطى طالبا لا يعطيه من مال الفىء الا اذا كان العطاء عائدا الى مصلحة المسلمين العامة ، والا فانه يعطيه من مال الصدقة . ويروون عن عمر بن الخطاب غير حكاية تدل على شدة تمسكه بهذه القاعدة ، منها أن اعرابيا اتاه فقال :

Marfat.com

يا عمر الخير جزيت الجنه اكس بنيـــــاتى وامهنــه
وكن لنا من الزمان جنه أقســـــم بالله لتفعلنـــه

فقال عمر : « ان لم أفعل يكون ماذا ؟ » . قال :

اذن ابا حفص لأذهبنه

قال : « واذا ذهبت يكون ماذا ؟ » ، فقال :

يكون عن حالى لتســألنه يوم يكون لا عطــايا هنه
وموقف المســـئول ينهينه اما الى نــار واما جنــه

فبكى عمر حتى اخضلت لحيته بدموعه ، وقال : « يا غلام اعطه قميصى هذا لذلك اليوم ، لا لشعره . انا والله لا املك غيره ! » . فجعل ما وصل به الاعرابى من ماله لا من مال المسلمين ، لأن صلته لم تعــد تقع على غيره فخرجت من المصالح العامة

وكان مما نقمه الناس على عثمان انه جعل الصلات من مال الفىء ولم ير الفرق بين الامرين . ولما مضى زمن الهجرة وصار الاسلام دولة جوزوا صرف كل واحد من المالين فى كل واحد من الفريقين ، على حسب الاقتضــاء . وازدادت موارد الفىء باتساع المملــكة الاسلامية وتعددت ابوابها ، وصــاروا يعبرون عن الفىء بجباية الاعمال ، وهو ما يجبى من أصناف الاموال، كالجزية والخراج والصدقات واعشار السفن واخمــاس المعادن والمراعى وغلة دار الضرب والمراصد والضياع والمستغلات الخ.. وقد تقدم الكلام فى الصدقات، وسنذكر اهم ما بقى من مصادر الفىء

الجزية

الجزية والخراج متشابهان بأنهما يؤخذان من غير المسلمين ، وهما من جملة اموال الفىء ويجبيان بأوقات معينة كل سنة ، ولــكنهما يختلفان بأن الجزية موضوعة على الرءوس وتسقط بالاسلام ، واما الخراج فيوضع على الارض ولا يسقط

تاريخ الجزية

والجزية ليست من محدثات الاسلام ، بل هى قديمة من اول عهد التمدن القديم . وقد وضعها يونان اثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين، وفينيقية يومئذ من اعمال الفرس ، فهان على سكان تلك السواحل دفع المال فى مقابل حماية الرءوس . والرومان وضعوا الجزية على الامم التى اخضعوها ، وكانت اكثر كثيرا مما وضعه المسلمون بعدئذ . فان الرومان لما فتحوا غاليا (فرنسا) وضعوا على كل واحد من أهلها جزية يختلف مقــدارها ما بين ٩ جنيهــات

Marfat.com

و ١٥ جنيها فى السنة ، او نحو سبعة اضعاف جزية المسلمين . ولم تكن الجزية كبيرة بهذا المقدار فى كل البلاد التى افتتحها الرومان ، ولكنهم يعللون كبرها فى غاليا ونحوها أنها كانت تؤخذ من الاشراف ، عنهم وعن عبيدهم وخدمهم . وكان الفرس أيضا يجبون الجزية من رعاياهم ، ويؤيد ذلك ما اورده ابن الاثير فى كلامه عما فعله كسرى انوشروان فى الخراج والجند ، قال : « وألزموا الناس الجزية ما خلا العظماء وأهل البيوتات والجند والمرازبة والكتاب ومن فى خدمة الملك ، كل انسان على قدره اثنى عشر درهما وثمانية دراهم وستة دراهم واربعة دراهم » . فالظاهر ان العرب أخذوها عن الفرس لفظا ومعنى ، فعربوا لفظها حتى صار « جزية » (*) وعدلوا فى كيفية جمعها كما رأيت . وقد رفعوها عن المسلمين كما فعل كسرى أيضا ، لان المسلمين عندهم هم الجند والعظماء وأهل البيوتات الذين استثناهم كسرى من الجزية (**) واهل اللغة يعدون لفظ الجزية مشتقا من جزاه به وعليه ، كافأه

مقدار الجزية

اما الجزية فى الاسلام فقد كان النبى يقدرها بحسب الاحوال ، وعلى مقتضى التراضى الذى كان يقع بين المسلمين واعدائهم ، فلما صالح اهل نجران تراضوا على جزية مقدارها ٢٠٠٠ (***) حلة فى صفر و ١٠٠٠ فى رجب ، ثمن كل حلة أوقية والاوقية أربعون درهما . وصالح اهل اذرح على مائة دينار كل رجب . وصالح اهل مقنا على ربع اخشابهم وغزوهم وكراعهم ودروعهم وثمارهم . وصالح غيرهم من يهود جزيرة العرب على نحو ذلك

وما زالت الجزية بلا تعيين الى آخر ايام ابى بكر ، فلما تولى عمر وكثرت الفتوح عين مقدارها ، فكتب الى امراء الاجناد يأمرهم ان يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسى ، وأن يجعلوها على اهل الفضة كل رجل اربعين درهما ، وعلى أهل الذهب أربعة دنانير . وعليهم من ارزاق المسلمين من الحنطة والزيت مدان حنطة ، وثلاثة أقساط زيتا كل شهر لكل انسان فى الشام والجزيرة

ثم تعدلت فتعينت باعتبار درجات الناس ومقدرتهم ، فوضعوا على الظاهر الغنى ٤٨ درهما تدفع اقساطا ٤ دراهم فى كل شهر ، وعلى اوسط الحال

(*) الرأى السائد أن أصل لفظ الجزية يونانى ، وأصل لفظ خراج ارمنى : خراجه

(**) التفسير المتفق عليه لاستثناء المسلمين من الجزية هو أنها تجبى من غير المسلمين فى نظير حماية المسلمين اياهم ، وهى تجمع لبيت المال لتنفق فيما فيه صالح الدولة

ويقال مثل ذلك فى الخراج ، فقد كان العرب لايؤدون الخراج أول الامر ، وانما يؤدون العشر ، لان خراج الاراضى المفتوحة كان فيئا للمسلمين ينفق فيما فيه صالحهم جملة

(***) الحلة وزن من اوزان النقود كان مستعملا فى نجران

Marfat.com

٢٤ درهما كل شهر درهمان ، وعلى الفقير ١٢ درهما كل شهر درهم ، ولا يؤخذ شيء من النساء والصبيان ولا من اهل العاهات ولا من الرهبان الذين لا يخالطون الناس ، الا البلاد التى عقدت شروط الجزية عليها باتفاق خاص ، كما عقد صلح مصر مع عمرو بن العاص ، على ان يدفع القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ممن بلغ منهم الحلم ، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء ، وعليهم اضافة من ينزل عليهم من المسلمين ثلاثة ايام ، وغير ذلك

وكثيرا ما كانوا يقدرون الجزية باعتبار ما يبقى فى ايدى الناس من دخلهم بعد نفقاتهم ، كما وقع لأهل الجزيرة بالعراق ، فقد كان الذى فتحها عين جزيتها دينارا على كل رأس ، فلما تولى عبد الملك بن مروان استقل ذلك فبعث الى عامله هناك فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم . وحسب ما يكسب العامل سنته كلها ، وطرح من ذلك نفقته فى طعامه وادمه وكسوته ، وطرح ايام الاعياد فى السنة كلها ، فوجد الذى يحصل بعد ذلك اربعة دنانير لكل واحد ، فألزمهم دفعها وجعل الناس طبقة واحدة

والجزية تضرب كما قلنا على غير المسلمين ، فمن اسلم سقطت عنه ، الا فى ايام عبد الملك بن مروان فان الحجاج وضعها على من اسلم من اهل الذمة. وخاطب عبد الملك أخاه عبد العزيز عامله على مصر يومئذ أن يضعها على من اسلم ، فشاور عبد العزيز بن حجيرة احد خاصته فأعظم الامر وقال : « اعيذك بالله ان تكون اول من سن ذلك بمصر ، فوالله ان اهل الذمة ليتحملون جزية من ترهب منهم ، فكيف تضعها على من أسلم منهم ؟ » فتركهم . فلما تولى عمر بن عبد العزيز التقى الشهير ابطل ذلك من العراق ، ولم توضع الجزية على مسلم بعد ذلك

وتقبل الجزية من غير المسلمين ايا كانوا ، الا اذا كانوا من العرب عبدة الاوثان أو من المرتدين ، فهؤلاء لا يقبل منهم الا الاسلام أو السيف . أما النصارى واليهود والمجوس وعبدة الاوثان من العجم فيقبل منهم الاسلام او الجزية او السيف

والقصد من ذلك توحيد امة العرب ، فأباد النبى الوثنية من جزيرة العرب فى حياته ، ولما تولى عمر اخرج من كان باقيا فيها من النصارى واليهود . وقد قلنا ان الجزية لا توضع الا على من بلغ الحلم من الاصحاء ، ومعنى ذلك انها بدل من القتال ، اى ان دافعها لا يدعى الى القتال . ويشبهها من هذا القبيل ما كان يدفعه نصارى المملكة العثمانية من الضريبة المعروفة بالعسكرية قبل اعلان الدستور ، وكانت تدفع فى مقابل اعفاء النصارى من الجندية

Marfat.com

الخراج

تاريخه

الخراج ما يوضع من الضرائب على الارض او محصولاتها ، وهو اقدم أنواع الضرائب . والاصل فى وضعه أن الناس كانوا يعتبرون الارض ملكا للسلطان او الملك ، وهذا الاعتقاد قديم جدا . وفى التوراة اقوال صريحة فى كيفية دخول الارض فى ملك الفراعنة ، وردت فى حكاية المجاعة الشهيرة فى الفصل السابع والاربعين من سفر التكوين ، لما جاع المصريون فى اثناء القحط فباعوا يوسف كل ما اقتنوه من فضة وذهب وماشية ، ولم يبق لهم الا الأرض فباعوه اياها بالخبز

وهكذا كان شأن الارض فى كل الممالك القديمة ، فالارض للملك والاهالى انما يتمتعون بريعها . وللحكومة حصة من ذلك الريع وهو الخراج . ومن عادات التتر ان الانسان يستأثر بملك الماشية ، واما الارض فأنكروا حق تملكها على الافراد . وكان الجرمان القدماء لا يعترفون بملك الارض الا لحكامهم او رؤسائهم ، فكان رئيس القبيلة يوزع اراضيها على افرادها . وفى السنة التالية توزع عليهم بالتناوب ، بحيث ان القطعة الواحدة لايستغلها الرجل الواحد سنتين متواليتين . ومثل هذه العادة لا تزال الى اليوم شائعة فى بعض شعوب الصقالبة

وعلى هذا المبدأ كان الرومان يضعون الضرائب على اراضى مملكتهم ، وفى جملتها مصر والشام وغيرهما مما فتحه المسلمون من بلادهم . وكان لهم فى كل ولاية ديوان خاص بالخراج تدون فيه اعماله ودخله وخرجه ، وله كتاب وجباة وعمال من أهل البلاد أو من الحكام . وكان نحو ذلك حال الفرس فى العراق وفارس ، لأن الفرس اقتبسوا كثيرا من قوانين اليونان والرومان

ديوان الخراج

فلما ظهر المسلمون وفتحوا الشام ومصر والعراق وغيرها، أقروا الدواوين على ما كانت عليه من قبل ولم يغيروا فيها شيئا . وظل كتاب الدواوين من اهل البلاد انفسهم من النصارى والمجوس ، كما كانوا فى عهد الدول السابقة . فكان عمال ديوان الخراج فى مصر الاقباط ، ويكتبون ديوانهم بالقبطية . وعمال ديوان الشام الروم ، وكانوا يكتبونه بالرومية . وديوان العراق يكتبه الفرس بالفارسية . والعرب يراقبون اعمال الدواوين ويستولون على جبايتها ، كأنهم لم يريدوا بفتح البلاد امتلاكها لرغبتهم يومئذ فى الدين عن الدنيا . فلما صار الامر الى بنى امية ، وانتقل المسلمون من غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة ، وظهر

Marfat.com

فى العرب ومواليهم مهرة فى الكتابة والحساب ، غيروا الدواوين الى لسانهم ، وسلموا أمورها الى رجال من المسلمين . وأول من فعل ذلك منهم عبد الملك بن مروان (نحو سنة ٨١ هـ) فصارت الدواوين عربية من ذلك الحين . وربما كان عبد الملك البادىء بذلك التغيير ، ثم أتمه من جاء بعده ، لان ديوان مصر تم نقله الى العربية على عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ

واما الحجاز فقد كان ديوانه فى المدينة على ما وضعه عمر بن الخطاب ، كما ذكرناه فى محله . وهو اشبه ان يكون ديوان الجند او ديوان الاعمال والجبايات ، لانه دون فيه أسماء الصحابة وعين أعطياتهم وطبقاتهم ، وضبط ما يرد على المدينة من بقايا الخراج والجزية ، بعد دفع نفقات الجند فى مصر والعراق

وكان الخلفاء هم الذين يتولون النظر فى امر الخراج ، ويراقبون سير الجباية ، فلما أفضى الامر الى الدولة العباسية وضعوا ديوانا مركزيا للخراج يشمل ما تحته من دواوين الاعمال ــ وضعه السفاح وعهد امره الى خالد بن برمك جد البرامكة ، وكان ذلك اول خطوة لتداخل البرامكة فى شؤون الدولة وتصرفهم فى أموالها . وكان فى جملة تصرفهم فيها انهم كانوا يضمنون مبلغ الخراج لاولادهم وأهليهم ، كما ضمن يحيى بن برمك فى أيام المهدى خراج فارس وانكسر عليه المال . واصبح ديوان الخراج فى ايدى الوزراء مثل غيره من الدواوين ، حتى اذا ضعفت الدولة العباسية وصارت أمورها الى الامراء ابطلت الدواوين فى ايام الراضى بالله

تقدير الخراج

قلنا فيما تقدم أن العرب اقروا الخراج : دواوينه وسائر أحواله على ماكان عليه فى ايام الدول السابقة (الروم والفرس) ويؤخذ مما ذكره المقريزى أن جباية خراجهم كانت بالتعديل ، وهو ما يعبرون عنه بالمقاسمة ــ اذا عمرت القرى وكثر اهلها زيد خراجهم ، وان قل اهلها وخربت نقصوه

وكانت جباية الشام على نحو ذلك ايضا . واما الفرس فكانوا يأخذون خراج أرضهم بالمقاسمة ، حتى مسحه قباذ بن فيروز قبل الاسلام وجعله بالمساحة ، فضرب على الجريب الواحد درهما وقفيزا (الجريب ٣٦٠٠ ذراع مربع) مهما يكن حاله من الخصب او الجدب . فلما فتح المسلمون البلاد عدلوا فى الخراج على ما اقتضته الاحوال فى سائر البلاد . ولهم قوانين عامه فى الارضين ، فالارض فى الاسلام أربعة أقسام :

١ ــ ارض استأنف المسلمون احياءها ، فهى ارض عشر ، للامام عشرها، وتعد من قبيل احياء الموات

٢ ــ ارض اسلم اهلها عليها ، فهم احق بها ، وهى ايضا ارض عشر

Marfat.com

٣ ــ ارض ملــكها المسلمون عنوة ، فهى غنيمة لهم ، وتعد ايضا من أرض العشر

٤ ــ ارض صولح اهلها عليها ، وهى الارض المختصة بالخراج ، وخراجها لا يبطل ولو اسلم اهلها

وقدر الخراج على هذه الارض يعتبر بما تحمله . فلما فتحت العــراق وضع عمر على سواده مثل ما كان الفرس قد وضعوه عليه ، وهو عن كل جريب من الارض قفيز ودرهم ، والقفيز عشر الجريب أى ٣٦٠ ذراعا مربعا . وضرب عمر على ناحية اخرى بطريقة اخرى ، فجعل مقدار الخراج تابعا لنوع المحصول . فأمر عثمان بن حنيف بالمساحة فمسح ، ووضع على كل جريب من الــكرم والشجر الملتف عشرة دراهم ، ومن النخل ثمانيــة دراهم ، ومن قصب السكر ستة دراهم ، ومن الرطبة خمسة دراهم، ومن القمح اربعة دراهم ، ومن الشعير درهمين . فقبــل عمر بذلك . وظلت أرض العراق بالمساحة أو التوظيف أو الوظيفة ، الى ايام المنصور العبــاسى فعدل الى المقاسمة ، لأن السعر نقص فلم تكن الغلات تفى بخراجها ، وخرب السواد فجعله مقاسمة اذا زادت الغلة زاد الخراج . وتقدير خراج المقاسمة مفوض الى الخليفة ، لكنه لا يزيد على نصف الغلة ولا يقل عن خمسها

ملكية الارض

اما ملــكية الارض فظلت كما كانت عليه فى اول الاسلام ، اى ان الارض ملك للامام (*) ، وان الناس يستغلونها وللحكومة حق من غلتهم ، ما عــدا بعض الاراضى الممتازة مما يسمونه الاواسى أو الرزقة او نحوهما ، ممــا لا محل لتفصيله هنا . حتى دخل القرن التاسع عشر وجرت الاصلاحات السياسية فى المملــكة العثمانية وفى جملتها مصر ، فانها لما دخلت فى حوزة محمد على فى اوائل القرن الماضى رأى ان الاحوال لا تستقيم والفلاح لايعمل فى أرضه الا اذا كانت ملــكا له . وكانت لما تولاها محمد على قــد أصبحت التزامات يلتزمها بعض وجهاء الناس واهل الفنى والنفوذ ، ويستخدمون الفلاحين فيها ويستغلونها فيدفعون مال الحكومة ويستأثرون بما بقى . فقسم

(*) الارض ملك للامام من الناحية النظرية ، والناس قوامون عليها بما فيه صالحها وصالحهم ، ويعبرون عن ذلك بأن رقبة الارض ملك للامام ، وأما الانتفاع بها فمن حق الناس . وقد استقرت أوضاع الاراضى فى صدر الاسلام بحسب ظروف كل منها ، فمنها أراض كانت ملكا لاصحابها يتصرفون فيها كيف يشاءون كأراضى العرب واراضى الصلح لمعظم أرض مصر ، أما اراضى العنوة فقد كانت ملكا للامام فعلا يزرعها من عليها ويؤدون عليها الخراج ، وكانت هناك اراض ذات وضع خاص كأرض نجران من اليمن . ثم أخذ الخلفاء يقطعون الناس من أراضى العنوة حتى نفدت ، واصبحت الارض كلها ملــكا للناس يتبايعونها ويتوارثونها ، لان الاسلام لايحرم الملــكية العقارية . وظل الامر على ذلك حتى جاء خلفاء بنى عثمان فاستعادوا ملكية رقاب الارض ، ولم يبق للناس الا حق الارتفاق . ودرج خلفاء الالتزام على اعطاء الاراضى للملتزمين ، أى الذين يلتزمون بأداء مال الدولة عنها ، ولهم ان يتصرفوا فيها كيف شاءوا ، مما اضــاع معنى ملكية الاراضى

Marfat.com

محمد على مصر الى مديريات ، والمديريات الى مراكز او اقسام ، وهـذه الى نواح . وعين فيها موظفين لادارة امورهـا ، وجبـاة لجمع الضرائب ، وابطل الالتزامات ووزع اراضى كل ناحية بين اهل تلك الناحية نفسـها . بحيث ان كل فلاح قادر على الشغل اصابه قسم من الارض بقدر قسم الآخر

فلما تولى الخديو سعيد أصدر لائحته الشهيرة المؤرخة فى ٥ أغسطس سنة ١٨٥٨ فتمم ملـكية الارض للاهالى وجعلها ارثا شرعيا فى ذرياتهم . واصبحت الارض المصرية ملـكا للمصريين من ذلك الحين . وجرى نحو ذلك فى سائر بلاد الدولة العثمانية لأن الخليفة العثمانى صادق على لائحة سعيد بخط همايونى فى هذا المعنى

ارتفاع الخراج

ويراد به مقدار ما يجتمع من خراج البـلاد فى كل عام ، وهو أمر يعسر تعيينه لاختـلافه باختلاف الزمان والمـكان ، ولأن مؤرخى العرب كثيرا ما يجمعون بين الجزية والخراج فى تقدير الخراج ، فيقولون : ارتفاع الخراج ، ويريدون به الخراج والجزية جميعا . والجزية أقـل من الخراج وأقل ثباتا منه ، لما يدخل من اهل الذمة فى دين الاسلام بتوالى الازمان . وربما ادخلوا فى الخراج ايضا العشور ونحوها . ونحن ذاكرون فيما يلى امثلة من جباية أعمال المملكة الاسلامية فى عصر بنى أمية :

فالسواد بلغ ارتفـاع خراجه فى ايام عمر بن الخطاب (سـنة ٢٠ هـ) ١٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، وفى ايام عبيد الله بن زياد (نحو سنة ٦٢ هـ) ١٣٥ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، وفى ايام الحجاج بن يوسف (سـنة ٨٥ هـ) ١٨٨ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، وجبـاه عمر بن عبد العزيز (سـنة ١٠٠ هـ) ١٢٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، وكان ابن هبيرة بعده يجبيه ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم سوى طعام الجند وارزاق المقاتلة ، ثم كان يوسف بن عمر يحمل منه الى دار الخلافة ٦٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم الى ٧٠ر٠٠٠ر٠٠٠ وينفق على من معه من جند الشـام ١٦ر٠٠٠ر٠٠٠ ، وعلى البريد ٤ر٠٠٠ر٠٠٠ ، وعلى الطوارق ٢ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم ، ويبقى عنـده للنفقة على بيوت الاحـداث والعواتق ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ، فكان مجموع جباية السواد على ايامه نحو ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم (*)

(*) بين المؤرخين خلاف فى هذه التقديرات ، فالمقريزى مثلا يجعـل جباية مصر أيام عمرو ابن العاص ١٢ مليون دينار أو ١٦ مليونا ، ويجعل جباية السواد ١٨٧ مليونا أو ١٦٠ مليون درهم وهكذا . وهذه الارقام كلها تقديرية ، ولايمكن حسابها على وجه التدقيق ، انها تعطينا مجرد فكرة عن الجانب المالى للدولة الاسلامية

انظر : المقريزى : اغاثة الامة بكشف الغمة ، طبعة زيادة والشيال ، القاهرة ١٩٤٠ ص ٦٣

Marfat.com

اما مصر فقد جباها عمرو بن العاص ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢ دينار . ولكن يظهر من عبارة المقريزى انها مبلغ الجزية وحدها على الجماجم ، على فريضة دينارين من كل رجل ، قال : وجباها بعده عبد الله بن سعد بن أبى سرح ١٤ مليونا . وقلّ خراجها فى ايام بنى امية . حتى اذا كانت ايام هشام ابن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٧ هـ) انتبه لها ، فبعث الى عامله على خراجها وامره ان يمسحها ، فخرج بنفسه فمسح العامر والغامر مما يركبه ماء النيل . فوجد مساحة ذلك ٠٠٠ر٠٠٠ر٣٠ فدان (١) سوى ارتفاع الجرف ووسخ الارض ، فعدلها فعقدت معه ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ دينار ، وكان السعر راخيا . وجباها اسامة بن زيد فى خلافة سليمان بن عبد الملك (سنة٩٧هـ) ٠٠٠ر٠٠٠ر١٢ درهم . واختلف مقدار الجباية بمصر بعد ذلك ، وضعف امرها خصوصا لما صارت الى بنى العباس ، وبعد مركز الخلافة عن وادى النيل ، حتى انحط خراجها الى ٠٠٠ر٠٠٨ دينار . فلما تولاها ابن طولون (سنة ٢٥٧ هـ) استقصى عمارتها فبلغت جبايتها ٠٠٠ر٠٠٣ر٤ دينار ، مع رخص الاسعار ، فقد كان القمح كل عشرة ارادب بدينار . وظل خراجها نحو ذلك فى سائر ايام بنى العباس

واما الشام فقد بلغ خراجها فى ايام عبد الملك بن مروان ٠٠٠ر٧٠٠ر١ دينار ، منها ٠٠٠ر١٨٠ من الاردن ، و ٠٠٠ر٣٥٠ من فلسطين ، و ٠٠٠ر٤٠٠ من دمشق ، و ٠٠٠ر٨٠٠ من حمص وقنسرين والعواصم

تضمين الخراج

تضمين الخراج نوعان :

١ ـ تضمينه للعمال ، اى الولاة الذين يتولون الامصار ، وهو باطل فى الشرع الاسلامى ، لأن العامل مؤتمن يستوفى ما وجب ويؤدى ما حصل . فهو كالوكيل الذى ادى الامانة ، لم يضمن نقصانا ولم يملك زيادة . وكان الصحابة فى صدر الاسلام يشددون فى منع هذا التضمين : حكى عن ابن عباس ان عاملا أتاه يتقبل منه الابلة بمائة الف درهم فضربه مائة سوط وصلبه حيا تعزيرا وادبا . ولما صارت الخلافة الاسلامية ملكا اغضوا عن هذا الأمر ، وصار الخلفاء يضمنون الخراج لعمالهم احيانا ، فيعطون بخراج أعمالهم مالا معينا ، ثم يجبون البلاد ويستولون على ما يفضل مهما كان مقداره ، كما فعل يحيى بن برمك وغيره ، وتطرقوا بعده الى تضمين القضاء والحسبة والشرطة كما سترى

---

(١) راجع ملاحظاتنا على هذه المساحة فى باب المملكة الاسلامية واحصائها .

(*) قد أرجأت التعليق عن ذلك الرقم الى الموضع المشار اليه فى الجزء الثانى من الكتاب)

Marfat.com

٢ ــ تضـــمين الخراج للملتزمين ، وهم اناس من اهل الغنى او النفوذ كانوا يتقبلون الاراضى ، اى يضمنونها من متولى الخراج بمال معين يقع عليه بالمزايدة ، فيضـــمن الواحـــد قرية أو بلدا أو كورة فيزرعهـــا ويستغلها ، ويدفع ما عليها من الخراج ويستولى على الباقى . وضمانة الاراضى أو التزامها على هذه الصورة ليس من مخترعات الاسلام ، بل هو قديم من ايام اليونان ، وقد شـــاع فى المملكة الرومانية وكان فى جملة ما اقتبســـه العرب عنهم . وظل ضمان الاراضى على هذه الصورة شـــائعا فى المملـــكة الاسلامية الى عهد قريب ، وقد مرت عليه ادوار تقلب فيهـــا على اشـــكال وضروب ، ومن هذا القبيل ضمان الاعشار فى المملـــكة العثمانية

ضرائب اخرى

توابع الخراج

وكان من موارد الاموال فى الاســـلام ، غير خـــراج الاراضى وعشـــورها والصدقات والجزية ، اعشـــار السفن واخماس المعادن والمراعى وغلة دار الضرب والمراصد والضياع واثمان الماء وضرائب الملاحات والآجام ، وغيرها مما يعد من قبيل الخراج

اما اعشار السفن فكانوا يضربونها على السفن التى تمر ببعض الثغور ، فيأخذون عشرا مما تحمله اما عينا أو نقـــدا . فقد كان عمال اليمن يأخذون هذه الضريبة من السفن التى تمر بسواحلهم قادمة من الهند ، تحمل الاعواد المختلفة والمسك والـــكافور والعنبر والصندل والصينى فيأخذون الضريبة عينا . وقد بلغت أعشار السفن فى أيام الواثق بالله مالا كثيرا

وكان الآندلسيون يضربون على السفن التى تمر ببوغاز جبـــل طارق فى ذهابها وايابها ، فكان الافرنج او غيرهم اذا مروا بسفنهم ادوا الضريبة فى مدينة هى فى أقصى بلاد الاندلس جنوبا يقال لها طريف واسمها الآن طريفة (Tarifa) ، ويزعى الافرنج فى كلمـــة (Tariff) ــ التى تدل عندهم على الضرائب او الرسوم التى تؤخذ على البضائع فى دخولها البلاد وخروجها ، او الـــكتاب المتضمن بيان لائحة الاثمان ــ أنها تحريف « طريف » المشار اليها ، لأنهم كانوا يسمون ما يدفعونه من رسوم السفن « رسوم طريف » ، ثم أهمل اللفظ الاول وبقى اللفظ الثانى . مع أن لفظ « تعريفة » فى العربية يدل على نحو معناها الافرنجى ، فيجوز ان اللفظ الافرنجى منقول عن لفظ تعريفة العربى او تحريف « طريف » كما يقولون

واما اخماس المعادن فهى ما كانوا يضربونه على ما يســـتخرج من باطن

الارض من معدن او نحوه ، وهى نوعان : معادن ظاهرة ، ومعادن باطنة. والمعادن الظاهرة كالكحل والملح والقار والنفط ، فهـذه المعـادن مباحة فى الشرع الاسلامى كالماء الجارى من العيون لا يجوز احتكارها ، والناس فيهـا سواء يأخذها من ورد اليها . واما الباطنة فهى ما كان جوهرها مستكنا فيها ، لا يوصل اليه الا بالعمل كمعادن الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص ، فهذه المعادن كانوا يقطعونها لأناس يستخرجون ما فيها على ان يؤدوا الخمس لبيت المـال

وغلة دار الضرب هى ما يخصص لبيت المال من دار الضرب ، باعتبـار شىء فى المائة كما ذكرنا فى كلامنا عن دار الضرب من هذا الكتاب. وقد بلغت غلة دار الضرب فى عهد بنى مروان بالاندلس ٢٠٠ر٠٠٠ دينار فى السنة

ومن الضرائب التى كانت تؤخذ فى الاسلام المـكوس ، واحدها مكس ، وهو ضريبة تضرب على اصناف التجارة من قبيل ما يعرف اليوم بالجمرك أو الفردة (الفرضـة) أو نحـوها . وكان المكس ، أو المقس ، شـائعا فى الجاهلية ، فكان يؤخذ من تجار القبط والفرس فى المدينة عشر متاجرهم . فلما ظهر الاسلام اقره عمر بن الخطاب (١) وكانت هذه الضريبة لا تؤخذ من التاجر الا اذا انتقل من بلاده الى بلاد اخرى . فالشامى اذا طاف بلاد الشام كلها بتجارته لا يؤخذ منه عشر او مكس ، واما اذا انتقل الى مصر أو العراق فيؤخـذ منه المـكس . والمـكس على ما فرضـه عمر ثلاث درجات : يؤخذ من اهل الذمة (النصارى واليهود) نصف العشر ، اى من كل عشرين درهما درهم . ومن المسلم ربع العشر ، اى من كل ٤٠ درهما درهم . وليس فيما دون المائتين شىء . ويؤخذ من العربان الذين ليسوا من الرعايا العشر كاملا . ولم يرج المكس فى الاسلام ، لان اهل الورع كانوا يكرهونه . وقس على ذلك ما بقى من انواع الضرائب

الاقطاع

ومما يلحق بالخراج ايضا مال القطائع . والاقطاع قديم فى الدول ، واصله أن الملك اذا فتح بلادا وأراد استبقاءها واستغلالها، فرقها على قواده فى مقابل حربهم واتعابهم كأنها اجرة لهم ، ويؤيد ذلك ان اصل لفـظ الاقطـاع فى الافرنجية معناه الاجرة . والقواد يفرقون تلك الارض فى ضباطهم ، وهؤلاء يفرقونها فى العساكر او من يقـوم مقامهم . ويشترط الملك على قواده عنـد

---

(١) المقريزى ١٢١ حـ ٢

Marfat.com

اعطائهم هذه الهبات ان يكونوا امناء له فى الحرب والسلم ، فاذا خان احدهم ونكث رجعت الارض الى واهبها . واذا كان الخائن جنديا صغيرا رجعت الى ضابطه ، او كان ضابطا رجعت الى قائده ، وهكذا حتى ترجع الى الملك. فكان من عواقب هذا المبدأ أن تبقى الأرض فى أيدى الملوك ، بشروط وأساليب وضعوها لذلك لا محل لاستيفائها هنا . وبمقتضاها يكون الملك ورعيته وجنده يدا واحدة فى الدفاع عن البلاد لاشتراك مصالحهم وتبادلها فيها . وانتشر مذهب الاقطاع فى ممالك اوربا

اما فى الاسلام فالاقطاع كان على كيفية اخرى . ويؤخذ مما كتبه الامام ابو يوسف ، ان الارض التى تقع فى ايدى المسلمين وليس لها مالك يطالب بها ــ كالارض التى تكون لحاكم البلاد قبل فتحها ، او تكون لرجل قتل فى الحرب ، او ان تكون من مغيض ماء او نحو ذلك ــ فهذه الاصناف من الارض كان الخلفاء الراشدون يجيزون اقطاعها لمن شاءوا ، على ان يؤدى عشر مالها لبيت المال او اكثر او اقل ، على ما يتراءى للخليفة . فبلغ خراج البقاع التى دخلت تحت هذه الشروط من ارض السواد فى أيام عمر ٧ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم . وجرى على نحو ذلك من جاء بعده من الخلفاء والامراء ، فبلغت غلتها فى ايام عثمان ٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ درهم . فلما كان عام الجماجم سنة ٨٢ هـ فى فتنة عبد الرحمن بن الاشعث احرق الديوان ، فاستولى كل قوم على ما كان فى ايديهم (*)

وكان بنو امية وبنو العباس يقطعون الارضين لبعض خواصهم واهلهم ، فلا يأخذون عليها خراجا ، فتؤخذ اعطيات الجند وسائر النفقات من مال الخراج ، ويحمل ما فضل الى بيت المال ، والقطائع تبقى فى ايدى اصحابها

فلما خرجت السلطة من الخلفاء وافضت الى السلاطين السلجوقية ، جعلوا الاقطاع عاما على يد نظام الملك ، كما تقدم فى الكلام عن أعطيات الجند . واقتدى به سائر السلاطين بعده وفى جملتهم الاكراد ، دولة بنى ايوب بمصر . فان السلطان صلاح الدين جعل البلاد كلها اقطاعا لأمرائه وجنده ، وخصوصا مصر . ثم تعدل الاقطاع بعد ذلك وتبدل ، فصارت بعض الارض اقطاعا وبعضها مبيعا وبعضها موقوفا . ووصف المقريزى ارض مصر فى

(*) يجوز أن يكون احراق الديوان سببا فى استيلاء الناس على مابأيديهم من أرض اقطاعية ، ويجوز أن يتم استيلاء الناس على مابيدهم نتيجة لعملية تطور طبيعية ، فان الناس اذا استمرت حيازتهم لقطعة ارض أزمانا طويلة ، وتوارثها عنهم أبناؤهم أصبحوا فى الواقع أصحابها بحق الارتفاق ، ماداموا يؤدون المال عنها ، ونظرا لتغير الحكومات وتوالى الحكام وعدم الاستقرار فى تلك العصور يضيع حق السيادة على الارض ، ولايصبح للحاكم أيا كان الا المال الذى يؤدى عن الارض مهما كان مصدره ، وهذا هو الذى حدث فى الغرب وفى بلاد الاسلام ايضا

Marfat.com

ايامه (فى القرن التاسع للهجرة) فقال انها تقسم الى سبعة اقسام : قسم يجرى فى ديوان السلطان ، وقسم اقطع للامراء والاجناد ، وقسم جعل وقفا محبسا على الجوامع والمدارس والخوانك وعلى ذرارى واقفى تلك الارض ، وقسم يقال له الاحباس وهى اراض فى ايدى قوم يأكلونها عن قيامهم بمصالح مسجد او نحوه ، وقسم صار ملكا يباع ويشرى ويورث ويوهب لأنه مشترى من بيت المال ، وقسم لايزرع للعجز عن زراعته ، وقسم لا يشمله ماء النيل فهو قفر

والاقطاع ضربان : اقطاع استغلال ، واقطاع تمليك . وهما يختلفان باختلاف نوع الارض من الخراب والخصب ، وحالها من الحرب والصلح والفتح ورأى الخليفة فى كل ذلك

وسنفصل الكلام فى مقدار جباية الدولة فى ايام العباسيين ، وعلاقة ذلك بثروة المملكة فى كلامنا عن ثروة المملكة الاسلامية ، فى الجزء الثانى من هذا الكتاب

Marfat.com

البريـــد

يراد بالبريد فى الدول الاسلامية غير ما يراد به الآن . فقد كان صاحب انبريد او صاحب الخبر اشبه برئيس البوليس السرى ، او رقيب اصحاب الاعمال ، أو هو عبارة عن جاسوس الخليفة أو الامير ، أو عينه الباصرة وأذنه السامعة ، ينقل اليه اخبار عماله او مساعى اعدائه . فالبريد من هـذا القبيل أشبه بقلم المخابرات

وكان الخلفاء لا يولون البريد الا ثقتهم من اهل التعقل والدراية ، لأن على ما ينقلونه من الاخبار تتوقف علاقات الخلفاء بعمالهم او بمعاصريهم . وكان كسرى لايولى البريد الا اولاده

ولاية البريد

وولاية البريد قديمة ، كانت عند الفرس والروم . واول من اتخذها من المسلمين معاوية بن ابى سفيان ، اقتداء بما كان قبله فى الشام او ما اشار عليه به عماله فى العراق . وكان الغرض منه فى اول وضعه ، سرعة ايصال الاخبار بين الخليفة فى الشام وعماله فى مصر والعراق وفارس . ثم توسعوا فيه حتى جعلوه عينا للخليفة على عماله وسائر رجال دولته . فان طاهر ابن الحسين لما قطع الخطبة للمأمون على منبر خراسان ، عاتبه صاحب البريد فاعتذر انه سهو وقع منه ، وتقدم اليه ان لايكتب الى الخليفة به . وتكرر ذلك منه ثلاث مرات وطاهر يتقدم اليه ان لا يكتب ، فقال له صاحب البريد : « ان كتب التجار لا تنقطع من بغداد ، وان اتصل هذا الخبر بأمير المؤمنين من غيرنا لم آمن ان يكون سبب زوال نعمتى » . فقال : « اكتب اليه » ، فكتب

وكان البريد واسطة العلاقة بين الولاة والخليفة ، ينقل اوامر الخلفاء الى ولاتهم واخبار الولاة الى خلفائهم . وكان اصحاب البريد رقباء او مفتشين من قبل الدولة ، يرفعون التقارير عن احوال الجند او المال او غير ذلك من امور المملـكة . فاذا تكدرت العلائق بين العامل (الوالى) والخليفـة ، واراد العامل ان يستقل او يتمرد ، قطع البريد عن الخليفة ، كما فعل المـأمون لما سمع وهو وال فى خراسان ان اخاه الامين نقض بيعته وبايع ابنه موسى بولاية العهد بعده ، فانه اسقط اسم الامين من الطراز وقطع البريد عنه

وكان بنو العباس اكثر الناس عناية فى امر البريد ، وبالغوا فى استخدامه

Marfat.com

حتى نسب الى بعضهم مباشرة ذلك بنفسه للاطلاع على احوال ولاته ونوابه ورعيته ، وربما تطلعوا به على احوال العوام وآحاد الناس . وقد رتب بعض الخلفاء ذلك جهارا ، فعين مع وزيره صاحب خبر من الثقات ينهى اليه ما يجرى فى مجلسه ، فلا يحسن الوزير لأحد ولا يجتمع به احد من الناس الا بحضور ذلك الشخص . وكذلك فعل مع القاضى والنائب وجميع ولاة الاعمال . وكان ابو جعفر المنصور يقول : « ما احوجنى ان يكون على بابى اربعة نفر لايكون على بابى اعف منهم ، وهم اركان الدولة ولا يصلح الملك الا بهم : اما احدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية » ثم عض المنصور على اصبعه السبابة ثلاث مرات وهو يقول فى كل مرة : « آه ! آه ! » . قيل : « ما هو يا امير المؤمنين ؟ » . قال : «صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة »

فأصحاب الاخبار هنا بمعنى جواسيس هذه الايام ، ولم يكن بين صاحب البريد والخليفة او السلطان او الامير واسطة ، فاذا جاء صاحب البريد بخبر لا يطلع احدا عليه قبل انهائه الى الخليفة ، ليكون هو الذى يشيعه او يكتمه على ما يراه

وقد يجعل الملوك أو الامراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سرا ، فلا يعتمد أحدهم كتاب صاحب بريده الا اذا كانت فيه تلك العلامة — ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمه ، اذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه ، نحو ما فعل ابو مسلم الخراسانى لما دعاه المنصور اليه من خراسان الى بغداد ، وخاف ابو مسلم عاقبة تلك الدعوة فاستخلف ابا نصر مالك بن الهيثم على عسكره وقال له : « اقم حتى يأتيك كتابى، فان اتاك مختوما بنصف خاتم فأنا ختمته ، وان اتاك بالخاتم كله فلم اختمه » . فلما جاء ابو مسلم الى المنصور فى المدائن وكان ما كان من قتله ، كتب المنصور الى ابى نصر عن لسان ابى مسلم يأمره بحمل ما خلف عنده وان يقدم ، وختم الكتاب بخاتم ابى مسلم ، فلما رأى ابو نصر الخاتم تاما علم ان ابا مسلم لم يكتبه

ومصلحة البريد ولاية جليلة خطيرة ، يحتاج صاحبها الى عمال عديدين والى نفقات طائلة للتوسعة عليهم حتى يظلوا على امانتهم . وكان فى جملة واجبات صاحب البريد حفظ الطرق وصيانتها من القطاع والسراق ، وطرق الاعداء وانسلال الجواسيس فى البر والبحر . واليه كانت ترد كتب اصحاب الثغور وولاة الاطراف ، وهو يوصلها فى اسرع ما يمكن من اختصار الطرق واختيار المراكب

طرق البريد

وكان للبريد طرق تتشعب من مركز الخلافة الى اطراف المملكة ، حتى تتصل بطرق الممالك الاخرى . وتنقسم كل طريق الى محطات او مواقف فيها افراس او هجن ، فيستبدل عمال البريد افراسهم بأفراس مستريحة فى كل موقف التماسا للسرعة . وكان الغالب فى العرب ان يتخذوا الجمال لبريدهم ، واما الفرس فكانوا يستخدمون الخيل

وبلغ عدد سكك البريد فى ابان الدولة العباسية ٩٣٠ سكة ، ونفقات الدواب واثمانها وارزاق رجالها ١٥٩ر١٠٠ دينار فى السنة . وقد رأيت فى كلامنا عن خراج السواد فى ايام بنى امية انه كان ينفق على البريد اربعة ملايين درهم ، اى نحو ضعفى ذلك . وهو يؤيد ما قلناه غير مرة عن بذل بنى امية الاموال فى سبيل تأييد سلطانهم

وكان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر ، حتى تبلغ اربعين او خمسين دابة . وكثيرا ما كانوا يستخدمون خيل البريد لحمل بعض الناس الى الخليفة او الامير ، التماسا لسرعة قدومهم . وتختلف سرعة البريد باختلاف الطرق ونوع المراكب ، بين ان تكون ابلا او خيلا . وكانوا يعلقون فى اعناق الدواب جلاجل او سلاسل ، اذا تحركت سمعت لها قرقعة تعرف عندهم بقعقعة البريد . وقد ترسل البرد على السفن فى البحار

ومن طرق المخابرة بالبريد ، غير نقل الخرائط على الدواب أو فى البحار ، ارسالها مع السعاة . وهم رجال خفاف تعودوا الجرى والصبر على السير ثلاث مراحل فى رحلة ، واهل البرارى انشط لذلك . وأول من أنشأ السعاة فى الدولة العباسية معز الدولة ، انشأهم فى بغداد لاعلام اخيه ركن الدولة بالاحوال سريعا . ونبغ فى ايامه ساعيان ، اسم احدهما فضل والآخر مرعوش فاقا سائر السعاة . وكان كل واحد منهما يسير فى اليوم نيفا وأربعين فرسخا ، أى نحو ١٤٠ ميلا واتصل استخدام السعاة فى سائر الدول الاسلامية

حمام الزاجل

ومن وسائل المخابرة بالبريد حمام الزاجل ، فقد كان له شأن عظيم عندهم ، والمخابرة به قديمة جدا عند الامم القديمة . ولكن المسلمين كانوا اكثر عناية من سواهم فيه ، ويقال ان اول استخدامه كان فى الموصل ، ثم فى مصر على عهد الفاطميين فالعباسيين . وكانت الاسكندرونة فى سوريا وبين

Marfat.com

مدينة بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب . على انهم لم يعتنوا به العناية الكافية ، ولم ينشئوا له الادارات الخاصة ، الا فى العصور الاسلامية الوسطى . فانهم بذلوا فى ذلك عناية كبرى ، ولا سيما ، مصر . فقد كان للمخابرة بالحمام ابراج فى قلعة القاهرة على عهد الايوبيين فى القرن السابع للهجرة . وقد بلغ عدد الحمام المستخرج لهذه الغاية فيها الفا

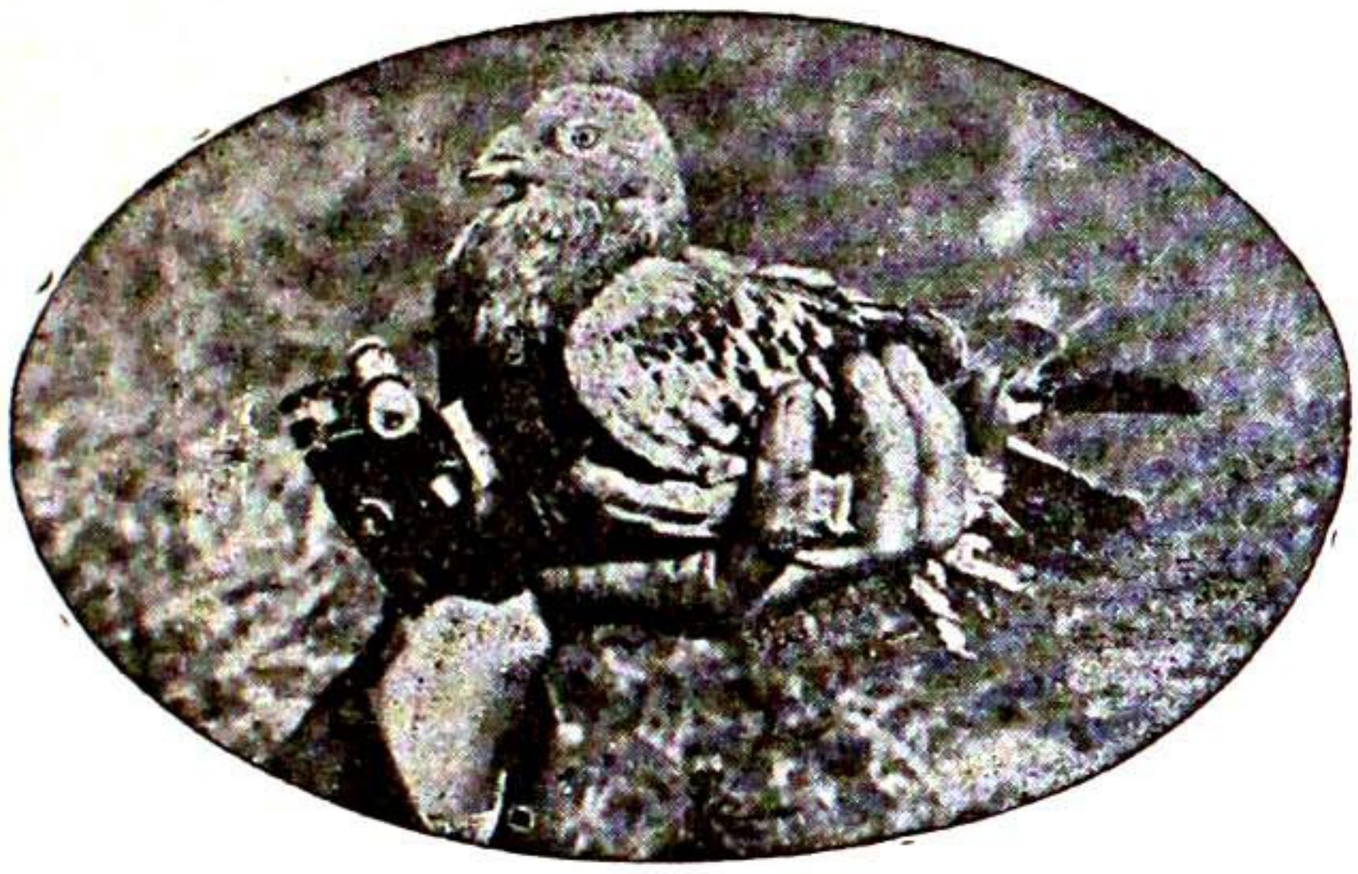

حمام الزاجل

وتسعمائة طائر ، لها عمال يناط بهم امر العناية بها . وكانت الطيور المذكورة لا تبرح الابراج بالقلعة . وكان بكل مركز حمام فى سائر نواحى المملكة بمصر والشام والعراق من اسوان الى الفرات . فلا تحصى عدة ما كان منها فى الثغور والطرقات الشامية والمصرية ، وجميعها تدرج وتنقل من القلعة الى سائر الجهات (١)

طرق أخرى للمخابرة

ومن طرق المراسلة عندهم ان تكتب ورقة تعلق بقصبة ، وتغرس القصبة فى باقة حشيش وتلقى فى الماء ، فيعوم الحشيش ولا يزال جاريا بمجرى النهر حتى يراه المرسل اليه . ومنها ان تكتب الاخبار على السهام وترمى الى المكان المراد ارسال الخبر اليه ، ويغلب ان يكون ذلك فى ايام الحصار وانقطاع السبل

ومن طرق المخابرة بناء المناظر او المنائر كالابراج العالية على المرتفعات ، ونقل الاشارات عليها باشعال النار أو نحوه ، فينتقل الخبر بها من منظرة

---

(١) تفصيل ذلك فى الهلال ص ٢١٢ سنة ١٠

Marfat.com

الى منظرة حتى تبلغ المكان المطلوب . وكان ذلك معروفا عند اليونان وغيرهم، واستخدمه الحجاج بن يوسف فى الاسلام ، فاتخذ المناظر بينه وبين قزوين. وكان اذا دخن اهل قزوين دخنت المناظر ان كان نهارا ، وان كان ليلا اشعلوا نارا ، وكانت المناظر متصلة بين قزوين وواسط فيصل الخبر فى وقت قصير

ومن عمال البريد ــ ما عدا السعاة ــ الشعوذى وهو رسول الامراء على البريد ، والكوهبانيــة وهم أصحاب الاخبار الذين يرسلون للاستطلاع ، ورجال يتولون فض الخرائط بين يدى الخليفة ، والخرائط اجربة او اكياس من جلد توضع الكتب فيهــا وتختم بختم المرســل وتحمل الى المرسل اليه ، فيفض ختمها بيده او بيد من يتولى ذلك عنه

Marfat.com

القضـــاء

تاريخ القضاء

القضاء قبل الاسلام

القضاء ـ ويراد به منصب الفصل بين الناس فى الخصومات ـ قديم ، لأن الانسان لم يستغن عمن يفصل فى قضاياه من اول ازمان وجوده . وكان قضاة القبائل عقلاءها وكبراءها ، وهم أيضا حكامها وامراؤها . فكان الرجل اذا نبغ فى عقله وقوته تولى حكومة قبيلته وحكم فى قضـــاياها ، وهو حال البدو على فطرتهم . وكذلك كان العرب فى جاهليتهم ، فقد كانوا يتقاضون الى وجهائهم وعقلائهم . واشتهر من هؤلاء القضاة قبل الاسلام جماعة كبيرة يحكم كل منهم فى قبيلته ، فمن تميم : حاجب بن زرارة والاقرع بن حابس وربيعة بن مخاشن ، ومن ثقيف : غيلان بن مسلمة ، ومن قريش : هاشم بن عبد مناف وعبد المطلب بن هاشم وابو طالب بن عبد المطلب عم النبى والعاص ابن وائل ، ومن أسد : ربيعة بن جدار ، ومن كنانة : سلمى بن نوفل، وغير هؤلاء ممن اشتهر فى كل القبائل مثل اكثم بن صـــيفى وعامر بن الظرب وغيرهما . وكان العرب يتقاضون الى الـــكهان والعرافين

القضاء فى الاسلام

واما فى الاسلام فأول من تولى القضاء رسول الله نفسه ، ثم تولاه خلفاؤه ، لان القضاء من المناصب الداخلة تحت الخلافة . فكان الخلفـــاء فى صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلونه الى من سواهم ، حتى اذا اتســـع سلطانهم وكثرت مهام مناصبهم ، اضطروا الى استنابة من يقوم عنهم بالقضاء فى مركز الخلافة وفى الاعمال . واول من فعل ذلك منهم عمر بن الخطاب ، فولى ابا الدرداء معه فى المدينة ، وولى شريحا فى البصرة ، وولى أبا موسى الاشعرى فى الكوفة، وكتب اليه كتابا هو قاعدة الفقه الاسلامى، وعليه تدور اكثر احكام القضاة الى اليوم ، وهذا نصه :

« أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم اذا ادى اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . ساو بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر . والصلح جائز بين المسلمين ، الا صلحا احل حراما او حرم حلالا . ولا يمنعك قضاء قضيته امس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق ، فان الحق قويم

Marfat.com

ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها . واجعل لمن ادعى حقا غائبا او بينة امدا ينتهى اليه ، فان احضر بينة اخذت له بحقه والا استحللت القضية عليه ، فان ذلك انفى للشك واجلى للعماء . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، الا مجلودا فى حد ، او مجربا عليه شهادة زور ، او ظنينا فى نسب او ولاء . فان الله سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات . واياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ، فان استقرار الحق فى مواطن الحق يعظم به الله الاجر ويحسن به الذكر والسلام » (١)

اما مصر فالقضاء فيها كان موكولا الى امرائها ، وهم الذين كانوا يولون قضاتها . وكان عمر بن الخطاب قد اراد ان يولى قاضى مصر ، كما ولى قضاة المدينة والبصرة والكوفة ، فكتب الى عمرو بن العاص ان يولى القضاء كعب بن يسار بن ضنة ، وكان ممن قضى فى الجاهلية ، فأبى كعب ان يقبل ذلك وقال : « قضيت فى الجاهلية ولا اعود اليه فى الاسلام » فولى عمرو عثمان بن قيس بن ابى العاصى (*) . وما زال امير مصر هو الذى يولى القضاة حتى افضت الخلافة الى بنى العباس، فأرادوا توطيد سلطانهم على مصر فجعلوا تولية القضاة اليهم . واول قاض ولاه الخلفاء على مصر مباشرة عبد الله بن لهيعة الحضرمى ، ولاه ابو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ . ثم صارت تولية قضاة مصر الى الخلفاء

وكان القضاة اول الامر يولون على الاقاليم قضاة من قبلهم ، فيولون لكل ناحية قاضيا . فلما عمرت المملكة واتسعت ، تعدد القضاة حتى صاروا يولون فى المدن الكبرى عدة قضاة ، كل قاض فى جانب من جوانبها . والخليفة هو الذى يولى كلا منهم بنفسه ، الى زمن الرشيد وقد اتسعت بغداد فى ايامه . ونبغ يومئذ القاضى ابو يوسف الشهير ، وكان الرشيد يكرمه ويجله فدعاه قاضى القضاة ، وهو اول من دعى بذلك . وكان ابو يوسف عالى الهمة فخدم هذا المنصب خدمة جليلة وميز العلماء بلباس خاص بهم ، وكانوا من قبله يلبسون مثل سائر الناس . وصار قاضى القضاة

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ، حـ ٢ ص ٣٩٦ – ٣٩٧

(*) فى « الولاة والقضاة » للكندى ، ان عمر بن الخطاب هو الذى ولى قيس بن ابى العاصى قضاء مصر سنة ٢٣ هـ . فظل قاضيا ثلاثة أشهر ثم كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص بأن يولى كعب بن يسار بن ضنة ، فقال كعب : « والله لاينجيه الله من أمر الجاهلية ، وما كان فيها من الهلاك ثم يعود فيها ابدا » فتركه عمرو ، وقضى بين الناس فيها عثمان بن قيس بن ابى العاصى دون تولية . وظلت مصر بدون قاض من مقتل عثمان الى ولاية معاوية بن ابى سفيان فولى سليم بن عنز التجيبى ، ثم كان الولاة بعد ذلك يعينون قضاة مصر من قبلهم »
انظر : ابو عمر محمد بن يوسف الكندى : : كتاب الولاة وكتاب القضاة ، طبعة روفن جست (بيروت ١٩٠٨) ص ٢٩٩ – ٣١١

Marfat.com

بعده هو الذى يولى قضاة مدينة بغداد ، ثم صار يولى قضاة الاقاليم . واقتدى بالعباسيين من عاصرهم وخلفهم من الخلفاء فى الاندلس ومصر ، وصاروا يولون قاضى القضاة وهو يولى القضاة (*)

عمل القاضى

وكانت وظيفة القاضى فى صدر الاسلام محصورة فى الفصل بين الخصوم ، ثم صاروا يتعاطون امورا اخرى على ما تقتضيه الاحوال بحسب اشتغال الخلفاء بأمور السياسة . فأضيف الى اعمال القاضى استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين ، كالنظر فى اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه ، وفى وصايا المسلمين وأوقافهم ، وتزويج الايامى عند فقد الاولياء .. ثم امتدت سلطتهم احيانا الى النظر فى مصالح الطرقات والابنية ، وتصفح الشهود والامناء والنواب ، واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح (**) . وتوسع بعض الخلفاء حتى جعل للقضاة قيادة الجهاد فى عساكر الصوائف ، منهم يحيى بن اكثم فقد كان يخرج فى ايام المأمون بالصائفة الى ارض الروم . كذلك منذر بن سعيد قاضى عبد الرحمن الناصر الاموى بالاندلس . وولى العزيز بالله الفاطمى القاضى على بن النعمان القضاء بمصر ، واضاف اليه قضاء الشام والحرمين والمغرب وجميع مملكة العزيز ، والخطابة والامامة والعيار فى الذهب والفضة والموازين والمكاييل . ثم تولى القضاء ابو محمد البازورى سنة ٤٤١ هـ . واضيفت اليه الوزارة ، وهو اول قاض جمع بينهما ثم أضيفت الى غيره بعده

فترى مما تقدم ان منصب القضاء كان واسعا جدا ، على انه لم يكن كذلك فى كل العصور ، وانما اختلف باختلاف الدول كما رأيت . ثم ان الخلفاء كانوا فى اوائل الاسلام لايولون القضاء الا اهل عصبيتهم ، من العرب او مواليهم بالحلف او بالرق او بالاصطناع ، ممن يوثق بكفايته او غنائه فيما يدفع اليه . فلما تحولت الخلافة الاسلامية من الغرض الدينى الى الغرض السياسى ، وصار الامر كله ملكا او سلطانا ، ضعف هذا الشرط ، ثم تحولت ازمة الاحكام الى الاعاجم ، فتقاصرت واجبات القاضى بالتدريج الى الفصل بين الخصوم والحكم فى الاحوال الشخصية . ثم انحصرت فى الاحوال الشخصية بالمحاكم الشرعية كما هو اليوم

وكان القضاة يجلسون فى المساجد للحكم بين الناس ، فاذا جاءهم الخصوم حكموا بينهم هناك . وكانوا يعدون القضاء من الاعمال الشاقة الخطرة بالنظر

(*) كان المتبع فى الاندلس ان يختار الامير او الخليفة شيخا فاضلا ويعتبره رئيس الفتيا ، وهذا الرجل هو الذى يختار القضاة للعاصمة والاقاليم

(**) او بالتعديل والجرح ، وهو اصطلاح معناه الحكم بالصلاحية وعدمها

Marfat.com

الى الدين ، لما فيه من تحمل التبعة فيما قد يخطىء به القاضى ، فيحكم على صاحب الحق فيظلمه وهو مسئول عنه . فكثيرا ما كان العلماء ورجال التقوى يأبون ولايته ، كما رأيت فى أمر كعب بن يسار لما ولاه عمر قضاء مصر ، وكما فعل الامام أبو حنيفة النعمان لما أراد أبو جعفر المنصور أن يوليه القضاء فانه قال له : « اتق الله ولا ترع فى أمانتك الا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتنى أن تغرقنى فى الفرات أو تلغى الحكم لاخترت أن أغرق . ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ، ولا أصلح لذلك » . وكانوا اذا ولوا القاضى جاءوا به الجامع ، واحتفلوا هناك بقراءة السجل الصادر له بذلك

مجلس القضاء فى غرناطة

وكان قضاء مصر على مذهب الامام الشافعى منذ ظهور هذا المذهب ، ولكن القاضى كان يستنيب من شاء من قضاة المذاهب الاخرى . وفى سنة ٥٢٥ هـ عين أبو أحمد بن الافضل أربعة قضاة يحكم كل منهم فى مذهب من المذاهب الاربعة ، ثم توالى ذلك على هذا المنوال فى أيام المماليك

وكان منصب قضاء الجند (*) تارة يضاف الى القاضى الحنفى ، وتارة يضاف الى القاضى الشافعى ، وتارة ينفرد به قاض حنفى ، وماذاك الا لان قاضى العسكر انما ينتفع به فى الجهاد ووقت خروج العسكر ، وتقع وصايا من الامراء وشهادات بينهم ولا يوجد فى العسكر الجالسين فى المراكز أحد ، يحتاج الى اثبات ذلك عند القاضى الشافعى فلا يسمع شهادة العسكر فيتعطل اثبات ذلك ، فتبطل وصاياهم وشهاداتهم . فلهذا السبب ولى الملك الظاهر بيبرس القاضى الحنفى لما اتفق له فى الجهاد مثل ذلك . وامتنع القاضى الشافعى فى ذلك الوقت من شهاداتهم ، ثم بتداول الايام ودخول أكثر الممالك الاسلامية فى قبضة الدولة العثمانية المقلد جمهور حكامهم لابى حنيفة النعمان ، انتهى الامر الى أن صار حصر القضاء على مذهب امامهم (١)

(*) أى القاضى الخاص بالجيش ورجاله

(١) رفاعة رافع الطهطاوى : مناهج الالباب المصرية ، ص ٣٨٦

راتب القاضى

وأما راتب القاضى فيختلف باختلاف الدول والازمان ، فقد رأيت فى غير هذا المكان أن عمر بن الخطاب ولى شريحا قضاء البصرة وفرض له مائة درهم فى كل شهر ومؤونة من الحنطة . وظلت رواتب القضاة على نحو ذلك فى سائر أيام الراشدين ، ثم تصاعدت فى أيام بنى أمية مثل تصاعد رواتب الجند وسائر العمال . فلما كانت أيام العباسيين أصبح راتب قاضى مصر ثلاثين دينارا فى الشهر . وأول من اقتضى هذا الراتب ابن لهيعة الذى ولاه المنصور كما تقدم . ثم تصاعد الراتب تصاعدا عظيما فى أيام المأمون ، فبلغ عطاء عيسى

قاضى العسكر فى الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر

ابن المنكدر قاضى مصر يومئذ ٤٠٠٠ درهم او نحو ٢٧٠ دينارا ، وهو راتب فاحش ، وربما جعل كذلك لغرض خاص . لانه أجيز فوق هذا الراتب بألف دينار . وعاد راتب قاضى مصر بعد ذلك ببضع وعشرين سنة الى ألف دينار فى السنة ، وأول من اقتضى هذا الراتب بكار بن قتيبة الذى تولى قضاء مصر على عهد احمد بن طولون سنة ٢٤٥ هـ . وزاد ذلك فى الدولة الفاطمية فأصبح راتب القاضى ، وهو قاضى القضاة يومئذ ، ١٢٠٠ دينار فى السنة ما عدا

Marfat.com

المؤونة والهدايا ، ولعلها استمرت على ذلك فى دولة الايوبيين ومن تلاهم

أما بغداد فاختلف راتب القاضى فيها باختلاف الازمان ، وكان فى زمن المعتضد نحو ٥٠٠ دينار فى الشهر ، بما فيه أجور عشرة من الفقهاء وخليفة القاضى . ثم دخل القضاء فى الالتزام ، فصار القضاة يضمنون دخل القاضى بمال يؤدونه الى الخليفة أو السلطان . وأول من ضمن القضاء عبد الله بن الحسن بن أبى الشوارب سنة ٣٥٠ هـ فى أيام معز الدولة بن بويه ، فقد سمى قاضى قضاة بغداد ، والتزم القضاء على أن يؤدى ٢٠٠ الف درهم كلّ سنة . ثم صار ذلك أمرا مألوفا ، وصاروا يضمنون الحسبة والشرطة (*)

ديوان المظالم

وهو من توابع القضاء ، ويشبه مانسميه اليوم « مجلس الاستئناف » بعض الشبه ، والغرض منه استماع ظلامات الناس من القضاة أو غيرهم . وكان العرب فى جاهليتهم يلتفتون الى هذا الامر فيتحالفون على رد المظالم ، كما فعلت قريش قبل الاسلام . وذلك أنهم لما تعدد فيهم الزعماء وكثر التغالب والتجاذب ، اجتمعت بطونهم وعقدوا حلفا على رد المظالم وانصاف المظلوم من الظالم ، وهو حلف الفضول المشهور الذى عقد فى مكة والنبى عمره ٢٥ سنة ، وموضوعه الا يظلم أحد فى مكة الا أنصفوه وأخذوا له حقه

ولم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الاربعة ، لان الناس فى الصدر الاول كانوا بين من يقوده التناصف الى الحق أو يزجره الوعظ عن الظلم ، الا عليا فانه احتاج الى النظر فى المظالم ، ولم تكن فى الحقيقة كما صارت اليه بعدئذ . على انه لم يفرد لسماع الظلامات يوما معينا أو ساعة معينة ، وانما كان اذا جاء متظلم أنصفه . ثم أفردوا يوما خاصا للنظر فى أقوال المتظلمين وتصفح قصصهم ، وأول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان ، ولكنه كان اذا وقف منها الى مشكل واحتاج فيه الى حكم رده الى قاضيه ابن ادريس الأزدى، فكان ابن ادريس هو المباشر وعبد الملك الآمر. وأول من ندب نفسه لمباشرة المظالم عمر بن عبد العزيز الشهير ، ثم أهملت بعده الى أيام الدولة العباسية فجلس لها خلفاء بنى العباس ، وأول من جلس منهم المهدى ثم الهادى ثم الرشيد ثم المأمون ، وآخر من تولاها منهم المهتدى بالله محمد بن الواثق

وكانوا يسمعون ظلامات الناس وينصفونهم ، وفيهم من يتظلم من الولاة أو من العمال أو من جباة الاموال أو من كتاب الدواوين ، فى تقصيرهم بشىء من رواتبهم أو من أحد أبناء الخلفاء او الامراء او نحوهم من اهل الوجاهة

(*) أى أن القضاء أصبح موردا خصبا يدر على صاحبه الربح ، فيدفع ملتزم القضاء لبيت المال مبلغا معينا فى السنة ، ويتولى تعيين قضاة النواحى وما يلزمهم ويقوم برواتبهم ، ويتقاضى من الناس رسوما عالية تزيد أضعافا على مادفع

Marfat.com

ممن يغتصبون الاموال أو الضياع ، او من القضـــــاة لانهم لم ينصفوهم فى أحكامهم ، أو من أى انسان كبيرا كان او صغيرا . فهو اوسع دائرة من مجلس الاستئناف ، وأطول باعا واشد وقعا واسرع نفوذا . ومن أمثلة ما ردوه من المظالم على هذه الصورة أن عمر بن عبد العزيز خرج ذات يوم الى الصـــلاة فصادفه رجل من اليمن فاستغاثه فقال : « ماظلامتك ؟ » فقال : « غصبنى الوليد بن عبد الملك ضيعتى » فقال : « يامراجم ائتنى بدفتر الصوافى » فوجد فيه : « أصفى عبد الله الوليد بن عبد الملك ضيعة فلان » فقال : « اخرجها من الدفتر وليكتب برد ضيعته اليه ويطلق له ضعف نفقته »

وحكى عن المأمون أنه كان يجلس للمظالم يوم الاحد ، فنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة فى ثياب رثة وتظلمت اليه فى ابنه العباس ، فأوقفه بجانبها ورد ظلامتها . وبعد المهتدى لم يجلس الخلفاء العباسيون للمظالم ، على أنهم كانوا كثيرا ما يعهدون بهذا المنصب الى وزرائهم ، كما فعل المأمون ليحيى بن اكثم والمعتصم لاحمد بن ابى دؤاد ، فلما غلب السلاطين على بنى العباس صار النظر فى المظالم الى السلاطين

أما فى مصر فأول من نظر فى المظالم أحمد بن طولون لما استقل بحكم مصر سنة ٢٥٧ هـ فكان يجلس لذلك يومين فى الاسبوع ، ثم صار خلفاؤه يولون من يقوم بها دونهم . حتى فتح الفاطميون مصر وبنوا مدينة القاهرة فاهتموا فى أمر المظالم ، وجلس لها أولا قائدهم جوهر فاتح مصر ، وكان يوقع على قصص المتظلمين بيده . ثم صار الخلفاء بعده يعهدون بذلك الى قاضى القضاة، أو الى بعض علماء الدولة . فلما ضعف أمر الفاطميين واستبـــد وزراؤهم بالحكم ، صارت المظالم الى الوزراء وأشهرهم فى ذلك الافضل بن شاهنشاه ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه . واقتدى به من جاء بعده ، وكانوا يجعلون بباب الديوان مناديا ينادى : « يا ارباب الظلامات ! » فيحضرون اليه فيـأمر بانصافهم

دار العدل

ولما أفضت الحكومة فى مصر الى السلاطين الايوبيين ، بنوا دارا للنظر فى المظالم سموها « دار العدل » ، وكان قد سبقهم الى بناء مثل هذه الدار فى دمشق الملك العادل نورالدين زنكى . وكان الايوبيون يجلسون فى دار العدل للنظر فى المظالم . وجرى سلاطين المماليك بعدهم على ذلك ، وكانت لهم عناية كبرى بانصاف الناس ، وكانوا يحترمون مجلسهم للمظالم فلا يقعدون فيه على تخت الملك ، ولكنهم يجلسون على كرسى بجانبه حتى تلحق أرجلهم الارض ، فاذا جلس السلطان على ذلك الكرسى يجلس قضاة من المذاهب الاربعة على يمينه ، ووكيل بيت المال وغيرهم من أرباب الوظائف والحرس والخاصة

بين يديه ، وفيهم من يقــرأ الظلامات للسلطان ، فيراجع القضــاة أو أمراء العسكر فيما يرى مراجعتهم فيه ثم يمضى بما يراه

وكان لسلاطين المسلمين وأمرائهم عناية كبرى بالنظر فى مظالم الرعية ، وكانوا يبذلون الجهد فى رفعها ، ولو كان المتظلم منهم أو من اولادهم . وأمثلة هذه الحوادث كثيرة فى تاريخ الاسلام ، فتعود الناس أن يرفعوا شكواهم الى خلفائهم وسلاطينهم فى أيام معينة ، وساروا يحسبون ذلك فرضا واجبا . فاذا أمسك الخليفة عن النظر فى المظالم يوما أو بضعة أيام ضجروا وملوا ، وكان بعض الخلفاء يقسم المظالم الى فروع ، بعضها للنظر فى مظالم الجند ، وبعضها للنظر فى مظالم العمال ، وبعضها لغير ذلك

الحسبة

هى منصب دينى من قبيل القضاء ، وصاحب الحسبة (المحتسب) يبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدن مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ، ومنع الحمالين ومنع أهل السفن من الاكثار فى الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمهــا وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى المكاتب اذا بالغوا فى ضربهم للصبيان ، وله النظر فى الغش والتدليس فى المعايش وغيرها وفى المكاييل والموازين . والاصل فى الامور التى ذكرناها أن تكون من واجبات القاضى ، لكنهم جعلوها عملا مستقلا تنزيها للقاضى عن استقصاء هذه الامور بنفسه . على انها كثيرا ما كانت تجعل فى جملة أعمال القضاة فى عهد الفاطميين بمصر والامويين فى الاندلس ، فلما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار نظره عاما فى السياسة اندرجت الحسبة فى وظائف الملك وافردت بالولاية (*)

ولا يتولى الحسبة الا رجل من وجهاء المسلمين لانها خدمة دينية ، وكان صاحب الحسبة يولى عنه نوابا فى سائر الكور والاعمال ، وله الجلوس فى الجوامع كل يوم ، ويطوف نوابه على أرباب الحــرف ، والمعايش . فكان صاحب الحسبة فى مصر يجلس فى جامعى القاهرة والفسطاط يوما بعد يدم ، ويبعث نوابه فى الشوارع لتفقد اللحوم والمطبوخات ، ومراعاة أحمال الدواب فلا يأذنون لاحد أن يحملها فوق طاقتها ، ويأمرون السقايين بتغطية الروايا بالاكسية ويلزمونهم بمراعاة المعيار المقدر للروايا وهو أربعــة وعشرين دلوا وكل دلو اربعـــون رطلا ، ويأخذونهم بلبس السراويلات الزرقاء القصيرة الضابطة لعوراتهم ، وينذرون معلمى المكاتب بألا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا ولا فى مقتل ، وكذلك معلمى العوام بتحذيرهم من التفرير بأولاد النــاس . وللمحتسب النظر فى ادارة العيار

(*) ابن خلدون : المقدمة ، ج ٢ ص٤٠٤

Marfat.com

أما فى الاندلس فكانوا يسمون هذا المنصب « خطة الاحتساب » ويتولاه قاض ، وكانت العادة فيه أن يمشى بنفسه راكبا الى الاسواق وأعوانه معه ، وميزانه الذى يزن به الخبز فى يد أحد الاعوان . وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع بأكثر أو دون ما حلله المحتسب فى الورقة . ولا تكاد تخفى خيانته ، فان المحتسب يدس عليه صبيا أو جارية يبتاع احدهما منه ، ثم يختبر المحتسب الوزن فان وجده ناقصا قاس على ذلك حاله مع الناس . ولهم فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما يتدارس الفقهاء أحكام الفقه (*)

الشرطة

والشرطة فى الاصل من توابع القضاء ، لان المراد بها تنفيذ أحكام القضاة أو فرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ، واقامة التعزير والتأديب فى حق من لم ينته عن الجريمة . فكانت الشرطة خادمة للقضاء تساعد القاضى فى اثبات الذنب على مرتكبه وتساعد الحكومة على تنفيذ الحكم . ويتولى صاحبها أيضا اقامة الحدود على الزنا وشرب المسكر ، وكثيرا من الامور الشرعية التى يجلون مقام القاضى عنها

ثم صار النظر فى الجرائم ، واقامة الحدود فى الدولة العباسية والاموية فى الاندلس والفاطمية بمصر ، راجعا الى صاحب الشرطة وأفردوها من نظر القاضى ، ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم ثم تفرعت الشرطة فى الاندلس الى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، تحكم الكبرى فى الخاصة والزعماء وأهل المراتب والسلطان ، فتضرب على أيديهم فى الظلامات وعلى أيدى أقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه . واما الصغرى فتنحصر فى الاحكام على العامة والرعاع . ونصبوا لصاحب الشرطة الكبرى كرسيا بباب دار السلطان ، وله رجال يتبوأون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا من تصريفه ، وكانت تعد ولايتها ترشيحا للوزارة او الحجابة . وكان صاحب الشرطة يسمى عندهم صاحب المدينة أو صاحب الليل ، وفى دول السلاطين كانوا يسمون صاحب الشرطة الوالى ، وفى افريقية يسمونه الحاكم فكأن الشرطة نشأت مع القضاء ، لكنها لم تنفرد بنفسها وتتميز عنه الا فى ايام بنى أمية (**)

(*) أنظر : ثلاث رسائل اندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، بتحقيق ليفى بروفنسال القاهرة ١٩٥٥

(١) لم يدرس نظام الشرطة الاسلامية الى الآن الدراسة الواجبة . المادة التى كتبها تسيترشتين فى دائرة المعارف لاقيمة لها وكذلك مايقوله ابن خلدون عنها قليل لايغنى
أنظر : المقدمة ، حـ ٢ ص ٤٥٠

Marfat.com

ديوان الانشاء

الكتابة

لم يكن العرب فى جاهليتهم يعرفون الكتابة الا نفرا قليلين . ولم تكن كتابتهم بالاحرف العربيةالمعروفة اليوم ، وانما كانوا يكتبونبالاحرف العبرانيةاقتباسا من اليهود فى جملة ما اقتبسوه منهم ، وكان ممن كتب العربية بالقلم العبرانى ورقة بن نوفل ، ابن خال خديجة زوج النبى . أو بالاحرف النبطية ، نقلا عمن هاجر اليهم من الانباط فى القرون الاولى للميلاد فرارا من سلطان الروم. والارجح عندنا ان الحرف العربى الذى نكتب به اللغة العربيةاليوم ، متخلف عن الحرف النبطى الذىكان يكتب به الانباط فى بطرا ومدائن صالح (١) وأما الحرف الكوفى فقد تخلف عن القلم الاسطرنجيلى ، الذى كان يكتب بهالسريان أو الكلدان فى العراق ، واستخدمه العرب فى أول الامر لكتابة اللغة العربية ، فحدث فيه بعض التبديل حتى صار الى ما هو عليه . ويؤيد قولنا أنه من العراق وانه حدث بعد الاسلام ، لان الكوفة من المدن التى بناها المسلمون فى العراق . وسنعود الى تاريخ الخط فى الجزء الثالث من هذا الكتاب (*)

ولما ظهر الاسلام لم يكن يكتب بالعربية الا بضعة عشر انسانا ، كلهم من الصحابة وفيهم على بن ابى طالب وعمر بن الخطاب وطلحة وعثمان وابوسفيان وولداه معاوية ويزيد وغيرهم . فكان على وعثمان وزيد بن ثابت وعبد الله ابن الارقم ممن كتب للنبى ، لانه لميكن يكتب ولا يقرأ . فكتبوا له سور القرآن والكتب التى خاطب بها الملوك يدعوهم الى الاسلام . وكان بعضهم يكتب له حوائجه ، والبعض الآخريكتبون بين الناس فى المدينة ، والبعض الآخر يكتبون بينالقوم فى مياههم وقبائلهم وفى دور الانصار بينالرجال والنساء

ولما تولى أبو بكر كان عثمان بن عفان كاتبه يكتب له الكتب الى العمال والقواد ، وصارت الكتابة منصبا من مناصب الحكومة لا يستغنى عنه ، فلما تولى عمر كتب له أولا زيد بن ثابت ثم حل محله غيره ، ولما فتحت الامصار وتدونت الدواوين عين عمر كاتبا لكل ولاية يكتب فى ديوانها . وكان الكاتب يكتب فى أول الامر لديوان الجند وبيت المال ، فتولى عثمان وعلى وانقضت دولة الخلفاء الراشدين والكتابة منحصرة فى واحد يضبط حساب الديوان من

---

(١) كتاب العرب قبل الاسلام ، ٨١ ج ا

(*) من الثابت الآن ان الخط المسمى بالخطالكوفى ظهر قبل الاسلام بزمن طويل ، ونسبته الى الكوفة ليست نسبة اصل بل نسبة تجويد ، اذ الغالب ان من استقر بها من العرب بعد الاسلام استعملوه وجودوه واعطوه طابعه المعروف فنسب اليها . واصل الخط الكوفى مولد من خطوط العبرانيين والتدمريين

انظر : الدكتور ابراهيم جمعة ، قصة الكتابة العربية . القاهرة ١٩٤٧،ص٢٣ وما بعدها

Marfat.com

أعطيات الجند وأسمائهم ويكتب المراسلات ، وربما كانا اثنين يتولى الثـــانى كتابة بيت المال

ولما انتقلت الخلافة الى بنى أمية ، وتعددت مصالح الدولة على ما مر بك ، تعدد الكتاب فصارت الكتابة خمسة أصناف : كاتب الرسائل لمخاطبة العمال والامراء والملوك وغيرهم، وكاتب الخراج يدون حساب الخراج داخله وخارجه، وكاتب الجند يقيد أسماء الاجناد وطبقاتهم وأعطياتهم ونفقات الاسلحة وغير ذلك ، وكاتب الشرطة يكتب التقارير عما يقع من أحوال القواد والديات وغيرها، وكاتب للقاضى يكتب الشروط والاحكام

ديوان الانشاء

وأهم أصناف الكتاب ، كاتب الرسائل وهو أقدمها ، وقد يسمى كاتب السر ، وهو يد الخليفة وكاتبه ومستودع أسراره ، كما كان عمر لابى بكر ، وعثمان لعمر . وكان الخلفاء فى أول عهد الاسلام لا يولون هذا المنصب الا أقرباءهم أو خاصتهم ، لما فيه من الخطورة . وظلوا على نحو ذلك الى ايام بنى العباس ، فكان كتابهم فى أول الامر يستبدون فى الامر دونهم ، ثم صارت الكتابة الى وزرائهم ، ولم يكن الوزير يكتب الرسائل أوالرقاع بيده ، ولكنه يمضيها أى يوقع عليها كما يفعل اليوم الوزراء والرؤساء . وأول من وقع على الرقاع عندهم يحيى بن جعفر البرمكى ، لما أطلق الرشيد يده فى أمور الدولة ومقاليدها ، فصار اذا رفع أحد كتابا فى ظلامة أو طلب رزق أو نحو ذلك وقع يحيى عليه بيده . وصار الوزراء بعده يوقعون على الرقاع أو القصص ، وربما انفرد بعضهم فى ولاية ديوان السر أو ديوان الرسائل أو الانشاء

وفى أخريات دولة بنى العباس استقلت الكتابة وعهد فيها الى غير الوزراء ، وكانوا ببغداد يقال لهم كتاب الانشاء ، وكبيرهم يدعى رئيس ديوان الانشاء أو صاحب ديوان الانشاء او كاتب السر وكل أمور هذا الديوان الى الوزير . وكانوا يسمونه أيضا الديوان العزيز ، وهو الذى يخاطبه الملوك فى مكاتبات الخلفاء بما يشبه ديوان الرياسة أو وزارة الخارجية فى هذه الايام

التوقيع

يريدون بالتوقيع فى دوائر الحكومة اليوم « الامضاء » ، أما فى أيام الخلفاء فكان يراد به ما يعلقه الخليفة على القصص او الرقاع « العرضـــحالات » المعروضة عليه لطلب أو شكوى أو نحو ذلك ، فيكتب عليها بما يجب اجراؤه أو مايفيد الجواب على فحواها بما يشبه التأشير أو التعليم فى دوائر حكومتنا، وهو من واجبات صاحب ديوان الانشاء أو من يتعين للتوقيع خاصة . فيجلس الكاتب بين يدى الخليفة أو السلطان فى مجالس حكمه وفصله ، فاذا

Marfat.com

نظر الخليفةفى الرقاع أمر الكاتبأن يوقععليها فيتوخى الكاتب ابلغ مايستطيه. وكانوا يختارون للتوقيع كتابا من أهل العارضة والبلاغة ليستقيم توقيعه ، فكان جعفر بن يحيى يوقع فى القصص بين يدى الرشيد ويرمى بالقصة الى صاحبها ، وكانت توقيعاته يتنافس البلغـــاء فى تحصيلها للوقوف منها على أساليب البلاغة وفنونها ، حتى قالوا انها كانت تباع كل قصة منها بدينار

توقيعات الخلفاء وغيرهم

وكان الخلفاء فى صدر الاســـلام هم الذين يوقعون فى القصص والرقاع بأنفسهم أو يأمرون كتابهم بتدوينه ، والغالب فى توقيعهم أن يكون اقتباسا من آية أو حديث أو حكمة مشهورة أو شعر حكمى . ومن أمثلة ذلك أن سعد ابن ابى وقاص عامل العراق كتب الى عمر بن الخطاب كتابا يستأذنه فيه ببناء دار ، فوقع عمر فى أسفل الكتاب : « ابن ما يكنك من الهواجر وأذى المطر » . ووقع عمرأيضا لعمرو بن العاصعامله على مصر ، جوابا على كتاب كتبه اليه : « كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أميرك »

وتشكى قوم لعثمان بن عفان من مروان بن الحكم ، وذكروا أنه أمر بوجىء أعناقهم فوقع فى ذلك الكتاب : « فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون » وأرسله اليه . ومن توقيعات على بن ابى طالب فى كتاب جاءه من ابنه الحسن : « رأى شيخ خير من جلد غلام » ، وكتب سلمان الفارسى الى على يسأله : « كيف يحاسب الناس يوم القيامة ؟ » فوقع على كتابه : « يحاسبون كما يرزقون »

ومن توقيعات معاوية بن ابى سفيان أن عبد الله بن عامر كتب اليه يسأله أن يقطع مالا فى الطائف فوقع : « عش رجبا تر عجبا » وكتب زياد بن ابيـــه الى معاوية يخبره أنعبدالله‌بن عباس يطعن فى خلافته فوقع فى أسفل الكتاب: « ان أبا سفيان وأبا الفضل كانا فى الجاهلية فى مسلاخ واحد ، وذلك حلف لا يحله سوء رأيك » . ووقع عبد الملك بن مروان فى كتاب جاءه من الحجاج يخبره فيه بسوء طاعة أهل العـــراق ومايقاسى منهم ، ويستأذنه فى قتل أشرافهم : « ان من يمن السائس ان يتألف به المختلفون ، ومن شؤمه أن يختلف به المتآلفون » . ووقع فى كتاب جاءه من الاشعث وهو ثائر عليه :

«فما بال من أسعى لاجبر عظمه حفاظا وينوى من سفاهته كسرى »

وكتب قتيبة بن مسلم الى سليمان بن عبد الملك يهدده بالخلع ، فوقـــع سليمان على الكتاب :

«زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول ســـلامة يامربع »

وكتب اليه قتيبة مرة أخرى بالتهديد فوقع فى الكتاب : « وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » . وكتب بعض العمال الى عمر بن عبد العزيز يستأذنه فى مرمة مدينة ، فوقع فى أسفل كتابه : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » ، وكتب اليهعامله على العراق يخبره بسوء طاعة أهلها ، فوقع له : « ارض لهم ماترضى لنفسكوخذ بجرائمهم بعد ذلك » . وكانتوقيعات عمر بن عبد العزيز كثيرة . ووقع يزيد بن عبد الملك على رقعة رجل يتظلم من عامل : « وسيعلم الذينظلموا أى منقلب ينقلبون »

ومن توقيعات بنى العباس أن بعض أهل الانبار كتبوا الى السفاح يشكون أن منازلهم أخذت وأدخلت فى البناء الذى أمر به ولم يعطوا أثمانها فوقع : « هذا بناء اسس على غير تقوى » وامر باعطائهم الاثمان . وشكا اهل الكوفة الى ابى جعفر المنصور سوء معاملة عاملهم ، فوقع على كتابهم : « كما تكونون يؤمر عليكم » . ووقع على قصة رجل شكا عيلة : « سل الله من رزقه » وجاءه من عامله على حمص كتاب فيه خطأ فوقع فى أسفله : « استبدلبكاتبك والا استبدل بك » . وكتب صاحب ارمينيا الى المهدى يشكو سوء طاعة رعاياه ، فوقع فى الكتاب : « خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين » وشكا بعضهم اهمال عامله فى خراسان فوقع على شكواهم : « انا ساهر وانت نائم » وأرسله اليه . ومن توقيعات هرون الرشيد الى عامله فى خراسان : « داو جرحك لا يتسع » ، والى عامله على مصر : « احذر أن تخرب خزانتى وخزانة أخى يوسف فيأتيك منه ما لا قبلك به ومن الله أكثر منه» .وقس على ذلك سائر توقيعات الخلفاء

على أن التوقيع لم يكن خاصا بالخلفاء، ولكنه كانشائعا بينالامراء والكبراء أيضا مثل زياد بن أبيه وأبى مسلم الخراسانى وجعفر بن يحيى . ولجعفر شهرة طائرة فى بلاغة توقيعاته كما تقدم ، من ذلك توقيعه لمحبوس : «ولكل أجل كتاب » ، ووقع فى كتاب جاءه فى شكوى بعض عماله : « لقد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما اعتدلت واما اعتزلت » ، وفى رقعة رجل يستأذن فى الحج : « من سافر الى الله أنجح » ، وفى كتاب رجل طلب ولاية : « لا أولى بعض الظالمين بعضا » ، وفى قصة رجل يستمنحه وقد كان منحه مرارا : « دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » . وغير ذلك شىء كثير ، ومثله للفضل بنسهل وطاهر بن الحسين وغيرهما

اختصار الكتابة

وكان لهم ولع غريب فى اختصار الكتابة فى المراسلات اختصارا يصح أن يتخذ مثالا للبلاغة . من أمثلة ذلك ما كتبه عمر بن الخطاب الى عمرو بنالعاص يستمده الحنطة والمؤونة من مصر على أثر ما أصاب اهل المدينة من الجهد ،

Marfat.com

فكتب ابن الخطاب يقول : « من عبد الله أمير المؤمنين الى العاصى بن العاصى . سلام . أما بعد فلعمرى ياعمرو ماتبالى اذا شبعت أنت ومن معك ان أهلك أنا ومن معى ، فياغوثاه ثم يا غوثاه ! » فكتب اليه عمرو : « لعبد الله أمير المؤمنين من عبد الله عمرو بن العاص . أما بعد فيالبيك ثم يالبيك ! قد بعثت اليك بعير أولها عندك وآخرها عندى والســـلام » وأمثال ذلك كثيرة من مراسلاتهم ، فلتطلب فى كتب الادب والتاريخ

ولم يكن هذا الاختصار قاصرا على المكاتبات بينهم وبين عمالهم ، لـكنه كان شأنهم فى كل مكاتباتهم . من أمثال ذلك جواب هرون الرشيد الى نقفور « نيسوفورس » ملك الروم ، وكان قد كتب اليه كتابا يهدده فيه ويطلب اليه ان يرد ما كان أخذه من الخراج من الامبراطورة التى كانت قبله ، فلما قرأ الرشيد الكتاب احتدم غيظا فلم يتمالك عن أن أخذ دواة وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هرون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ! قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ماتراه لا ماتسمعه »

ومثل ذلك جواب يوسف بن تاشفين صاحب مراكش على كتاب الاذفونش ملك الافرنج الذى يهدده فيه ، وكان الكتاب طويلا فلما قرأه يوسف كتب على ظهره : « الذى يكون ستراه »

مكاتبة الخلفاء

وكان من القواعــد المرعية فى مكاتبة الخلفاء أن يبدأوا بأسمائهم قبل مخاطبيهم، ويكلفوا مكاتبيهم أن يراعوا ذلك .. كما رأيت فيما دار بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص ويعدون العدول عنه ذنبا . وقد كان فى جملة ما حمل المنصور على قتل أبى مسلم الخراسانى ـ مع ما له على دولتهم من الفضل ـ أنه كتب مرة الى المنصور وبدأ بنفسه . واذا رأيت فى بعض المراســلات ما يخالف هذه القاعدة فانه سهو من النساخ

ولم يزل الامر كذلك الى أن استولى بنو بويه على الامر وغلبوا على الخلفاء واستبدوا بهم ، فاحتجب الخلفاء ولم يبق اليهم فى ما يكتب عنهم غالبا سوى الولايات . وفوض الامر فى غالب المكاتبات الى وزرائهم ، وصارت اذا اقتضت الحال ذكر الخليفة كنى عنه بالمواقف المقدسة والمقامات الشريفة والســـدة النبوية والدار العزيزة والمحل الممجــد ، يعنون بالمواقف الاماكن التى يقف الخليفة فيها ، ثم انتقلوا الى تعظيم الامراء والوزراء بالتلقيب بالمجلس العالى والحضرة السامية وما أشبه

الاشارة أو الرمز

ومن تفننهم فى المكاتبات الاشارة بحرف واحد الى مقالة طويلة ، كما وقع للسلطان محمود الغزنوى بن سبكتكين بعد أن استقل بالسلطنة ، فانه كتب

Marfat.com

الى الخليفة ببغداد يطلب اليه أن يذكر اسمه فى الخطبة وينقش اسمه على النقود فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث محمود اليه كتابا يهدده فيه قال فى جملته : « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » ، فبعث اليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه محمود لم يجد فيه غير البسملة ، وبعدها ألف ممدودة ، وفى وسط الكتاب لام ، وفى آخره ميم ، ثم الصلاة والحمد لله ! فتحير السلطان وأهل مجلسه من ذلك ، حتى دخل عليهم أبو بكر القهستانى ، وكان من كبار العلماء ففكر فى ذلك حتى فقه له فقال : «عندى شرحه » ، فقال السلطان : « قل ولك ما تريد » فقال : « انكم بعثتم تهددون الخليفة بالفيلة فبعث اليكم هذا الكتاب وفيه ألف لام ميم اشارة الى قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الى آخر الآية فارتاع السلطان لذلك وتشاءم وندم وعاد الى أحسن الاحوال

ومن هذا القبيل حكاية لطيفة وقعت لسديد الملك على بن مقلد ، صاحب قلعة شيزر فى أواسط القرن الخامس للهجرة ، وكان شجاعا مقداما موصوفا بقوة الفطنة. وكان قبل تملكه قلعة شيزر يتردد الى حلب وصاحبها يومئذ تاج الملوك محمد بن صالح، فوقع بينهما أمر أخاف سديد الملك من تاج الملوك. فخرج سديد الملك الى طرابلس الشام ، وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده . فعلم تاج الملوك بذلك ، فأراد الاحتيال فى استقدام سديد الملك اليه للفتك به ، فأوعز الى كاتبه أبى النصر محمد بن الحسين أن يكتب اليه كتابا يشوقه فيه ويستعطفه ويستدعيه اليه . وفهم أبو النصر الغرض الحقيقى من ذلك الكتاب ، وكان صديقا لسديد الملك ، لكنه لم ير مندوحة عن كتابة الكتاب . فكتبه كما أمر به تاج الملوك ، حتى اذا بلغ الى قوله : «ان شاء الله تعالى » شدد النون فى أن وفتحها فجعلها « ان » وأنفذ الكتاب . فلما وصل الكتاب الى سديد الملك قرأه ، ثم عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن فى مجلسه من الخواص ، فاستحسنوا عبارة الكاتب واستعظموا ما فيه من رغبة تاج الملوك فى سديد الملك وايثاره قربه . فقال سديد الملك : « انى أرى فى الكتاب مالا ترون » . ثم أجابه على الكتاب بما اقتضاه المقام ، وكتب فى جملة ذلك : « أنا الخادم المقر بالانعام » وكسر همزة « أنا » وشدد نونها فصارت « انا » . فلما وصل الكتاب الى تاج الملوك ووقف عليه ابو نصر الكاتب سر بما فيه وقال لاصدقائه : « قد علمت ان الذى كتبته لا يخفى على سديد الملك » . وكان ابو نصر قد قصد بتشديد نون « ان » الاشارة الى الآية « ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » ، فأجابه سديد الملك بتشديد « انا » اشارة الى الآية « انا لن ندخلها ابدا ماداموا فيها »

ومن تفننهم من هذا القبيل ماكتبه عضد الدولة بن بويه الى ابى منصور افتكين متولى . وكان افتكين قد كتب اليه كتابا مضمونه : « ان الشام

قــد صفا وصار فى يدى وزال عنه حكم صاحب مصر ، وان قويتنى بالاموال والعدد حاربت القوم فى مستقرهم » ، فكتب اليه عضد الدولة جوابا فى كلمات متشابهة لا تقرأ الا بعد الشكل والتنقيط والضبط وهى : « غرك عزك فصار قصار ذلك دلك فاخش فاحش فعلك فعلك بهذا تهدا » الخ. أراد ان لا يقع الكتاب بيد احد فيطلع على مافيه ، ففهم افتكين مراده وعمل به

ادوات الكتابة

القلم كانوا يصنعونه من القصب نحو مانفعل اليوم ، واما الحبر وهو المداد فالظاهر أنهم كانوا يصنعونه من مسحــوق الفحم أو من الهبــاب مذابا فى سائل لزج كالصمغ أو نحوه

وأما القرطاس فأقدم ما كتب فيه العرب من اول الاسلام الرق وهى الجلود، وكتبوا ايضا على الاقمشة واشهرها نسيج مصرى كانوا يسمونه القباطى ، وعليه كتبت المعلقات السبع قبل الاسلام ، واذا تعذر ذلك كتبوا على الخشب أو العظام او على قطع الخزف او على الاحجار او نحو ذلك

ولما فتحوا مصر اتخذوا البردى فكان اكثر مكاتبات الامويين على البردى والقباطى . وفى دار الكتب المصرية فى القاهرة آثار مخطوطة بالعربية عثروا عليها فى بعض انحاء القطر المصرى ، شاهدنا بينها صفحة من البردى وقطعا من القباطى ، وقد ظهر البلى فيها والكتابة لا تزال ظاهرة عليها . ورأينا قطعا من الفخار عليها كتابة عربية أيضا ، وتلك المخطوطات لا يتجاوز تاريخها آخــر القرن الاول للهجرة . وكلها معروضة فى معرض دار الكتب المصرية (*)

فلما كانت أيام الدولة العباسية اتخذوا الكاغد ، والذى أشار به الفضل بن يحيى البرمكى فاصطنعوه . والارجح انهم أخذوه عن صناعة الصين، لان الصينيين برعوا فى صناعة الورق قبل الميلاد، وكانت هذه الصناعة منتشرة فى بلادهم . فلما فتح المسلمون سمرقند أخذوها عنهم ، لكنهم لم يجتهدوا فى تعاطيها الا فى أبان الدولة العباسية ، اذ ضاقت الرقوق والجلود عن المكاتبات والمراسلات والسجلات ، فأشار الفضل باصطناعه فأنشأوا له المصانع فى بغداد والشام وغيرهما من عواصم الاسلام

وعن العرب أخذ العالم صــــناعة الورق ، لان أهــل أوربا لمــا افاقوا من سباتهم فى الاجيــال الوسطى استخــدموا الــكاغد الشامى وكان اسمــه عنــدهم Charta Damascena ، وانتقلت صناعة الورق الى أوربا بطــريق الاندلس ، فقد كان للعرب مصانع لصناعة الورق فى شاطبة وبلنسية وطليطلة .

(*) الاشارة هنا الى مجموعات الوثائق البردية العربية واليونانية المحفوظة بدار الــكتب المصرية ، وقد نشر الكثير من هذه الوثائق المستشرق أدولف جروهمان ، ونشرت مسز جرترود بل ترجمة انجليزية لعدد كبير من الوثائق الاغريقية . وكلها ترجع الى القرون الهجرية الثلاثة الاولى

Marfat.com

فلما دخلت الاندلس فى حوزة الافرنج استبقوا تلك المصانع ، ثم نقلت من أسبانيا الى سائر ممالك أوربا . ومن أقدم المخطوطات العربية على الكاغد نسخة من كتاب « غريب الحديث » فى مكتبة ليدن الجامعة يظن انها كتبت فى أوائل القرن الثالث للهجرة ، وكتاب « ديوان الادب » فى مكتبة المتحف البريطانى كتب فى أوائل القرن الرابع (*)

الحجابة

يراد بالحاجب فى دول الاسلام مايراد بالتشريفاتى فى هذه الايام ، وهو الذى يتولى الاذن للناس فى الدخول على الملك أو السلطان او الامير ، ولابد منه فى الدولة حفظا لهيبة الملك . وكلما أعرقت الدولة فى المدنية واستغرقت فى الترف تكاثف الحجاب بين ملكها ورعاياه ، فكان الخلفاء الراشدون يفتحون أبواب مجالسهم لاى من كان ، ويخاطبون الفقير والغنى والصعلوك والقوى بلاحجاب ولا كلفة

فلما تحولت الخلافة الى الملك كان فى جملة ما أدخلوه على الدولة التدقيق فى الحجاب ، وترتيب الناس فى الدخول على الخلفاء بحسب طبقاتهم وانسابهم . وأول من انتبه لذلك معاوية بن أبى سفيان ، نبهه اليه زياد بن أبيه . فكانوا يفضلون فى الدخول أهل البيوتات، أى أهل النسب ، فاذا تساوت الانساب فضلوا أهل السن ، فاذا تساوت فضلوا أهل الادب والعلم . لكنهم كانوا يبيحون الدخول لاربعة فى أى وقت شاءوا وهم : المؤذن ، وطارق الليل ، ورسول الثغر ، وصاحب الطعام . ومن هذا القبيل قول زياد لحاجبه :« وليتك حجابتى وعزلتك عن أربعة : هذا المنادى الى الله فى الصلاة والفلاح لاتفرجنه عنى فلا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لاتحجبه فشر ماجاء به ولو كان خيرا ماجاء به فى تلك الساعة ، ورسول الثغر فان أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فأدخله على وان كنت فى لحافى ، وصاحب الطعام فان الطعام اذا أعيد تسخينه فسد » (**)

فلما جاءت دولة بنى العباس وصارت الى ماهو معروف من العز والترف، زادوا فى منع الناس عن ملاقاة الخليفة الا فى الامور الهامة ، وهذا ما يسميه ابن خلدون بالحجاب الثانى . وصار بين الناس والخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل فئة فى مكان على مايراه الحجاب . وتطرقوا عند انحطاط الدولة الى حجاب ثالث أحصن من الاولين ، ولا يكون هذا الا عند الحجر على صاحب الدولة . وذلك ان اهل الدولة كانوا اذا نصبوا الابناء من

(*) Ph. K. Hitti, History of the Arabs (London, 1949) p. 414-415

(**) وتروى أيضا : « قد وليتك حجابة بابى الا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فانه داعى الله ، وصاحب البريد فأمر ماجاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد »
ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٢٦

الاعقاب وأرادوا الاستبداد عليهم ، فأول ما يتوخونه حجب البطانة وسائر الاولياء عنهم ، ويوهمونهم ان فى مباشرتهم خرق حجاب الهيبة وفساد قانون الادب ، كما حدث فى آخر أيام العباسية ، ولا يكون ذلك الا فى أواخر الدولة

النقابة

النقابة، ونعنى نقابة الاشراف، سموها بذلك اشارة الى انها تتعلق بأشراف المسلمين وهم أهل بيت رسول الله . وذلك انهم كانوا يجلون حرمة أهل البيت فكانوا يجعلون منهم رئيسا يتولى أمورهم ويضبط انسابهم ويدون مواليدهم ووفياتهم ، وينزههم عن المكاسب الدنيئة ويمنعهم من ارتكاب المآثم ويطالب بحقوقهم ويدعوهم الى أداء الحقوق ، وينوب عنهم فى المطالبة بحقوقهم فى سهم ذوى القربى من الفىء والغنيمة ، ويقسمه بينهم ويمنع الأيامى منهم أن يتزوجن الا من الاكفاء وغير ذلك مما يشبه الوصاية العامة ، وكان نقيب الاشراف وصيهم

وكانت نقابة الاشراف من المناصب السامية ، ولها الشأن الاول من الشرف بعد الخلافة ـ ولذلك قال الشريف الرضى نقيب الاشراف يخاطب الخليفة القادر بالله العباسى من قصيدة :

عطفا أمير المؤمنين فاننا فى دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبدا كلانا فى المعالى معرق
الا الخلافة ميزتك فاننى أنا عاطل منها وأنت مطوق

وكان الخلفاء يكتبون لنقباء الاشراف عهودا وتقاليد تدل على جلالة قدرهم ورفعة منزلتهم، وكانوا كثيرا مايعهدون اليهم بسقاية الحاج وديوان المظالم من الخطط السامية ، وما زالت الدول الاسلامية تحترم نقابة الاشراف فى كل أدوار تاريخها حتى الدولة العثمانية ، وكان نقيب الاشراف فى أيام العثمانيين يقدم فى التشريفات الرسمية على سائر رجال الدولة العلية حتى الصدر الاعظم وشيخ الاسلام

مشيخة الطرق الصوفية

مشيخة الطرق الصوفية من المناصب الدينية التى حدثت بعد حدوث الصوفية ، ولصاحبها التكلم عن جميع الطرق الصوفية . والشأن فى هذه الطرق ان لكل طريقة شيخا ، ولكل شيخ خلفاء فى القرى والامصار ، ولكل خليفة مريدين . فالشيخ يدير أمر الخلفاء ، والخليفة يدير أمر المريدين من حيث ارشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتربيتهم ونحو ذلك . ولشيخ المشايخ الولاية العامة على الجميع . ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها أعمالهم وتتوحد بها مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة او زاوية مستقلة بنفسها، فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن. فلما انشأ السلطان

Marfat.com

صلاح الدين الايوبى خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية ، جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ . وكان لايولى عليها الا اعاظم رجال الدولة من الاكابر والاعيان ، كأولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه ، مع ماكان لهم من الوزارة والامارة وتدبير الدولة وقيادة الجيوش . ووليها ذو الرياستين الوزير الصاحب تقى الدين عبد الرحمن بن بنت الاعز وغيره . وما زالت الحال كذلك الى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر فى القرن التاسع للهجرة ،فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكرى ، وكان من أعظم رجال عصره علما ودينا ، قال الشعرانى عنه : « ولو قلت انه أعلم أهل زمانه لم ابعد عن الصواب » . ثم تولاها بعده ابنه الامام شيخ الاسلام المفسر الشهير أبو السرور البكرى ، وانتقلت بعده الى ذريته ولاتزال الى الآن فى البيت البكرى الصديقى بمصر

Marfat.com

فهرس

	صفحة
تقديم	٥
مقدمة الطبعة الاولى	١٢
مقدمة الطبعة الثانية	١٧
مقدمات تمهيدية	١٩
العرب والتمدن	٢٢
عرب اليمن	٢٥
الحجاز فى العصر الجاهلى	٣٢
حكومة العرب الجاهلية	٣٦
الكعبة والتجارة وقريش	٣٦
النهضة العربية قبل الاسلام	٤٠
سبب تلك النهضة	٤٠
الدولة الاسلامية : كيف نشأت	٤٣
الدعوة الاسلامية	٤٣
الروم والفرس عند ظهور الاسلام	٤٩
انتشار الاسلام	٥٧
الفتوح	٦٠
الخلفاء الراشدون	٦٦
الفتوح فى صدر الاسلام	٧٠
ما الذى جرأ العرب على الفتح ؟	٧٠
ما الذى ساعدهم على الفتح ؟	٧٣
عود الى الخلفاء الراشدين	٨٣
الفتنة	٨٣
أحوال الخلفاء الراشدين	٨٦
دولة بنى أمية	٨٨
الخلافة وبنو أمية	٨٨
خلفاء بنى أمية	٩١
بنو العباس	٩٤
الدولة العباسية	٩٤
الدولة الاموية فى الاندلس	٩٨
الدولة الفاطمية	١٠٢
سائر الدول الاسلامية فى أنحاء العالم	١٠٦
الدولة الاسلامية : سعتها وأعمالها	١١٢
احصاؤها	١١٦
مقدار العمارة	١١٧
مناصب الدولة الاسلامية	١٢٢
نمو الدولة الاسلامية	١٢٢
تشعب المناصب	١٢٥
الخلافة	١٢٧
مبايعة الخلفاء	١٣٠
بيعة ولى العهد	١٣٤
علامات الخلافة	١٣٦
البردة	١٣٦
الخاتم	١٣٦
شارات الخلافة	١٤٠
الخطبة	١٤٠
السكة والنقود	١٤٠
الطراز	١٤٦
ولاية الاعمال	١٥٠
الولايات قبل الاسلام	١٥٠
الولايات فى الاسلام	١٥١
الامارة العامة	١٥٣
الامارة الخاصة	١٥٦
رواتب العمال	١٥٦

	صفحة
الوزارة وما يتبعها	١٥٨
أمير الامراء	١٦٠
وزارة التفويض	١٦١
وزارة التنفيذ	١٦٢
السلطان	١٦٣
الجند وتوابعه	١٦٦
جند الروم	١٦٦
جند الرومان	١٦٧
جند العرب	١٦٨
تنظيم جند العرب	١٧٠
جند الاعاجم فى الاسلام	١٧١
ديوان الجند	١٧٩
أعطيات الجند	١٨٠
عدد الجند	١٨٣
اللواء أو الراية	١٨٨
الموسيقى	١٩٢
السلاح	١٩٢
آلات الحصار	١٩٦
النار اليونانية	٢٠٠
اختراع البارود	٢٠١
المدافع	٢٠٣
تعبئة الجيوش	٢٠٣
الثغور والعواصم	٢١٠
الغزوات	٢١٢
الاساطيل	٢١٣
بيت المال	٢٢١
الصدقة	٢٢٢
الغنيمة	٢٢٤
الفىء	٢٢٦
الجزية وتاريخها	٢٢٧
مقدار الجزية	٢٢٨
الخراج وتاريخه	٢٣٠
ضرائب أخرى	٢٣٥
الاقطاع	٢٣٦
البريد	٢٣٩
طرق البريد	٢٤١
حمام الزاجل	٢٤١
طرق أخرى للمخابرة	٢٤٢
القضاء	٢٤٤
القضاء فى الاسلام	٢٤٤
عمل القاضى	٢٤٦
راتب القاضى	٢٤٨
ديوان المظالم	٢٤٩
دار العدل	٢٥٠
الحسبة	٢٥١
الشرطة	٢٥٢
ديوان الانشاء	٢٥٣
الكتابة	٢٥٣
التوقيع	٢٥٤
أدوات الكتابة	٢٥٩
الحجابة	٢٦٠
النقابة	٢٦١
مشيخة الطرق الصوفية	٢٦١